الطبعة الرابعة

وشهد شاهدٌ من أهلها !!

دكتور
راغب السرجاني



وشهد شاهدٌ من أهلها !!

دكتور
راغب السرجاني



العنوان:

وشهد شاهد من أهلها!!

تأليف:

دكتور / راغب السرجاني

إشراف عام:

داليا محمد إبراهيم

الترقيم الدولي: 9-1876-14-977

رقم الإيداع: 2965 / 2008

الطبعة الرابعة: يناير 2013



أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938

تليفون: 33466434 - 33472864 02

فاكس: 33462576 02

خدمة العملاء: 16766

Website: www.nahdetmisr.com

E-mail: publishing@nahdetmisr.com

21 شارع أحمد عرابي - المهندسين - الجيزة

مقدمة

إنَّ الحمد لله، نحمده ونستعين به ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيِّئات أعمالنا، إنه مَن يَهْدِه الله فلا مضلَّ له، ومن يُضلل الله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله.

أمَّا بعد..

فكثيرًا ما يشهد أهل الحقِّ لحقِّهم، وكثيرًا ما يُدافع أصحاب العقيدة عن عقيدتهم، ولكن قد يقول قائل: إن شهادات هؤلاء مجروحة؛ بمعنى أنهم يشهدون لأمرٍ ينتمون إليه، ويعتزُّون به، لكنْ أن يشهد إنسان من فريق آخر لا ينتمي لهذا الأمرِ بصحة هذا الحقِّ وقُوَّتِه، ويعترف بعظمته وجلاله، فهذا من أوثق الأدلَّة وأقواها على روعة الأمر وإبهاره؛ لذلك قال الله (عز وجل) وهو يصف شهادة رجل من رجال القصر الملكي، وهو يشهد على امرأة العزيز في قصة يوسف (عليه السلام): ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾[1]، فكَوْن الشاهد من أهلها جعل الشهادة أبلغ، والدليل أقوى.

والإسلام شهد له كلُّ أتباعه بالخير واليمن والبركة، لكن كثيرًا ما يتشكَّك غير المسلمين في هذه الشهادات، ويقولون: إنهم شهدوا بذلك محاباة لدينهم، وحُبًّا لرسولهم (ﷺ)، أو إنهم شهدوا بذلك لأنهم لا يعرفون غيره، ولو عرفوا الديانات الأخرى لكانت شهادتهم لها أعظم.

إنها حجة تُقال عن جهل أحيانًا، وعن عمد أحيانًا أخرى، وقد تطرد هذه الحجة بعض البشر عن الإسلام، وقد تُبَغِّضهم في رسول الله (ﷺ)، ومن هنا كان على المسلمين الغيورين على دينهم أن يتحرَّكوا بالشرح والبيان، وبالحجة والبرهان، وبكل وسيلة ممكنة؛ حتى لا تكون فتنة، ويكون الدين لله.

ومن أبلغ هذه الوسائل وأعظمها أن نَذْكُرَ للذين لا يعرفون ديننا، أو حضارتنا، أو رسولنا (ﷺ) رأي المنصفين من العلماء من أبناء جلدتهم، ومن أقوامهم، ومن الذين لا ينتمون لهذا الدين، ولا يرتبطون بعقيدته، وخاصة إن كانوا من المشهورين عندهم، ومن المأمونين في شهادتهم، ومن الموثوق فيهم علميًّا، فإن شهادة هؤلاء تُصبح في غاية التأثير، وقد يفتح بها الله (عز وجل) قلوب الكثير من عباده.

---

(1) (يوسف: 26).

والمسلمون قد يَقِفُون من هذه الشهادات المهمة على طرفي نقيض! فمنهم من يُنكرها، ويأنف من ذِكْرِهَا، ويعتبر ذلك من الاعتزاز بدينه، فهو - في رأيه - لا يحتاج إلى آراء هؤلاء، وقد يقول: إنه ليس فيهم خير، بدليل أنهم لم يؤمنوا حتى بعد اطلاعهم على خير الإسلام وفضله.

ولهؤلاء نقول: إن مبدأ التعميم خطير للغاية، وقد علَّمنا ربنا (سبحانه وتعالى) ألا نأخذ به في طريقة تفكيرنا؛ فقال لنا مثلاً: ﴿لَيْسُواْ سَوَآءً﴾[1]. فهو يذكر أن أهل الكتاب ليسوا على شاكلة واحدة؛ فمنهم الصادق، ومنهم الكاذب، ومنهم الأمين، ومنهم الخائن، بل إنه ذَكَرَ مثالاً يُقرِّب به الصورة إلى أذهاننا؛ فقال (عز وجل): ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾[2]. فالآية تنصُّ على أن أخلاقهم مختلفة؛ فهناك شديد الأمانة، وهناك بعيد الخسَّة، وبينهما آلاف الدرجات؛ لذلك لا يصلح أن نأخذ الناس جميعًا جملة واحدة، ولا أن نعاقب واحدًا بجريمة آخرين.. قال (سبحانه وتعالى): ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[3]. وقال (عز وجل): ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[4].

وكان هذا سلوك رسول الله (ﷺ) في حياته، ومنهجه في تعامله مع غير المسلمين، فهو - على سبيل المثال - لم يأخذ المُطْعِم بن عدي الكافر بجريرة قومه، فيُعلنها صريحة أنه لو كان المُطْعِم بن عدي حيًّا لوهبه أسارى بَدْر من المشركين[5]، مع أهمية هؤلاء الأسارى وخطورتهم؛ لأن المُطْعِم بن عدي كان هو الذي أجار النبي (ﷺ) لما عاد من الطائف، كما كان له دور بارز في رفع الحصار وتمزيق صحيفة المقاطعة، بل إنه - أيضًا - يأمر أصحابه ألا يقتلوا أبا البختري بن هشام إذا قابلوه في بَدْر[6]؛ لأنه وقف موقفًا منصفًا من المسلمين أثناء حصارهم في شِعب أبي طالب[7]، وهو كذلك يمدح النجاشي ملك الحبشة؛ فيُقرِّر

(1) (آل عمران: 113).

(2) (آل عمران: 75).

(3) (الأنعام: 164)، (الإسراء: 15)، (فاطر: 18)، (الزمر: 7).

(4) (المدثر: 38).

(5) عن جبير بن مطعم (رضي الله عنه) أن رسول الله (ﷺ) قال في أسارى بدر: «**لَوْ كَانَ الْمُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ حَيًّا ثُمَّ كَلَّمَنِي فِي هَؤُلَاءِ النَّتْنَى لَتَرَكْتُهُمْ لَهُ**». البخاري: كتاب الخمس، باب ما مَنَّ النبي (ﷺ) على الأسارى من غير أن يُخمَّس (2970)، وأبو داود (2689)، وأحمد (16779).

(6) عن عبد الله بن عباس، أن رسول الله (ﷺ) قال يوم بدر: «**... وَمَنْ لَقِيَ أَبَا الْبَخْتَرِيِّ بْنَ هِشَامٍ فَلَا يَقْتُلْهُ...**». البيهقي: دلائل النبوة (1001)، وابن هشام: السيرة النبوية 629/1، 630، وابن كثير: السيرة النبوية 435/2، 436.

(7) للمزيد عن المواقف المنصفة أثناء حصار شعب أبي طالب راجع: ابن هشام: السيرة النبوية 374/1 - 381، وابن كثير: السيرة النبوية 44/2-69، والطبري: تاريخ الأمم والملوك 552/1 وما بعدها.

أنه ملك لا يُظلم عنده أحد[1]. على الرغم من أنه لم يكن قد أسلم آنذاك، ولم يُعَلِّق رسول الله (ﷺ) في ذلك الوقت على عقيدته، ولم يُشِرْ إلى أن اعتقاده في المسيح (عليه السلام) سليم، إنما أشار إلى أخلاقه العادلة بصرف النظر عن صحَّة عقيدته أو فسادها.

إنه منهج نبوي كريم يتعامل مع كل إنسان بحسب أخلاقه وطبيعته..

فمن هنا فنحن نرفض منهج التعميم الذي يسلكه كثير من المسلمين، فيُعلنون في جفاء أن كل الأوربيين مجرمون، وأنهم جميعًا معادون لنا، كارهون لعقيدتنا! ولرسولنا (ﷺ)، وسوف نرى في هذا الكتاب من الشهادات المنصفة ما قد يعجز عن القيام بها بعض المسلمين!

أما الطرف الآخر - الذي نرفضه كذلك - فهو الذي يجمع كل شهادة غربية وقعت عيناه عليها، دون تدقيق ولا تمحيص، فينسبها إلى قائلها، ويتحرَّك بها في كل مكان دون أن يدري أن هذه الشهادة غير مُوَثَّقة، ولا أصل لها، وكم يتعرَّض بعض المسلمين - خاصة في البلاد الغربية - لمواقف صعبة ومحرجة عندما يذكرون شهادة لعالِم غربي، فيطلب المستمع دليلاً على هذا القول، ومصدرًا لشهادته، فلا يجد المسلم شيئًا! فيظهر بمظهر المدلِّس الكذَّاب، فيزداد الغربيون بذلك نفورًا وإعراضًا، ونكون قد ألحقنا الضرر بمَنْ كُنَّا نبحث عن إفادته!

ومن هنا فقد سلكنا في هذا الكتاب مسلكًا متوازنًا، يضعنا في منتصف الطريق بين هذين النقيضين؛ فقد جمعنا الكثير والكثير من شهادات المنصفين، ولكننا لم نُثبت في الكتاب إلا ما تيقَّنَّا من صحَّة نسبته إلى قائله، وكنا نبتعد قدر الإمكان عن المصادر الوسيطة التي لا نتأكَّد من صحَّتها؛ إلا إذا كان صاحبها من الشخصيات العلمية الحريصة على التوثيق.

ولقد قمنا - أحيانًا في هذا الكتاب - بالنقل عن بعض المتحاملين على الإسلام، والذين ذكروه كثيرًا بما ليس فيه، لكنهم في مواطن أخرى لم يستطيعوا أن يتجاهلوا مظاهر العظمة والرُّقِيِّ، فكانت شهادتهم حُجَّة بالغة على أنفسهم وعلى أقوامهم.

وقد آثرنا أن نضع المؤرخين من كل دولة في فصل مستقلٍّ؛ حتى يسهل علينا الاطلاع على المدرسة التي تعلَّمُوا فيها، والمنهج الذي انتهجوه، كما أشرنا إلى المصادر التي رجعوا إليها، والمكتبات التي حوت المخطوطات التي اعتمدوا عليها في نقد حضارتنا وديننا.

ولم نغفل في كتابنا ذِكْرَ سيرة مختصرة لهؤلاء المنصفين؛ لِنَعْلَمَ مكانتهم العلمية، وقدرهم الأدبي، وإسهاماتهم المختلفة؛ سواء في المجالات الإسلامية، أو في المجالات العلمية بشكل عامٍّ، وهذا يعطينا انطباعًا عن كل شخصية مما يساعد في استيعاب ما شهدوا به.

(1) عن أم سلمة أن رسول الله (ﷺ) قال: «**إِنَّ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ مَلِكًا لا يُظْلَمُ عِنْدَهُ أَحَدٌ**». البيهقي: السنن الكبرى (18190)، وابن هشام: السيرة النبوية 322/1، 323، وقال الألباني: صحيح. انظر: السلسلة الصحيحة (3190).

وقــد آثرنا - إتمامًا للفائدة - أن نذكر ما قيل في حقِّ رســولنا (ﷺ) في كتب الأوَّلِينَ: فهــي على مــا اعتراها من تحريفٍ إلا أننا نجد فيها إشــارات مهمة لنبوته (ﷺ)، وعلامات واضحة على صدقه، كما أوردنا شهادات غير المسلمين، من الذين عاصروا رسول الله (ﷺ)، وشهدوا له بالعلم وحُسن الخُلق، سواء كانوا من المشركين أم من اليهود أم من النصارى.

وبعــد.. فإننا لا نَدَّعي أننا قمنا بإحصاء كل الشــهادات المنصفــة التي قيلت في حقِّ الإســلام وحضارته، أو في حقِّ رســول الله (ﷺ)، ولكننا ضربنا بعــض الأمثلة فقط، وعلى الباحثين والدارسين أن يُفَرِّغوا أوقاتًا أطول، وأن يبذلوا جُهْدًا أكبر؛ حتى نجمع هذه الشهادات في موسوعة شاملة تُصبح حُجَّة على العالمين، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

ونسأل الله أن يُعِزَّ الإسلام والمسلمين..

أ. د. راغب السرجاني

(1) (يوسف: 21).

الباب الأول

شهادات الأولين

لا يخلو زمن من قائم لله بالحُجَّة.. كان ذلك في القديم، وهو كذلك في الحديث.. وإلى أن تقوم القيامة، يقوم القائمون بالحجة لله تبارك وتعالى.

لقد قال الله (سبحانه وتعالى) في كتابه الخالد:

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾(1)

وإن مــن مقتضيات خلود هذا الكتاب أن تظلَّ كلمــة ﴿ سَنُرِيهِمْ ﴾ قائمة دائمة، تُمَثِّل الحالــة المتجدِّدة من الآيــات التي تُبَيِّن للناس أين يكون الحق.. وبتراكم الأيام تتراكم الآيات وتتجدَّد.

في هذا الباب نستعرض آيات قامت حُجَّة على الأولين:

- الفصل الأول: شهادات الكتب السابقة.
- الفصل الثاني: شهادات مَنْ عاصروا النبي (ﷺ).

---

(1) (فصلت: 53).

الفصل الأول

شهادات الكتب السابقة

«أَنَا دَعْوَةُ إِبْرَاهِيم.. وَكَانَ آخِرُ مَنْ بَشَّرَ بِي عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ»[1].

محمد (ﷺ)

- بشارات النبي (ﷺ) في التوراة.
- بشارات النبي (ﷺ) في الإنجيل.
- بشارات النبي (ﷺ) في كتب الديانات الهندية القديمة.

(1) صحح الألباني في صحيح وضعيف الجامع برقم (2343).

بشارات النبي (ﷺ) في التوراة:

أدلَّة وبراهين وبشـــارات كثيرة تلك التي تَضَمَّنَتْهَـــا كُتب التوراة الموجودة الآن بين يدي أتباعها؛ بما يُؤكِّد صدق النبي محمد (ﷺ) في دعواه ورسالته، وأنه خاتم المرسلين والمبعوثُ رحمةً للعالمين؛ ممَّا يُقيم الحُجَّة على أهل هذه الكتب، ويُثَبِّتُ إيمان المؤمنين.

ولقد أراد اليهود بكل عزمهم وقُوَّتهم وجهدهم أن يطمسوا النور الذي بين أيديهم، فحرَّفوا وبدَّلوا في كتاب الله التوراة، وكان من جملة ما طمســوا حقيقته وشَــوَّهُوا صورته البشــاراتُ الإلهية بقدوم خاتم الأنبياء محمد (ﷺ)؛ وذلك لعدم إيمانهم بقُدْرَة أَيَّة أُمَّة غيرهم على النهضة العالمية المرجُوَّة لطريق الله القويم، ولَمَّا كان النبي الخاتم من وَلَدِ إسماعيل (عليه السلام)، وليس من ولد إسحاق (عليه السلام) كما اعتادوا؛ فقد زادهم ذلك حقدًا فوق حقدهم، فعملوا بكل ما أُوتُوا من قُوَّة على تشويه حقيقة النبي الخاتم محمد (ﷺ)، والدين الحقِّ الإسلام.

– قوله في الفصل التاســع من الســفر الأول من التوراة: «إن هاجر لما فارقت ســارة وخاطبهـــا الملك فقال: يا هاجر، من أين أقبلتِ؟ وإلى أين تُريدين؟ فلمَّا شـــرحتْ له الحال، قال: ارجعي، فإني سأُكَثِّر ذُرِّيَّتِك وزرعك حتى لا يُحْصَوْن، وها أنت تحبلين وتلدين ابنًا اسمه إسماعيل؛ لأن الله قد سمع ذُلَّك وخضوعك، وولدك يكون وحش الناس، يده فوق يد الجميع، ويد الكل به، ويكون مســكنه على تخوم جميع إخوته»[1]. يقول ابن القيم: «... ومعلوم أن يد بني إســماعيل قبل مبعث محمد (ﷺ) لم تكن فوق أيدي بني إســحاق؛ بل كان في أيدي بني إســحاق النبوة والكتاب، وقد دخلوا مصر زمن يوســف مع يعقوب، فلم يكن لبني إســماعيل فوقهم يدٌ، ثم خرجوا منها لَمَّا بُعِثَ موســى، وكانوا مع موســى من أعزِّ أهل الأرض، ولم يكن لأحد عليهم يدٌ؛ ولذلك كانوا مع يوشع إلى زمن داود ومُلْكِ سليمان، المُلْك الذي لم يُؤْتَ أحدٌ مثله، فلم تكن يد بني إســماعيل عليهم، ثم بعث الله المسيح فكفروا به وكَذَّبُوه، فدمَّر عليهم تكذيبُهم إيَّاه، وزَالَ ملكهم، ولم تَقُمْ لهم بعده قائمة، وقَطَّعَهُم الله في الأرض أُممًا، وكانوا تحت حُكْمِ الروم والفرس، وغيرهم، ولم تكن يَدُ وَلَدِ إسماعيل عليهم في هذا الحال، ولا كانت فوق يَدِ الجميع إلى أن بعث الله محمدًا (ﷺ) برسالته، وأكرمه الله بنُبُوَّته، فصارت بمبعثه يَدُ بني إســماعيل فوق الجميع، فلم يَبْقَ في الأرض ســلطان أعزَّ من سلطانهم؛ بحيث قهروا سلطان فارس والروم والتُّرك والدَّيْلَم، وقهروا اليهود والنصارى والمجوس والصابئة وعُبَّاد الأصنام؛ فظهر بذلك تأويل قوله في التوراة: «ويكون يده فوق يد الجميع ويد الكل». وهذا أمر مستمرٌّ إلـــى آخر الدهر. قالت اليهود: نحن لا نُنْكِر هذا؛ ولكنْ إنَّ هذه بشـــارة بمُلكه وظهوره وقهره

(1) ســفر التكويــن: الإصحاح 16: 12، نقلاً عن ابن قيم الجوزية: هداية الحيــارى ص147، مع الملاحظة أن هذه الترجمة هي ما كانت في عهد ابن القيم، أما النص الموجود الآن فهو: **«وإنه يكون إنسانًا وحشيًا، يده على كل واحد، ويد كل واحد عليه وأمام جميع إخوته يسكن...»**.

لا برســالته ونُبُوَّته. قال المسلمون: المُلك ملكان: ملك ليس معه نُبُوَّة بل ملك جبار مُتَسَلِّط، وملك نفســه نبوة؛ والبشارة لم تقع بالملك الأول، ولا سيَّمَا إن ادَّعَى صاحبه النُّبُوَّة والرسالة وهو كاذب مفترٍ على الله: فهو من شَرِّ الخَلْقِ وأفجرهم وأكفرهم، فهذا لا تقع البشارة بمُلْكِه، وإنما يقع التحذير من فتنته، كما وقع التحذير من فتنة الدجال، بل هذا شــرٌّ من ســنحاريب وبُخْتُنَصَّر[1]، والملوك الظلمة الفجرة الذين يَكْذِبون على الله. فالأخبار لا تكون بشــارة، ولا تفرح به هاجر وإبراهيم، ولا بَشَّــرَ أَحَدٌ بذلك، ولا يكــون ذلك إثابة لها من خضوعها وذُلِّها، وأن الله قد سمع ذلك ويعظِّم هذا المولود ويجعله لأُمَّة عظيمة، وهذا عند الجاحدين بمنزلة أن يقال: إنكِ ســتلدين جبَّارًا ظالمًا طاغيًا يقهر الناس بالباطل، ويقتل أولياء الله، ويســبي حريمهــم، ويأخذ أموالهم بالباطل، ويُبَدِّل أديــان الأنبياء، ويكذب على الله. ونحو ذلك، فمَنْ حَمَل هذه البشارة على هذا، فهو مِنْ أعظم الخَلْقِ بهتانًا وفرية على الله؛ وليس هذا بمُسْتَنْكَر لأُمَّة الغضب، وَقَتَلَة الأنبياء، وقوم البهت»[2].

ورغم هذه التشــويهات المتعاقبة عبر العصور المتلاحقة في التوراة، فقد بَقِيَتْ هناك بعض النصوص التي تُدَلِّل بوضوح على وجود النبي الخاتم الذي بَشَّــرَ به موسى (عليه السلام)، بل وأراد أن يكون من أُمَّتِه!

يقول ابن تيمية: «قد رأيتُ أنا من نُسخ الزبور ما فيه تصريح بنُبُوَّة محمد (ﷺ) باسمه، ورأيتُ نسخة أخرى بالزبور فلم أَرَ ذلك فيها، وحينئذٍ فلا يمتنع أن يكون في بعض النسخ من صفات النبي (ﷺ) ما ليس في أخرى»[3].

وإذا أردنا بعضًا من هذه التصريحات أو البشــارات، فإنه عندما ســقطت بابل في يَدِ مَلِكِ الفرس عام (538 ق. م)، ســمح لليهود بالعودة إلى فلســطين - بعد أن أسرهم الزعيم الكلداني الشــهير بُخْتُنَصَّر - كما سُــمِحَ لهم بإعادة بناء القــدس والهيكل، وعندما وُضعت الأساســات لبناء المعبد الجديد ارتفعت صيحات الفرح بين اليهود، وفي أثناء هذه المناسبة بعث الله النبي (حجّي)، الذي قال لهم في هذه المناســبة: «**وســوف أُزلزل كل الأمم، وســوف يأتــي (حِمْده) لكل الأمم، وســوف أملأ هذا البيت بالمجد، كذلك قــال رب الجنود، لي الفضة ولــي الذهــب، هكذا قال رب الجنود، وإن مجد ذلــك البيت الأخير يكون أعظم من مجد الأول، هكذا قال رب الجنود، وفي هذا المكان أُعطي (شالوم)، هكذا قال رب الجنود**»[4].

(1) بُخْتُنَصَّر: هو الذي كان خَرَّب بيت المقدس، وقيل: إنما هو بُوخَتُنَصَّر، فأُعرب؛ وبُوخَتُ ابنٌ، ونَصَّرُ صنم، وكان وُجد عند الصَّنَم، ولم يُعرف له أَب، فقيل: هو ابن الصنم. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة نصر 210/5.

(2) ابن قيم الجوزية: هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ص148، 149.

(3) ابن تيمية: الجواب الصحيح 50/3، 51.

(4) سفر حجي: الإصحاح 9: 7-9.

لقد أعطى المعلِّقُون اليهود والنصارى أهمية قصوى للوعد المزدوج الذي احتوته النبوءة المذكورة آنفًا، وكلاهما يفهمان كلمة (حِمْده) على أنها نبوءة يهودية مسيحية، فلو فُسِّرَت هذه النبوءة بالمعنى المجرَّد لكلمتي (حِمْده) و(شالوم) على أنهما (الأمنية) و(السلام): لأصبحت النبوءة لا شـيء سـوى أمنيات مبهمة غير ذات مغزًى، ولكن لو فهمنا من كلمة (حِمْده) أنها شخصية حقيقية، ومن كلمة (شالوم) أنها ديانة مُنزَّلة، وقوَّة فَعَّالة، عندئذٍ تُصبح هذه النبوءة صادقة ومتحقِّقَة في شخصية أحمد ودين الإسلام؛ ذلك لأن كلمتي (حِمْده) و(شالوم) تؤديان بدقَّة معنى كلمتي (أحمد) و(الإسلام)[1].

وقد أكَّد عبد الأحد دَاود[2] على أن أصول كلمة (حِمْده) و(شالوم) تُدَلِّلان بوضوح على بشارة التوراة بمحمد (ﷺ) وبدين الإسلام؛ فكلمة (حِمْده) تُقرأ في النصِّ الأصلي: «في يافو حِمْـده كُول هاجوييم». وهي تعني حرفيًّا: «وسـوف يأتي حِمْده لكل الأمم». والكلمة مأخوذة من اللغة العبرية القديمة أو الآرمية، وأصلها (حِمْدْ) وتُلفظ بدون التسكين (حِمِد). ممَّا يعني في العبرية (الأمنية الكبيرة)، أو (المشـتهى)، أو ما يتوق إليه المرء، ونجد في اللغة العربية أن الفعل (حَمِدَ) من جذر الكلمة نفسها (ح م د) بمعنى الإطراء والمديح.

– **ومن البشارات** – أيضًا – التي جاءت في التوراة ما جاء في سفر (أشعيا) في الإصحاح الثانـي والأربعين ما نصُّـه: «**لترفع البرية ومدنها صوتها، الديار التي سكنها قيدار**[3]؛ **لتترنَّم سكان سالع، من رءوس الجبال ليهتفوا؛ ليعطوا الرب مجدًا، ويُخبروا بتسبيحه في الجزائر**»[4].

وهذا النصُّ واضح في التبشـير بمحمد (ﷺ)؛ فقد أشـار إلى بلاد العرب وهي الديار التي سـكنها قيدار بن إسماعيل، وطلب منها أن تبتهج. والغريب أن النصَّ لم يَكْتَفِ بالإشارة إلى قيدار بن إسماعيل الذي هو جدُّ النبي محمد (ﷺ)[5]، بل إن النصَّ جاء بذِكْرِ دار هجرة رسـول الله (ﷺ) وهي المدينة المنورة، فقال: «**لتترنم سكان سالع**». وسالع هو (سَلْع) وهو جبل في باب المدينة، كما هو اسمه إلى الآن، وهو سالع بالعبرانية[6].

(1) عبد الأحد داود: محمد (ﷺ) كما ورد في كتاب اليهود والنصارى ص36، 37.

(2) عبد الأحد داود: هو القس دافيد بنجامين الكلداني، وُلِدَ عام (1867م)، وكان قسيسًا للروم من طائفة الكلدان، وبعد إسلامه تسمى بعبد الأحد داود، وألف كتاب (الإنجيل والصليب)، و(محمد في الكتاب المقدس). انظر نبذة من حياته في مقدمة كتابه: محمد (ﷺ) كما ورد في كتاب اليهود والنصارى ص5-8.

(3) قيدار هو ابن نبي الله إسماعيل (عليه السلام).

(4) سفر أشعياء: الإصحاح 42: 11.

(5) انظر: ابن قيم الجوزية: هداية الحيارى ص158.

(6) فاضل صالح السامرائي: نبوة محمد من الشك إلى اليقين ص253.

والنصُّ السابق يُلمح لنا عن طريق التأمُّل والاستقصاء لماذا استقرَّ اليهود في المدينة المنورة وما حولها. لقد كانوا على يقين بأن خاتم الأنبياء سيقطن المدينة، التي من أماراتها جبل (سالع) المذكور عندهم في التوراة كالبشارة السابقة. فتَمَنَّوا أن يكون منهم وفيهم، ومن المعلوم أنهم كثيرًا ما خَوَّفُوا الأوس والخزرج من النبي الخاتم الذي سيخرج من بين ظهرانيهم فيتخلص منهم، ومَنْ على شاكلتهم!

لقد كان اليهود في المدينة وما حولها يعلمون صفة النبي (ﷺ)، وقُرْبَ ظهوره، وهو ما يُؤَكِّدُه ابن سعد في طبقاته بسند مُتَّصِلٍ عن ابن عباس (رضي الله عنه) ما نصُّه: «قال: كانت يهود قريظة والنضير وفَدَك وخيبر يجدون صفة النبي (ﷺ) قبل أن يُبْعَث، وأن دار هجرته المدينة»[1]. وهذا الأمر دليل واضح من التوراة ومن الواقع التاريخي على البشارة بالرسول الخاتم محمد (ﷺ).

هذه بعض البشارات التي وردت في التوراة عن النبي محمد (ﷺ)، ولا يَتَّسِعُ المجال لعرض المزيد منها، والتي تدلُّ دلالةً واضحةً على صدق رسول الله فيما بَلَّغَ عن ربِّ العِزَّة (سبحانه وتعالى).

- ومن البشارات أيضًا: «جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من سعير وتلألأ من جبل فاران»[2].

ولكي نفهم هذه المعاني لا يسعنا إلا التدبُّر فيما جاء في القرآن الكريم من قوله (سبحانه وتعالى):

﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾[3].

ومن هذه الآية القرآنية نجد تطابُقًا كاملاً في الوسيلة والتعبير؛ إذ أقسم الله (سبحانه وتعالى) ببقاع مباركة عظيمة ظهر فيها الخير والبركة، فالتين والزيتون مجاز عن منابتهما بالأرض المباركة وفيها مهجر إبراهيم، ومولد عيسى ومسكنه عليهما السلام. وطور سنين الجبل الذي كلم الله عليه سيدنا موسى (عليه السلام)، والبلد الأمين مكة المكرمة التي وُلد فيها وبُعث منها أشرف الخَلْق، وهو سيدنا محمد (ﷺ)، وفيها البيت العظيم.

والتطابق بين الآية التي وردت في التوراة والآية القرآنية هو: سيناء مجاز عن الجبل الذي كلم الله عليه موسى (عليه السلام). وسعير مجاز عن الأرض المباركة التي وُلد فيها سيدنا

(1) محمد بن سعد: الطبقات الكبرى 104/1.
(2) سفر التثنية: الإصحاح 23: 3.
(3) (التين: 1-3).

عيسى (عليه السلام)، وسكن بها وجال فيها يصنع خيرًا للبشرية، وفازان مجاز عن الأرض التي سكن إليها جد الرسول الكريم سيدنا إسماعيل (عليه السلام).

والأمر الذي يسترعي الانتباه هو كيف نستدلُّ على أن فازان هي الأرض المباركة التي سكن فيها سيدنا إسماعيل جدُّ الرسول الكريم عليهما أفضل الصلاة والسلام.

والدليل على هذا من التوراة في سيرة سيدنا إبراهيم (عليه السلام) مع زوجتيه سارة وهاجر. لقد كانت هاجر جارية للسيدة سارة، وصارت زوجة لسيدنا إبراهيم (عليه السلام) لإنجاب نسلٍ له، وظَنَّت السيدة سارة زوجة سيدنا إبراهيم (عليه السلام) أن مهمة جاريتها السيدة هاجر هي إنجاب نسل مع بقائها جارية تُسَخِّرها السيدة سارة كيفما شاءت وأرادت.

وأنجبت السيدة هاجر ابنًا لإبراهيم (عليه السلام)، وكان هذا الابن قُرَّة عينيها وبهجة قلبها، لكن السيدة سارة أذَلَّتها، وازدادت السيدة سارة إذلالاً لها وتعنُّتًا، فاستجارت بزوجها إبراهيم (عليه السلام)، لكنه تركها لسيدتها سارة بقوله لها: «هو ذا جاريتك». فاشتدَّت بها إيلامًا وإيذاءً؛ حتى هربت ترجو النجاة ممَّا أَلَمَّ بها، فقابلها مَلاكَ الله في الطريق، فقال لها الملاك: ما لك يا هاجر؟ لا تخافي لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو، قومي احملي الغلام، وشدِّي يدك؛ لأني سأجعله أمة عظيمة. وفتح الله عينها، فأبصرت بئر ماء، فذهبت وملأت القربة ماءً، وسَقَتِ الغلام، وكان الله مع الغلام، فكبر وسكن في البرية، وكان ينمو رامي قوس، وسكن في برية فازان، وأخذت له أمه زوجة من أهل مصر.

فيتَّضح من التوراة إذن أن الذي سكن أرض فازان هو سيدنا إسماعيل (عليه السلام). ولعلَّ الله في حكمته سمح بهذه التيارات التي تفاعلت في بيت سيدنا إبراهيم (عليه السلام) ليستقر إسماعيل (عليه السلام) في أرض يتميَّز بها، وتأتي النبوءة على لسان موسى (عليه السلام) بقوله:

«تلألأ من جبل فازان»[1].

- ومن البشارات التي وردت في التوراة:

«لا يزول الصولجان من يهوذا أو التشريع من بين قدميه حتى يأتي شايلوه ويكون له خضوع الأمم»[2].

إن كلمة شايلوه في النص فريدة لا تتكرَّر في أي مكان آخر من العهد القديم، وحسبما أعلم فإن جميع تراجم العهد القديم قد احتفظت بكلمة (شايلوه) كما هي دون ترجمة أو شرح، عدا الترجمة السريانية المسماة البشيتا (Peshitta)؛ فقد ترجمت الكلمة إلى:

(1) إبراهيم خليل أحمد: محمد (صلى الله عليه وسلم) في التوراة والإنجيل والقرآن ص65-67.

(2) سفر التكوين: الإصحاح 49: 10.

(الشخص الذي يخصه): أي الشخص الذي يخصه الصولجان والتشريع، وبموجب هذه الترجمة، فإن معنى النبوة يُصبح واضحًا كما يلي:

«إن صفات السلطان والنبوة لن تنقطع من يهوذا (وسلالته) إلى أن يجيء الشخص الذي تخصه هذه الصفات ويكون له خضوع الأمم».

ويحتمل أن كلمة (شايلوه) مشتقة من الفعل (شله SHALAH)، وفي هذه الحالة فهي تعني المسالم الهادئ الموثوق، كما أن هذا الفعل يعني أيضًا: أَرْسِلْ وفَوِّضْ من اسم المصدر (شلوه SHALUH)، أي: المُرْسَل أو الرسول، وعندئذ فإن الكلمة تأخذ معنى (شيلواح SHILUAH)، وتكون مرادفة تمامًا لـ(رسول ياه APOSTLE OF YAH)، وهو نفس اللقب المعطى لمحمد (رسول الله) (ﷺ)، والمعروف أيضًا أن كلمة (شيلواح) هي - أيضًا - تعبير فَنِّيٌّ لكلمة (الطلاق)؛ ذلك لأن الزوجة المطلقة (تُرْسَل) بعيدًا، ولا أستطيع أن أجد تفسيرًا آخر لهذا اللقب المهم سوى هذه المعاني الثلاثة[1].

- **ومن البشارات - أيضًا -** أن الله (سبحانه وتعالى) قال لموسى (عليه السلام):

«أُقيم لهم نبيًا من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه، فيُكلمهم بكل ما أوصيه به»[2].

وهذه النصوص تدلُّهم على أن هذا النبي (ﷺ) ليس من بني إسرائيل، ولكنه من إخوة بني إسرائيل، وهم بنو إسماعيل؛ ولذلك كان الأحبار والرهبان (علماء اليهود والنصارى) يعرفون جيدًا أن هذا النبي (ﷺ) من نسل إسماعيل (عليه السلام) (وهم العرب).

وهذا هو السرُّ في دخول أهل المدينة المنورة في الإسلام قبل هجرة النبي (ﷺ) إليها؛ من كثرة ما سمعوا عن النبي (ﷺ) من الأحبار والرهبان[3].

- ومن البشارات التي جاءت في التوراة لأمة محمد (ﷺ):

«هم أغاروني بما ليس بإله، وأغضبوني بمعبوداتهم الباطلة، وأنا - أيضًا - أغيرهم بما ليس شعبًا، وبشعب جاهل أغضبهم»[4].

وهي الأمة الأمية كما في قوله (سبحانه وتعالى): ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾[5].

(1) عبد الأحد داود: محمد (ﷺ) كما ورد في كتاب اليهود والنصارى، ص63.
(2) سفر التثنية: الإصحاح 18: 18.
(3) صفي الرحمن المباركفوري: وإنك لعلى خلق عظيم 1/324-325.
(4) سفر الاستثناء: الإصحاح 32 : 11.
(5) (الجمعة: 2).

وهكـذا مـن أُمَّة جاهلية في ضلال مبين إلى أُمَّة هداية، تحمل لواء هداية البشـر إلى خالقها (سبحانه وتعالى)، كما أجاب أحد أصحاب النبي (ﷺ) لملك الفرس حين سأله: من أنتم؟ فقال: «نحن قوم ابتعثنا الله لنُخرج مَنْ شاء من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة»(1).

فكانت أمة الإسـلام التي أكرمها الله بحمل لواء هداية البشـر إلى خالقهم (سـبحانه وتعالى)(2).

- ومن البشارات أيضًا:

«الله جاء من تيمان والقدوس من جبل فاران. جلاله غطى السماوات، والأرضُ امتلأت من تسبيحه، وكان لمعان كالنور... قدامه ذهب الوباء، وعند رجليه خرجت الحمى. وقف وقَاسَ الأرض. نظر فرجفت الأمم، ودكت الجبال الدهرية، وخسفت آكام القدم. مسالك الأزل له»(3).

وهذا النص فيه شيء من التغيير؛ فقد ذكرت المصادر القديمة هذا النصَّ هكذا:

«إن اللـه تعالـى جاء مـن التيمن والقدوس من جبـل فاران. لقد أضاءت السـماء من بهـاء محمد وامتلأت الأرض من حمده... قام فمسـح علـى الأرض فتضعضعت له الجبال القديمة... يا محمد ادن لقد رأتك الجبال فارتاعت...».

قال شـيخ الإسـلام ابن تيمية: «وقد ذُكِرَ فيها مجيء نور الله مـن التيمن، وهي ناحية مكة والحجاز، فإن أنبياء بني إسـرائيل كانوا يكونون من ناحية الشام، ومحمد (ﷺ) جاء من ناحية اليمن»(4).

وفي أعلام النبوة للماوردي والتفسـير الكبير للفخر الـرَّازي هكذا: «جاء الله من طور سيناء... وانكسفت لبهاء محمد (ﷺ)، وانخسفت من شعاع المحمود»(5).

فقد ذكر في هذه البشارة اسمه وبلده، ويقرأ اليهود والنصارى هذه النصوص ويقولون: «إن صاحبها لم يظهر بعد»(6).

(1) الطبري: تاريخ الأمم والملوك 400/2، وابن كثير: البداية والنهاية 39/7.
(2) صفي الرحمن المباركفوري: وإنك لعلى خلق عظيم 329/1-330.
(3) سفر حبقوق: الإصحاح 3: 6.
(4) ابن تيمية: الجواب الصحيح 269/5.
(5) الماوردي: أعلام النبوة، ص171، والرازي: مفاتيح الغيب، 35/3.
(6) فاضل صالح السامرائي: نبوة محمد (ﷺ) من الشك إلى اليقين، ص250.

بشارات النبي (ﷺ) في الإنجيل:

كَثُرَتِ البشارات بقدوم النبي الخاتم محمد (ﷺ) في الإنجيل، تارة بوصفه أستاذ العالم. وأخرى بتسميته الفارقليط، بل كان ثمة جزءٌ كبير من رسالة عيسى (عليه السلام) إلى قومه قائمًا على التبشير بمجيء محمد (ﷺ)، لكن اليهود خاصّتهم وعامّتهم، ورهبانهم وأحبارهم، قد انساقوا خلف الشهوات، وحادُّوا الله (سبحانه وتعالى)، بل ووقفوا ضدَّ رسالة عيسى (عليه السلام)، وقاموا بقتل يحيى (عليه السلام)، وغيره من أنبياء الله الذين جاءوا لهدايتهم، ورغم ذلك فإن الإنجيل لا يزال يشهد في مواضع عديدة بالحقِّ الذي يأتي من بعد عيسى (عليه السلام)، والمتمثِّل في محمد (ﷺ) ورسالته الخاتمة الخالدة.

إن الرسالة المحدَّدة التي بُعث بها المسيح (عليه السلام) كانت هداية اليهود وإعادتهم عن ضلالهم وانحرافهم، وتصحيح اعتقادهم الخاطئ عن المسيح (عليه السلام) المنحدر من سلالة داود (عليه السلام)، ولإقناعهم بأن ملكوت الله على الأرض - الذي كانوا ينتظرون تحقيقه - لم يكن ليتحقَّق بواسطة مخلِّص منحدر من سلالة داود (عليه السلام)، ولكن من نسل إسماعيل (عليه السلام) اسمه أحمد، وهو الاسم الصحيح المطابق للاسم الذي نصَّتْ عليه الأناجيل اليونانية بصيغة (بركليتوس PERIQLYTOS)، وليس (باراكليت[1] PARACLETE) كما شَوَّهَته الكنائس[2].

وهذه الحقيقة يُؤَكِّدُهَا القرآن الكريم بقوله (سبحانه وتعالى): ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾[3].

ولقد جاءت البشارات بمجيء خاتم الأنبياء محمد (ﷺ) في مواضع عديدة من الأناجيل، من ذلك ما ورد في إنجيل يوحنا، ونصه: «**الفارقليط لا يجيئكم ما لم أذهب، وإذا جاء وبَّخ العالم على الخطيئة، ولا يقول من تلقاء نفسه، ولكنه مما يسمع به، ويكلمكم ويسوسكم بالحق، ويخبركم بالحوادث والغيوب**»[4].

وقد اختلفت تفاسير كلمة الفارقليط اليونانية (PERIQLYTOS)؛ فمنهم من فَسَّرَها بمعنى المعزِّي، أو المحامي والكثير الحمد، وقيل: هي كلمة آرامية الأصل، تعني المخلِّص من اللعنة. وقد كانت هذه الكلمة دارجة بين المؤمنين - آنذاك - وكانت تتعَلَّقُ بخاتم الأنبياء. وقيل: هي كلمة يونانية تعني بالترجمة الحرفية لها (أحمد) أو (محمد) بالعربية. والنصوص

(1) باراكليت: «هو الفارقليط أي الذي يُفَرِّقُ بين الحق والباطل، وهو روح الحقِّ الذي يرسله أي: هو الذي يعلِّمكم كلَّ شيء، والفارقليط عندهم الحمَّاد، وقيل: الحامد. وجمهورهم أنه المخلِّص». انظر: الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس باب القاف فصل الفاء (فرقن) 300/26، وابن تيمية: الجواب الصحيح 287/5، 288.

(2) عبد الأحد داود: محمد (ﷺ) كما ورد في كتاب اليهود والنصارى ص142.

(3) (الصف: 6).

(4) إنجيل يوحنا: الإصحاح 16: 25.

الأصلية للإنجيل باللغة الآرمية القديمة قد جاءت بكلمة محَمده وحمِده، وهي كلمات موازية تمامًا لكلمة محمد وأحمد في اللغة العربية، ولعلَّ هذا التفسير الأخير لكلمة الفارقليط - وهي لفظة يونانية كما أسلفنا - يُعْتَبَرُ الأقرب للصواب: لأن الله تعالى ذَكَرَهُ صراحةً على لسان عيسى (عليه السلام) في كتابه الكريم: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾[1]، وهذا من أقوى البراهين على نُبُوَّة محمد (ﷺ)، وعلى أن القرآن تنزيل إلهي فعلاً: إذ لم يكن في وُسْع محمد (ﷺ) أن يعرف أن كلمة البرقليطوس[2] كانت تعني (أحمد) إلاَّ من خلال الوحي، وهذه حُجَّة جازمة ونهائية؛ لأن المدلول الحرفي للاسم اليوناني يُعادل بدقَّة كلمتي (أحمد ومحمد)، ومن المدهش أن الوحي قد ميَّزَ صيغة أفعل التفضيل من غيرها، أي (أحمد) من (محمد)، ومن المدهش أيضًا أن هذا الاسم الفريد لم يُعْطَ لأحد من قبلُ[3]؛ إذ حُجِز بصورة معجزة لخاتم الأنبياء والرسل وأجدرهم بالحمد والثناء؛ ذلك أن اسم برقليطوس لم يُطلق على أي يوناني قطُّ، كما أن اسم أحمد لم يُطلق على أي عربي قبل النبي محمد (ﷺ)، صحيح أنه كان هُنالك يوناني مشهور من أثينا اسمه بركليس (PERIQLYS) بمعنى الشهير، ولكن ليس بمعنى الأشهر[4].

وقد ذكر الأستاذ عبد الوهاب النجار[5] أنه سأل المستشرق الدكتور كارلو نلّينو[6] المستشرق الإيطالي: ما معنى بيريكلتوس؟ فأجابه بقوله: إن القسس يقولون: إن هذه الكلمة معناها (المعزي). فقال له: إني أسأل الدكتور كارلو نلينو الحاصل على الدكتوراه في آداب اللغة اليونانية القديمة، ولستُ أسأل قسيسًا. فقال: إن معناها الذي له حمد كثير. فقال له: هل هذا يوافق أفعل التفضيل من (حمد)؟ فقال: نعم. فقال له: إن رسول الله (ﷺ) من أسمائه أحمد. فقال: يا أخي، أنت تحفظ كثيرًا. قال الأستاذ عبد الوهاب النجار: ثم افترقنا، وقد ازددتُ بذلك تثبيتًا في معنى قوله (سبحانه وتعالى): ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾[7][8].

(1) (الصف: 6).

(2) البرقليطوس، البارقليط، الفارقليط، الباركليط، البيريكلتوس.. وأشباهها، هي حركات صوتية لنفس الكلمة العبرانية.

(3) لم يتسمَّ أحد قبل النبي (ﷺ) أبدًا باسم (أحمد).

(4) انظر: عبد الأحد داود: محمد (ﷺ) كما ورد في كتاب اليهود والنصارى ص192، 198.

(5) عبد الوهاب النجار (1278-1360هـ=1862-1941م): أديب، مؤرخ، فقيه، ومشارك في علوم الطبيعة والكيمياء وغيرها، ملمٌّ ببعض اللغات السامية، عُيِّن مدرسًا للآداب والشريعة، واشترك في أكثر الجمعيات الإسلامية، من مؤلفاته: تاريخ الإسلام، تاريخ الخلفاء الراشدين، انظر: محمد رجب البيومي: النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين 1/317-338.

(6) كارلو نلينو (Carlo Alfoso Nallino 1872-1938م) مستشرق إيطالي، حاصل على شهادة الدكتوراه في آداب اليهود، وعُيِّن أستاذًا للتاريخ والدراسات الإسلامية بجامعة روما، وكان من أعضاء المجمع العلمي الإيطالي، والمجمع اللغوي بمصر، من مؤلفاته: (علم الفلك.. تاريخه عند العرب في القرون الوسطى). انظر: عبد الرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين ص583، ونجيب العقيقي: المستشرقون 1/432-434.

(7) (الصف: 6).

(8) فاضل صالح السامرائي: نبوة محمد من الشك إلى اليقين ص282، 283.

وأمَّا قوله في النصِّ المذكور سـابقًا: (**ويسوسكم بالحق**). ففيه - أيضًا - دليل على صـدق نُبُوَّة محمـد (ﷺ): حيث مَكَّنَ الله (سـبحانه وتعالى) لِنَبِيِّـهِ (ﷺ) أن يحكم الناس بكتاب الله، الذي هو الحقُّ المبين، فقال (سـبحانه وتعالى): ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ﴾[1]. وهـذا الفارقليط الأخير دَلَّتْهُم عليه مجموعة مـن المخطوطات التي وُجِدَتْ فـي منطقة البحر الميت، وهذه المخطوطـات تُعَدُّ من أهمِّ الاكتشافات التي قد تُغَيِّر الفهم التقليدي للإنجيل، كما عبر بذلك أحد كبار القساوسة، وهو القس باول ديفز رئيس كهنة كل القديسـين في واشـنطن؛ حيث قال: «**إن مخطوطات البحر الميت - وهي من أعظم الاكتشافات منذ قرون عديدة - قد تُغَيِّر الفهم التقليدي للإنجيل**».

وقد جاء في هذه المخطوطات بالنصِّ ما يلي: «**إن عيسى كان مسيًا المسيحيين، وأن هناك مسيًا آخر**». ومسيا بالآرامية تعني رسولاً؛ لذلك أخبرهم المسيحُ (عليه السلام) قائلاً: «**ابن البشر ذاهب، والفارقليط من بعده يجيء لكم بالأسرار، ويُفَسِّر لكم كل شيء، وهو يشهد لي كما شهدتُ له، فإني أجيئكم بالأمثال وهو يأتيكم بالتأويل**»[2].

فمحمد (ﷺ) هو خاتم الأنبياء الذي يُرشد البشرية إلى كل الحقِّ كما جاء بنصِّ الإنجيل: «**وأما متى جاء ذاك روح الحق، فهو يرشدكم إلى جميع الحق؛ لأنه لا يتكلم من نفسـه، بل كل ما يسمع يتكلم به، ويُخبركم بأمور آتية**»[3]. وهذا النص الإنجيلي يُؤَكِّده صحابة رسول الله (ﷺ) بقولهم: «**صَلَّى بِنَا رَسُولُ الله (ﷺ) الْفَجْرَ، وَصَعِدَ الْمِنْبَرَ فَخَطَبَنَا حَتَّى حَضَرَتِ الظُّهْرُ، فَنَزَلَ فَصَلَّى، ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ فَخَطَبَنَا حَتَّى حَضَرَتِ الْعَصْرُ، ثُمَّ نَزَلَ فَصَلَّى، ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ فَخَطَبَنَا حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ، فَأَخْبَرَنَا بِمَا كَانَ وَبِمَا هُوَ كَائِنٌ، فَأَعْلَمُنَا أَحْفَظُنَا**»[4].

وكما بَشَّر المسيح (عليه السلام) بمجيء النبي محمد (ﷺ) - الذي يُخَلِّص الناس من ضلالاتهم وفجورهـم وانحرافهم عن العقيدة الصحيحة - فإن يحيى (عليه السلام) أو يوحنا المعمدان - كما عند النصارى - أشار إلى ما يُسَمَّى الاستبدال؛ أي استبدال أُمَّة اليهود بغيرها ممن يُقيمون لواء الله، ويرفعون كلمته، كما أشـار إلى مجيء الرسـول الخاتم، الذي هو أعظم الرُّسـل، ونصُّ البشـارة هو: «**وفي تلك الأيام جاء يوحنا المعمدان يكرز في برية اليهودية، قائلاً: توبوا؛ لأنه قد اقترب ملكوت السموات (KINGDOM OF HEAVEN)، فإن هذا هو الذي قيل عنه بإشعياء النبي القائل صوتٌ صارخ في البرية: أعدوا طريق الرب، اصنعوا سُبُله مستقيمة... فلما رأى كثيرين من الفريسيين والصدوقيين يأتون إلى معموديته، قال لهم:**

(1) (المائدة: 48).

(2) إنجيل يوحنا: الإصحاح 14: 16، وانظر: صفي الرحمن المباركفوري: وإنك لعلى خلق عظيم 1/327-329.

(3) إنجيل يوحنا: الإصحاح 16: 13.

(4) مسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب إخبار النبي (ﷺ) فيما يكون إلى قيام الساعة (2892)، وأحمد (22939).

يا أولاد الأفاعي، من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي، فاصنعوا ثمارًا تليق بالتوبة، ولا تفتكروا أن تقولوا في أنفسكم: لنا إبراهيم أبًا. لأني أقول لكم أنَّ الله قادر أن يُقيم من هذه الحجارة أولادًا لإبراهيم، والآن قد وضعت الفأس على أصل الشجرة، فكل شجرة لا تصنع ثمرًا جيدًا تُقطع وتُلقى في النار، أنا أعمدكم بماء للتوبة، ولكن الذي يأتي بعدي هو أقوى مني، الذي لست أهلاً أن أحمل حذاءه، هو سيعمدكم بالروح القدس ونار»[1].

فقد حاول يحيى (عليه السلام) - يوحنا المعمدان - أن يجعل اليهود من التائبين، فأمرهم صراحة بالتوبة والإنابة إلى الله، ولكنه - لعلمه بعصيانهم ويأسه منهم - قد أخبرهم بأنه قد تمَّ استبدالهم بأمة أخرى، وأن الفأس قد وُضِعَتْ على أصل الشجرة التي أَبَتْ أن تُعطي ثمارها، وما بقي إلاَّ مُباشرة قطعها، وقد أكَّد لهم يحيى (عليه السلام) أن وقوع الغضب والعقاب من الله (سبحانه وتعالى) حادث لا محالة، ثم يتحدَّث (عليه السلام) عن النبي الذي سيأتي من بعده في الشجرة البديلة من أبناء إبراهيم (عليه السلام) بأنه أقوى منه، وأنه سَيُلْغِي التعميد بالماء، ويُعمد الناس بالروح والنور، وكلاهما - أي الروح والنور - وصفان وُصف بهما القرآن الكريم.

ولعلَّ النبوة هنا تُضيف بُعْدًا آخر في تحديد الأمة البديلة؛ إذ لم يُنكر يحيى (عليه السلام) على اليهود فكرة بقاء النبوة والأرض في أبناء إبراهيم (عليه السلام)، لكنه ذَكَّرَهم بأن لإبراهيم (عليه السلام) أبناء غيرهم، وأنه لا ينبغي لهم الاغترار بوعد الله لإبراهيم (عليه السلام) ببقاء النبوة في أبنائه، ونستطيع أن نفهم في وضوح تامٍّ أن الأُمَّة البديلة ستكون من فرع آخر من أبناء إبراهيم (عليه السلام)، كما يدلُّ على ذلك كلام يحيى بأن الله سيُخرج لإبراهيم (عليه السلام) أبناء آخرين غير اليهود، وقد تحقق ذلك بأبناء إسماعيل (عليه السلام)، فجاء منهم النبي محمد (ﷺ)[2].

والإنجيل بَعْدُ - بلا أدنى ريب - مليء بالبشارات التي تُدَلِّل على رسالة محمد (ﷺ)، وإننا لن نستطيع أن نستقصي كل ما جاء في الإنجيل عن نبوة محمد (ﷺ) وصدقه، ويكفينا ما أشرنا إليه من كلام كُلٍّ من عيسى ويحيى عليهما السلام.

- ومن البشارات:

«13 وحي من جهة بلاد العرب في الوعر في بلاد العرب تبيتين يا قوافل الددانيين. 14 هاتوا ماء لملاقاة العطشان يا سكان أرض تيماء، وافوا الهارب بخبزه. 15 فإنهم من أمام السيوف قد هربوا. من أمام السيف المسلول، ومن أمام القوس المشدودة، ومن أمام شدة الحرب. 16 فإنه هكذا قال لي السيد في مدة سنة كسنة الأجير يفني كل مجد قيدار. 17 وبقية عدد قسي أبطال بني قيدار تَقِلُّ؛ لأن الرب إله إسرائيل قد تكلم»[3].

(1) إنجيل متى: الإصحاح 3: 1-3، 7-11.

(2) نصر الله عبد الرحمن أبو طالب: تباشير الإنجيل والتوراة بالإسلام ورسوله محمد (ﷺ) ص327.

(3) سفر أشعيا: الإصحاح 21: 13-17.

وفي طبعة الموصل: «**وحي على العرب**».

هذا النصُّ فيه دلالة صريحة على نبوة محمد (ﷺ)؛ فقد نزل الوحي على محمد (ﷺ) في الوعر في بلاد العرب في غار حراء، وهو جبل وعر، ولم ينزل في السهل.

وقد ذكرت البشارة هجرة محمد (ﷺ) فقالت: «هاتوا ماء لملاقاة العطشان يا سكان أرض تيماء، وافوا الهارب بخبزه». و(تيماء) من أعمال المدينة.

وقوله: «فإنهم من أمام السيوف قد هربوا، من أمام السيف المسلول، ومن أمام القوس المشدودة، ومن أمام شدة (الحرب)». ينطبق على محمد (ﷺ): فقد اجتمع عليه رجال من قريش لقتله (ﷺ)، فأنجاه الله منهم، وقد حاربته قريش حربًا شديدة لا هوادة فيها مدة ثلاثة عشر عامًا.

ثم أشار هذا النص إلى وقعة بَدْر التي وقعت بعد سنة واحدة من الهجرة، وذكر انتصار الرسول فيها، قال النص: «فإنه هكذا قال لي السيد في مدة سنة كسنة الأجير يفنى كل مجد قيدار، وبقية عدد قسي أبطال بني قيدار تَقِلُّ».

وهذا الذي حصل فإنه بعد سنة كسنة الأجير انتصر الرسول وجبابرة قيدار قد هلكوا.

وفي طبعة ليدن سنة (1848م) هكذا: «في مدة كسنة الأجير تفنى جبابرة قيدار».

وفي طبعة الموصل سنة (1875م)، وطبعة ليدن سنة (1822م) هكذا: «وبقية عدد أصحاب القسي الجبابرة من بني قيدار يتقللون».

وبنو قيدار هم العرب، فإن قيدار هو ابن إسماعيل (عليه السلام) جاء في (سفر التكوين):

«12 وهذه مواليد إسماعيل بن إبراهيم الذي ولدته هاجر المصرية جارية سارة لإبراهيم. 13 وهذه أسماء بني إسماعيل بأسمائهم حسب مواليدهم: نبايوت بكر إسماعيل وقيدار...»[1].

وجاء في إنجيل برنابا ما يلي:

«4/97: فقال حينئذ يسوع: إن كلامكم لا يعزيني؛ لأنه يأتي ظلام حيث ترجون النور».

«5/97: ولكن تعزيتي هي في مجال الرسول، الذي سيبيد كل رأي كاذب فيَّ، وسيمتد دينه ويعمُّ العالم بأسره؛ لأنه هكذا وعد الله أبانا إبراهيم».

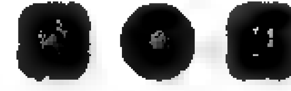
(1) سفر التكوين: الإصحاح 25: 12، 13.

« 6/97: وإن ما يعزيني هو أنه لا نهاية لدينه؛ لأن الله سيحفظه صحيحًا ».

« 7/97: أجاب الكاهن: أيأتي رسل آخرون بعد مجيء رسول الله؟ ».

« 8/97: فأجاب يسوع: لا يأتي بعده أنبياء صادقون مرسلون من الله »[1].

وفي نهاية هذا الفصل الذي استعرضنا فيه بعضًا من بشارات الكتب السابقة - بما فيها التوراة والإنجيل بالنبي (ﷺ) - نختم بقصة واقعية تُؤَكِّد صِحَّة هذه البشارات، التي استطاع أحد الرهبان - ويُدعى فرامرينو، وهو راهب لاتيني - اكتشاف النسخة المُحَرَّرة باللغة الإيطالية من الإنجيل، ويقول في ذلك إنه لدى مطالعته عدة رسائل لأيرينايوس وجد إحداها تُنَدِّد بالقديس بولس الرسول استنادًا إلى إنجيل القديس برنابا. ومن هنا اهتمَّ الراهب فرامرينو بالبحث عن هذا الإنجيل، وقد ساعدته ظروف عمله في مقرِّ البابوية، إذ صار بعد فترة مُقَرَّبًا من البابا سكتس الخامس، وبذلك تَمَكَّن من دخول المكتبة البابوية، وببحثه عَثَرَ على نسخة إنجيل برنابا[2] التي كان يرنو إليها، وبعد الاطلاع عليها تأكَّد من صدق نبوة محمد (ﷺ)، وانتهى به الأمر باعتناق الإسلام[3].



(1) إنجيل برنابا (الباب السابع والتسعون).

(2) لمزيد من البشارات عن الرسول محمد (ﷺ) انظر: إنجيل برنابا دراسات حول وحدة الدين عند موسى (ﷺ) وعيسى (ﷺ) ومحمد (ﷺ)، تحقيق سيف الله أحمد فاضل.

(3) محمد أبو زهرة: محاضرات في النصرانية ص56.

بشارات النبي (ﷺ) في كتب الديانات الهندوسية القديمة:

أخبر القرآن الكريم أن الله (سبحانه وتعالى) أرسل لكل أُمَّة رسولاً يدعوهم إلى التوحيد، فينذرهم ويُبَشِّرهم؛ ليُقيم عليهم الحُجَّة يوم القيامة، وأن كل هذه الأمم والشعوب قد عَرَفت وتَيَقَّنَتْ - عن طريق أنبيائهم ورسُــلهم - بمجيء خاتم الأنبياء والرُّسل محمد (ﷺ)، وهو ما أخبر به القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[1]، أي: «إنَّ ذِكْرَ محمدٍ (عليه السلام) في كتب الأَوَّلينَ»[2].

ورغــم أنه لم يَعُدْ مــن كتب الأَوَّلينَ إلاّ بقايا قليلة جدًّا، لكنها لــم تَخْلُ من ذِكْرٍ لمحمد (ﷺ) ورسالته؛ وهذا الذكر نجده منثورًا في كُتب الديانة الهندوسية، إلا أن القوم لا يعرفون أنها تتطابق مع أوصاف النبي محمد (ﷺ)، أو ما زالوا ينتظرون هذه الشــخصية ويعتقدون أنها لم تظهر بَعْدُ.

وبدايةً يجدر التنبيه إلى أن الديانة الهندوســية في غاية التشــعُّب والتعقيد، ولا يُوجد لهــا مرجع أو مراجع محدَّدة تضمُّ مبادئها، فهي مجموعــة هائلة من المبادئ والمتناقضات والأوهــام والخرافــات والمعتقدات الغريبة، ويزيد الأمر صعوبة عــدم اتِّفاقهم على مصادر محــدَّدة لديانتهم، غير أن أشــهر كتبهــم التي تُقْرَأ فــي الطقوس والاحتفــالات والأعياد، ويعتقدون أنها منزلة من الله أربعة كتب اسمها الويدات (الويد: يعني العلم والمعرفة)، وهذه هي المصادر القديمة - التي لها شروحات وتفاسير - إلى جانب كتب أخرى أُلِّفَتْ في عهود متأخرة وفي عهود حديثة.

ونحن نعتمد في هذا الجزء بشــكل رئيس على الفصل الذي كتبه الشيخ العلامة صفي الرحمن المباركفوري الهندي المســلم صاحب كتاب الســيرة المشــهور (الرحيق المختوم)، حيث تَتَبَّع هذه الإشارات من الكتب الهندوسية فأثبتها في كتابه باللغة السنسكريتية، ثم تَتَبَّع هذه الإشــارات بالترجمة والتقريب، فإذا بها تتشــابه كثيرًا بما لا يسمح بالشكِّ مع أوصاف النبي محمد (ﷺ)، ولقد ذكر الشيخ صفي الرحمن هذا في مبحث من كتاب (وإنك لعلى خلق عظيم)، الذي أَعَدَّهُ مجموعة من العلماء والدعاة، وأشرف عليه الشيخ صفي الرحمن.

البشارة بـ(نراشنس):

قامت مجموعة من الباحثين الهندوس بتحليل العديد من الترتيلات الهندوسية المختلفة، والتــي جــاءت في كتب الويدات - التي هي أهم كتب الديانة الهندوســية - وغيرها من كتب هذه الديانة، فوجدوا أن النبي محمدًا (ﷺ) قد ذُكِرَ صراحة، كما ذُكِرَتْ بعضُ محاور رسالته

(1) (الشعراء: 196).

(2) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن 138/13.

ودعوته: لذلك كَتَبَ عددٌ من علماء الهندوس وغيرهم بحوثًا حول هذه الشخصية الفذَّة التي وجدوها في كتبهم، وهي شخصية (نراشنس)، فدرسوها في ضوء ما ذُكِرَ لها من الخصائص والأوصاف.

وكلمة (نراشنس) كلمة سنسكريتية[1] مكوَّنة من مقطعين؛ أوَّلهما: (نر) ومعناه الإنسان، وهذا غريب بالنسبة للويدات التي قلَّما تختار من البشر أحدًا لمدحه والثناء عليه. والمقطع الثاني: (أشنس)، ومعناه اللغوي: مَنْ يُحْمَدُ ويُثْنَى عليه بكثرة، فهو مرادف لمحمد مُرَادَفَة تامَّة، ومع ذلك فلم تَكْتَفِ الويدات بذكر اسم هذا النبي العظيم فقط، بل «وفَّرَتْ لنا تفاصيل أخرى تقطع سُبُل النقاش والجدال، وتَبُتُّ البشارة بتَّة لا مجال فيها لأدنى احتمال، وأكبر مجموعة لهذه التفاصيل هي ما ورد في (أتهرو ويد) في بابه العشرين، والفصل السابع والعشرين بعد المائة، بينما يوجد بعض البيانات في مناتر[2] أخرى جاءت متفرِّقَة في بقية الويدات والكتب المقدسة عند الهندوس»[3].

وهذه تُرجمت تلك المناتر (التراتيل) الواردة في كتاب أتهرو ويد:

1- «اسمعوا أيها الناس باحترام، إن نراشنس يُحمد ويُثنى عليه، ونحن نعصم ذلك المهاجر - أو حامل لواء الأمن - بين ستين ألف عدوٍّ وتسعين عدوًّا»:

ويُلاحَظُ في هذه الترتيلة عدَّة أشياء:

أوَّلها: أن هذه الشخصية تتمتَّع بحمد الناس وثنائهم عليها، وتمتاز على الآخرين بذلك، ولا يُعرف في تاريخ البشر إنسانٌ حمده الناس وأَثْنَوْا عليه بمعشار ما أَثْنَوْا على محمدٍ (ﷺ) وحمدوه، فهو الذي امتاز بهذه الخصيصة بين الأنبياء.

وثانيها: صيغة المستقبل في قوله: «يُحمد ويُثنى عليه». فهي تعني أن هذه الشخصية لم تُولد بَعْدُ، وهذا الجزء من كتاب «الويد» - ويُسَمَّى «أتهرو ويد» - هو آخر الأجزاء تأليفًا، وإذا عرفنا أن أقدم أجزاء الويد وأولها في زمن التأليف قد ذُكر فيه شخصيات في عهد الإسكندر المقدوني أو بعده بقليل، والإسكندر تُوُفِّيَ قبل ميلاد المسيح (عليه السلام) بثلاثة قرون، إذا عرفنا هذا أمكننا أن نقول بأن آخر الأجزاء تأليفًا كانت فيما بعد زمان المسيح (عليه السلام)، وبهذا فهذه الصفات لا تنطبق إلا على محمد (ﷺ)، خاصة بما يُؤَكِّدها من صفات أخرى، كما يأتي.

(1) السنسكريتية: هي لغة قديمة في الهند، وهي لغة طقوسية للهندوسية، والبوذية، والجاتية.
(2) مناتر: هي التراتيل الهندوسية في كتب الويدات.
(3) صفي الرحمن المباركفوري: وإنك لعلى خلق عظيم 366/1.

وثالثها: أن هذه الترتيلة ذَكَرَتْ كلمة (كورم) ولها معنيان مختلفان: إما أن يكون «المُهَاجِر»، أو «من يَبْسُط الأمن والسلام». ومن المعلوم أن محمدًا (ﷺ) قد هاجر من مكة إلى المدينة، وموضوع الهجرة من أبرز الأحداث في سيرته (ﷺ).

كما يَصِحُّ كذلك عليه أن يكون «باسط الأمن والسلام»؛ فلقد كانت الجزيرة العربية قبله حروبًا قبلية مشتعلة بين العرب أنفسهم، وبين العرب والفرس، وبين اليهود والنصارى في اليمن، فما لبثت هذه الجزيرة المشتعلة أن صارت بعد النبي (ﷺ) أمنًا وأمانًا، وجمعتِ العربَ أخوةُ الإسلام.

ويتوقَّع الشيخ صفي الرحمن المباركفوري أن (كورم) قد تكون تحريفًا لكلمة (قُرم) العربية، التي تعني (السيد المعظم)[1]، وهي بهذا المعنى - أيضًا - فإن أولى وأحقُّ من يصدق عليه هذا المعنى هو محمد (ﷺ)[2].

ورابعها: وهو الغريب في هذه الترتيلة أنها أحصت أعداء النبي (ﷺ)؛ فهم ستون ألفًا وتسعون عدوًّا، وقد تتبع الشيخ صفي الرحمن المباركفوري عدد من عادى النبي (ﷺ) في حياته، فوجدهم بهذا العدد فعلاً، والله أعلم[3].

وخامسها: التصريح بأن الله يعصمه من هذا العدد من الأعداء، ومثل هذه الصفة لا تنطبق على أحد إلا على محمد (ﷺ)، ولكن.. هناك المزيد أيضًا.

2- «يكون مركبه الإبل، وأزواجه اثنتي عشرة امرأة، ويحصل له من علو المنزلة، وسرعة المركب أنه يمسُّ السماء ثم ينزل»:

وهذه الترتيلة واضحة جدًّا في دلالتها على نُبُوَّةِ محمد (ﷺ) والبشارة به؛ إذ ما مِنْ وصف ذُكِرَ فيها إلاَّ وقد تَحَقَّقَ في رسول الله (ﷺ):

- فمحمد (ﷺ) كان ركوبه الإبل كما هو معروف من سيرته.
- ثم إن الوصف يُقَرِّر أن هذا النبي لا يكون عزبًا بل يتزَوَّج، والمدهش حقًّا هو إحصاء عدد هؤلاء الزوجات؛ اثنتي عشرة امرأة، ولم يَثْبُتْ ذلك لأحد غيره من الأنبياء والمرسلين؛ فقد تَزَوَّج رسول الله (ﷺ) من اثنتي عشرة امرأة على رأي من قالوا بأن السيدة ريحانة بنت زيد (رضي الله عنها) كانت زوجة من زوجاته (ﷺ)[4].

(1) انظر: المعجم الوسيط ص730.

(2) صفي الرحمن المباركفوري: وإنك لعلى خلق عظيم 371/1.

(3) السابق الصفحة نفسها.

(4) انظر: السابق 371/1، 372، وابن كثير: السيرة النبوية 605/4، وابن سيد الناس: عيون الأثر 388/2.

وقد تحدَّث ويد بركاش آبادهياي – وهو أحد كبار علماء اللغة السنسكريتية في شبه القارة الهندية – عن ترجمة الفقرة الثانية من هذه البشارة في كتابه: «نراشنس أور آنتم رشي» ص14، وهي أن أزواجه تكون اثنتي عشرة امرأة، وهو لم يُشِرْ إلى احتمال أيِّ معنًى آخر سواه[1].

- وهناك إشارة – أيضًا – إلى رحلة الإسراء والمعراج: «يمس السماء ثم ينزل».

- بل ووصف لسرعة البراق[2]، الذي ركبه النبي (ﷺ) وكان من سرعته أنه يضع قدمه عند منتهى طرفه[3].

3- ذُكر في الترتيل هذا الاسم «مامح»:

وهناك احتمالان لترجمة هذا اللفظ: إما أن يكون تحريفًا للاسم العربي (محمد)، أو أن يكون اللفظ خالصًا في اللغة السنسكريتية، وهنا يكون اللفظ مكونًا من مقطعين (ما) وتعني (العظيم)، و(مح) وتعني من يُحمد ويُثنى عليه كثيرًا، وبهذا تكون اللفظة تعني (محمد العظيم)[4].

4- «بلغ يا أحمد، بلغ، كما تغرد الطيور على شجرة يانعة الثمار»:

والشاهد هنا هو ذلك الاسم الصريح (أحمد)، ولفظ (أحمد) هو الترجمة الصريحة للَّفْظِ الهندي الموجود في الترتيل (ريبه)، وكذلك الأمر المباشر بالبلاغ والدعوة[5].

وبإجمال[6] الإشارات الواردة في كتب الديانة الهندوسية القديمة عن شخصية (نراشنس) نجدها كالآتي:

1- تسميته بـ (نراشنس) ومعناه: محمد.

2- خطابه بـ (ريبه) ومعناه: أحمد.

3- مخاطبته أيضًا بـ (كاروم) ومعناه: أحمد.

4- وهو يكون حلو اللسان وعذب المنطق يتكلم فصل، لا لبس فيه ولا غموض.

5- ويكون أجمل الناس وجهًا.

(1) نقلاً عن صفي الرحمن المباركفوري: وإنك لعلى خلق عظيم 374/1.

(2) البُراق: دابة يركبها الأنبياء عليهم السلام. وقيل: البراق فرس جبريل، وهي الدابة التي ركبها الرسول (ﷺ) في الإسراء والمعراج؛ سُمِّي بذلك لتصوع لونه وشدَّة بريقه، وقيل: لسرعة حركته شبَّهه فيها بالبَرْق. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة برق 14/10.

(3) انظر: صفي الرحمن المباركفوري: وإنك لعلى خلق عظيم 375/1.

(4) انظر: السابق 376/1.

(5) انظر: السابق الصفحة نفسها.

(6) راجع التفاصيل في صفي الرحمن المباركفوري: وإنك لعلى خلق عظيم 365/1- 398.

6- ويكون هاديًا كبيرًا، ورسولاً مقدسًا، أفضل البشر، سيد العالم، يُبعث إلى الناس كافَّةً، وتعرفه جميع الأمم.

7- وهو يُطَهِّر الناس ويُزَكِّيهم من الذنوب.

8- ويُطلعه الله على أمور من الغيب فيخبر بها الناس.

9- وهو يُحْمَد ويُثنى عليه بكثرة.

10- ويكون مهاجرًا.

11- ويحمل لواء الأمن، ويبسط السلام.

12- ويعصمه الله بين ستين ألف عدو وتسعين عدوًّا.

13- وتكون مركبه الإبل، (وقد مضى زمان ركوب الإبل).

14- وتكون له اثنتا عشرة زوجة، (وهذا هو عدد أزواج محمد (ﷺ)).

15- ومركبه يكون من السرعة بحيث يصل إلى السماء ثم ينزل، (وقد وقع هذا في الإسراء والمعراج).

16- ويعطيه الله مائة دينار من الذهب الخالص، (وهو عدد مهاجري الحبشة).

17- ويعطيه عشر قلائد، (وهم العشرة المبشرون بالجنة).

18- ويعطيه أيضًا ثلاثمائة جواد، (وهم أصحاب بَدْر).

19- وكذلك يعطيه عشرة آلاف بقرة، (وهو عدد الصحابة الذين شهدوا فتح مكة).

20- وهو يقوم بالغزو وقتال الملحدين الظالمين الفاجرين.

21- وأصحابه حمَّادون ومُصَلُّون، يلتزمون بالحمد والصلاة حتى أثناء الحروب.

22- ويقاتلون بشجاعة بالغة.

23- وذراريهم وأولادهم يكونون في غاية الأمن والاطمئنان في بيوتهم أثناء الحروب.

24- وهو يعطي كلامًا حكيمًا يكون هدًى للمتقين، ويقع منهم موضع القبول مثل وقوع السهم من الهدف، ويكون التمسك به سببًا للحصول على الملك وجباية الأموال، وتُشبه تلاوته تغريد الطيور على شجرة يانعة الثمار.

25- تظهر له حكمة بالغة عند بناء بيت الله، تفضي إلى بسط الأمن وفرحة الناس، (وفيه إشارة إلى حُكمه (ﷺ) في قصة الحجر الأسود).

26- يبسط أمنًا يَسُرُّ الجميع عندما يأخذ الحكم، ويعمر بيت الله بتطهيره من الأصنام، وبدء عبادة الله فيه. (وفيه إشارة إلى ما وقع عند فتح مكة).

27- يحصل الأمن والرخاء في العيش أيام حكمه وحكم أصحابه.

28- ويتقدم الإنسان أيام حكمه في سبيل الخير والتقوى.

29- يشبه أمره بزرع يبدأ من بذر، ثم ينمو حتى يصير شجرة باسقة تعلو في السماء.

30- وهو يكون ثِمَال[1] اليتامى، عصمة للأرامل، يتصدّق بالآلاف، ويتنعّم أيام حكمه الإنسانُ والحيوانُ.

ويتَّضِحُ من هذه التراتيل - وغيرها من بقيَّة التراتيل المتعلِّقَة بنراشنس - مدى تطابقهما مع أوصاف محمد (ﷺ)؛ لذلك فهو دليل صريح من كتب الهندوس على التبشير بنُبُوَّة محمد (ﷺ)، ولا يَتَوَانَى بعض علماء الهندوس في ذكر ذلك صراحة.

البشارة بـ «كلكي أوتار»:

من معتقدات الهندوس، أن العالم له أربع دورات زمنية: زمان الحق، الذي لم تكن فيه أحزان. زمان بداية الشرِّ، حين بدأت الأخلاق الذميمة تغزو قلوب الناس. ثم زمان اشتداد الشرِّ، حين كَثُر الشرُّ على حياة الناس وأخلاقهم. ثم زمان الظلام (كَلْ يُكْ) الذي غَطَّى فيه الشرُّ العالم الإنساني، حتى تركه ظلامًا لا نور فيه.

ويبدأ زمان الظلام عندهم منذ طوفان نوح (ﷺ)، وتُصَرِّح كتب الهندوس أن الله أرسل رُسلاً في كل هذه الدورات، وبعضُ كتبهم تقول بأن عدد كبار الرسل هم أربعة وعشرون رسولاً، بُعث منهم ثلاثة وعشرون، ولم يبقَ إلا هذا الأخير، الذي تكثر البشارة به، ويُعرف بلقب «كلكي أوتار»، ومعناها مَنْ يغسل السواد ويُزيله.

1- وَرَدَ في كتاب بهوشيه بوران يرتي: «... أن الرسول الذي يولد في كَلْ يُك اسمه سرو أنما»:

ومعنى (أنما): الذي يُحمد ويُثنى عليه، ومعنى (سرو): أكثر من غيره، أو أكثر من الجميع، فيكون معنى (سو أنما): الذي يُحمد أكثر من الجميع، وهو مطابق لاسمه (ﷺ) (محمد).

2- وَرَدَ في كلكي بوران، أدهياي 2، شلوك 11: «إن كلكي يُولد من (سومتي) لرجل اسمه (ويشنو ويش)»:

(1) ثِمَال بني فلان: أي هو عِمَادُهم وغِيَاثٌ لهم، يقوم بأمرهم. ابن منظور: لسان العرب، مادة ثمل 91/11، والمعجم الوسيط ص100.

ومعنى (سومتي): آمنة، ومعنى (ويشنو): الله، ومعنى (ويش): عبد، فيكون معنى (ويشنو ويش): عبد الله. وقد تكرَّر ذكر اسم والده مرتين في كتابين آخرين.

وبإجمال[1] فإننا نجد البشـــارة بكلكي أوتار في الكتب الهندوسية القديمة تضع له هذه الأوصاف:

1- اسمه: الذي يُحمد أكثر من الجميع (محمد).

2- اسم أبويه: آمنة وعبد الله.

3- يُولد في البلد (الأمين أو الآمن) لـ (عبد الله) في بيت ســـيد البلد ورئيســـها الديني (وهو ما ينطبق على عبد المطلب).

4- يُولد في اليوم الثاني عشر من شهر بيساك، (وتَتَبَّع الشيخ صفي الرحمن هذا اليوم ووجده نفس يوم ميلاد النبي (ﷺ)).

5- يأتي في زمن يُركب فيه الفرس والبعير.

6- يموت والده قبل ولادته، وتموت أمه بعد وفاته بزمن قريب.

7- يذهـــب لكـــي يتلقّـــى العِلْمَ في غارٍ في جبل من (برشـــورام)، (وهو اســـم ملك عند الهندوس، ومعناه أيضًا: روح القدس).

8- يبـــدأ الدعـــوة في (البلد الآمن) الواقعة في (جزيـــرة عرب)، فيؤذيه أهل البلد حتى يهاجـــر إلـــى بلد في الشـــمال تحيط بها الجبال، ويعود بعد مـــدة إلى مدينته ومعه السيف فيفتحها ويفتح البلاد كلها.

9- يُعطى «كلكي أوتار» فرسًـــا طيارًا أســـرع من البرق، فيركبه ويســـير به في الأرض والسماوات السبع.

10- يقاتل أعداء الدين بالسيف، ويكبتهم ويكبت عشرات الملايين من الأشرار والخبثاء، المتسترين بزي الملوك والحكام.

11- يُنْصَر بالملائكة في الحروب.

12- يَكبت الشياطين بأربعة مساعدين أو مؤيدين (الخلفاء الراشدون).

13- عدد كبار الرسل أربعة وعشرون، وإن «كلكي أوتار» هو آخرهم وخاتمهم.

14- يكون جميلاً باهر الجمال.

(1) انظر التفاصيل والنقل بالتوثيق وباللغة السنســكريتية من الكتب الهندوسية القديمة في: صفي الرحمن المباركفوري: وإنك لعلى خلق عظيم 1/403-423.

15- يفوح من جسد «كلكي أوتار» أطيب ريح، يُعَطِّر الهواء، وينشئ الفرحة في النفوس.

16- يطلع على أمور الغيب ويُخْبِر بها.

17- يكون شريف النسب.

18- يكون قوي الجسد.

19- يكون قليل الكلام.

20- يكون جوادًا يُكْثِر من التصدق بالمال.

21- يكون حكيمًا وبعيد النظر.

البشارة بالاسم العربي (محمد أو أحمد):

ذكرت الترتيلة الدينية الموجودة في كتاب (أتهرو ويد) - وقد سبقت الإشارة له - في (20/21/6، 7، 9)؛ الباب 20 فصل 21 تراتيل 9،7،6 ما معناه:

- يا رب الصادقين، لقد سرَّك السارون ببطولاتهم وأناشيدهم الغرامية في حرب العدو، حين هزمت لعبدك أحمد عشرة آلاف عدوٍّ بغير قتال.
- تخرج من حرب إلى حرب أخرى بشجاعة، وتفتح قلعة بعد قلعة بقوة.
- إنك يا إِندر قتلت مع حبيبك الراكع العدُوَّ المُبْعَد المخادع -أو الناقض للعهد- المعروف باسم «نموشي».

وتكاد هذه التراتيل الثلاث تصف غزوة الأحزاب: رب الصادقين الذي سرَّه المقاتلون الشجعان، الذين كانوا يُنشدون في الحرب، والذي هزم عشرة آلاف بغير قتال!

إن كل هذه الأوصاف منطبقة على تلك الغزوة: الرسول القائد (أحمد)، والأبطال الذين يُنشدون الأناشيد، وعدد الأعداء وهو عشرة آلاف كما تتَّفِق عليه كتب السيرة.

كما أن انتهاء الحرب التي هزم فيها الأعداء بغير قتال، تَبِعَتْها حرب أخرى فُتحت فيها «قلعة بعد قلعة بقوة»، وهذا ينطبق على غزوة بني قريظة، وما يزيد تأكيدًا هو أن العدو فيها كان مخادعًا ناقضًا للعهد، وهذا عين ما فعله يهود بني قريظة، كما أن «نموشي» تعني: الممسك البخيل، أو المستحق للعقاب.

واللفظة التي اختير لخطاب الله في الترتيلة هو (إندر)، وهو صفة من صفات الله تدلُّ على القوة والقهر والغضب والنقمة، وأنه الذي تكون معه العواصف والرياح، والصواعق

والرعد، وهذا عين ما هُزم به الأحزاب، إلا أن الهندوس يُطلقون هذا الاسم على (إله القوة والغضب، والعواصف والرياح، والصواعق والرعد).

- وفي كتاب (بوران): فصل بهوشيه بوران: ترتيلة (5): «وإذا بمعلم روحاني من غير الآريين معروف باسم محمد قد أتى مع أصحابه».

- وفي نفس الكتاب والفصل (ترتيلة 12): «إن الذي حصل مني على لقب برهما واشتهر بمحمد مشتغل بإصلاح أولئك الأعداء الكفار، وهدايتهم وفلاحهم».

- وفي كتاب (رام شرت مانس) - الذي هو تأريخ لـ(رام) أحد رجال الهندوس المقدسين، ورام هذا (كما عند الهندوس) عاش قبل الميلاد بزمان - نجد هذه التراتيل:

- إنه يُولد في القرن السابع البكرمي، ويطلع - أو يشرق - في ظلام دامس مع أنوار شموسه الأربع.
- ويبين دينه لكل أحد بالحكمة والسياسة، فيُبشر ويُنذر حسب ما تقتضيه الظروف.
- ويكون له أربعة خلفاء قدوسيين، وبتأييدهم ونصرتهم يكثر جدًّا عدد المؤمنين.
- ومنذ يظهر دينه وكلامه فلا نجاة لأحد بدون محمد.
- إن الإنسان والحيوان والحشرات كلهم يتقربون إلى الله باسم ذلك الرسول سيد العالم.
- ثم لا يُولد له مثيل ولا نظير.

وفي بعض النسخ الأخرى من الكتاب نجد ثلاثة أبيات زائدة هي:

- وإلى عشرة آلاف سنة تكتمل مرتبة الرسالة، فلا يحظى بها أحد بعدها.
- يتألَّق نجم في بلاد العرب، ويكون لهذه الأرض شأن مغتبط.
- تظهر منه الخوارق والمعجزات، ويقال له: إنه ولي الله.

- وفي كتاب (سام ويد 8/6/2): «إن أحمد نال من ربه شريعة مملوءة بالحكمة».

- وفي كتاب (يجر ويد 18/31): «إن أحمد عظيم، منبع لجميع العلوم، يكشف الظلمات كالشمس البازغة».

- وفي (شري مد يهاكوت، مهاتم بوران 76/2): «إذا جاء موعد فيضان الحقِّ على الإنسان بطلوع الخير الاجتماعي في عهود الحياة التي لا نهاية لها، فإن الظلمات تُكْشف بمحمد، ويُشرق نور الفهم والحكمة».

- وفي كتاب (الســـامافيدا): «أحمد تلقّى الشـــريعة من ربّه، وهي مملوءة بالحكمة، وقد قُبست من النور كما يُقبس من الشمس»[1].

- وفي كتاب مُقَدَّسٍ ثانٍ عند الهندوس وهو (أدهروهيدم) ما نصُّه: «أيها الناس، اسمعوا وَعُــوا: يُبْعَــثُ المحمَّدُ بين أظهر النــاس، وعَظَمَتُه تُحْمَدُ حتى فــي الجنة، ويجعلها خاضعة له وهو المحامد»[2]. يعني محمدًا (ﷺ).

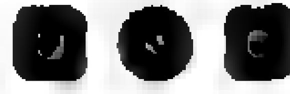
- وفي كتاب هندوسي ثالث هو (بفوشيا برانم) ما يلي: «في ذلك الحين يُبعث أجنبي مع أصحابه باسم محامد الملقب بأستاذ العالم[3]، والمَلِك يُطَهِّره بالخمس المطهرة»[4]. ولا شكَّ في أنها الصلوات الخمس التي يمحو الله بهنَّ الخطايا.

- وقد جاء وصف أصحاب رســول الله (ﷺ) في كتاب (بنوشــيا برانم)، فقد ورد فيه: «هم الذين يختتنون، ولا يربون القَزَع[5]، ويربون اللِّحَى، ويُنادون الناس للدُّعاء بصوت عالٍ[6]، ويأكلون أكثر الحيوانات إلاَّ الخنزير، ولا يســتعملون الدرباء[7] للتطهير، بل الشــهداء هم المتطهِّرون، ويُســمون بمسليّ[8]؛ بســبب أنهم يُقاتلون من يُلبس الحقَّ بالباطل، ودينهم هذا يخرج منِّي وأنا الخالق»[9].

ولا يَستغرب أحد أن كُتب الهندوس قد جاءت بأوصافٍ لرسول الله (ﷺ)؛ لأنه لا يُعقل أن تتنزل الرســالات في منطقة الشرق الأوســط، وتُنسى بقية المعمورة بساكنيها من الوحي والرســالات - وحاشــا لله (ســبحانه وتعالى) ذلك - لأنه يتعارض مــع رحمته وعدله، وقد أخبرنا القرآن الكريم أن كل أُمَّةٍ من الناس لم تَخْلُ من نذير أو بشير، قال (سبحانه وتعالى): ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾[10]. ومــن ثَمَّ يمكن التعويل على هذه الترتيلات الهندوســية - استنادًا لما ذكره علماؤها - في التصديق والبشارة بنُبُوَّة محمد (ﷺ)[11].

(1) السامافيدا الجزء الثاني من الفقرة 6-8، نقلاً عن صفي الرحمن المباركفوري: وإنك لعلى خلق عظيم 351/1.
(2) كتاب أدهروهيدم، الجزء العشرون الفصل 127 الفقرة 70، نقلاً عن صفي الرحمن المباركفوري: وإنك لعلى خلق عظيم 352/1.
(3) وأيضًا فإن في الإنجيل (إنجيل يوحنا) أن المسيح (ﷺ) أخبر بهذه الصفة، بقوله: «إن أركون العالم سيأتي». وأركون تعني السيد والعظيم. انظر: ابن تيمية: الجواب الصحيح 304/5، 305.
(4) الجزء الثاني الفصل الثالث العبارة الثالثة وما بعدها، نقلاً عن صفي الرحمن المباركفوري: وإنك لعلى خلق عظيم 352/1.
(5) جمع قزعة وهي القطعة من السَّحاب، وسمِّي شعر الرأس إذا حُلِق بعضه وترك بعضه قزعًا؛ تشبيهًا بالسَّحاب المتفرِّق. انظر: شمس الحق آبادي: عون المعبود شرح سنن أبي داود 165/11.
(6) ينادون للدعاء: أي ينادون للصلاة؛ لأن الصلاة دعاء.
(7) الدرباء: نبات يُخرج به الهنود الدم من جسم الإنسان، ويعدون هذا العمل تطهيرًا من الخطايا.
(8) مسلي: أي يسمون بالمسلمين، دخل عليها شيء من التحريف.
(9) الجزء الثالث الفصل الثالث عبارات 27، 28، نقلاً عن صفي الرحمن المباركفوري: وإنك لعلى خلق عظيم 352/1.
(10) (فاطر: 24).
(11) استغرق إحصاء هذه الإشارات 117 صفحة في مبحث العالم الهندي المسلم صفي الرحمن المباركفوري، وهي في الجزء الأول من كتاب (وإنك لعلى خلق عظيم).

ولا يفوتنـــا أن نُنَبِّهَ إلـــى أن هذه الكتب قد لعبت فيها الأيادي بالزيادة والنقص والتبديل والتحريــف، ولكن ما بقي فيها من حقٍّ واضح ومُفَصَّــل أحيانًا - كما يتضح مما عرضناه - يُثبت أن البشـــارة بالنبي (ﷺ) وُجدت في كتب الهنـــدوس القديمة، على نحو هو أكثر جلاءً ووضوحًا ودقة من هذا أيضًا، وتلك شهادة جلية على نُبُوَّة محمد (ﷺ).



الفصل الثاني

شهادات من عاصروا النبي (ﷺ)

نُوردُ هنا في هذا الفصل شهادات من عاصروا النبي (ﷺ)، فرَأَوْه وسمعوا منه، وخبروا حياته قبل البعثة وبعدها، وهم يشهدون أنه نبي، ولكن المصالح العاجلة كانت أحبَّ إلى قلوبهم، وأقرب من نفوسهم من الحق الأصيل، والدليلِ الواضح البيِّن، وصدق الله (سبحانه وتعالى) إذ يقول:

﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾[1].

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[2].

- شهادات المشركين للنبي (ﷺ)
- شهادات النصارى للنبي (ﷺ)
- شهادات اليهود للنبي (ﷺ)

---

(1) (النمل: 14).
(2) (البقرة: 146).

شهادة المشركين للنبي (ﷺ):

أبو جهل (عمرو بن هشام):

سأل المِسْوَرُ بن مخرمة خاله أبا جهل عن حقيقة محمد (ﷺ)؛ إذ قال: «يا خالي، هل كنتم تَتَّهِمُون محمدًا بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فقال: يابن أختي، والله! لقد كان محمد فينا وهو شابٌّ يُدْعَى الأمين، فما جَرَّبْنَا عليه كذبًا قطُّ. قال: يا خال، فما لكم لا تَتَّبِعُونه؟ قال: يابن أختي، تنازعنا نحن وبنو هاشم الشرف، فأَطْعَمُوا وأَطْعَمْنَا، وسَقَوْا وسَقَيْنَا، وأجاروا وأجرنا، حتى إذا تجاثينا[1] على الرُّكَبِ كُنَّا كَفَرَسَيْ رِهَانٍ[2]، قالوا: مِنَّا نبي. فمتى نُدْرِكُ مثل هذه؟! وقال: الأخنسُ بن شُريق يومَ بَدْر لأبي جهل: يا أبا الحكم، أَخْبِرْني عن محمد؛ أصادقٌ هو أم كاذب؟ فإنه ليس ها هنا من قريش أحدٌ غيري وغيرك يسمع كلامنا. فقال أبو جهل: ويحك! والله إن محمدًا لصادقٌ، وما كذب محمدٌ قطُّ، ولكن إذا ذهبتْ بنو قُصَيٍّ باللواء والحجابة والسقاية والنبوة، فماذا يكون لسائر قريش؟»[3].

الوليد بن المغيرة:

عن ابن عباس، أن الوليد بن المغيرة جاء إلى رسول الله (ﷺ)، فقرأ عليه القرآن، فكأنه رَقَّ له، فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه فقال: يا عم، إن قومك يُريدون أن يجمعوا لك مالاً. قال: لِمَ؟ قال: ليعطوكه، فإنك أتيت محمدًا لتعرض ما قبله.

قال: قد علمت قريش أني من أكثرها مالاً.

قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له، أو أنك كاره له.

قال: وماذا أقول؟ فوالله! ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه ولا بقصيده مني، ولا بأشعار الجنِّ، والله! ما يشبه الذي يقول شيئًا من هذا، ووالله! إن لِقَوْلِهِ الذي يقول حلاوة، وإن عليه لَطُلاوة[4]، وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يُعْلَى، وإنه ليحطم ما تحته.

قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه.

قال: فدعني حتى أفكر.

---

(1) تجاثينا: أي جلسنا على الرُّكب للخصومة. وفي الروض الأنف: تجاذينا على الركب: وقع في الجمهرة الجاذي: المقعي على قدميه. قال: وربما جعلوا الجاذي والجاثي سواء. انظر: السهيلي: الروض الأنف 110/3، وانظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة جثا 131/14، ومادة جذا 136/14.

(2) كَفَرَسَيْ رِهَانٍ: يُضرب للمتساويين في الفضل، وقيل: للمتناصبين. انظر: الضبي: الأمثال 11/1.

(3) ابن القيم: هداية الحيارى ص50، 51.

(4) طُلاوة وطَلاوة: أي رَوْنَقًا وحُسْنًا وقبولاً. ابن منظور: لسان العرب، مادة طلى 10/15.

فلما فكر قال: هذا سحر يؤثر يأثره من غيره. فنزلت: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾[1] [2].

طلحة النمري (من أتباع مسيلمة الكذاب):

عن عمير بن طلحة النمري، عن أبيه أنه جاء اليمامة، فقال: أين مسيلمة؟ قالوا: مه، رسول الله. فقال: لا، حتى أراه. فلما جاءه قال: أنت مسيلمة؟ قال: نعم. قال: من يأتيك؟ قال: رحمان. قال: أفي نور أو في ظلمة؟ فقال: في ظلمة. فقال: أشهد أنك كذاب، وأن محمدًا صادق، ولكن كَذَّاب ربيعة أحب إلينا من صادق مُضَرٍ[3].

بنو شيبان:

في أثناء عرض النبي (ﷺ) نفسه على القبائل في موسم الحج بحثًا عن قبيلة تحميه، كان هذا المشهد الذي نلتقطه من الحوار مع قبيلة بني شيبان:

دخل أبو بكر على مجلس القوم فقال: ممن القوم؟ قالوا: من بنى شيبان بن ثعلبة. فالتفت إلى رسول الله (ﷺ) فقال: بأبي أنت وأمي! ليس بعد هؤلاء من عز في قومهم. وفي رواية: ليس وراء هؤلاء عذر من قومهم، وهؤلاء غرر في قومهم، وهؤلاء غرر الناس.

وكان في القوم مفروق بن عمرو، وهانئ بن قبيصة، والمثنى بن حارثة، والنعمان بن شريك، وكان أقرب القوم إلى أبي بكر مفروق بن عمرو، وكان مفروق بن عمرو قد غلب عليهم بيانًا ولسانًا، وكانت له غديرتان تسقطان على صدره، فكان أدنى القوم مجلسًا من أبي بكر.

فقال له أبو بكر: كيف العدد فيكم؟ فقال له: إنا لنزيد على ألف، ولن تغلب ألف من قلة.

فقال له: فكيف المنعة فيكم؟ فقال: علينا الجهد ولكل قوم جد.

فقال أبو بكر: فكيف الحرب بينكم وبين عدوكم؟ فقال مفروق: إنَّا أشدُّ ما نكون لقاء حين نغضب، وإنَّا لنؤثر الجياد على الأولاد، والسلاح على اللقاح، والنصر من عند الله؛ يديلنا مرة ويديل علينا مرة، لعلك أخو قريش؟

قال أبو بكر: إن كان بَلَغَكُم أنه رسول الله فها هو هذا.

(1) (المدثر: 11).

(2) الحاكم: كتاب التفسير (3872) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد على شرط البخاري ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي، وصححه الألباني، انظر: صحيح السيرة النبوية ص159.

(3) الطبري: تاريخ الرسل والملوك 277/2، وابن الأثير: الكامل 220/2، وابن كثير: البداية والنهاية 360/6.

فقال مفروق: قد بلغنا أنه يذكر ذلك.

ثم التفت إلى رسول الله (ﷺ) فقال: إلام تدعو يا أخا قريش؟ فتقدَّم رسول الله (ﷺ)، فجلس وقام أبو بكر يُظِلُّه بثوبه، فقال (ﷺ): «**أَدْعُوكُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ، وَأَنْ تُئْوُونِي وَتَنْصُرُونِي، حَتَّى أُؤَدِّيَ عَنِ اللهِ الَّذِي أَمَرَنِي بِهِ، فَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ ظَاهَرَتْ عَلَى أَمْرِ اللهِ، وَكَذَّبَتْ رَسُولَهُ، وَاسْتَغْنَتْ بِالْبَاطِلِ عَنِ الْحَقِّ، وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ**».

قال له: وإلام تدعو أيضًا يا أخا قريش؟ فتلا رسول الله (ﷺ): ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾، إلى قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[1].

فقال له مفروق: وإلام تدعو أيضًا يا أخا قريش؟ فو الله ما هذا من كلام أهل الأرض، ولو كان من كلامهم لعرفناه.

فتلا رسول الله (ﷺ): ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[2].

فقال له مفروق: دعوتَ والله يا أخا قريش إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، ولقد أَفِكَ قوم كَذَّبُوك وظاهروا عليك.

وكأنه أحب أن يُشركه في الكلام هانئ بن قبيصة فقال: وهذا هانئ بن قبيصة شيخنا وصاحب ديننا.

فقال له هانئ: قد سمعت مقالتك يا أخا قريش، وصدقت قولك، وإني أرى أن تَرْكَنا ديننا واتباعنا إياك على دينك لمجلس جلستَه إلينا، ليس له أول ولا آخر، لم نتفكَّر في أمرك، وننظر في عاقبة ما تدعو إليه - زَلَّةٌ في الرأي، وطيشة في العقل، وقلَّة نظر في العاقبة، وإنما تكون الزلة مع العجلة، وإن من ورائنا قومًا نكره أن نعقد عليهم عقدًا، ولكن ترجع ونرجع، وتنظر وننظر.

وكأنه أحب أن يُشركه في الكلام المثنى بن حارثة فقال: وهذا المثنى شيخنا وصاحب حربنا.

(1) (الأنعام: 151-153).

(2) (النحل: 90).

فقال المثنى: قد سمعتُ مقالتك، واستحسنت قولك يا أخا قريش، وأعجبني ما تَكَلَّمْتَ به، والجواب هو جواب هانئ بن قبيصة، في تركنا ديننا واتباعنا إياك لمجلسٍ جلسته إلينا، وإنَّا إنما نزلنا بين صَرَيَيْنِ[1] أحدهما اليمامة، والآخر السماوة.

فقال له رسول الله (ﷺ): «**وَمَا هَذَانِ الصَّرَيَانِ؟**» فقال له: أما أحدهما فطفوف[2] البرِّ وأرض العرب، وأما الآخر فأرض فارس وأنهار كسرى، وإنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى أن لا نحدث حدثًا، ولا نُئوي محدثًا، ولعلَّ هذا الأمر الذي تدعونا إليه مما تكرهه الملوك، فأمَّا ما كان مما يلي بلاد العرب فذنب صاحبه مغفور، وعذره مقبول، وأمَّا ما كان مما يلي بلاد فارس فذنب صاحبه غير مغفور، وعذره غير مقبول، فإن أردتَ أن ننصرك ونمنعك مما يلي العرب فعلنا.

فقال رسول الله (ﷺ): «**مَا أَسَأْتُمُ الرَّدَّ إِذْ أَفْصَحْتُمْ بِالصِّدْقِ، إِنَّهُ لا يَقُومُ بِدِينِ اللهِ إِلا مَنْ حَاطَهُ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِ**».

ثم قال رسول الله (ﷺ): «**أَرَأَيْتُمْ إِنْ لَمْ تَلْبَثُوا إِلاَّ يَسِيرًا حَتَّى يَمْنَحَكُمُ اللهُ بِلادَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَيُفْرِشَكُمْ بَنَاتَهُمْ، أَتُسَبِّحُونَ اللهَ وَتُقَدِّسُونَهُ؟**» فقال له النعمان بن شريك: اللهم وإن ذلك لك يا أخا قريش. فتلا النبي (ﷺ): ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [3] [4].

بنو عامر بن صعصعة:

أتى الرسول (ﷺ) بني عامر بن صعصعة، فدعاهم إلى الله وعرض عليهم نفسه، فقال له رجل منهم، يقال له بَيْحَرَةُ بن فراس: والله لو أني أخذت هذا الفتى من قريش لأكلتُ به العرب. ثم قال له: أرأيت إن نحن تابعناك على أمرك، ثم أظهرك الله على من يخالفك أيكون لنا الأمر من بعدك؟ قال: «**الأَمْرُ لله يَضَعُهُ حَيْثُ يَشَاءُ**».

قال: فقال له: أفنهدف نحورنا للعرب دونك، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا! لا حاجة لنا بأمرك.

فأبوا عليه، فلما صدر الناس رجعت بنو عامر إلى شيخ لهم قد كان أدركه السن، حتى لا يقدر أن يُوَافي معهم المواسم، فكانوا إذا رجعوا إليه حَدَّثُوه بما يكون في ذلك الموسم،

(1) صَرَيَيْنِ تثنية صَرًى: وهو كل ماء مجتمع. ورُوي: صِيرَيْنِ، أي موضع ماءين. ابن منظور: لسان العرب، مادة صير 443/4، ومادة صرى 457/14.

(2) الطفُوف جمع طَفّ: وهو ساحل البحر وجانب البرّ. ابن منظور: لسان العرب، مادة طفف 221/9.

(3) (الأحزاب: 45، 46).

(4) ابن كثير: السيرة النبوية 166/2-168.

فلمَّا قَدِمُوا عليه ذلك العام سألهم عما كان في موسمهم، فقالوا: جاءنا فتى من قريش، ثم أحد بني عبد المطلب، يزعم أنه نبي، يدعونا إلى أن نمنعه ونقوم معه ونخرج به إلى بلادنا.

قال: فوضع الشيخ يده على رأسه، ثم قال: يا بني عامر، هل لها من تلاف؟ هل لذُنَابَاها من مَطْلَبٍ؟ والذي نفس فلان بيده! ما تَقَوَّلها إسماعيلي قط، وإنها لحق، فأين رأيكم كان عنكم[1]![2].

مشركو قريش:

عن ابن عبَّاسٍ (رضي الله عنهما) قال: لمَّا نزلت: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾[3]، صعد النَّبيُّ (ﷺ) على الصَّفا فجعل ينادي: «يَا بَنِي فِهْرٍ، يَا بَنِي عَدِيٍّ». لِبُطُونِ قريشٍ، حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً؛ لينظر ما هو، فجاء أبو لهبٍ وقريشٌ، فقال: «**أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلاً بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ**؟» قالوا: نعم ما جرَّبنا عليك إلاَّ صدقًا. قال: «**فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ**». فقال أبو لهب: تبًّا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا. فنزلت: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴾[4] [5].

جماعة من المشركين:

عن سلمان الفارسي قال: قال له المشركون: إنا نرى صاحبكم يُعَلِّمكم حتى يعلمكم الخراءة. قال: أجل، إنه ينهانا أن يستنجي أحدنا بيمينه أو يستقبل القبلة، وينهانا عن الروث والعظام، وقال: «**لا يَسْتَنْجِي أَحَدُكُمْ بِدُونِ ثَلاثَةِ أَحْجَارٍ**»[6].

كان هذا طرفًا من أقوال المشركين، الذين لم يتبعوا محمدًا (ﷺ).. فهي حجة عليهم، ودليلٌ لمن بعدهم؛ يُثبت أن النبي (ﷺ) كان لم يكن موضع تهمة، ولا له سابقة كذب، وبهذا شهدوا، وإن لم يتَّبعوه.

---

(1) قال السهيلي: «هل لها من تلاف»: أي تدارك، وهو تفاعل من تلافيتهم. «وهل لذناباها من مطلب»: مَثَل ضُرِبَ لما فاته منها، وأصله من ذنابي الطائر إذا أفلت من الحبالة، فطلبت الأخذ بذناباه. «ما تقولها إسماعيلي قط»: أي ما ادعى النبوة كاذبًا أحد من بني إسماعيل. انظر: السهيلي: الروض الأنف 33/4.

(2) ابن كثير: السيرة النبوية 157/2-158.

(3) (الشعراء: 214).

(4) (المسد: 1، 2).

(5) البخاري: كتاب التفسير (4492)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب في قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ (208).

(6) مسلم: كتاب الطهارة، باب الاستطابة (262)، والنسائي (49)، وابن ماجه (316)، وأحمد عن عمرو بن الحمق (رضي الله عنه) (23759) واللفظ له.

شهادة النصارى:

بحيرا الراهب:

خرج رسول الله (ﷺ) مع عمه أبي طالب للتجارة في الشام، فلما نزل الركب بُصرى من أرض الشـام، وبها راهب يقال له: بحيرا. في صومعة له، وكان إليه علم أهل النصرانية، ولم يـزل في تلك الصومعة قَطُّ راهب إليه يصير علمهم عن كتاب فيها، فيما يزعمون، يتوارثونه كابرًا عن كابر، فلمَّا نزلوا ذلك العام ببحيرا، وكانوا كثيرًا ما يمرُّون به قبل ذلك، فلا يكلمهم، ولا يعرض لهم، حتى كان ذلك العام، فلمَّا نزلوا به قريبًا من صومعته صنع لهم طعامًا كثيرًا، وذلك فيما يزعمون عن شـيء رآه في صومعته، يزعمون أنه رأى رسـول الله (ﷺ) وهو في صومعته في الركب حين أقبلوا، وغمامة تُظِلُّه من بين القوم، ثم أقبلوا فنزلوا في ظِلِّ شجرة قريبًا منه، فنظر إلى الغمامة حين أظلت الشـجرة، وتهصرت(1) أغصان الشجرة على رسول الله (ﷺ) حتى استظلَّ تحتها.

فلما رأى ذلك بحيرا نزل من صومعته، وقد أمر بذلك الطعام فصُنِعَ، ثم أرسـل إليهم، فقـال: إني قد صنعت لكم طعامًا يا معشـر قريش، فأنا أحـب أن تحضروا كلكم؛ صغيركم وكبيركـم، وعبدكـم وحركم. فقال له رجل منهم: والله يا بحيرا، إن لك لشـأنًا اليوم ما كنت تصنع هذا بنا، وقد كنا نمرُّ بك كثيرًا، فما شـأنك اليوم؟ قال له بحيرا: صدقت، قد كان ما تقول، ولكنكم ضيف، وقد أحببت أن أكرمكم، وأصنع لكم طعامًا، فتأكلوا منه كلكم.

فاجتمعوا إليه وتخَلَّف رسول الله (ﷺ) من بين القوم لحداثة سنة في رحال القوم تحت الشـجرة، فلما نظر بحيرا في القوم لم يَرَ الصفة التي يعرف ويجد عنده، فقال: يا معشـر قريـش، لا يتخلفنَّ أحـد منكم عن طعامي. قالوا له: يا بحيرا، مـا تخَلَّف عنك أحد، ينبغي لـه أن يأتيك إلا غلام، وهو أحدث القوم سـنًّا، فتخَلَّف فـي رحالهم، فقال: لا تفعلوا، ادعوه فليحضـر هذا الطعام معكم. قال: فقال رجل من قريش مـع القوم: واللات والعزى، إن كان للـؤم بنا أن يتخلف ابن عبد الله بن عبـد المطلب عن طعام من بيننا. ثم قام إليه فاحتضنه وأجلسه مع القوم.

فلما رآه بحيرا جعل يلحظه لحظًا شديدًا، وينظر إلى أشياء من جسده قد كان يجدها عنـده من صفتـه، حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتَفَرَّقوا، قـام إليه بحيرا فقال: يا غلام، أسألك بحق اللات والعزى إلا أخبرتني عما أسألك عنه. وإنما قال له بحيرا ذلك لأنه سمع قومه يحلفون بهما، فزعموا أن رسول الله (ﷺ) قال: «**لا تَسَلْنِي بِاللأتِ وَالْعُزَّى شَيْئًا، فَوَاللهِ مَا أَبْغَضْتُ شَيْئًا قَطُّ بُغْضَهُمَا**». فقال له بحيرا: فبالله إلا أخبرتني عما أسألك عنه. فقال له:

(1) تَهَصَّرَتْ أغصانُ الشجرة: أي تَهَدَّلَتْ عليه. ابن منظور: لسان العرب، مادة هصر 264/5.

«سَلْنِي عَمَّا بَدَا لَكَ». فجعل يسأله عن أشياء من حاله من نومه وهيئته وأموره، فجعل رسول الله (ﷺ) يخبره، فيوافق ذلك ما عند بحيرا من صفته، ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته التي عنده.

فلما فرغ أقبل على عمه أبي طالب فقال له: هل هذا الغلام منك؟ قال: ابني. قال له بحيرا: ما هو بابنك، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حيًا. قال: فإنه ابن أخي. قال: فما فعل أبوه؟ قال: مات، وأمه حبلى به. قال: صدقت، فارجع بابن أخيك إلى بلده، واحذر عليه يهود، فوالله! لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفتُ ليبغنه شرًا، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم، فأسرع به إلى بلاده[1].

ورقة بن نوفل:

عندما جاء الوحي لرسول الله (ﷺ) انطلقت به خديجة (رضي الله عنها) حتى أتت ورقة ابن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عمِّ خديجة.

وكان امرأً قد تَنَصَّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخًا كبيرًا قد عمي.

فقالت له خديجة: يابن عمٍّ، اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة: يابن أخي، ماذا ترى؟ فأخبره رسول اللَّه (ﷺ) خبر ما رأى.

فقال له ورقة: هذا النَّاموس الذي نزَّل الله على موسى، يا ليتني فيها جَذَعًا[2]، ليتني أكون حيًّا إذ يُخْرِجُكَ قومك.

فقال رسول الله (ﷺ): «**أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ؟**» قال: نَعَمْ؛ لَمْ يَأْتِ رجلٌ قطُّ بمثل ما جئت به إلاَّ عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا[3].

النجاشي:

عندما هاجَر بعض المسلمين إلى الحبشة هربًا من تعذيب المشركين لهم ووقف جعفر بن أبي طالب بين يدي النجاشي قال له: أيها الملك كنا قومًا أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القويُّ مِنَّا الضعيفَ، فكنَّا على ذلك حتَّى بعث الله إلينا رسولاً منَّا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحِّده ونعبده، ونخلع ما كنَّا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا

(1) البيهقي: دلائل النبوة (362)، وابن هشام: السيرة النبوية 1/320-322.

(2) الجَذَع: الصغير من البهائم، كأنه تمنى أن يكون عند ظهور الدعاء إلى الإسلام شابًا ليكون أمكن لنصره. ابن حجر العسقلاني: فتح الباري 1/26، والنووي: المنهاج 2/203.

(3) البخاري: باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله (ﷺ) (3)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله (ﷺ) (160).

بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرَّحم، وحسن الجوار، والكفِّ عن المحارم والدِّماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزُّور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نُشرك به شيئًا، وأمرنا بالصَّلاة والزَّكاة والصِّيام.

قال: فعدَّد عليه أمور الإسلام فصدَّقناه وآمنَّا به، واتَّبعناه على ما جاء به، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئًا، وحرَّمنا ما حرَّم علينا، وأحللنا ما أحلَّ لنا، فعدا علينا قومنا، فعذَّبونا وفتنونا عن ديننا ليردُّونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله، وأن نستحلَّ ما كنَّا نستحلُّ من الخبائث، فلمَّا قهرونا وظلمونا وشقُّوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلدك واخترناك على مَنْ سواك، ورغبنا في جوارك ورجونا أن لا نُظْلَم عندك أيُّها الملك.

فقال له النَّجاشيُّ: هل معك ممَّا جاء به عن الله من شيءٍ؟

فقال له جعفرٌ: نعم.

فقال له النَّجاشيُّ: فاقرأه عليَّ.

فقرأ عليه صدرًا من (كهيعص)، فبكى - والله - النَّجاشيُّ حتَّى أخضل لحيته، وبكتْ أساقفته حتَّى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم.

ثمَّ قال النَّجاشيُّ: إنَّ هذا - والله - والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاةٍ واحدةٍ[1].

الإمبراطور هرقل (قيصر الروم):

روى عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما) أن أبا سفيان بن حرب قد أخبره «أن هرقل أرسل إليه في ركبٍ من قريش، وكانوا تُجَّارًا بالشام في المدَّة[2] التي كان رسول الله (ﷺ) مادَّ[3] فيها أبا سفيان وكفار قريش، فأَتَوْهُ وهم بإيلياء، فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا بترجمانه، فقال: «أيُّكُمْ أقرب نسبًا بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان: فقلتُ: أنا أقربهم نسبًا. فقال: أدنوه منِّي، وقَرِّبُوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره[4].

ثم قال لترجمانه: قُلْ لهم: إني سائل عن هذا الرجل، فإن كَذَبَنِي فكَذِّبوه. فوالله! لولا الحياء من أن يَأْثِرُوا عليَّ كذبًا لَكَذَبْتُ عنه[5]. ثم كان أوَّل ما سألني عنه أن قال: كيف نسبُه

(1) أحمد (1740) وقال شعيب الأرناءوط: إسناده حسن. وقال الألباني: صحيح. انظر: فقه السيرة ص115، وابن هشام: السيرة النبوية 1/335-338.

(2) المدة: يعني مدة الصلح بالحديبية، وكانت في سنة ست من الهجرة، وكانت مدتها عشر سنين. انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري 1/34، والنووي: المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج 12/103.

(3) مادَّ فيها أبا سفيان: أي جعل بينه وبينه مدة صلح. انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري 1/186.

(4) فاجعلوهم عند ظهره: أي: لئلا يستحيوا أن يواجهوه بالتكذيب إن كذب. انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري 1/35، والنووي: المنهاج 12/104.

(5) يأثروا عليَّ كذبًا أي: ينقلوا عليَّ الكذب لكذبت عليه... وفيه دليل على أنهم كانوا يستقبحون الكذب؛ إمَّا بالأخذ عن الشرع السابق، أو بالعرف. انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري 1/35، والنووي: المنهاج 12/104.

فيكم؟ قلتُ: هو فينا ذو نسـب. قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قطُّ قبله؟ قلتُ: لا. قال: فهل كان من آبائه من مَلِكٍ؟ قلتُ: لا.

قال: فأشراف الناس يَتَّبِعُونَهُ أم ضعفاؤهم؟ فقلتُ: بل ضعفاؤهم. قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلتُ: بل يزيدون. قال: فهل يرتدُّ أحد منهم سَخْطَةً لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلتُ: لا.

قـال: فهل كنتم تَتَّهِمُونه بالكذب قبل أن يقول ما قـال؟ قلتُ: لا. قال: فهل يَغْدِر؟ قلتُ: لا، ونحنُ منه في مدَّة لا ندري ما هو فاعل فيها. قال: ولم تُمْكِنِّي كلمة أُدْخِلُ فيها شيئًا غير هذه الكلمة(1).

قـال: فهـل قَاتَلْتُمُوهُ؟ قلتُ: نعم. قال: فكيف كان قتالكم إيَّـاه؟ قلتُ: الحرب بيننا وبينه سجال(2)؛ ينال مِنَّا وننال منه. قال: ماذا يأمركم؟ قلتُ: يقول: اعبدوا الله وحده، ولا تُشركوا به شيئًا، واتركوا ما يقول آباؤكم. ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة.

فقال للترجمان: قُلْ له: سـألتُكَ عن نَسـبه فذكرتَ أنه فيكم ذو نسـب، فكذلك الرسل تُبْعَث في نسـب من قومها، وسـألتُكَ: هل قال أحد منكم هذا القول؟ فذكرت أن لا، فقلتُ: لو كان أحدٌ قال هذا القول قبله لقلتُ: رجلٌ يَتَأَسَّى بقول قيل قبله، وسألتُكَ: هل كان من آبائه من مَلِك؟ فذكرتَ أن لا، قلتُ: فلو كان من آبائه مِنْ مَلِكٍ قلتُ: رجل يطلب مُلْكَ أبيه.

وسـألتُكَ: هل كنتـم تَتَّهِمُونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكـرتَ أن لا؛ فقد أعرفُ أنـه لم يكـن ليَذَرَ الكذب على الناس ويكذب على الله. وسـألتُكَ: أشـرافُ الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرتَ أن ضعفاءهم اتبعوه، وهم أتباع الرسُـل، وسألتك: أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرتَ أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتمَّ. وسـألتُكَ: أَيَرْتَدُّ أحد سـخطةً لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فذكرتَ أن لا، وكذلك الإيمان حين تُخَالِط بشاشته القلوب(3).

وسألتُكَ: هل يَغْدِر؟ فذكرتَ أن لا، وكذلك الرُّسل لا تغدر، وسألتُكَ: بما يأمركم؟ فذكرتَ أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشـركوا به شيئًا، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف، فإن كان ما تقول حقًّا فسـيملك موضع قَدَمَيَّ هاتين، وقد كنتُ أعلم أنه

(1) كلمة أُدْخِلُ فيها شيئًا: أي: أنتقصه به، على أن التنقيص هنا أمر نسبي، وذلك أن من يقطع بعدم غدره أرفع رتبة ممن يجوِّز وقوع ذلك منه في الجملة. انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري 35/1.

(2) سـجال: أي: نُوَب، نوبة لنا ونوبة له. وينال أي: يصيب. فكأنه شـبَّه الْمُحَارِبِينَ بِالْمُسْـتَقِينَ: يسـتقي هذا دلوًا وهذا دلوًا. وأشار أبو سفيان بذلك إلى ما وقع بينهم في غزوة بدر وغزوة أحد. انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري 36/1، والنووي: المنهاج 105/12.

(3) تخالط بشاشـته القلوب: يعني انشـراح الصدور، وأصلها اللطف بالإنسان عند قدومه. انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري 37/1، والنووي: المنهاج 106/12.

خــارج لــم آكن أظنُّ أنه منكم، فلو أنِّي أعلم أنِّي أَخْلُصُ[1] إليه لَتَجَشَّــمْتُ[2] لقاءه، ولو كنت عنده لغَسَلْتُ عَنْ قَدَمِيهِ[3]...»[4].



(1) أخلُص أي: أصل، يقال: خلص إلى كذا أي وصل. انظر: ابن حجر: فتح الباري 1/37.

(2) لتجشَّمْتُ أي: تَكَلَّفْتُ الوصول إليه. انظر: ابن حجر: فتح الباري 1/37، والنووي: المنهاج 12/107.

(3) لغســلتُ عن قدميه: مبالغة في العبودية له والخدمة. وفي اقتصاره على ذِكر غسـل القدمين إشارة منه إلى أنه لا يطلب منه -إذا وصل إليه سالمًا- لا ولاية ولا منصبًا، وإنما يطلب ما تحصل له به البركة. انظر: ابن حجر: فتح الباري 1/37.

(4) البخاري: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رســول الله (ﷺ) (7)، ومســلم: كتاب الجهاد والســير، باب كتاب النبي (ﷺ) إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام (1773).

شهادة اليهود:

عبد الله بن سلام:

بلغ عبد الله بن سلام مَقْدَمُ رسول الله (ﷺ) المدينة، فأتاه فقال: إنّي سائلك عن ثلاث لا يعلمهنَّ إلاَّ نبيٌّ. قال: ما أوَّل أشراط السَّاعة؟ وما أوَّل طعام يأكله أهل الجنَّة؟ ومن أيِّ شيءٍ ينزع الولد إلى أبيه؟ ومن أيِّ شيءٍ ينزع إلى أخواله؟ فقال رسول الله (ﷺ): «**خَبَّرَنِي بِهِنَّ آنفًا جِبْرِيلُ**». قال: فقال عبد الله: ذاك عدوُّ اليهود من الملائكة. فقال رسول الله (ﷺ): «**أَمَّا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ فَنَارٌ تَحْشُرُ النَّاسَ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ، وَأَمَّا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ فَزِيَادَةُ كَبِدِ حُوتٍ، وَأَمَّا الشَّبَهُ فِي الْوَلَدِ فَإِنَّ الرَّجُلَ إِذَا غَشِيَ الْمَرْأَةَ فَسَبَقَهَا مَاؤُهُ كَانَ الشَّبَهُ لَهُ، وَإِذَا سَبَقَ مَاؤُهَا كَانَ الشَّبَهُ لَهَا**». قال: أشهد أنَّك رسول الله. ثمَّ قال: يا رسول الله، إنَّ اليهود قومٌ بهتٌ إن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم بهتوني عندك. فجاءت اليهود ودخل عبد الله البيت، فقال رسول الله (ﷺ): «**أَيُّ رَجُلٍ فِيكُمْ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلَامٍ؟**» قالوا: أعلمنا وابن أعلمنا، وأخبرنا وابن أخيرنا. فقال رسول الله (ﷺ): «**أَفَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ عَبْدُ اللهِ؟**» قالوا: أعاذه الله من ذلك. فخرج عبد الله إليهم، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنَّ محمَّدًا رسول الله. فقالوا: شرُّنا وابن شرِّنا. ووقعوا فيه(1).

حُيَيّ بن أخطب:

تروي أم المؤمنين صفية بِنْتِ حُيَيٍّ بن أَخْطَبَ زعيم يهود بني قريظة فتقول:» كنتُ أَحَبُّ ولد أبي إليه، وإلى عمِّي أبي ياسر، لم أَلْقَهما قطُّ مع ولدٍ لهما إلاَّ أخذاني دونه. قالت: فلما قَدِمَ رسول الله (ﷺ) المدينة، ونزل قُبَاء في بني عمرو بن عوفٍ، غدا عليه أبي حيي ابن أخطب، وعمِّي أبو ياسر بن أخطب، مُغَلِّسَيْنِ(2). قالت: فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس. قالت: فأتيا كالَّين كسلانين ساقطين يمشيان الهوينى. قالت: فَهَشِشْتُ إليهما كما كنت أصنع، فوالله ما التفتَ إليَّ واحدٌ منهما، مع ما بهما من الغمِّ. قالت: وسمعت عمِّي أبا ياسر وهو يقول لأبي حيي بن أخطب: أهو هو(3)؟ قال: نعم والله! قال: أَتَعْرِفُهُ وَتُثْبِتُهُ؟ قال: نعم. قال: فما في نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيتُ»(4).

يهودي معاصر للنبي (ﷺ):

عن أنس (رضي الله عنه) قال: كان غلامٌ يهوديٌّ يخدم النَّبيَّ (ﷺ)، فمرض فأتاه النَّبيُّ (ﷺ) يعوده، فقعد عند رأسه، فقال له: «أَسْلِمْ». فنظر إلى أبيه وهو عنده، فقال له: أطع أبا القاسم. فأسلم، فخرج النَّبيُّ (ﷺ) وهو يقول: «**الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ**»(5).

(1) البخاري: كتاب الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾. (3723)، وأحمد (12076).
(2) الغَلَس: ظلام آخر الليل. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة غلس 156/6.
(3) يقصد بذلك رسول الله (ﷺ).
(4) ابن هشام: السيرة النبوية 517/1.
(5) البخاري: كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه... (1290)، وأبو داود (3095)، وأحمد (13399).

يهودي آخر:

عـن ثوبان مولى رسـول الله (ﷺ) قال: كنتُ قائمًا عند رسـول اللـه (ﷺ) فجاء حَبْرٌ مـن أحبار اليهود، فقال: السـلام عليك يا محمد. فدفعتُه دفعـةً كاد يُصْرَعُ منها. فقال: لم تدفعني؟ فقلت: ألا تقول: يا رسـول الله؟ فقال اليهوديُّ: إنَّما ندعوه باسـمه الذي سـمَّاه به أهله. فقال رسـول الله (ﷺ): «**إنَّ اسـمي مُحَمَّدُ الَّذي سَمَّاني به أهْلي**». فقال اليهوديُّ: جئتُ أسـألك. فقال له رسول الله (ﷺ): «**أيَنْفَعُكَ شَيْءٌ إنْ حَدَّثْتُكَ؟**». قَالَ: أَسْمَعُ بِأُذُنَيَّ. فَنَكَتَ رسـول الله (ﷺ) بِعُودٍ معه. فقال: «سَـلْ». فقال اليهوديُّ: أين يكون النَّاس يوم تُبَدَّلُ الأرض غير الأرض والسـماوات؟ فقال رسـول الله (ﷺ): «**هُمْ في الظُّلْمَةِ دُونَ الْجِسْرِ**». قال: فمن أوَّل النَّاس إجازةً؟ قال: «**فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ**». قال اليهوديُّ: فما تُحْفَتُهُمْ حين يدخلون الجنَّة؟ قال: «زِيَادَةُ كَبِدِ النُّونِ». قال: فما غذاؤهم على إثْرِهَا؟ قال: «**يُنْحَرُ لَهُمْ ثَوْرُ الْجَنَّةِ الَّذي كَانَ يَأْكُلُ مِنْ أطْرَافِهَا**».

قال: فما شرابهم عليه؟ قال: «**مِنْ عَيْنٍ فيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً**». قال: صَدَقْتَ. قال: وجئت أسـألك عن شـيءٍ لا يعلمه أحدٌ من أهل الأرض إلاَّ نبيٌّ أو رجلٌ أو رجلان. قال: «**يَنْفَعُكَ إنْ حَدَّثْتُكَ**». قَالَ: أَسْمَعُ بِأُذُنَيَّ.

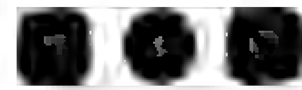
قال: جئت أسـألك عن الولد. قال: «**مَاءُ الرَّجُلِ أبْيَـضُ، وَمَاءُ الْمَرْأَةِ أَصْفَـرُ، فَإذَا اجْتَمَعَا فَعَـلاَ مَنـيُّ الرَّجُلِ مَنِيَّ الْمَرْأَةِ أذْكَرَا بِإِذْنِ الله، وَإذَا عَلاَ مَنِيُّ الْمَـرْأَةِ مَنِيَّ الرَّجُلِ آنَثَا بِإذْنِ الله**». قـال اليهوديُّ: لقـد صَدَقْتَ، وإنَّك لنبيٌّ. ثمَّ انصرف فذهب، فقال رسـول الله (ﷺ): «**لَقَدْ سَأَلَنِي هَذَا عَنِ الَّذِي سَأَلَنِي عَنْهُ وَمَا لِي عِلْمٌ بِشَيْءٍ مِنْهُ حَتَّى أَتَانِيَ اللهُ بِهِ**»[1].

اليهود والقرآن:

عـن طارق بن شـهاب، قال: جاء رجل من اليهود إلى عمر بـن الخطاب، فقال: يا أمير المؤمنين، إنكم تقرءون آية في كتابكم لو علينا معشر اليهود نزلتْ لاتخذنا ذلك اليوم عيدًا.

قـال: وأي آية هي؟ قال: قوله تعالـى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[2].

فقال عمر: والله إني لأعلم اليوم الذي نزلت على رسول الله (ﷺ)، والساعة التي نزلت فيها على رسول الله (ﷺ) عشية عرفة في يوم جمعة[3].



(1) مسلم: كتاب الحيض، باب بيان صفة مني الرجل والمرأة... (315)، وابن حبان (7422)، والحاكم (6039).
(2) (المائدة: 3).
(3) البخاري: كتاب الإيمان، باب زيادة الإيمان ونقصانه (45)، ومسلم: كتاب التفسير (3017).

الباب الثاني: شهادات المعاصرين الغربيين

هذه شـهادات صدرت عـن نخبة من مفكري الغرب وأبرز علمائـه، ونُعيد التذكير بأن النقل عنهم لا يعني أن هذا المستشرق أو ذلك كان منصفًا في حقِّ الإسلام، بل منهم من كان رئيـس الْمُنَصِّرين، ومنهم يهود وصهاينة أيضًا، ولكـن الحدَّ الأدنى من الكلام العلمي النزيه - الذي صار لا يمكن التنازل عنه الآن في المؤسسـات العلمية المحترمة - فرض عليهم أن يقولوا ما لا يمكن إنكاره من الحقِّ، أو من حوادث التاريخ.

فمَـنْ ذا الذي يحترم نفسـه فيُنكر أن النبي عفا عن أهل مكـة حين دخلها فاتحًا، في مشـهد لم يتكرَّر في الحروب حتى يومنا هذا، ومَنْ يستطيع أن يُنكر أن قرطبة كانت جوهرة أوربا في العصور الوسـطى حين كانت تحت حكم المسـلمين، هذه بعض الأشياء التي صار لا يمكـن لأحد - لديه الحـدُّ الأدنى من احترام النفس، أو يطلب الحـدَّ الأدنى من التقدير العلمي - أن يُنكرها أو يتجاوزها.

ومن هنا كان إقرار مثل هذه الشخصيات بمثل تلك الحقائق أَبْلَغ في التعبير عن عظمة الإسـلام والنبي (ﷺ) والحضارة الإسـلامية، وأفعل في توصيل الرسـالة لمن لا يحب أن يُصَدِّق إلا ما يقوله الغرب وما يصدر عنهم.

وشـيء آخر يجدر بنا الوقوف أمامه ألا وهو أن المستشـرقين المنصفين الذين قَدَّمُوا شـهادات رائعة وإعجابًا حقيقيًا بالإسـلام والنبي والحضارة الإسـلامية، قد يكون لهم من التصورات ما لا يقبله الإسـلام، وقد ينطلقون في التحليل من بعض الأفكار والقناعات التي لا يمكن استساغتها، وقد يكون لبعضهم في النظر والتحليل أخطاء وهفوات، مما يجري على سائر البشر من الزلل والخطأ، فلا يعني إيرادنا لشهادتهم أننا موافقون لهم في كل ما قالوا وما اعتقدوا، وإنما هو كما قيل: «كل يؤخذ من كلامه ويرد». وإنما صار لكلامهم قيمة أخرى؛ لأنها لا يمكن أن تكون صادرة عن تعصب أو تحيز أو محاباة.

آخر ما يجدر التذكير به، أن تقسيمنا للمدارس الاستشراقية في هذا الباب، كان بحسب المدرسـة التي نبغ فيها المستشـرق، بغض النظر عن أصل مولده ونشأته، فإذا وُلد أحدهم ونشـأ في بريطانيا، ولكنه برز ونبغ وألف وبحث في أمريكا وجامعاتها ومؤسسـاتها العلمية، فإننا ألحقناه بالمدرسة الاستشراقية الأمريكية وليست الإنجليزية.

فمثلاً جورج سارتون بلجيكي المولد والنشأة، ولكنه برز وحاضر ودرَّس في أمريكا، فهو هنا ضمن المدرسة الاستشراقية الأمريكية، وهكذا.

الفصل الأول: بريطانيا

نُبذة عن الاستشراق البريطاني:

يُعَدُّ الاستشــراق البريطاني من أول وأوسـع ما عرفته أوربا، ولقد بدأت الصلة قديمًا منذ أن كان المســلمون في الأندلس يشعُّ نور حضارتهم على أوربا، التي كانت حينها مظلمة، وتعود بداية هذا الاستشــراق إلى طريقين: العلماء العرب الذين ذهبوا إلى بريطانيا قديمًا؛ مثل: إبراهيم بن عزرا من مدينة طليطلة، حيث قَدِم إلى لندن ودرَّس فيها (1158-1159م)، والطريــق الثاني هو طريق العلماء الذين ذهبوا إلى الأندلــس وصقلية، فتتلمذوا على أيدي أعلام الثقافة الإســلامية، وأخذوا عنهم، ومــن أبرز هؤلاء: توماس براون، وأدلرد أوف باث، وروبرت أوف تشســتر، ودانييل أوف مورلي، وميخائيل سكوت، وروجر بيكون، وهؤلاء تثقفوا بالثقافــة العربية، وترجموا عن العربية الكثير من المؤلفات، وإن كان يُعاب على كثير منهم - وخاصة روجر بيكون - عدم نسبتهم كثيرًا من المكتشفات إلى أصحابها الأصليين، وانتحالهم لها.

ثم أُنْشِئَ أول كرسي للغة العربية في جامعة أكسفورد بفضل كبير الأساقفة لود (Loud)، ثم حمل مطلع القرن الثامن عشر إنشاء كرسيين جديدين للغة العربية في جامعتي أكسفورد وكمبريدج.

ثــم بعد دخول (عصر الاســتعمار) احتاجــت تلك الدول إلى خبراء ليُســتفاد منهم في طريقــة فهم وحُكْم وإخضاع وتغيير ميول وهوية الشــعوب المســتَعْمَرة؛ مما شَــكَّل ازدهارًا في حركة الاستشــراق، الذي صارت تدعمه الحكومات، فنشــطت حركة الدراسات العلمية والميدانية مــن خلال نقل المخطوطات التي تزخر بها بلاد المســلمين، وبالتالي ترجمتها، ودراســتها، وفهرستها، وتحقيقها، والتعليق عليها، والاســتفادة منها، ونشطت - أيضًا - من خلال تَوَافُد المستشرقين والدارسين إلى تلك البلاد، وكثيرًا ما كانت إقامتهم تطول.

وفــي عام (1945م) شَــكَّل وزيــر الدولة للشــئون الخارجية لجنة برئاســة إيرل أوف إســكاربورو؛ لبحث وسائل وبرامج تعليم اللغات والثقافات الشرقية والسلافية بما فيها أوربا الشــرقية، وخصَّت تلك اللجنة هذه الدراســات بمِنَحٍ خاصة، وإغــراءات أخرى؛ مما أعطى ازدهارًا أكبر لحركة الاستشراق.

وفــي عام (1960م) تطوَّر الاهتمام العلمي بشــكل أكبر، وذلك مــن خلال اللجنة التي قَيَّمــت التطور البحثي في الفترة الســابقة منذ عام (1946م) (لجنة إســكاربورو)، وأوصت بزيادة الدراســات الخاصة بالمناطق الشــرقية كمناطق وليس فقط اللغات والثقافات؛ مما

كان من نتائجه إنشـاء أقسـام أكثر تخصُّصًا في الجامعات الحديثة تُعْنَى بدراسـة المناطق الشرقية.

فأنشـأت (56) جامعـة أو معهد يُعلِّم معظم اللغات الشـرقية؛ ومن أشـهرها: جامعة أكسفورد، التي أنشأت كرسيًا لدراسة اللغات الشرقية، تنفيذًا لقرار البابا إكليمنص الخامس في مجمع فيينا (1311 - 1312م)، ثم بعد أكثر من ثلاثة قرون، أُنشـئ كرسي للغة العربية وحدها كما قدمنا بتوصية الأب لود عام (1636م)، ثم زادت هذه الكراسي مع ازدياد وازدهار وتطوُّر حركة الاستشراق.

ومن أشـهر الجامعات كذلك جامعة كمبريدج، التي أُنشئ فيها أول كرسي للغة العربية عام (1633م)، وكذلك جامعة لندن، وجامعة درهام، وجامعة فيكتوريا، وجامعة ليدز، وجامعة ويلز، وجامعة شـيفيلد، وجامعة برسـتول، هذا غير الكثير من المعاهد والكليات والأقسـام التي نشأت في البلاد المُسْتَعْمَرة - كمصر، والهند، وباكستان - يوم أن كانت بريطانيا مملكة «لا تغيب عنها الشمس».

ومن أشهر المكتبات البريطانية التي توجد فيها كنوز الشرق: مكتبة المتحف البريطاني في لندن، ومكتبة إسـكتلندا الوطنية في أدنبرا، ومكتبة ويلز الوطنية في ابريستويث، ومكتبة ديوان الهند في لندن.

إضافة إلى مكتبات الجامعات؛ مثل: المكتبة البودلية - نسـبة إلى مؤسسـها السـير توماس بُودلي وهو سياسـي إنجليزي - والتي كانت تحـوي وحدها في عام (1940م) عددًا ضخمًـا بلغ 800 ألف كتـاب، و41 ألف مخطوط، وكذلك مكتبة جامعـة كمبريدج، ومكتبة جامعـة لندن، ومكتبة جامعة درهام، ومكتبة جامعة مانشسـتر، ومكتبة جامعة ليدز، ومكتبة جامعة ليفربول.. وغيرها من المكتبات الجامعية المنتشرة في بريطانيا.

وهنـاك - كذلك - مكتبات الجمعيات الكبرى؛ مثل: مكتبة الجمعية الملكية الآسـيوية، ومكتبـة الجمعية البريطانيـة والأجنبية للكتاب المقـدس (دار الكتاب المقـدس)، وأيضًا المكتبات الخاصة الكثيرة والمنتشرة[1].

وننقـل في هذه الشـهادات عن عدد من أبرز المستشـرقين البريطانييـن؛ الذين كان بعضهم في غاية الإنصاف والتقدير للإسـلام والرسـول (ﷺ) والحضارة الإسلامية، وكان بعضهم الآخر متعصبًا ومتحاملاً، ولكنه لم يملك إلا أن يعترف ببعض الحقِّ للإسـلام ونبيِّه وحضارته.

(1) انظر: نجيب العقيقي: المستشرقون 2/7-38.

شهادات علماء بريطانيا

«لقد كان منفردًا بنفسه العظيمة وبحقائق الأمور والكائنات،

لقد كان سرُّ الوجود يسطع لعينيه بأهواله ومخاوفه ومباهره، ولم يكن هنالك من الأباطيل ما يحجب ذلك عنه، فكأنه لسان حال ذلك السرِّ يناجيه، هأنذا. فمثل هذا الإخلاص

لا يخلو من معنى إلهي مقدَّس، وما كلمة مثل هذا الرجل إلا صوت خارج من صميم قلب الطبيعة، فإذا تكلَّم فكل الآذان برغمها صاغية، وكل القلوب واعية، وكل كلام ما عدا ذلك هباء وكل قول جفاء...».

توماس كارليل

الأمير البريطاني تشارلز (Prince Charles):



(14 نوفمبر 1948م-....)

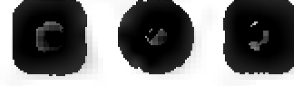
تشـــارلز فيليـــب آرثر جـــورج، أمير ويلـــز وولي عهد المملكـــة المتحدة، هو ابـــن الملكة إليزابيـــث الثانية ملكة المملكة المتحدة، وزوجها الأميـــر فيليب دوق أدنبرا. وهو أب للأميرين ويليـــام وهنري (المعروف باســـم هاري) من زوجته الأولى ديانا سبنسر.

حاليًّا متزوج من كاميلا، دوقة كورنوال.



- تكامل لا انفصال:

يقول الأمير البريطاني تشارلز: «إن الإسلام يمكن أن يُعَلِّمَنا طريقةً للتفاهم والعيش في العالم، الأمر الذي فقدته المسيحية، فالإسلام يرفض الفصل بين الإنسان والطبيعة، والدين والعلم، والعقل والمادة»[1]



(1) الأمير تشارلز: (الإسلام والغرب) محاضرة في مركز أوكسفورد للدراسات الإسلامية عام 1993م.



سير توماس أرنولد (Thomas Walker Arnold):

(1864 - 1930م)

مستشرق بريطاني شهير، بدأ حياته العلمية في جامعة كمبريدج، حيث أظهر حُبَّه للغات، فتعلم العربية، وانتقل للعمل باحثًا في جامعة عليكرا في الهند، حيث أمضى هناك عشر سنوات، ألَّف خلالها كتابه المشهور: (الدعوة إلى الإسلام). ثم عَمِل أستاذًا للفلسفة في جامعة لاهور، وفي عام (1904م) عاد إلى لندن ليصبح أمينًا مساعدًا لمكتبة إدارة الحكومة الهندية التابعة لوزارة الخارجية البريطانية، وعَمِل في الوقت نفسه أستاذًا غير متفرغ في جامعة لندن، وكان عضو هيئة تحرير دائرة المعارف الإسلامية، التي صدرت في ليدن بهولندا في طبعتها الأولى، وعَمِل أستاذًا زائرًا في الجامعة المصرية عام (1930م)، ويُذْكَر أنه كان مُعَلِّمًا للمفكر الإسلامي الهندي محمَّد إقبال.

(الدعوة إلى الإسلام.. بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية = The Spread of Islam in the World: A History of Peaceful Preaching)

ويُعَدُّ هذا الكتاب كله شهادة كبرى، وهو من أفضل ما أُلِّف راصدًا انتشار الإسلام في كل بقعة من الأرض، وهو كتاب جدير بالقراءة، وقد أطلنا في النقل عنه؛ لما جاء فيه من شهادات غزيرة، وإن كنا بعد هذه الإطالة نرى كثيرًا مما كان يجب أن يُنْقَل لم تَتَّسِعْ له المساحة المرصودة للهدف من هذا الكتاب.



- الكتاب البليغ:

«ونجد بين المسيحيين مثل ألفار (Alvar) – الذي عُرِفَ بتعصُّبه ضد الإسلام – يُقَرِّر أن القرآن قد صِيغ في مثل هذا الأسلوب البليغ الجميل، حتى إن المسيحيين لا يسعهم إلا قراءته والإعجاب به»[1].

- قيادة تُثِير الإعجاب:

«وقبيل وفاة محمد (ﷺ) نرى جميع أنحاء الجزيرة العربية تقريبًا تدين له بالطاعة، وإذا ببلاد العرب التي لم تخضع إطلاقًا لأمير من قَبْلُ تظهر في وحدة سياسية، وتخضع لإرادة حاكم مطلق، ومن تلك القبائل المتنوِّعَة – صغيرها وكبيرها، ذات العناصر المختلفة التي قد

(1) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص162.

تبلــغ المائة، والتي لم تنقطع عن التنازع والتناحر - خَلَقَتْ رســالةُ محمد (ﷺ) أُمَّةً واحدة، وجمعت فكرة الدين المشترك تحت زعامة واحدة، شتى القبائل في نظام سياسي واحد؛ ذلك النظام الذي سَرَتْ مزاياه في سرعة تبعث على الدهش والإعجاب»[1].

- التسامح وحرية الحياة:

«إن الفكرةَ التي شاعت بأن السيف كان العامل في تحويل الناس إلى الإسلام بعيدةٌ عن التصديق... إن نظرية العقيدة الإســلامية تلتزم التسامح وحرية الحياة الدينية لجميع أتباع الديانات الأخرى»[2].

- وجدنا أنفسنا في أمن وسلام:

«وقد استطاع ميخائيل الأكبر (Michael The Elder) بطريق أنطاكية اليّعقوبي، أن يحبذ فيما كتبه في النصف الثاني من القرن الثاني عشر، ما قَرَّره إخوانه في الدين، وأن يرى أصبع الله في الفتوح العربية... فكتب يقول بعد أن ســرد اضطهادات هرقل:... لما رأى (أي الله) شرور الروم الذين لجئوا إلى القوة فنهبوا كنائسنا، وسلبوا أديارنا في كافة ممتلكاتهم، وأنزلوا بنا العقاب في غير رحمة ولا شــفقة، أرسل أبناء إســماعيل من بلاد الجنوب ليُخَلِّصَنا على أيديهم من قبضة الروم... ولما أسلمت المدن للعرب خصص هؤلاء لكل طائفة الكنائس التي وُجِدَتْ في حوزتها، (وفي ذلك الوقت كانت قد انتزعت منا كنيســة حمص الكبرى، وكنيســة حَرَّان) ومع ذلك لم يكن كســبًا هَيِّنًا أن نتخلَّصَ من قســوة الروم وأذاهم وحنقهم وتحمُّسِهم العنيف ضدنا، وأن نجد أنفسنا في أمن وسلام»[3].

- اختيار وإرادة حُرَّة:

«ومن هذه الأمثلة التي قَدَّمْناها آنفًا عن ذلك التسامح، الذي بسطه المسلمون الظافرون على العرب المسيحيين في القرن الأول من الهجرة، واستمرَّ في الأجيال المتعاقبة، نستطيع أن نســتخلص بحقٍّ أن هذه القبائل المســيحية التي اعتنقت الإســلام إنما فعلت ذلك عن اختيار، وإرادة حُرَّة، وأن العرب المسيحيين الذين يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات مسلمة لَشَاهِدٌ على هذا التسامح»[4].

- لو أرادوا لاكتسحوا المسيحية:

«.. ولكننا لم نسمع عن أية محاولة مُدَبَّرة لإرغام الطوائف من غير المسلمين على قبول الإســلام، أو عن أي اضطهاد مُنظَّم قُصِد منه استئصالُ الدين المسيحي، ولو اختار الخلفاء

(1) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص52، 53.
(2) السابق، ص88.
(3) السابق، ص72، 73.
(4) السابق، ص70.

تنفيذ إحدى الخُطَّتَيْن لاكتسحوا المسيحية بتلك السهولة التي أقصى بها (فرديناند وإيزابيلا) دين الإسلام من إسبانيا، أو التي جعل بها (لويس الرابع عشر) المذهب البروتستانتي مذهبًا يُعاقَبُ عليه مُتَّبِعوه في فرنسا، أو بتلك السهولة التي ظل بها اليهود مُبعَدين عن إنجلترا مدة خمسين وثلاثمائة سنة، وكانت الكنائس الشرقية في آسيا قد انعزلت انعزالاً تامًّا عن سائر العالم المسيحي، الذي لم يُوجد في جميع أنحائه أحدٌ يقف في جانبهم باعتبارهم طوائف خارجة عن الدين، ولهذا فإن مجرَّد بقاء هذه الكنائس حتى الآن ليحمل في طَيَّاته الدليل القوي على ما أَقْدَمَتْ عليه سياسة الحكومات الإسلامية بوجه عام من تسامح نحوهم»[1].

- لم يفعلوا:

«لقد كان من السهل على أي حاكم من حُكَّام الإسلام الأقوياء أن يستأصل شأفة رعاياه المسيحيين، أو ينفيهم من بلادهم، كما فعل الإسبان بالعرب، والإنجليز باليهود مدة أربعة قرون تقريبًا»[2].

- فكرة لا تُصَدَّق:

«وإذا نظرنا إلى التسامح - الذي امتدَّ على هذا النحو إلى رعايا المسلمين من المسيحيين في صدر الحكم الإسلامي - ظهر أن الفكرة التي شاعت بأن السيف كان العامل في تحويل الناس إلى الإسلام بعيدة عن التصديق، ومن ثَمَّ لم يكن بُدٌّ من أن نلتمس بواعث أخرى غير ذلك الباعث الذي أوحى بالاضطهاد»[3].

- التسامح إلى أقصى حَدٍّ:

«فقد كان التسامح إلى أقصى حَدٍّ هو القاعدة المستمدَّة من الأصول الإسلامية»[4].

- هذا دليل ثابت:

«ظلَّ الكفار على وجه الإجمال ينعمون في ظلِّ الحكم الإسلامي بدرجات من التسامح لم نكن نجد لها مثيلاً في أوربا حتى عصور حديثة جدًّا، وإن التحوُّل إلى الإسلام عن طريق الإكراه مُحَرَّم؛ طبقًا لتعاليم القرآن... وإن مجرَّد وجود كثير جدًّا من الفِرَق والجماعات المسيحية - في الأقطار التي ظلَّت قرونًا في ظِلِّ الحكم الإسلامي - لدليل ثابت على ذلك التسامح الذي نعم به هؤلاء المسيحيون»[5].

(1) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص98، 99.
(2) السابق، ص464.
(3) السابق، ص88.
(4) السابق، هامش ص462.
(5) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص461.

- رسالة نصرانية:

«ولقد شهدت الفترة التي أعقبت الفتح العربي تحوُّل جماعات كبيرة من نصارى خراسان إلى الإسلام، كما نقف على ذلك من رسالة لأحد رجال الكنيسة المعاصرين – وهو البطريق النسطوري يشوع ياف الثالث (Isho Yaph)، وكان قد بعث بهذه الرسالة إلى سمعان (Simeon) مطران ريفاردشير ورئيس أساقفة فارس، وتحمل هذه الرسالة الدليل الساطع على طابع الهدوء والمسالمة في نشر هذا الدين الإسلامي»[1].

- يعطفون على ديننا:

«وإن العرب الذين منحهم الله سلطان الدنيا، يشاهدون ما أنتم عليه وهم بينكم كما تعلمون ذلك حَقَّ العلم، ومع ذلك فهم لا يحاربون العقيدة المسيحية، بل على العكس يعطفون على ديننا ويكرمون قسسنا وقدِّيسي الرب، ويجودون بالفضل على الكنائس والأديار»[2]. (من رسالة يشوع ياف الثالث (Isho Yaph) إلى المطران سمعان (Simeon) مطران فارس – في عهد عمر بن الخطاب إبَّان فتوحات فارس).

- لا ينسى الذميين على فراش الموت:

«وما أُثِرَ عن عمر بن الخطاب من أنه أمر أن يُعطى قوم مجذومون من النصارى من الصدقات، وأن يجرى عليهم القوت... وهو لا ينسى الذميين حتى في آخر وصاياه؛ إذ عهد فيها إلى من يخلفه بما ينبغي القيام به في هذا المنصب السامي، فقال: أوصيه بذمة الله ورسوله أن يوفي لهم بعهدهم، وألا يُكَلَّفُوا إلا طاقتهم»[3].

- لم تعرفها طَوَال قرون:

«أمَّا ولايات الدولة البيزنطية – التي سرعان ما استولى عليها المسلمون ببسالتهم – فقد وجدت أنها تنعم بحالة من التسامح لم تعرفها طَوَال قرون كثيرة؛ بسبب ما شاع بينهم من الآراء اليعقوبية والنسطورية، فقد سمح لهم أن يُؤَدُّوا شعائر دينهم دون أن يتعرَّض لهم أحد»[4].

- لا نسمع عن اضطهاد:

«أما عن حمل الناس على الدخول في الإسلام أو اضطهادهم – بأية وسيلة من وسائل الاضطهاد في الأيام الأولى التي أعقبت الفتح العربي – فإننا لا نسمع عن ذلك شيئًا،

(1) السابق، ص101.
(2) السابق، ص102.
(3) السابق، ص75.
(4) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص74.

وفي الحقِّ إن سياســة التسامح الديني التي أظهرها هؤلاء الفاتحون نحو الديانة المسيحية كان لها أكبر الأثر في تسهيل استيلائهم على هذه البلاد»[1].

- المقدسيون يُرَحِّبُون:

«وفــي ســنة (1244م) عندما وقــع بيت المقــدس نهائيًا في أيدي المســلمين، رَحَّب المسيحيون من أهل فلسطين بالسادة الجدد، واطمأنوا إليهم، ورضوا بحكمهم»[2].

- دليل وثائقي:

«ويمكن الحكم على مدى هذا التسامح – الذي يلفت النظر في تاريخ القرن السابع – من هذه العهود التي أعطاها العرب لأهالي المدن التي استولوا عليها، وتعهَّدُوا لهم فيها بحماية أرواحهم وممتلكاتهم، وإطلاق الحرية الدينية لهم في مقابل الإذعان ودفع الجزية»[3].

-.. لم تكن عقابًا:

«لم يكن الغرض من فرض هذه الضريبة على المســيحيين – كما يريدنا بعض الباحثين على الظنِّ – لونًا من ألوان العقاب لامتناعهم عن قبول الإسلام، وإنما كانوا يُؤَدُّونها مع سائر أهــل الذمة – وهم غير المســلمين من رعايا الدولة، الذين كانــت تحول ديانتهم بينهم وبين الخدمة في الجيش – في مقابل الحماية التي كَفَلتها لهم سيوف المسلمين».

ثم يقول: «ولما قَدَّمَ أهلُ الحيرة (للمســلمين) المــال المتَّفق عليه، ذكروا صراحة أنهم دفعوا هذه الجزية على شــريطة أن يمنعونا (أي يحموننا نحن المســيحيين) من المســلمين وغير المسلمين»[4].

- لم تُفرض إلا على القادرين:

«علــى أن هذه الجزية لــم تُفرَض إلا على القادرين من الرجــال، على حين أُعفِيَ منها النســاء، والأطفال، والرهبان، والمقعدون، والعميان، والمرضى، والمســاكين، والأرقَّاء، هذا إلى أن جمع هذه الضرائب قد قام به الموظفون المسيحيون أنفسهم؛ مما خَفَّفَ من وطأتها على الناس»[5].

(1) السابق، ص157.
(2) السابق، ص116.
(3) السابق، ص74.
(4) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص79.
(5) السابق، ص157.

- **الاندماج السلمي:**

«وأما فيما يتعلَّقُ بالسواد الأعظم من هؤلاء المسيحيين العرب، فإن الأخبار الخاصَّة بزوال المسيحية من بين القبائل العربية النصرانية - التي كانت تُقيم في بلاد العرب الشمالية - لا تزال بحاجة إلى شيء من التفصيل، والظاهر أنهم قد انتهوا إلى الامتزاج بالمجتمع الإسلامي، الذي كان يحيط بهم عن طريق ما يسمونه (الاندماج السلمي)، الذي تَمَّ بطريقة لم يحسها أحد منهم، ولو أن المسلمين حاولوا إدخالهم في الإسلام بالقوة - عندما انضووا بادئ الأمر تحت لواء الحكم الإسلامي - لما كان من الممكن أن يعيش المسيحيون بين ظهرانيهم حتى عصر الخلفاء العباسيين»[1].

- **زعم كاذب:**

«... وإن مجرَّد بقاء الكنيسة المسيحية القومية في إفريقية الشمالية مثل هذا الوقت الطويل ليدحض أي زعم بأن تحوُّلَهم إلى الإسلام قد قام على القوة والإكراه»[2].

- **صلاح الدين وخلفاؤه:**

«وفي عهد صلاح الدين الأيوبي في مصر تمتَّع المسيحيون بالسعادة إلى حدٍّ كبير في ظلِّ ذلك الحاكم، الذي عُرِفَ بالتسامح الديني، فقد خُفِّفَت الضرائب التي كانت فُرضت عليهم، وزال بعضها جملة، وملئوا الوظائف العامَّة؛ كوزراء، وكُتَّاب، وصيارفة.

وفي عهد خلفاء صلاح الدين نعموا بمثل هذا التسامح والرعاية قرابة قرن من الزمان، ولم يكن هناك ما يشكون منه إلا ما اتَّصف به كهنتهم أنفسهم من الفساد والانحطاط، فقد فشت السيمونية بينهم، فبيعت مناصب القسيسين الذين اتَّصفوا بالجهل والرذيلة، على حين حِيلَ بين الذين طلبوا التعيين وبين هذا المنصب المقدَّس؛ بعجزهم عن أداء الأموال المطلوبة في احتقار وازدراء، مع أنهم كانوا الجديرين بشغل هذا المنصب»[3].

- **الحرية التامَّة:**

«ومما يدلُّ على أن تحوُّل المسيحيين إلى الإسلام لم يكن راجعًا إلى الاضطهاد، ما وقفنا عليه من الشواهد التاريخية الأصيلة، وهو أنه في الوقت الذي شغر فيه كرسي البطرقية، تمتَّع المسيحيون بالحرية التامَّة في إقامة شعائرهم، وسمح لهم بإعادة بناء كنائسهم، بل ببناء كنائس جديدة... وحوكموا في محاكمهم الخاصة، على حين أُعفي الرهبان من دفع الجزية، ومُنحوا امتيازات معينة»[4].

(1) السابق، ص68.

(2) السابق، ص153.

(3) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص128، 129.

(4) السابق، ص130.

- من جدل عقيم إلى عقيدة واضحة:

«إن سرعة انتشار الإسلام في الأيام الأولى من الاحتلال العربي قد تكون راجعة إلى عجز ديانة كالديانة المسيحية وعدم صلاحيتها للبقاء، أكثر من أن تكون راجعة إلى الجهود الظاهرة التي قام بها الفاتحون لجذب الأهلين إلى الإسلام»[1].

ويسترسل في حديثه قائلاً: «ولا شكَّ أن كثيرًا من هؤلاء قد تحوَّلُوا - وقد أخذت الحيرَة منهم كلَّ مأخذٍ، واستولى على نفوسهم الضجر والإعياء من ذلك الجدل السقيم، الذي احتدم من حولهم - إلى عقيدة تتلخص في وحدانية الله البسيطة الواضحة، ورسالة نبيه محمد (ﷺ)، بل إننا نجد في داخل الكنيسة القبطية نفسها في عصر متأخِّر شواهد تُنْبِئ عن حركة إن لم تكن إسلامية خالصة فقد كانت على الأقل وثيقة الصلة بها، وربما ساعد عدم وجود أي نظام كنسي مستقلٍّ يجد طريقة لإيضاحه والتعبير عنه على زيادة عدد الذين دخلوا في الإسلام»[2].

- حياة تقوم على الحرية الدينية:

«وقد جلب الفتح الإسلامي إلى هؤلاء القبط حياة تقوم على الحرية الدينية، التي لم ينعموا بها من قبل ذلك بقرن من الزمان»[3].

- أسلموا قبل الفتح:

«وليس هناك شاهد من الشواهد على أن ارتدادهم عن دينهم القديم ودخولهم في الإسلام على نطاق واسع كان راجعًا إلى اضطهاد أو ضغط، يقوم على عدم التسامح من جانب حكامهم الحديثين، بل لقد تحوَّل كثير من هؤلاء القبط إلى الإسلام قبل أن يتمَّ الفتح، حين كانت الإسكندرية - حاضرة مصر وقتئذٍ - لا تزال تقاوم الفاتحين، وسار كثير من القبط على نهج إخوانهم بعد ذلك بسنين قليلة»[4].

- ثورة على الفساد والخرافات:

أما تايلور[5] فيذكر أن السبب في انتشار الإسلام بسهولة ويُسْرٍ في قارتي إفريقيا وآسيا هو فساد المجتمع المسيحي فيقول: «إنه من اليسير أن نُدرك لماذا انتشر هذا الدين الجديد بهذه السرعة في إفريقيا وآسيا... وكان الناس في الواقع مشركين يعبدون زمرة من الشهداء والقديسين والملائكة، كما كانت الطبقات العليا مخنَّثة يشيع فيها الفساد،

(1) السابق، ص125، 126.

(2) السابق، ص126.

(3) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص123.

(4) السابق، ص124.

(5) جون تايلور: فيلسوف وسياسي أمريكي، وُلد عام 1753م، وتوفي عام 1824م.

والطبقات الوسطى مرهقة بالضرائب، ولم يكن للعبيد أملٌ في حاضرهم ولا مستقبلهم، فأزال الإسلام - بعون من الله - هذه المجموعة من الفساد والخرافات، لقد كان ثورةً على المجادلة الجوفاء في العقيدة، وحجةً قويةً ضدَّ تمجيد الرهبانية باعتبارها رأس التقوى»[1].

- عقيدة يشرحها أي فرد:

«في مقدمة هذه الأسباب: بساطة العقيدة الإسلامية: لا إله إلا الله محمد رسول الله، وكل ما يُطْلَبُ من الذي يدخل في الإسلام قبول هاتين الشهادتين.. إن هذه العقيدة البسيطة لا تتطلَّب تجربة كبيرة للإيمان، ولا تُثير في العادة مصاعب عقلية خاصَّة، وإنها لتدخل في نطاق (أدنى درجات) الفهم والفطنة، ولما كانت خالية من المخارج والحيل النظرية اللاهوتية، كان من الممكن أن يشرحها أي فرد، حتى أقل الناس خبرة بالعبارات الدينية النظرية»[2].

- دين عقلي:

«ولا يستطيع أي فرد أن يُوَضِّحَ الطابع العقلي للعقيدة الإسلامية - وما جَنَتْهُ من هذا الطابع من الفائدة في نشر الدعوة - توضيحًا يبعث على الإعجاب بأكثر مما وَضَّحه البروفسور (مونتيه)[3] في العبارات التالية: الإسلام في جوهره دين عقلي، بأوسع معاني هذه الكلمة من الوجهتين الاشتقاقية والتاريخية...»[4].

- انتشار روحي:

«ولم يكن النشاط الروحي للإسلام - كما زعم عدد كبير جدًا من الناس - متمشيًا مع سلطانه السياسي، بل على العكس من ذلك، نجد فقدان السلطة السياسية والانتعاش المادي يعمل على إبراز أجمل الصفات الروحية التي تُعَدُّ أصدق البواعث التي تحفز على القيام بأعمال الدعوة»[5].

---

(1) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص90.

(2) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص454.

(3) إدوارد مونتيه: (1856م- 1927م)، مستشرق فرنسي، وُلد بليون من أصل سويسري، وتلقى العلم فيها حتى عام (1874م)، فانتقل إلى جامعات جنيف، وبرلين، وهايدلبرج، ثم أحرز لقب دكتور في اللاهوت البروتستانتي من جامعة باريس (1883م)، وفي عام (1885م) عُيِّن أستاذًا للعبرية والآرامية والعهد القديم في جامعة جنيف، ثم أضيف إليه العربية وتاريخ الإسلام (1894م)، وترَأَّسَ تلك الجامعة (1910-1912م)، وانتدبته الحكومة الفرنسية في بعثتين علميتين إلى المغرب، واسْتُدْعِيَ لإلقاء محاضرات عن الإسلام في معهد فرنسا (1910م)، وانتخب عضوًا في المجمع العلمي العربي بدمشق منذ نشأته، واشتهر بدراساته عن العرب والإسلام، والتي تميزت بالعمق والأصالة والموضوعية، ترجم القرآن إلى الفرنسية، من أشهر مؤلفاته: (حاضر الإسلام ومستقبله).

(4) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص454، 455.

(5) السابق، ص469.

- تلك الأُخُوَّة.. أحسن الوسائل:

«ولم تستطع أية محاولة يقوم بها عباقرة أي دين أن تتصوَّر وسيلة أحسن من هذه الوسيلة؛ تطبع في عقول المخلصين معنى حياتهم المشتركة، ترى زنجي ساحل إفريقية الغربي يلتقي بالصيني من أقصى الشرق، ويتعرَّفُ التركي الرقيق المهذب على أخيه المسلم من أهل الجزائر المتوحشين[1]، الذين يسكنون أبعد أطراف الملايو، وفي هذا الوقت نفسه تتطلَّع قلوب المؤمنين في كافة أنحاء العالم الإسلامي - في عطف وحنين - إلى إخوانهم الأسعد حظًّا منهم الذين تجمَّعوا في المدينة المقدسة»[2].

- تنفس الفرس الصعداء:

«لما تشتَّت الجيوش الفارسية لم يَلْقَ المسلمون مقاومة تُذْكَر من الشعب الفارسي، الذي كان قد استبدَّ بحكمه ممثلو الدولة الساسانية - في أواخر أيامها - استبدادًا امتاز بكثير من ضروب الفوضى والعنت، ومما أثار غضب الأهلين - وجعلهم ينظرون إلى حُكَّامهم نظرة تنطوي على الكراهية والبغضاء، وزادت شُقَّة الخلاف بينهم - أن هؤلاء الحُكَّام كانوا يُناصرون ديانة زرادشت، التي غدت الدين الرسمي للدولة... وصاروا على جانب عظيم من القوة في مجالس الملك، وادَّعَوْا أن لهم نصيبًا كبيرًا في إدارة الشئون المدنيَّة، واستغلُّوا نفوذهم في اضطهاد كل الديانات المخالفة لهم (وكانت كثيرة)... وقد أثار هذه الاضطهاد شعور الكراهية المريرة الذي أحسَّه الشعب الفارسي نحو هذا الدين الذي تغلغل في بلاد فارس، ونحو تلك الدولة التي وقفت من ذلك الاضطهاد موقف الرضا والتشجيع، كما كان كذلك عِلَّة ذلك الانتصار الذي حالف الفتح العربي، وجعله ينظر في صورة تخليص الأهلين مما أصبحوا فيه.

وما أن تَمَّ للمسلمين ما أرادوا على هذا الوجه، حتى تنفس الفرس أنفسهم الصعداء، ورحبوا بالعرب حبًّا في الخلاص من ظلم الحكام أولاً، ورغبة في إعفائهم من الخدمة العسكرية ثانيًا، ثم أملاً في تمتعهم بالحرية الدينية آخر الأمر»[3].

- مُنقِذ الفُرس:

«كان أهالي فارس والأجناس السامية - بوجه خاصٍّ - قد بلغت عقليتهم درجة ساعدتهم على التحوُّل إلى ذلك الدين الجديد، والترحيب باعتناقه في حماسة ملحوظة؛ لما يمتاز به من بساطة، وهكذا قُدِّر للإسلام أن يُبَدِّد بضربة واحدة كل هذه الغيوم، وأن يفتح أمام

(1) يقصد الإندونيسيين، وهذا تعبير أرنولد والذي لا نوافقه فيه بالطبع وإنْ نقلناه للأمانة العلمية.

(2) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص557.

(3) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص235، 236.

الناس سُبُلاً واضحة من الآمال الكبيرة، وأن يَعِدَهم بتخليصهم في أسرع وقت من عبوديتهم وحالتهم السيئة.

على أن سكان المدن - وخاصّة الصُّنَّاع، وأصحاب الحرف، وأهل الطبقة العاملة - قد رَحَّبُوا بالدين الإسلامي، واعتنقه عدد عظيم منهم في حماسة كبيرة؛ وذلك لما تتطلَّبه أعمالهم من تركهم ديانة زرادشت، وتقبيح عبادة النار والأرض والماء، وهم الذين كان يُنظر إليهم أمام القانون باحتقار وازدراء، ولما في اعتناقهم الإسلام - أيضًا - من تركهم في الحال أحرارًا، ومساواتهم في المذهب الديني»[1].

- حتى معابد النار:

«إننا نقرأ أن أحد قُوَّاد المسلمين (في عهد الخليفة المعتصم 218-227هـ=833-842م) أمر بجلد إمام ومؤذن؛ لأنهما اشتركا في هدم أحَد معابدهم في بلاد الصُّغْد، واستخدما حجارته في بناء مسجد مكانه، وفي القرن العاشر الميلادي، أي بعد فتح فارس بثلاثة قرون، وُجدت معابد النار في العراق، وفارس، وكَرْمَان، وسِجِسْتَان، وخراسان، وجبال أذْرَبِيجَان وأران، وبعبارة أخرى في كل كورة من كور فارس تقريبًا، كما لم تَخْلُ أي مدينة أو كورة من المجوس أو معابد النار، وقد ذكر الشهرستاني أيضًا (حين أَلَّف في عصر متأخِّر في القرن الثاني عشر) اسم معبد للنار في إسفينية بجوار بغداد نفسها»[2].

- لم يستعينوا بالقوة:

«من المستحيل قطعًا أن نقول: إن اضمحلال ديانة زرادشت كان سببه أن الفاتحين المسلمين استعانوا بالقوة على حمل الناس على اعتناق الإسلام»[3].

- حماسة وسماحة!

«وكان أوزبك خان[4] زعيم القبيلة الذهبية من سنة 1313م حتى 1340م شهيرًا بتحمُّسِه لنشر تعاليم الدين الإسلامي، وحرصه على تحويل كثير من الأهلين إليه... ويقال: إنه وضع خطة لنشر الإسلام في كافَّة أرجاء بلاد الروسيا... وعلى الرغم مما أظهره أوزبك من التحمس نشر الإسلام، وتفانيه في الإخلاص له، فإنه كان كثير التسامح نحو رعاياه من المسيحيين؛ فقد منحهم الحرية التامَّة في إقامة شعائرهم الدينية، من غير أن يتعرَّض لهم أحد بسوء، وذهب في تسامحه إلى أبعد من هذا، فسمح لهم بموالاة التبشير لدينهم ونشره في بلاده»[5].

(1) السابق، ص236، 237.
(2) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص239.
(3) السابق، ص239.
(4) أوزبك خان: هو من الملوك المغول المسلمين.
(5) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص271، 272.

- وثيقة:

العهـد الذي منحـه (أوزبك خان) للمطران بطرس في سـنة (1313م)، وقد جاء فيه: «بمشيئة الله القدير وعظمته ورحمته... من أوزبك إلى أمرائنا، كبيرهم وصغيرهم، وغيرهم، إن كنيسـة بطرس مقدسة، فلا يحلُّ لأحدٍ أن يتعرَّض لها ولا لأحد من خُدَّامها أو قسيسيها بسـوء، ولا أن يسـتولي على شـيء من ممتلكاتها، أو متاعها، أو رجالها، وأن لا يُتَدَخَّل في أمورها؛ لأنها مُقَدَّسـة كلها، ومَنْ خالف أمرنا هذا بالتعدِّي عليها فهو أثيم أمام الله، وجزاؤه مِنَّا القتل، ولندع المطران ينعم بالأمان والبهجة، ولندعه (أو وكيله) يُقَرِّر ويُنَظِّم كل المسائل الكنسية بقلب سليم، وفؤاد عادل قويم، وإننا نُعلن في حزمٍ أننا نحن وأولادنا، وأمراء دولتنا، وولاة أقاليمنا لن نتدخَّل بأي حال في شـئون الكنيسة، ولا في شئون المطران، ولا في شئون المـدن والمراكز والقـرى والأراضي المخصصة للصيد في البَـرِّ والبحر، ولا في الأراضي والمراعـي والصحاري، ولا في المدن والأماكن الداخلة في أملاكها الخاصة، ولا في الكروم والطواحين، ولا في مراعي الشتاء، ولا في أي شيء من ممتلكات الكنيسة وأمتعتها، ولْنَدَعْ بال المطران في راحة دائمة خاليًا من كل تعب أو نصب، ولْنَدَعْ قلبه سـليمًا قويًا، ولْنَدَعْهُ يُصَلِّي لله مِنْ أجلنا، ومن أجل أولادنا وأمتنا، حتى إذا وضع أحد يده على شـيء مُقَدَّس ثبتت عليه التهمـة، وباء بغضب من الله، وكان جزاؤه القتـل حتى يُلْقِيَ مصيرُه الرعبَ والفزع في قلوب الآخرين، وإذا فُرِضَ الخَرَاج أو غيره من الضرائب؛ كالرسوم الجمركية، والمكوس، وضرائب الطرق والأراضي غير المزروعة، أو إذا أردنا حشـد الجنود من بين رعايانا، فلا يُجْمَع شيء بالقـوة والإكراه من الكنائس التابعة للمطران بطـرس، أو لأي أحد من رجال الدين التابعين له، وكلُّ مَا يُؤْخَذ من رجال الدين بالقوة والإكراه يُرَدُّ إليهم أضعافًا ثلاثة.. ولتكن شـرائعهم، وكنائسهم، وأديارهم، ومعابدهم محلَّ الاحترام والتعظيم. وكلُّ مَنْ يُتَّهم أو يَحُطُّ من شأن هذا الدين فلن يُقْبَل منه أي عذر، ولا أن يطلب العفو، بل يكون جزاءه القتل، وسـوف يتمتع إخوة القسيسـين والشمامسة الذين يجلسون إلى مائدة واحدة وفي دار واحدة بنفس هذه المزايا والحقوق...»(1).

- الهند.. رسائل لا سيوف:

«اسـتجاب كثير من أمراء السـند لدعوة الخليفة عمر بن عبد العزيز إياهم إلى اعتقاد الإسـلام... ويمكن أن نحكم على أن حالات التحوُّل هذه كانت في جوهرها – بمحض إرادة الذين أسـلموا – من ذلك التسـامح الديني، الذي أظهره العرب لرعاياهم الوثنيين... مثال ذلك: أنه سـمح لشـعب برهمن أباد – وكانت مدينتهم قد فُتِحَت عَنْوَة – بإصلاح معبدهم، الـذي كان مصـدر عيش البراهمة، وما كان لأحد أن يُحْرَم من إقامة شـعائر دينه الخاصة؛

(1) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص272، 273.

وكان الفاتحون بوجه عامٍّ لا يتردَّدُون في تخصيص حيٍّ من أحياء المدينَة لأصحاب الديانات الأخرى، كما كانوا يسمحون للشعب بإقامة عقائده وشرائعه الخاصة»[1].

- تصوُّر أرقى لمعنى الإله:

«بيد أن ما أحرزه الإسلام من نجاح مستمرٍّ في البنغال السفلى لم يكن راجعًا إلى القوة والعنف، فقد راق الإسلام نظر الأهالي، كما انتزع السواد الأعظم من الذين تحوَّلُوا إلى هذا الدين من طبقة الفقراء، وأدخل في أذهانهم تصوُّرًا أرقى لمعنى الإله، ومثلاً أسـمى للأخوة الإنسانية، وقَدَّم للعشائر المنحطة التي غَصَّت بها البنغال - والتي ظلت أجيالاً دنيئة وضيعة أبعـد ما تكون عن حظيـرة الجماعة الهندوكية - منفذًا حرًّا تَقَدَّمَتْ منه إلى نظام اجتماعي جديد»[2].

- سمو عقلي وخلقي:

«وحيثما شـقَّ الإسـلام طريقه نجد هناك الداعي المسـلم حاملاً الدليل لعقائد هذا الدين؛ فالتاجر سـواء أكان من العرب أم البول أم الماندنجو، يجمع بين نشـر الدعوة وبيع سـلعته، وإن مهنتـه وحدها لتصله صلة وثيقة مباشـرة بأولئك الذين يـرى أن يُحَوِّلَهم إلى الإسلام، وتنفي عنه كل ما يُحتمل أن يُتَّهم به من دوافع شريرة، وإذا ما دخل مثل هذا الرجل قرية وثنية، فسـرعان ما يلفت الأنظار بكثرة وضوئه، وانتظام أوقات الصلاة والعبادة، التي يبـدو فيها كما لو كان يُخَاطِب كائنًا خفيًّا، وإن ما يتحلَّى به من سـمو عقلي وخُلقي ليفرض احترامه والثقة به على الأهالي الوثنيين، الذين يُبدي لهم في نفس الوقت اسـتعداده ورغبته في مَدِّهم بمزاياه ومعارفه السامية»[3].

- جيش الفقهاء والتجار والحجاج!

«إن هناك شواهد كافية تدلُّنا على وجود جهود سلمية في الدعوة لنشر عقيدة الإسلام في خلال السنوات الستمائة الأخيرة، حقًّا إن السيف كان يُمْتَشَق أحيانًا لتأييد قضية الدين، ولكـن الدعوة والإقناع - وليس القوة والعنف - كانا هما الطابعين الرئيسـين لحركة الدعوة هذه، وإن النجاح الرائع هو الذي أحرزه التجار بنوع خاصٍّ، الذين كسـبوا السـبيل إلى قلوب الأهالي... وإلى جانب التجار كانت هناك جموعٌ ممن يصحُّ أن نُسَـمِّيَهم الدعاة المحترفين، وهم الفقهاء والحُجَّاج»[4].

(1) السابق، ص305، 306.
(2) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص314.
(3) السابق، ص391.
(4) السابق، ص445.

- **بالدعاة أكثر:**

«ففي جاوة كان ما أحرزه الإسلام من تَقَدُّم نتيجة أعمال الدعاة أكثر من أن يكون نتيجة أعمال الأمراء»[1].

- **السلاجقة لا البيزنطيون:**

«وكذلك دفع هذا الشعور نفسه - شعور الاطمئنان إلى الحياة الدينية في ظِلِّ الحكم الإسلامي - كثيرًا من مسيحيِّي آسيا الصغرى، في إبَّان هذه الفترة ذاتها إلى الترحيب بمقدم الأتراك السلاجقة، باعتبارهم مُخَلِّصين لهم من الحكومة البيزنطية البغيضة، لا بسبب نظام الضرائب المجحف وحده، ولكن بسبب رُوح الاضطهاد التي ظهرت بها الكنيسة الإغريقية، والتي قمعت بمثل هذه القسوة بِدَع أصحاب بولس ومُحَطِّمِي الصور والتماثيل (Icemoclasts) كذلك»[2].

- **أنقذونا:**

«وطالما دعا الأهلون الأتراكَ في عهد ميخائيل الثامن إلى الاستيلاء على مدنهم الصغيرة في داخل آسيا الصغرى؛ تخلُّصًا من استبداد الدولة، وكثيرًا ما هاجر الأغنياء منهم والفقراء إلى الولايات التركية»[3].

- **وفي ذروة النصر التاريخي العظيم:**

«من أولى الخطوات التي اتخذها محمَّد الثاني بعد سقوط القسطنطينية وإعادة إقرار النظام فيها، أن يضمن ولاء المسيحيين بأن أعلن نفسه حامي الكنيسة الإغريقية؛ فحرَّم اضطهاد المسيحيين تحريمًا قاطعًا، ومنح البطريق الجديد مرسومًا يضمن له ولأتباعه ولمرءوسيه من الأساقفة حقَّ التمتع بالامتيازات القديمة والموارد والهبات، التي كانوا يتمتعون بها في العهد السابق.

ولم يقتصر المسلمون في معاملة رئيس الكنيسة على ما تَعَوَّد أن يلقاه من الأباطرة المسيحيين من توقير وتعظيم، بل كان متمتعًا - أيضًا - بسلطة أهلية واسعة... وكان من أثر ذلك أن الإغريق - ولو أنهم كانوا يفوقون الأتراك عددًا في كلٍّ من الولايات الأوربية التابعة للدولة العثمانية - قد جعلهم التسامح الديني الذي رُخِّصَ لهم، وما تمتعوا به من حماية لحياتهم وأموالهم، يُسرعون في الموافقة على تغيير سادتهم وإيثار سيادة السلطان

(1) السابق، ص425.
(2) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص116.
(3) السابق، ص116، 117.

على سيادة أية سلطة مسيحية، وكان الغزاة العثمانيون في بقاع كثيرة من المملكة يَلْقَوْنَ ترحيبًا من جانب الإغريق، ويعدُّونهم مُخَلِّصِين لهم من الحكم الظالم المستبدِّ»[1].

- ظِلُّ المسلمين.. وظِلُّ الآخرين:

«ولا شَكَّ أن الولايات التركية كانت أحسن حُكْمًا وأكثر رخاء من معظم جهات أوربا المسيحية، وأن جمهرة السكان المسيحيين الذين اشتغلوا بزراعة الأراضي كانوا ينعمون بقدر كبير من الحرية الشخصية، كما كانوا ينعمون بثمار جهودهم في ظِلِّ حكومة السلطان أكثر مما كان ينعم به معاصروهم في ظِلِّ كثير من الحُكَّام المسيحيين، أضف إلى ذلك عاملاً كبيرًا كان من أهم العوامل في زيادة نشاط المملكة التجاري، ذلك أن السلاطين الأولين كانوا دائمًا على استعدادٍ لإنعاش الصناعة والتجارة بين رعاياهم، وأن كثيرًا من المدن الكبرى قد ازدهرت ازدهارًا كبيرًا عندما خَلَّصَهَا الفتح التركي ممَّا أصابها في عهد الدولة البيزنطية من طغيان الثروة الحكومية، التي عَرْقَلَتْ نهضتها وشَلَّتْ حركتها»[2].

-.. بعيون الرغبة!

إن المعاملة التي أظهرها الأباطرة العثمانيون للرعايا المسيحيين - على الأقل بعد أن غَزَوْا بلاد اليونان بقرنين - لَتَدُلُّ على تسامحٍ لم يكن مثله حتى ذلك الوقت معروفًا في سائر أوربا، وإن أصحاب «كالفن Calvin في المجر وترانسلفانيا، وأصحاب مذهب التوحيد من المسيحيين الذين كانوا في ترانسلفانيا، طالما آثروا الخضوع للأتراك على الوقوع في أيدي أسرة هابسبورج المتعصبة، ونظر البروتستانت في سيليزيا إلى تركيا بعيون الرغبة، وتمنَّوْا بسرور أن يشتروا الحرية الدينية بالخضوع للحكم الإسلامي، وحدث أن هرب اليهود الإسبانيون المضطهدون في جموع هائلة، فلم يلجئوا إلا إلى تركيا في نهاية القرن الخامس عشر، كذلك نرى القوزاق Cossaks الذين ينتمون إلى فرقة المؤمنين القدماء - الذين اضطهدتهم كنيسة الدولة الروسية - قد وجدوا من التسامح في ممالك السلطان ما أنكره عليهم إخوانهم في المسيحية»[3].

-.. وبشوق عظيم!

«وحتى إيطاليا كان فيها قوم يتطلَّعون بشوق عظيم إلى الترك؛ لعلهم يحظون كما حظي رعاياهم من قبلُ بالحرية والتسامح، اللذين يئسوا من التمتع بهما في ظِلِّ أية حكومة مسيحية، وهنا قد يلوح أن الإسلام لم ينتشر بالقوة في أملاك سلطان تركيا»[4].

(1) السابق، ص170-172.
(2) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص174.
(3) السابق، ص181، 182.
(4) السابق، ص183.

- **والخدم والموالي يشهدون:**

«وينبغي أن نُقَرِّرَ فيما يتعلق بالترك أنهم عاملوا خدمهم ومواليهم معاملة أحسن من تلك التـي كان النصارى يُعَامِلُون بها خدمهم وعبيدهـم.. فكان الخادم الماهر في فنٍّ من الفنون يتمتَّع بكل ما يرجوه الحُرُّ، ولا ينقصه إلا التحرُّر»[1].

- **وتلك وثيقة أخرى:**

«أدام الله بقاء دولة الترك خالدة إلى الأبد.. فهم يأخذون ما فرضوه من جزية ولا شأن لهم بالأديان، سـواء أكان رعاياهم مسـيحيين أم ناصريين، يهود أو سـامرة، أمَّا البولنديون الملاعين فلم يقنعوا بأخذ الضرائب والعشـور من إخوان المسـيح، بالرغم من أنهم يقومون بخدمتهم عن طيب خاطر، بل وضعوهم تحت سلطة اليهود الظالمين أعداء المسيح، الذين لم يسمحوا لهم حتى بأن يبنوا الكنائس، ولا بأن يتركوا لهم قسسًا يعرفون أسرار دينهم»[2].

(مقاريوس بِطْرِيق أنطاكية في القرن السابع عشر)

- **الطبقات العليا:**

«وبعد سـقوط القسـطنطينية أظهـرت الطبقات العليـا من المجتمع المسـيحي من الاستعداد لاعتناق الإسلام ما يفوق بكثير استعداد جمهرة اليونان»[3].

- **.. بل كانوا من العلماء:**

«ولما مَلُّوا مناقشـات لا نهاية لها حول مسائل مذهبية عويصة؛ كالانبثاق المزدوج لروح القدس، وأخرى تافهة – كاسـتخدام الخبز الخمير أو الفطير في القربان المُقَدَّس – تَقَبَّلُوا بصدر رحب تعاليم الإسـلام الواضحة المفهومة التي تقوم على الوحدانية، وقد انتهت إلينا أخبارٌ عن طوائف كبيرة من الناس أسـلموا، ولم يكونوا بسطاء عامتهم فحسب، بل كانوا من العلمـاء على اختلاف طبقاتهـم ومناصبهم وحالاتهم، وأخبارٌ عـن الطريقة التي أجرى بها الأتراك أرزاقًا أسـخى على هؤلاء الرهبان والقساوسـة الذين اعتنقوا الإسلام؛ حتى يكونوا قدوة قد تدفع غيرهم إلى اعتناق الإسلام»[4].

- **.. بل الأمراء:**

«وبينمـا كانت أدرنـة لا تزال العاصمة التركية (أي قبل سـنة 1453م) كان البلاط قد اكتظَّ بالذين أسلموا، ويقال: إنهم كانوا يؤلِّفون السواد الأعظم من أصحاب الجاه والسلطان

(1) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، هامش ص201.

(2) السابق، ص182، 183.

(3) السابق، ص187.

(4) السابق، ص186.

هنـــاك، وكثيرًا ما انحاز الأمراء البيزنطيون وغيرهم إلى صفوف المســـلمين، ووجدوا منهم ترحيبًا كبيرًا»[1].

- الأسير الداعية!!

«وحتى المسلم الأسير يغتنم الفرصة في المناسبات لدعوة آسريه أو إخوانه في الأسر إلى دينه. وقد تَسَــرَّب الإســـلام إلى أوربا الشــرقية أول الأمر بفضل ما قام به فقيه مسلم سيق أسيرًا، وربما في إحدى الحروب التي نشبت بين الدولة البيزنطية وجيرانها المسلمين، وجيء به إلى بلاد بيتشـــنج - في منطقة الدانوب الأدنى - في مســـتهل القرن الحادي عشر، ولقد بســـط هذا الفقيه الأســـير بين يدي كثير منهم تعاليم الإسلام، فاعتنقوه في إخلاص، حتى إنه أخذ في الانتشار بين هذا الشعب.

أمَّا ســـائر (البيتشـــنج) الذين لم يكونوا قد قَبِلُوا دين الإســـلام فقد ارتابوا من تَصَرُّف مواطنيهم، وانتهى بهم الأمر إلى نشـــوب القتال بينهم، وقاوم المســـلمون - وكان عددهم يبلغ نحوًا من اثني عشـــر ألفًا - هجمات الكفار في نجاح مع أن هؤلاء كانوا أكثر منهم عددًا بما يزيـــد على الضعفيـــن، ودخلت فلول المهزومين في دين المنتصريـــن.. ولم تأتِ نهاية القرن الحادي عشـــر حتى كان الشـــعب بأسره قد اعتنق الإســـلام، وكان من بينهم مسلمون تَعَلَّمُوا الفقه والتوحيد»[2].

- المُنْقِذون!

«وكان مـــن أثر هذه الاضطهادات أن رَحَّب اليهود بالعرب الغزاة وعَدُّوهم مُخَلِّصِين لهم مما حلَّ بهم من المظالم، فســـاعدوهم على فتح أبواب المدن، كما استعان بهم الفاتحون في حماية المدن التي وقعت بأيديهم.

كذلك رَحَّب بالمسلمين هؤلاء الأرقَّاء الذين حَلَّ بهم البؤس والشقاء في عهد المسيحيين الكاثوليك، الذين كانت معرفتهم بأصول المســـيحية ســـطحية، إذا ما وُزنت بذلك التســـامح الديني وهذه المزايا الكثيرة التي حصلوا عليها بإلقاء زمامهم للمسلمين.

وكان هؤلاء الأرقَّاء الذين وصلوا إلى الحضيض أول مَنْ تَدَيَّنَ بالإســـلام في إســـبانيا، ولا يبعد أن يكون عدد كبير من هؤلاء الأهلين الذين كانوا لا يزالون على الوثنية، والذين ورد ذكرهم في سنة (693م) قد ساروا على منهاج هؤلاء الأرقَّاء.

كما اعتنق هذا الدين الجديد كثير من أشـــراف المســـيحيين عن عقيدة راسخة أو عن بواعث أخرى، يضاف إلى ذلك عدد كبير من أهالي الطبقات الدنيا والوسطى تَدَيَّنُوا بالإسلام

(1) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص186.
(2) السابق، ص453، 454.

عن إيمان ثابت، متحوِّلينَ إليه من ديانتهم القديمة التي أهمل رجالها مصالحهم، ولم يحفلوا بتلقينهم أصولها، وانصرفوا إلى مطامع الدنيا، فساموهم الخسف ونهبوا أملاكهم»[1].

- سيوف التسامح!

«إن سياسة التسامح الديني التي أظهرها هؤلاء الفاتحون المسلمون نحو الديانة المسيحية كان لها أكبر الأثر في تسهيل استيلائهم على هذه البلاد»[2].

- لم يكن ثمة ما يدعوهم إلى الشكوى:

يُقرِّر أرنولد أن مسيحيِّي إسبانيا الذين بَقُوا تحت الحكم الإسلامي «رضوا عن طيب خاطر بأن يُحْرَمُوا بما كانوا يتمتَّعُون به من نفوذ سياسي وسلطة، لم يكن ثمة ما يدعوهم إلى الشكوى حتى إننا لم نسمع في خلال القرن الثامن الميلادي كله إلا عن محاولة واحدة للثورة من جانب هؤلاء المسيحيين المقيمين بمدينة بيجة، ويظهر أنهم انضووا في ثورتهم هذه تحت لواء رئيس عربي»[3].

- هكذا كانوا في ظلالنا:

«ولقد كان المسيحيون المدنيون في القرن التاسع الميلادي على الأقل يلبسون نفس ملابس العرب، كما سُمِحَ لهم في وقت من الأوقات أن يبنوا كنائس جديدة، كذلك نقرأ عن بناء عدة أديار جديدة، بالإضافة إلى الأديار الكثيرة المزدهرة التي أقام بها الرهبان والراهبات الذين عاشوا في أمن وطمأنينة، لا يَتَعَرَّض لهم حُكَّام المسلمين بسوء، وكان الرهبان يستطيعون الظهور على ملأ من الناس في وشاحهم الصوفي وَفق نظامهم الكنسي، ولم يكن ثمة ما يدعو القسيس إلى إخفاء شارته الدينية، وفي الوقت نفسه لم تَخْلُ المناصب الدينية دون تَقَلُّد المسيحيين المناصب العليا في البلاط، أو اندماجهم في سلك الرهبنة، أو انتظامهم في جيش المسلمين»[4].

- وهكذا كانوا في ظلالهم:

في حين «أن أولئك الذين هاجروا إلى الأراضي الفرنسية، لكي يعيشوا تحت حكم المسيحيين، لم يُصبحوا في الحقيقة أحسن حالاً من إخوانهم في الدين الذين خلفوهم وراء ظهورهم، (يقصد مَنْ رَضُوا بالعيش في ظِلِّ الحكم الإسلامي)، وفي سنة (812م) تَدَخَّل شارلمان لحماية المنفيين الذين لحقوا به عند ارتداده عن إسبانيا من عنت موظفي

(1) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص155.

(2) السابق، ص157.

(3) السابق، ص 159.

(4) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص158، 159.

الإمبراطورية واضطهادهم إياهم. وبعد ثلاث سنين لم يَرَ لويس التقي بُدًّا من إصدار مرسوم آخر لتحسين حال هؤلاء المنفيين، الذين لم يلبثوا أن لجئوا برغم هذا إلى الشكوى ثانيًا من الأشـــراف الذين اغتصبوا أراضيهم التي خُصِّصَــتْ لهم. ولم يمض وقت طويل على محاولة القضاء على هذه المســاوئ حتى عَمَّت الشكوى من جديد، ولم تُجْدِ هذه المراسيم والأوامر الملكية التي صدرت لتحســين حال هؤلاء المنفيين الناعســين، وسوف نصادف في العصور المتأخِّرة في الجالية الإسبانية التي فَرَّت من الحكم الإسلامي طبقة محتقَرَة، عوملت معاملة سيئة، ووَضَعَتْ نفسها تحت رحمة بني جنسهم من المسيحيين»[1].

- تأثير ناعم:

«إن سياســة التســامح الديني – التي سارت عليها الحكومة الإســلامية نحو رعاياها المســيحيين في إســبانيا – وحرية الاختلاط بين المتديِّنين قد أدَّتْ إلى شيء من التجانس والتماثل بين الجماعتين، وقد كثر التصاهر بينهم.. هذا إلى أن كثيرين من المســيحيين قد تَسَمَّوْا بأسماء عربية، وقَلَّدُوا جيرانهم المسلمين في إقامة بعض النظم الدينية، فاختتن كثير منهم، وساروا وَفق رسوم غير المعمدين (أي المسلمين) في أمور الطعام والشراب»[2].

- مدنيَّة ساحرة وفنٌّ باهر:

«وقد بلغ من تأثير الإسلام في نفوس معظم الذين تحوَّلوا إليه من مسيحيِّي إسبانيا مبلغًا عظيمًا، حتى ســحرهم بهذه المدنيَّة الباهرة، واســتهوى أفئدتهم بشعره وفلسفته، وفنِّه الذي استولى على عقولهم وبهر خيالهم، كما وجدوا الفروسية العربية الرفيعة مجالاً فسيحًا لإظهار بأسهم، وما تَكَشَّفت عنه هذه الفروسية من قصد نبيل وخُلق كريم... لا يسعنا إلا الاعتراف بأن تاريخ إسبانيا في ظِلِّ الحكم الإسلامي يمتاز ببعده بُعْدًا تامًّا عن الاضطهاد الديني»[3].

- علماء اللاهوت حين يعلمون:

«إن علماء اللاهوت المســيحي حين أدَّى اختلاطهم بالمســلمين اختلاطًا شخصيًّا إلى تكوين رأي أكثر إنصافًا عن ديانة المسلمين، وزعزع الارتباط بأساليب التفكير الحديثة أفكار الناس وآثار ألوان الزندقة – لم يكن بالغريب أن ينجذب كثيرون إلى حظيرة الإسلام»[4].

- كانوا كثيرين:

«وكان عدد المرتدين (عن المسيحية) في القرن الثاني عشر الميلادي كثيرًا كثرة نلاحظها في سجلات الصليبيين القانونية التي يُطْلَقُ عليها: مجالس قضاء بيت المقدس»[5].

(1) السابق، ص159.
(2) السابق، ص159، 160.
(3) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص164.
(4) السابق، ص110.
(5) السابق، ص110.

- سِحْر الأخلاق:

«ويظهر أن أخلاق صلاح الديـن الأيوبي وحياته التي انطوت على البطولة، قد أحدثت في أذهان المسيحيين في عصره تأثيرًا سحريًّا خاصًّا، حتى إن نفرًا من الفرسان المسيحيين قـد بلغ من قوة انجذابهم إليه أن هجروا ديانتهم المسـيحية، وهجروا قومهم وانضمُّوا إلى المسلمين»[1].

- خطر الدخول في الإسلام:

لقد اعتنق الإسـلام كثيرٌ من غير المسـلمين، وكثيرون منهم نبلاء وقساوسة؛ مما دعا رئيـس فرسـان المعبد أن يلتمس من البابا ونوابه في فرنسـا وصقليـة أن يمنعوا الفقراء، والشـيوخ، والعاجزين عن حمل السلاح والعبور إلى فلسطين؛ لأنهم حين وقوعهم في الأسر فسـوف يفتنهم المسـلمون عن دينهم وإلى ذلك يُشِير أَرنولد قائلاً: «وكان خطر الدخول في الإسلام – وهو ما كان (يتعرَّض) له حجاج الأراضي المقدسة – قد شاع أمره في ذلك العصر بصورة واضحة، حتى إن أموري دي لاروش (Amaury de la Roche) رئيس فرسـان المعبد التمس من البابا ونوابه في فرنسا وصقلية، في مذكرة دونها حوالي سنة 1266م، أن يمنعوا الفقراء والشيوخ والعاجزين عن حمل السلاح من عبور البحر إلى فلسطين؛ لأن أمثال هؤلاء الأشخاص كانوا يَتَعَرَّضون إما للقتل أو الأسر، أو لأن يفتنهم العرب عن دينهم»[2].

- رحمة أقسى من الغدر!

«وفي الصراع مع السـلاجقة تخلَّى الإغريق الصليبيون عـن إخوانهم في الدين، وكتب المؤرخ القديم[3]: لقد جفوا إخوانهم في الدين الذين كانوا قساة عليهم، ووجدوا الأمان بين الكفار – يقصد المسـلمين السـلاجقة – الذين كانوا رحماء عليهـم، ولقد بلغنا أن ما يربو على ثلاثة آلاف قد انضمُّوا بعد أن تقهقروا، إلى صفوف الأتراك، آه! إنها لرحمة أقسى من الغدر! لقد منحوهم الخبز، ولكنهم سـلبوهم عقيدتهم، ولو أنـه من المؤكد أنهم لم يُكرهوا أحدًا من بينهم على نبذ دينه، وإنما اكتفوا بما قَدَّمُوا لهم من خدمات»[4].

- وفي إفريقيا:

«إن الأسـاليب السـلمية كانت الطابع الغالب على حركة نشـر الدعوة الإسـلامية في إفريقيا»[5].

(1) السابق، ص111.
(2) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص112.
(3) إنه هنا ينقل عن: Odo de Diogilo, De Ludovici vii, Itinere. Migne. Part Lat. Tom cxcv, p.1243.
(4) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص108، 109.
(5) السابق، ص390.

ثم يُتبع حديثه قائلاً: «إن لدينا الدليل القاطع الذي شهد به الرحالون وغيرهم على نشر الدعوة الإسلامية بالطرق السلمية، وقيام الداعي المسلم بأعمال تنطوي على الرفق والأناة، تلك الأعمال التي عملت في سبيل انتشار الإسلام سريعًا في إفريقيا الحديثة»(1).

- الإسلام والزنوج:

«ومن المهم أيضًا أن نلاحظ أن لون الزنجي وجنسه لم يحملا بأية حال إخوانه الجدد في الدين الإسلامي على أن يتعصَّبُوا عليه، ولا شكَّ أن نجاح الإسلام قد تقدَّم في إفريقية الزنجية تقدُّمًا جوهريًّا بسبب انعدام كل إحساس باحتقار الأَسْوَد، وفي الحقِّ يظهر أن الإسلام لم يُعَامِل الأَسْود قطُّ على أنه من طبقة منحطَّة، كما كان الحال لسوء الحظّ - في كثير من الأحيان - في العالم المسيحي»(2).

- الإسلام والتنصير:

«إن الأَسْوَد المتنصِّر يميل إلى الإحساس بأن أبناء دينه من الأوربيين ينتمون إلى لون من الحضارة لا يلائم طبائعه في الحياة، على حين يشعر في المجتمع الإسلامي بأنه أكثر تعلقًا به واطمئنانًا إليه، وقد أجاد أحد المشاهدين المحدثين توضيح ذلك في الرسالة التالية:

إن الإسلام لا يتطلَّب من أهل نيجيريا، أن يفقد أحدهم قوميته باعتبار أن ذلك شيء يصحب الدخول في الإسلام، ولا يستلزم تغييرات انقلابية في الحياة الاجتماعية يستحيل تحقيقها في المرحلة الحاضرة من تطوُّر أهل نيجيريا، ولا هو يُقَوِّض نفوذ الأسرة وسلطة الجماعة، وليست هناك هُوَّة بين الداعي إلى الإسلام والمتحوِّل إليه؛ فكلاهما متساوٍ أحدهما مع الآخر - لا نظريًّا بل عمليًّا - أمام الله، وكلاهما إفريقي، وهما من أبناء أرض واحدة، ويُنَفِّذ مبدأ التآخي الإنساني تنفيذًا عمليًّا، ولا يعني الدخول في الإسلام أن ينصرف الداخل فيه عن شئونه وأسرته وحياته الاجتماعية، ولا عن احترامه لسلطان حُكَّام بلاده الأصليين.. وليس هناك مَنْ لا يعجب بسلوك المسلم النيجيري ووقاره - بل بسلوك مسلمي إفريقية الغربية عامَّة، وإن هيئة الرجل العامَّة لتنمُّ عن شعور بالقومية واعتزاز بالجنس، يُخَيَّل إليك أنه يقول: إن كلاً منا يختلف عن الآخر، ولكننا جميعًا بشر.

وإن انتشار الإسلام الذي نشهده اليوم في نيجيريا الجنوبية ليؤثِّر بصفة خاصة تأثيرًا اجتماعيًّا، ويمنح الإسلام هؤلاء الذين يَتَّصِلُون به منزلة أرقى وفكرة أسمى عن مكانة الإنسان من العالم المحيط به، ويُحَرِّرُه من ربقة إلف الأوهام الخرافية»(3).

(1) السابق، ص391.

(2) السابق، ص394.

(3) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص395.

«وقد آجاد شخص - كان نفسه زنجيًّا - في توضيح الفارق بين الطريقة التي تُقَدَّم بها كل من المسيحية والإسلام إلى الإفريقيين، وذلك في العبارات الآتية: بينما تُنسب البعوث التبشيرية قيام قساوسة من الوطنيين إلى عصر مُعَيَّن، نجد الدعاة المسلمين ينفذون إلى قلب إفريقية، ويصلون في سهولة إلى الوثنيين، ويحوِّلُونهم إلى الإسلام، وبذلك أصبح الزنوج ينظرون إلى الإسلام على أنه دين السود، والمسيحية على أنها دين البيض، ويرون أن المسيحية تدعو الزنجي إلى الخلاص، ولكنها تضعه في مكان منحط إلى حدٍّ أنه يقول في نفسه وقد استولى عليه القنوط: ليس لي نصيب ولا حظٌّ في هذا الدين. أمَّا الإسلام فإنه يدعو الناس إلى الخلاص، ويقول له: إن بلوغك أسمى الدرجات الممكنة إنما يتوقَّف عليك، ومن ثَمَّ أقبل الزنجي بدافع من الحماسة على هذا الدين بروحه وجسده»[1].

- انقلاب كامل:

«إن دخول الإسلام في المجتمع العربي لم يدل على مجرَّد القضاء على قليل من عادات بربرية وحشية فحسب، وإنما كان انقلابًا كاملاً لِمُثُل الحياة التي كانت من قبل»[2].

- حضارة أرقى:

«لقد كان (المندنجو) في مالي - وهم أعظم أجناس إفريقية رقيًّا - أكثر جميع الزنوج مدنية، وأشدهم ذكاء وأجدرهم بالاحترام، وأمهرهم في الصناعة وأشهرهم أمانة، كانوا أنشط الدعاة إلى الإسلام، الذي انتشر بواسطتهم بين الجماعات المجاورة لهم.

وعلى ساحل غينيا تنتشر المؤثرات الإسلامية بوجه خاصٍّ على أيدي تجار الحوصا، الذين نجدهم في كل المدن التجارية على هذا الساحل، وكلما أنشئوا لهم مقرًّا، أسرعوا إلى بناء مسجد، وأثَّرُوا في السكان الوثنيين بمسلكهم القائم على الورع وثقافتهم المتفوِّقة، وقد دخلت في الإسلام قبائل بأجمعها من عبدة الأوثان، دون أن يبذل المسلمون أية جهود خاصَّة يستوجبها إغواؤهم، وإنما كان ذلك نتيجة لاقتدائهم بما يرون أنه حضارة أرقى من حضارتهم»[3].

- الاسترقاق.. هداية أحيانًا!

وإن العقول الورعة التقية لتعترف حتى في الاسترقاق بهداية الله إلى الدين الحقِّ، كما يُـرْوَى عن الزنوج الساكنين في بلاد النيل الأعلى الذين لقيهم (داوتي Doughty) في بلاد العرب.

(1) السابق، هامش ص394، 395.

(2) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص61.

(3) السابق، ص376.

«لا يوجـد في نفوس أولئك الإفريقيين أي حقد من أنهـم صُيِّرُوا عبيدًا.. حتى ولو أن سُـرَّاق البشر القسـاة قد انتزعوهم من ذويهم، وكان العملاء الذين يدفعون ثمنهم يتخذونهم في بيوتهم ويختتـن الذكور منهم.. وإن الذي حَرَّر أرواحهم من الحنين الطويل إلى أوطانهم، هو أن الله قد تَفَقَّدهم في مِلَّتهم؛ إنهم يسـتطيعون أن يقولوا: إن نعمة الله قد تداركتهم منذ أن دخلـوا بفضلها في الدين المنقذ. لذلك يَرَوْنَ أنهم في بلد خير من بلادهم، فهم في ذلك عتقاء الله، وهم في بقاع تحيا حياة أكثر مدنية، وهم في تربة الحرمين الشـريفين، وفي بلد محمد (ﷺ)؛ لذلك يشكرون الله أن بيعت أجسادهم يومًا ما بين الرقيق»[1].

- الحبشة.. إسلام المتفوقين:

«وفي الحبشـة[2] يظهر أنه كان من أهم الأسـباب التي أَدَّت إلى نجاح الإسلام ما كان للمسلمين من تَفَوُّق أدبي، إذا وُزِنُوا بسائر أهالي الحبشة من المسيحيين»[3].

«يقـول (ريبيـل Rüppell): إنه كثيرًا ما لاحظ في خلال رحلاته في بلاد الحبشـة أنه عندما يُرَاد شغل منصب من المناصب، التي تتطلَّب أن يكون الشخص الذي يشغلها أمينًا كل الأمانة، موثوقًا به تمام الثقة، كان اختيارهم يقع دائمًا على شخص مسلم.

وقد عقد الكاتب مقارنة بين التفوُّق الأدبي للمسـلمين والمسـيحيين، فقال: إنهم – أي المسلمون – كانوا أكثر حيويةً ونشاطًا؛ فقد التزم كل مسلم تعليم أبنائه القراءة والكتابة، وفي الوقت الذي نرى فيه أبناء المسيحيين لا يتعلَّمون إلا عندما يُزْمِعون القيام بأعمال الكهنوت، وإن ما ناله مسـلمو الحبشة من هذا التفوق الأدبي على الأهالي المسيحيين، لَيُفَسِّر لنا إلى حدٍّ بعيد ما أحرزه الإسـلام من تقدُّم مستمرٍّ، وإن كان بطيئًا في خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وإن ما اتصف به رجال الكنيسة الحبشية من انحطاط وجمود، وما شجر بين زعماء الحبشـة من منازعات لا حَدَّ لها، قد أفسحت للمؤثرات الإسلامية المجال لتعمل في حرية واطمئنان»[4].

- لا يعرفون التعصُّب:

وينقل أَرنولد عن مستر بلودان[5] إقراره بأن تحوُّل شعوب الحبشة إلى الإسلام لم يكن فيه أي نوع من الإجبار أو الاضطهاد؛ ذلك «أن المسلمين في تلك البلاد لا يعرفون التعصُّب في أية صورة من صوره، لا يضمرون للمسيحية أي نوع من العداء..»[6].

(1) السابق، ص458.

(2) حديث المؤلف هنا يتناول انتشـار الإسـلام في إفريقيا وخاصة في منطقة الحبشة، خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين.

(3) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص139.

(4) السابق، ص139، 140.

(5) بلودن (Plowden): قنصل إنجلترا في بلاد الحبشة منذ عام 1844م، وحتى عام 1860م.

(6) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص140.

- الإنقاذ الروحي:

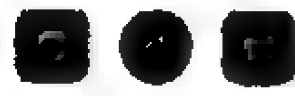
وفي النوبة: «يظهر أن النوبيين قد انساقوا من المسيحية إلى الإسلام بالتدريج وفي بطء شديد، وكانت الحياة الروحية في كنيستهم قد انحدرت إلى أقصى دركات الانحطاط، ولما وجد المسيحيون ألا أمل في قيام حركة للإصلاح في مجتمعهم، وأنهم قد فقدوا الاتصال بكنائسهم، التي تقع فيما وراء حدودهم، لم يكن من الطبيعي إلا أن ينشدوا ما يشفي غلتهم، ويسدُّ رمقهم الروحي في الدين الإسلامي، الذي حمل أتباعه بين هؤلاء الدليل على قوة حيويته وقتًا طويلاً، كما كانوا قد ظفروا بفريق من مواطنيهم، الذين قَبِلُوا الدخول في هذا الدين الجديد»[1].

- انتشارٌ بلا عنفٍ:

«ولما كانت الأخبار تُحَوِّل النوبيين إلى الإسلام شذرات غير كافية، فإننا نستطيع من غير شكٍّ أن نستخلص من كل ما نعرفه عن هذا الشعب - الذي جُبِلَ على الاستقلال، والذي عُرِفَ بتشبُّثِه بالدين المسيحي، طالما كان هذا الدين قوة حية بينهم - أن تحوُّلهم عن دينهم قد تمَّ تدريجيًّا، وفي خلال قرون كثيرة»[2].

- خطوة حضارية:

«ومما يساعد في نفس الوقت مساعدة كبيرة جدًّا على تفسير نجاح الإسلام، أن مجرَّد الدخول فيه يدلُّ ضمنًا على الترقِّي في الحضارة، وأنه خطوة جدُّ متميزة في تقدُّم القبيلة الزنجية عقليًّا وماديًّا»[3].



(1) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص133.
(2) السابق، ص35.
(3) السابق، ص396.



ألفريد جيوم (Alfred Guillaume):

(1888 - 1966م)

تَخَرَّج في جامعة أكسفورد، وعَمِلَ في فرنسا ومصر خلال الحرب العالمية الأولى (1914-1918م)، وعُيِّنَ محاضرًا للغة العبرية في المعهد الملكي بلندن (1920م) وأستاذًا للغات الشرقية في جامعة درهام (1920 -1930م)، وفي معهد كولهم (1930-1945م)، وأستاذًا زائرًا للغة العربية في الجامعة الأمريكية ببيروت (1944-1945م)، وأستاذًا لدراسات العهد القديم في جامعة لندن (1945-1947م)، وأستاذًا زائرًا في جامعة إستانبول، وأستاذًا للغة العربية ورئيس قسم الشرقين الأدنى والأوسط (1947-1955م)، وأستاذًا زائرًا للعربية في جامعة برنستون (1955م)، ونال أوسمة عديدة وانتخب عضوًا في مجامع؛ منها: المجمع العلمي العربي في دمشق (1948م)، والمجمع العراقي (1949م).

وكتب الكثير في التاريخ الإسلامي؛ مثل: (تقاليد الإسلام)، وهو من كتاب دائرة المعارف الإسلامية.

(من كتاب تراث الإسلام =Legacy of Islam)



- أنقذوها من الضغط الكريه:

«لقد استُقبِلَ العربُ - في الأغلب - في سوريا ومصر والعراق بترحاب؛ لأنهم قضوا القضاء المبرم على الابتزاز الإمبراطوري، وأنقذوا البِيَع[1] المسيحية المنشقَّة من الضغط الكريه الذي كانت تعانيه من الحكومة المركزية، وبرهنوا بذلك على معرفة بالمشاعر والأحاسيس المحلية أكثر من معرفة الأغراب»[2].

- لولاهم لتأخرت العلوم:

«ولو أن العرب كانوا كالمغول البرابرة - الذين أخمدوا نار العلم في الشرق بشكل لم يَعُدْ معه إلى الاتقاد مرة أخرى، ربما لم يَعُدْ أبدًا؛ لضياع المكتبات والتقاليد العلمية - لتأخَّرَتْ حركة العلوم في أوربا أكثر من مائة سنة»[3].

(1) البِيَع جمع البِيعة: وهي كَنِيسةُ النصارى وقيل: كنيسة اليهود. ابن منظور: لسان العرب، مادة بيع 23/8.
(2) ألفريد جيوم: الفلسفة وعلم الكلام، دراسة منشورة في كتاب (تراث الإسلام) بإشراف توماس أرنولد، ص363.
(3) السابق، ص353.

- .. عن طريق المسلمين:

«وبالتراجم التي أنجزها (دومنيك كونديســـالفي) أسقف سيكوفيا في أولى سني القرن الثاني عشر أصبح الغرب المسيحي يعرف أرسطو عن طريق ابن سينا والفارابي وابن رشد، فالموسوعة الفلسفية التي ألَّفها كونديسالفي تعتمد بصورة رئيسية على المعلومات المستقاة من المصادر العربية»[1].

- شوَّقَتْهُم فلسفةُ العرب:

«وعلى هذا يمكن القول أن الغرب مَدِين بإحياء الفلســفة الأرسطية وإعادة نشرها إلى العــرب، بقدر ما أيقظ تصــرُّف الأوربيين في الفكر العربي من اهتمام بآثار أرســطو. (ولا نشـــكُّ) في أن الأوربيين انصرفوا إلى مدارســـة أرسطو؛ لأن شـــوقهم المستعر إلى الفلسفة اشتدَّ باحتكاكهم بالفكر العربي»[2].

- الغرب أسير العرب:

ويُقَرِّر جيوم أن كل اكتشاف جديد يُعرف عن الفلسفة العربية، هو نفسه اكتشاف لكيفية تَقَدُّم الفكر الوسيطي في الغرب، فيقول: «كل زيادة على معارفنا في الفلسفة العربية للقرون الوسطى تكاد تُلْقِي نورًا جديدًا على تَقَدُّم الفكر الوسيطي في الغرب»[3].

- أحكام بغير تمحيص:

«قد نكون جدّ واثقين بأن أولئك الذين يتهمون العلماء المسلمين بافتقارهم إلى الإبداع، وضعف المستوى التفكيري، لم يقرءوا ابن رشد، أو يُلقوا نظرة على آثار الغزالي، لكنهم تَبَنَّوْا أحكام غيرهم بدون تمحيص»[4].

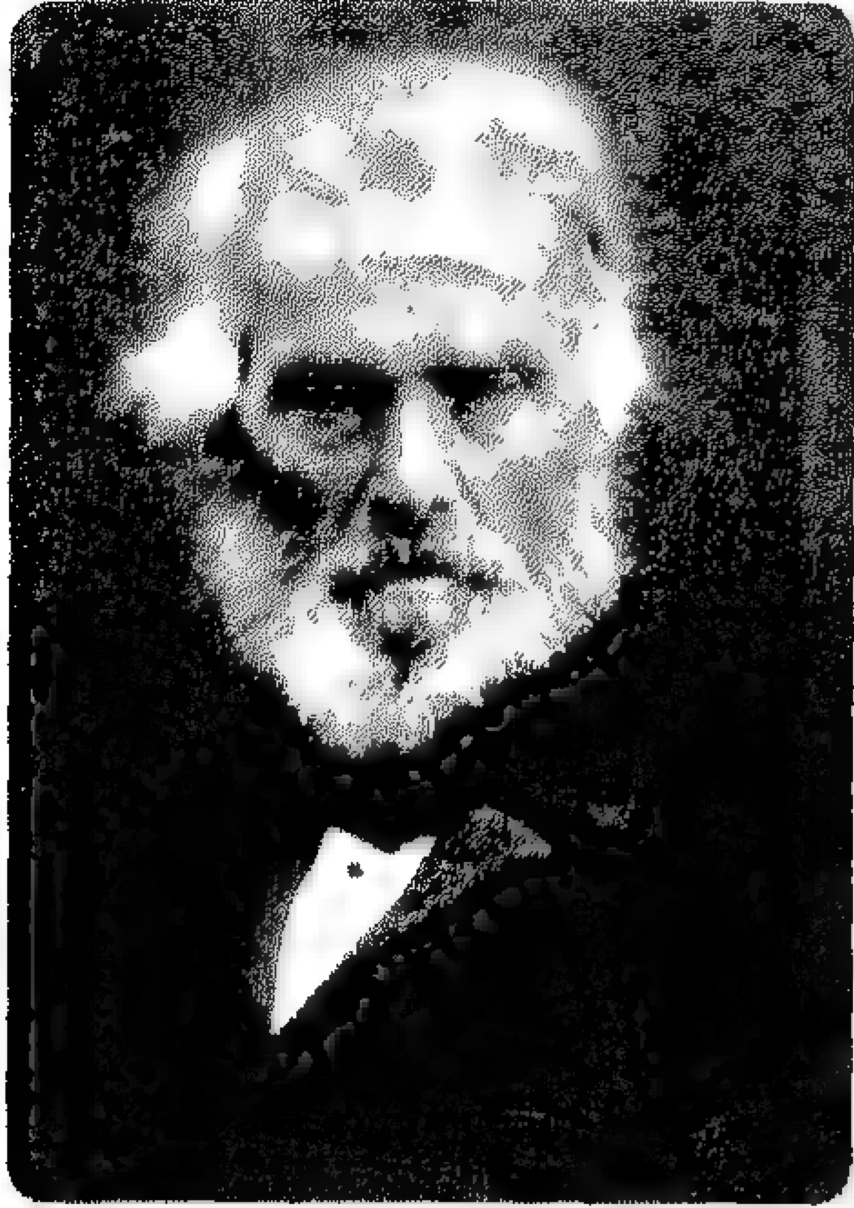
ويقــول جيوم: «في خلال القرون الأربعة لســيادة الإســلام وُجِـدت روح البحث الديني والفلسفي في كل مراكز العلم، وإن لون الطابع الذي تميَّز به العقل الشرقي وسحره ما زال باقيًا متسكعًا في كتابات ذلك العصر، الذي كان كل تاجر فيه شاعرًا، وليس كل شاعر تاجرًا»[5].

- التأثير العربي أعظم بكثير:

«وعندما ترى ضوءَ النهار جميعُ الموادِّ النفيسة المختزنة في مكتبات أوربا، فسيتضح لنا أن التأثير العربي الباقي في الحضارة الوسيطة لهو أعظم بكثير مما عُرِفَ عنه حتى الآن»[6].

(1) ألفريد جيوم: الفلسفة وعلم الكلام، دراسة منشورة في كتاب (تراث الإسلام) بإشراف توماس أرنولد، ص359.
(2) السابق، ص360.
(3) السابق، ص376.
(4) السابق، ص399.
(5) السابق، ص400.
(6) ألفريد جيوم: الفلسفة وعلم الكلام، دراسة منشورة في كتاب (تراث الإسلام) بإشراف توماس أرنولد، ص401.

توماس كارليل (Thomas Carlyle):



(1795 - 1881م)

فيلسـوف ومؤرخ وأديب إنجليزي، من أبرز شخصيات القرن التاسـع عشـر، تأثَّـر بجوته وشـيار وترجم بعض أعمالهمـا، انتقـد المجتمـع الإنجليزي فـي أول أعماله (سارتور رزارتوس) 1834م.

ولقد قام كارليل بتأليف عدة كتب؛ منها: كتابه عن الثورة الفرنسـية، ثم شرع - بعد أن انتهى من هذا السِّفْر الكبير - بإلقـاء محاضرات عامَّة بين عامي (1837، 1841م)، كان أهمها تلك التي جمعها كارليـل فيما بَعْدُ وهي محاضرات في تاريخ التصور البشري للبطل، نُشِرَتْ في كتاب باسم (الأبطال) في عام (1841م).

والمجموعـة التي أطلق عليها اسـم (الأدب الألماني)، وفي عـام (1843م) ظهر كتابه (الماضـي والحاضر)، الذي عالج فيه مشـكلات ومواضيع سياسـية - إضافة إلى كتاباته السـابقة حول موضوع الحقوق العامة وكيفية حصول الشـعب على هذه الحقوق، وفي هذه الكتابات دعا كارليل إلى ضرورة إيجاد طبقة حاكمة قوية وحكيمة، وبعد سـبع سـنوات عاد كارليل إلى هذه المواضيع السياسية في كتابه (الكراريس العصرية).

ومن إنتاجاته الأدبية الناجحة الأخرى: (رسـائل أوليڤـر كرومويل وخطبه)، الذي ظهر عام (1845م)، مُغَيِّرًا النظرة العامَّة السلبية السابقة إلى شخصية كرومويل وأخلاقه، و(حياة جون ستيرلنج) سنة (1851م)، لينصرف بعدها إلى تأليف كتابه الضخم (فريدريك العظيم)، الذي استغرق في تأليفه اثني عشر عامًا، وطُبِعَتْ مجلداته بين عامي (1858-1865م)، وفي هذه السنة مُنِحَ لقب (رئيس جامعة أدنبرا).

ونحن ننقل شـهادة هذا الرجل من كتابه (الأبطال)، ونفهم قيمة النبي محمد (ﷺ) في رأي كارليـل حين نُدرك أن هذا الكتاب كان اسـتعراضًا لتاريخ البطولة والأبطال في العالم، وكيف نظر الأقوام إلى صورة البطل، فاستعرض كيف نظروا إلى البطل في صورة إله، ثم في صورة رسول، ثم في صورة شاعر أو قسيس أو فيلسوف.. وهكذا.

لكـن اللافـت للنظـر أنـه حين اسـتعرض (صـورة البطل الرسـول) لـم يختر غير محمد (ﷺ).

ولقـد كانـت محاضرته عن محمـد (ﷺ) - كما يرى المستشـرق الإنجليـزي الكبير مونتجمري وات - نقطة تاريخية فارقة في معرفة الغرب الصورة الحقيقية.

(الأبطال= Heroes and Hero Worship and the Heroic in History):

■●■

- **العــار:**

«لقد أصبح من آكبر العار على أي فرد متمدين من أبناء هذا العصر؛ أن يصغي إلى ما يُظَنُّ من أن دين الإسلام كذب، وأن محمدًا (ﷺ) خَدَّاع مزوِّر، وآن لنا أن نحارب ما يُشَاع من مثل هذه الأقوال الســخيفة المخجلة؛ فإن الرسالة التي أدَّاها ذلك الرسول ما زالت السراج المنير مدة اثني عشر قرنًا، لنحو مائتي مليون من الناس أمثالنا، خلقهم الله الذي خلقنا[1]. أفــكان أحدكم يَظُنُّ أن هذه الرســالة التي عاش بها ومات عليهــا الملايين الفائقة الحصر والإحصاء كذبة وخدعة؟ أمَّا أنا فلا أســتطيع أن أرى هذا الرأي أبدًا، ولو أن الكذب والغش يروجان عند خلــق الله هذا الرواج، ويصادفان منهم مثل ذلك التصديق والقبول، فما الناس إلا بُلْه أو مجانين، وما الحياة إلا سخف وعبث وأضلولة، كان الأَوْلَى ألا تُخْلَق»[2].

- **كذب وزور وباطل:**

«ما أسوأ مثل هذا الزعم، وما أضعف أهله وأحقهم بالرثاء والمرحمة... ولعلَّ العالم لم يَرَ قَطُّ رأيًا أكفر من هذا ولا ألأم! وهل رأيتم معشر الإخوان أن رجلاً كاذبًا يستطيع أن يُوجِدَ دينًــا عجبًا؟! والله! إن الرجل الكاذب لا يقدر أن يبني بيتًا من الطوب، فهو إذا لم يكن عليمًا بخصائص الجير والجصِّ والتراب وما شاكل ذلك، نعم.. وليس جديرًا أن يبقى على دعائمه اثني عشــر قرنًا[3] يسكنه مائتا مليون من الأنفس... كذبٌ والله ما يُذيعه أولئك الكفار؛ وإن زخرفوه حتــى خيلوه حقًّا، وزورٌ وباطلٌ، وإن زَيَّنُوه حتى أوهموه صدقًا، ومحنة والله ومصاب أن ينخدع الناس شعوبًا وأممًا بهذه الأباطيل»[4].

- **قوة الدين:**

«لقد قيل كثير في شــأن نشر محمد (ﷺ) دينه بالســيف، فإذا جعل الناس ذلك دليلاً علــى كذبه (ﷺ)، فذلك أشــد ما أخطئــوا وجاروا، فهم يقولون: ما كان الدين لينتشــر لولا الســيف. ولكن ما هو الذي أوجد السيف؟ هو قوة ذلك الدين، وأنه حقٌّ، والرأي الجديد أول ما ينشــأ يكون في رأس رجل واحد، فالذي يعتقده هــو فرد - فرد ضدَّ العالم أجمع - فإذا تناول هذا الفرد سيفًا وقام في وجه الدنيا فقلما والله يضيع! وأرى - على العموم - أن الحقَّ

(1) يواجه هنا في تلك الجمل الاعتراضية التعصب والتكبر الغربي تجاه الشعوب الشرقية.

(2) توماس كارليل: الأبطال، ص53.

(3) هذا إلى زمان توماس كارليل.

(4) توماس كارليل: الأبطال، ص53.

ينشـــر نفسه بأية طريقة حســبما تقتضيه الحال، أو لم تَرَوْا أن النصرانية كانت لا تأنف أن تســتخدم السيف أحيانًا، وحســبكم ما فعل شارلمان بقبائل السكسون! وأنا لا أحفل إذا كان انتشار الحقِّ بالسيف أم باللسان، أو بأية آلة أخرى، فلْنَدَعِ الحقائق تنشر سلطانها بالخطابة أو بالصحافــة أو بالنــار، لنَدَعها تكافح وتجاهد بأيديها وأرجلهــا وأظافرها، فإنها لن تَهزم إلا ما كان يستحقُّ أن يُهزم، وليس في طاقتها قطُّ أن تقضي على ما هو خير منها، بل ما هو أحطُّ وأدنى»[1].

- ذهب الحطب والنار لم تذهب:

«لقد جاء الإســلام على تلك الملل الكاذبة والنحل الباطلة فابتلعها، وحُقَّ له أن يبتلعها؛ لأنه حقيقة خارجة من قلب الطبيعة، وما كاد يظهر الإسلام حتى احترقت فيه وثنيات العرب، وجدليات النصرانية، وكل ما لم يكن بحقٍّ، فإنها حطب ميت أكلته نار الإســلام، ذهب والنار لم تذهب»[2].

- ما هو إلا صوت الإنسانية:

«في الإسلام خلَّة أراها من أشرف الخلال وأجلِّها، وهي التسوية بين الناس، وهذا يدلُّ علــى أصدق النظــر وأصوب الرأي، فنفس المؤمن راجحة بجميــع دول الأرض، والناس في الإســلام سواء، والإســلام لا يكتفي بجعل الصدقة سُنَّة محبوبة بل يجعلها فرضًا حتمًا على كل مســلم، وقاعدة من قواعد الإسلام، ثم يُقَدِّرها بالنسبة إلى ثروة الرجل، فتكون جزءًا من أربعين من الثروة، تُعْطَى إلى الفقراء والمساكين والمنكوبين، جميل والله كل هذا، وما هو إلا صوت الإنسانية، صوت الرحمة والإخاء والمساواة، يصيح من فؤاد ذلك الرجل محمد (ﷺ) ابن القفار والصحراء»[3].

- النظر الثاقب:

«ولكني شــديد الإعجاب بالنظر الذي ينفذ إلى أســرار الأمور، فهــذا أعظم ما يلذني ويعجبني، وهو ما أجده في القرآن، وذلك – كما قُلْتُ – فضل الله يؤتيه من يشاء»[4].

- شرارة السماء:

«كأنما وقعت من السماء شرارة على تلك الرمال، التي كان لا يُبْصَر فيها فضل ولا يرجى فيها خير، فإذا هي بارود سريع الانفجار، وما هي برمل ميت، وإذا هي قد تَأَجَّجَتْ واشتعلت،

(1) توماس كارليل: الأبطال، ص71.
(2) السابق، ص73، 74.
(3) السابق، ص80.
(4) السابق، ص75.

واتصلت نارها بين غرناطة ودلهي. ولطالما قلتُ: إن الرجل العظيم كالشهب من السماء وسائر الناس في انتظاره كالحطب، فما هو إلا أن يسقط حتى يتأجَّجُوا ويلتهبوا»[1].

- لسان الذي يلحدون إليه أعجمي:

ولقد بحث الكاتب الإنجليزي توماس كارليل قضية لقاء الرسول (ﷺ) ببحيرا الراهب. وما كان لهذا اللقاء من أثَرٍ على توجيه للتفكر في قضايا الحياة والخلق... وقد رَدَّ كارليل على تلك المزاعم التي تقول: إن ذلك الراهب قد لقَّنه العلم، وأنه وراء النبوة التي أُنْزِلت على النبي محمد (ﷺ). فنراه يقول: «ولما شَبَّ محمد (ﷺ) وترعرع، صار يصحب عَمَّه في أسفار تجارية وما أشبه، وفي الثامنة عشر من عمره نراه فارسًا مقاتلاً يتبع عَمَّه في الحروب، غير أن أهم أسفاره ربما كان ذاك الذي حدث قبل هذا التاريخ ببضع سنين، رحلةٌ إلى مشارف الشام، إذ وجد الفتى نفسه هنالك في عالم جديد إزاء مسألة أجنبية عظيمة الأهمية جدًّا في نظره - أعني الديانة المسيحية - وإني لستُ أدري ماذا أقول عن ذلك الراهب سرجياس (بحيرا) الذي يزعم أن أبا طالب ومحمدًا (ﷺ) سكنا معه في الدار، ولا ماذا عساه أن يتعلمه غلام في هذه السن الصغيرة من أي راهب ما، فإن محمدًا (ﷺ) لم يكن يتجاوز إذ ذاك الرابعة عشرة، ولم يكن يعرف إلا لغته، ولا شكَّ أن كثيرًا من أحوال الشام ومشاهدها لم يكُ في نظره إلا خليطًا مشوَّشًا من أشياء يُنكرها ولا يفهمها، ولكن الغلام كان له عينان ثاقبتان، ولا بُدَّ من أن يكون قد انطبع على لوح فؤاده أمور وشئون، فأقامت في ثنايا ضميره، ولو غير مفهومة ريثما ينضجها له كَرُّ الغداة ومَرُّ العشي، وتحلها له يد الزمان يومًا ما، فتخرج منها آراء وعقائد ونظرات نافذات، فلعلَّ هذه الرحلة الشامية كانت لمحمد (ﷺ) أوائل خير كثير وفوائد جمة»[2].

- المتوقد العظيم.. المملوء رحمة (ﷺ):

«ويزعم المتعصِّبُون من النصارى والملحدون أن محمدًا (ﷺ) لم يكن يُرِيد بقيامه إلا الشهرة الشخصية، ومفاخر الجاه والسلطان، كلاَّ وايم الله! لقد كان في فؤاد ذلك الرجل الكبير - ابن القفار والفلوات، المتوقد المقلتين، العظيم النفس، المملوء رحمةً وخيرًا وحنانًا وبرًّا وحكمة وحجى وإربة ونُهًى - أفكارٌ غير الطمع الدنيوي، ونوايا خلاف طلب السلطة والجاه»[3].

(1) توماس كارليل: الأبطال، ص83.
(2) السابق، ص61، 62.
(3) السابق، ص64.

- أشرف المحامد وأكرم الخصال:

«أرى في محمد (ﷺ) آيات على أشرف المحامد وأكرم الخصال، وأتبين فيه عقلاً راجحًا، وفؤادًا صادقًا، ورجلاً قويًا عبقريًا، لو شاء لكان شاعرًا فحلاً، أو فارسًا بطلاً، أو ملكًا جليلاً، أو أي صنف من أصناف البطل»[1].

- مضاء العزم:

«كان رجلاً ماضي العزم، لا يؤخّر عمل اليوم إلى غد، وطالما كان يذكر يوم تبوك إذ أبى رجاله السير إلى موطن القتال، واحتجُّوا بأنه أوان الحصيد وبالحَرِّ، فقال لهم: الحصيد؟ إنه لا يلبث إلا يومًا. فبماذا تتزوَّدون للآخرة؟ وأما الحرُّ؟ نعم، إنه حَرٌّ، ولكن جهنَّم أشدُّ حرًّا»[2].

- .. في ثوبه المُرَقَّع أفْعَل من قيصر:

«وما كان محمد (ﷺ) أخا شهوات، برغم ما اتُّهِمَ به ظلمًا وعدوانًا، وشدَّ[3] ما نجور ونخطئ إذا حسبناه رجلاً شهويًا، لا هَمَّ له إلا قضاء مآربه من الملاذِّ. كلاَّ فما أبعد ما كان بينه وبين الملاذِّ أيًا كانت؛ لقد كان زاهدًا متقشِّفًا في مسكنه ومأكله ومشربه وملبسه، وسائر أموره وأحواله، وكان طعامه عادة الخبز والماء، وربما تتابعت الشهور ولم تُوقَد بداره نار، وإنهم ليذكرون - ونِعْمَ ما يذكرون - أنه كان يُصْلِح ويرفو ثوبه بيده، فهل بعد ذلك مكرمة ومفخرة؟ فحبذا محمد (ﷺ) من رجل خشن اللباس خشن الطعام! مجتهد في الله، قائم النهار ساهر الليل، دائب في نشر دين الله، غير طامح إلى ما يطمح إليه أصاغر الرجال من رتبة أو دولة أو سلطان، غير متطلع إلى ذِكْرٍ أو شهرةٍ كيفما كانت، رجلٌ عظيم وربكم! وإلا فما كان ملاقيًا من أولئك العرب الغلاظ توقيرًا واحترامًا، وإكبارًا وإعظامًا، وما كان ممكنًا أن يقودهم ويُعاشرهم معظم أوقاته ثلاثًا وعشرين حجة، وهم ملتفُّون به، يُقَاتِلُون بين يديه، ويجاهدون حوله، لقد كان في هؤلاء العرب جفاء وغلظة وبادرة[4] وعجرفة، وكانوا حماة الأنوف، أباة الضيم، وُعُر المقادة، صعاب الشكيمة، فمن قدر على رياضتهم وتذليل جانبهم حتى رضخوا له واستقادوا، فذلكم وايم الله بطل كبير، ولولا ما أبصروا فيه من آيات النبل والفضل لما خضعوا له ولا أذعنوا، وكيف؟! وقد كانوا أطوع له من بنانه، وظَنِّي أنه لو كان أُتِيحَ لهم بدل محمد (ﷺ) قيصر من القياصرة، بتاجه وصولجانه لما كان مصيبًا

(1) توماس كارليل: الأبطال، ص76.

(2) السابق، ص79.

(3) يعني: «ما أشد».

(4) البادِرَة: الحِدَّة، وهو ما يَبْدُرُ من حِدَّةِ الرجل عند غضبه من قول أو فعل. ابن منظور: لسان العرب، مادة بدر 48/4، والمعجم الوسيط ص43.

مــن طاعتهم مقدار ما ناله محمد (ﷺ) في ثوبه المرقع بيده، فكذلك تكون العظمة، وهكذا تكون الأبطال»[1].

- عبقرية التوازن:

«ولم يكُ متكبِّرًا، ولكنه لم يكن ذليلاً ضرعًا... يخاطب بقوله الحُرِّ المبين قياصرة الروم وأكاسرة العجم، يُرشدهم إلى ما يجب عليهم لهذه الحياة وللحياة الآخرة، وكان يعرف لنفسه قدرها»[2].

- محمد.. أخونا الرحيم:

«وكانت آخر كلماته تسبيحًا وصلاة، صوت فؤاد يهم بين الرجاء والخوف أن يصعد إلى ربه، ولا تحسب أن شدَّة تدينه أَزْرَتْ بفضله، كلاَّ بل زادته فضلاً، وقد يُروى عنه مكرمات عالية؛ منها: قوله حين رُزِئَ بغلامه: «**الْعَيْنَ تَدْمَعُ، وَالْقَلْبُ يوجَعُ، وَلا نَقُولُ مَا يُسْخِطُ الرَّبَّ**»[3]. ولَمَّا استشــهد مولاه زَيد بن حارثة في غزوة مؤتة قال محمد (ﷺ): «**لَقَدْ جَاهَدَ زَيْدٌ فِي اللهِ حَقَّ جِهَـادِهِ، وَلَقَـدْ لَقِـيَ اللهَ الْيَوْمَ فَلا بَأْسَ عَلَيْـهِ**». ولكن ابنة زيد وجدته بعد ذلك يبكي على جثَّة أبيها، وجدت الرجل الكهل الذي دبَّ في رأسه المشيب يذوب قلبه دمعًا! فقالت: ماذا أرى؟! قــال: «**صَدِيقٌ يَبْكِي صَدِيقَــهُ**»[4]. مثل هذه الأقوال وهذه الأفعال تُرِينًا في محمد (ﷺ) أخا الإنسانية الرحيم، أخانا جميعًا الرءوف الشفيق، وابن أُمِّنَا الأُولَى وأبينا الأَوَّل»[5].

- لهذا أُحِبُّه:

«وإنـــي لأُحِبُّ محمدًا (ﷺ) لبراءة طبعه من الريــاء والتصنُّع، ولقد كان ابن القفار هذا رجلاً مستقلَّ الرأي، لا يعول إلا على نفسه، لا يَدَّعِي ما ليس فيه»[6].

- عظيم.. بفطرته:

«وقد رأيناه طول حياته رجلاً راســخ المبدأ، صارم العزم، بعيد الهمَّة، كريمًا برًّا، رءوفًا نقيًّا، فاضلاً حرًّا، رجلاً شــديد الجدِّ مخلصًا، وهو مع ذلك ســهل الجانب لين العريكة، جمُّ البِشْر والطلاقة، حميد المعشر، حلو الإيناس، بل ربما مازح وداعب، وكان على العموم تُضيء

(1) توماس كارليل: الأبطال، ص78.

(2) السابق، ص79.

(3) روي الحديث بلفظ: «**إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ، وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلا نَقُولُ إِلاَّ مَا يَرْضَى رَبُّنَا...**». البخاري: كتاب الجنائز، باب قول النبي (ﷺ): «إِنَّا بِكَ لَمَحْزُونُونَ». (1241)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب رحمته (ﷺ) الصبيان والعيال (2315).

(4) أورده الذهبي بلفظ: أصيب زيد فأتى النبي (ﷺ) منزله، فجهشــت بنت زيد في وجه رســول الله (ﷺ)، فبكى حتى انتحب. فقال سعد بن عبادة: يا رسول الله، ما هذا؟ قال: «شَوْقُ الْحَبِيبِ إِلَى حَبِيبِهِ». الذهبي: تاريخ الإسلام 496/2.

(5) توماس كارليل: الأبطال، ص79.

(6) السابق، ص79.

وجهه ابتسامة مشرقة من فؤاد صادق؛ لأن من الناس مَنْ تكون ابتسامته كاذبة ككذب أعماله وأحواله. هؤلاء لا يستطيعون أن يبتسموا، وكان محمد (ﷺ) جميل الوجه، وضيء الطلعة، حسن القامة، زاهي اللون، له عينان سوداوان تلألآن، وإني لأُحِبُّ في جبينه ذلك العِرْق الذي كان ينتفخ ويَسْوَدُّ في حال غضبه... وكان هذا العرق خصيصة في بني هاشم، ولكنه كان أبين في محمد (ﷺ) وأظهر، نعم، لقد كان هذا الرجل... عادلاً صادق النية، كان ذكيَّ اللب شهم الفؤاد، لوذعيًّا كأنما بين جنبيه مصابيح كل ليل بهيم، ممتلئًا نارًا ونورًا، رجلاً عظيمًا بفطرته، لم تُثَقِّفْه مدرسة ولا هَذَّبه معلم، وهو غني عن ذلك»[1].

- الإخلاص الشديد والجدُّ المرُّ:

«وما كان محمد (ﷺ) بعابث قطُّ، ولا شَابَ شيئًا من قوله شائبةُ لعب ولهو، بل كان الأمر عنده أمر خسران وفلاح، ومسألة فناء وبقاء، ولم يكُ منه إزاءها إلا الإخلاص الشديد والجدُّ المرُّ، فأمَّا التلاعب بالأقوال والقضايا المنطقية، والعبث بالحقائق فما كان من شأنه قطُّ»[2].

- في كل كلمة حكمة:

«وقد لاحظوا أنه ما من كلمة تَخْرُج من فيه إلا وفيها حكمة بليغة، وإني لأعرف عنه أنه كان كثير الصمت، يسكت حيث لا مُوجِبَ للكلام، فإذا نطق فما شئت من لبٍّ وفضل وإخلاص وحكمة، ولا يتناول غرضًا فيتركه إلا وقد أنار شبهته وكشف ظلمته، وأبان حُجَّته، واستثار دفينته»[3].

- حقيقة تدمغ كل باطل:

«وعلى ذلك فلسنا نَعُدُّ محمدًا (ﷺ) هذا قطُّ رجلاً كاذبًا متمنعًا، يتذرع بالحيل والوسائل إلى بغية، أو يطمح إلى درجة ملك أو سلطان، أو غير ذلك من الحقائق، وما الرسالة التي أدَّاها إلا حقٌّ صراحٌ، وما كلمته إلا صوتٌ صادقٌ، صادر من العالم المجهول، كلاَّ، ما محمدٌ (ﷺ) بالكاذب ولا الملفّق، وإنما هو قطعة من الحياة قد تَفَطَّر عنها قلبُ الطبيعة، فإذا هي شهاب قد أضاء العالم أجمع، ذلك أمرُ الله، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم، وهذه حقيقة تدمغ كل باطل وتدحض حجة القوم الكافرين»[4].

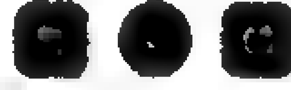
(1) توماس كارليل: الأبطال، ص62، 63.
(2) السابق، ص80.
(3) السابق، ص62.
(4) السابق، ص55.

- لبثت فيكم عُمُرًا من قبلُ:

«ولقـد عاش مع زوجه هـذه على أتمّ وفاق وألفـة وصفاء وغبطـة، يُخْلِص لها الحبّ وحدها، ومما يُبْطِل دعوى القائلين أن محمدًا (ﷺ) لم يكن صادقًا في رسالته بل كان ملفّقًا مزوِّرًا؛ أنه قضى عنفوان شـبابه وحرارة صباه في تلك العيشـة الهادئة المطمئنة، لم يحاول أثناءها إحداث ضجّة ولا دويٍّ، ممّا يكون وراءه ذِكْر وشـهرة وجاه وسـلطة، ولما يكُ إلا بعد الأربعين أن تحدَّث برسالة سماوية»[1].

- من صميم قلب الطبيعة:

«لقد كان منفردًا بنفسه العظيمة وبحقائق الأمور والكائنات، لقد كان سرُّ الوجود يسطع لعينيـه بأهواله ومخاوفه ومباهره، ولم يكـن هنالك من الأباطيل ما يحجب ذلك عنه، فكأنه لسان حال ذلك السرِّ يناجيه: هأنذا. فمثل هذا الإخلاص لا يخلو من معنى إلهيٍّ مُقَدَّس، وما كلمة مثل هذا الرجل إلا صوت خارج من صميم قلب الطبيعة، فإذا تَكَلَّم فكلُّ الآذان برغمها صاغية، وكل القلوب واعية، وكل كلام ما عدا ذلك هباء وكل قول جفاء..»[2].



(1) توماس كارليل: الأبطال، ص63.
(2) السابق، ص64.

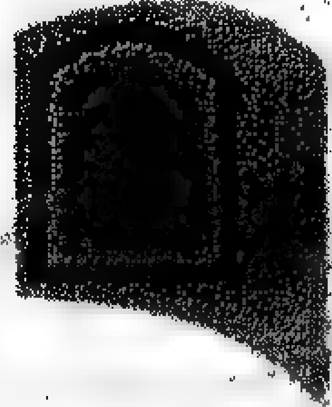
كارين أرمسترونج (Karen Armstrong):

(14 نوفمبر 1944م-...)

كاريـن آرمستـرونـغ

الإســلام في مِرآة الغـرب

محاولة جديدة في فهم الإسلام



ترجمة: محمد الجورا

كاتبـة بريطانية، باحثـة في علم الأديـان وُلِدَتْ في ويلدمـور في مقاطعة ورسيسترشـاير، ألَّفـت العديد من الكتب في مقارنة الأديان، وقد بدأت شهرتها في الذيوع مع كتابها الناجح: (تاريخ الله)، وقد أكَّدت - كراهبة كاثوليكية سـابقة - أن كل التعاليم العظيمة تقول نفس الشيء تقريبًا بنفـس الطريقة، على الرغم من الاختلافات الظاهرة، فكل منها بشكل عامٍّ يُعْتَبَرُ تأكيدًا على الأهمية البالغة للعاطفة، كمـا يُعَبَّر عنها على طريقة القاعدة الذهبية: لا تفعل تجاه الآخرين ما لا تفعله تجاه نفسك.

ولأنها أَلَّفت العديد من الكتب عن التعاليم الإسلامية، فقد زاد الطلب عليها كمحاضرة بعد هجمات الحادي عشـر من سـبتمبر، وفي فبراير (2008م) دعت إلى مجلس من قادة المسـلمين والمسـيحيين واليهود لصياغة (ميثاق العاطفة)؛ لتطبيـق الأولويات الأخلاقية المشتركة كمحاولة لإنشاء تفاهم عالمي أكبر.

وقـد ربحت مبادرتها للحوار بين الأديان جائزة (T E D) الأدبية، والتي يدعمها المؤتمر الدولي للشخصيات البارزة في مجالات التصميم والتسلية والتكنولوجيا.

من مؤلفاتها: (الكتاب المقدس.. سيرة ذاتية)، و(التحول الكبير.. بداية تعاليمنا الدينية)، و(سيرة النبي محمد)، و(الإسلام في مرآة الغرب).

(سيرة النبي محمد = Mohammad a biography of Mohammad):

- لا عدوانية:

«من الخطأ أن نظن أن الإسلام دين يتَّسم بالعنف أو بالتعصب في جوهره، على نحو ما يقول به البعض أحيانًا؛ بل إن الإسـلام دين عالمي، ولا يتصف بأي سـمات عدوانية شرقية أو معادية للغرب»[1].

(1) كارين أرمسترونج: سيرة النبي محمد، ص19.

- **أخلاق قرآنية:**

«فالقرآن دائمًا يحثُّ المسلمين على الصبر، وعلى تحمل معاناتهم بجلد وكرامة، كما أنه يُوَضِّح أن عليهم ألا يتحيَّنُوا الفرص للانتقام الشخصي من أعدائهم»(1).

- **قد لا يتذوق الغربي جمال القرآن:**

«ويرى الغربيون صعوبة فهم ذلك، فقد رأينا كُتَّابًا مثل: جيبون، وكارليل، وكانوا متعاطفين إلى حدٍّ معقول مع الإسلام، يتحيَّرُون إزاء القرآن، وذلك في حدِّ ذاته ليس بالأمر المستغرَب؛ إذ إنه من الصعوبة بمكانٍ تذوُّق الكتب المقدسة للحضارات الأخرى»(2).

«أمـا في حالة القرآن فهناك بالإضافة صعوبة الترجمة فإن أجمل أشـعار شكسـبير – مثلاً – غالبًا ما تبدو تافهة في ترجمتها إلى لغات أخرى؛ إذ إنه من الصعب نقل الشعرية الخاصة بها إلى تعبيرات أجنبية.

أمَّـا العربية فهي لغة من الصعب ترجمتها، وفي هذا الصدد يقول العرب: إنهم يجدون قصائد وقصصًا في لغتهم الأصلية أمتعتهم غير مسـتوعَبة فـي ترجمتها إلى لغات أخرى؛ فـإن في العربية شـيئًا ما لا يمكن نقله إلى الاسـتعمالات اللغوية الأخـرى. وهكذا – مثلاً – تبدو الخطب السياسـية للساسـة العرب متكلِّفة وغريبة في ترجمتها الإنجليزية، فإن كان ذلك صحيحًا بالنسبة للُّغَة العربية العادية، وللأقوال الدنيوية، والآداب التقليدية، فإن صحَّة ذلك تتضاعف في حالة القرآن؛ حيث اللغة مُرَكَّبة بقدر عالٍ، وهـي – أيضًا – مُكَثَّفة ومحمَّلة بالإيماءات، ويقول العرب الذين يتحدثون الإنجليزية بطلاقة: إنهم حينما يقرءون القرآن في ترجمته الإنجليزية يشعرون أنهم يقرءون كتابًا مختلفًا اختلافًا كليًّا»(3).

- **ولكن..**

«لكـن ذلـك لا يعني أن نكون صلفين ونتجاهل القرآن، فإن القرآن لا يُقْرَأ مثل غيره من الكتـب، ويقول المؤمنون: إن القرآن إذا قُرِئَ بالطريقة الصحيحة فإنه يترك حسًّـا بحضور سماوي، ومن الصعب على شخص نشأ في التقاليد المسيحية فهم ذلك»(4).

- **وإليكم دليل:**

«ويمكن ملاحظة قوة القرآن من خلال تغيير شـعوب كثيرة في الإمبراطورية الإسلامية للغاتها واستبدالها باللغة المقدسة للكتاب المقدس»(5).

(1) كارين أرمسترونج: سيرة النبي محمد، ص198.
(2) السابق، ص77.
(3) السابق، ص77، 78.
(4) السابق، ص78.
(5) السابق، ص79.

- ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾[1]:

«فحينما يسمع المسلمون تلاوة سورة قرآنية في المسجد، فإن تلاوة واحدة كتلك تستدعي معها كل مبادئ عقيدتهم، وإلى جانب ذلك فإن غير المسلمين قد يجدون القرآن مصدرًا هامًا للمعلومات عن محمد (ﷺ)، ورغم أنه لم يتم جمعه رسميًّا إلا بعد وفاة محمد (ﷺ)، فالقرآن لا تنقصه المصداقية؛ فالدارسون الْمُحْدَثُون المختلفون، والذين أمكنهم تأريخ مختَلَفِ السور بدرجة معقولة من الدقَّة، يُوَضِّحون - مثلاً - أن السور المبكِّرة جدًّا تعالج مشكلات خاصَّة قابلها محمد (ﷺ)، والدين بَعْدُ في مراحل الصراع الأولى، أمَّا بَعْدَ ذلك فقد أصبح بالإمكان طرح تلك الصعوبات جانبًا، بعد أن قويت دعائم الدين وانتصر، ومن هنا نجد في القرآن تأملاً وتعليقًا على الرسالة المحمدية، الأمر الذي يُعْتَبَرُ فريدًا في تاريخ الأديان»[2].

- سبق بالسنين الضوئية:

«كانت العلاقات طيبة في العادة بين المسلمين والمسيحيين، وكان المسلمون يسمحون للمسيحيين، مثلما يسمحون لليهود، بالحرية الدينية الكاملة في أرجاء الإمبراطورية الإسلامية، وكان معظم أهل إسبانيا يعتزُّون بانتمائهم إلى تلك الثقافة الرفيعة، فقد كانت تسبق سائر أوربا سبقًا يُقاس بالسنين الضوئية، وكان كثيرًا ما يُطْلَق عليهم المستعربون»[3].

- كانوا مولعين بالعربية:

وتنقل أرمسترونج قول بول ألفارو، وهو علماني إسباني يحكي فيقول: «المسيحيون مولعون بقراءة الأشعار والقصص العربية، وهم يدرسون فقهاء الإسلام وفلاسفته، لا ليدحضوا ما يقولون؛ بل لتصحيح لغتهم العربية وتنميق أسلوبهم، وهل لدينا اليوم من غير رجال الدين مَنْ يقرأ التفاسير اللاتينية للكتاب المقدس، أو من يدرس الأناجيل، أو كتابات الأنبياء والرسل؟ وا أسفاه! إن جميع شباب المسيحيين من ذوي المواهب يعكفون على قراءة الكتب العربية ودراستها بحماس»[4].

- لا صراع بين العلم والدين:

«القرآن لا يطلب من المسلمين أن يتخلَّوْا عن العقل؛ فالآيات مُوَجَّهة إلى (قوم يعقلون)، و(لقوم يعقلون)، والقرآن يحثُّ المسلمين على أن (ينظروا) إلى الآيات في العالم الطبيعي

(1) (فصلت: 42).

(2) كارين أرمسترونج: سيرة النبي محمد، ص79، 80.

(3) السابق، ص32.

(4) السابق، ص32، 33.

وأن يتدبَّرُوها بعناية، وقد ساعد هذا الاتجاه على تنمية عادة التأمُّل والاستطلاع الذكي، التي مَكَّنَت المسلمين من إرساء وتطوير تراث رائع في العلوم الطبيعية والرياضيات، ولم ينشأ في يوم من الأيام أي صراع بين البحث العلمي العقلاني وبين الدين في التراث الإسلامي»[1].

- حضارة عظمى:

«المسلمين أَسَّسُوا حضارة عظمى ذات جمال رائع، كما أنهم أَرْسَوْا دعائم تقليد فلسفي عقلاني كان مصدر إلهام المفكرين في أوربا في العصور الوسطى»[2].

- حقيقة أساسية:

«ساهم محمد (ﷺ) مساهمة متميزة وقيمة في التجربة الروحية للإنسانية، فإذا كُنَّا نبغي أن نُنْصِفَ جيراننا المسلمين، فيجب أن نُقَدِّرَ هذه الحقيقة الأساسية حقَّ قدرها»[3].

- الإنجاز الفريد:

«... وفي الواقع واجه محمد (ﷺ) أخطارًا كانت نجاته منها شبه إعجاز، ولكنه نجح في نهاية حياته؛ كان قد قضى على جذور دورة العنف القبلي المزمنة التي كانت المنطقة مبتلاة بها.

أمَّا الوثنية فقد أصبحت أمرًا لا يحظى بأي اهتمام، وكان العرب أيضًا قد استعدوا لأن يبدءوا مرحلة جديدة في تاريخهم، ولا بُدَّ لنا من استيعاب الأحوال في بلاد العرب قبل مجيء الإسلام، تلك الفترة التي يدعوها المسلمون الجاهلية، أو زمن الجهالة؛ كي نقدر ذلك الإنجاز الفريد»[4].

- أحد أعظم العباقرة:

«إذا نحن تركنا توقُّعاتنا المسيحية للقداسة جانبًا، فسنجد محمدًا (ﷺ) شخصية قوية المشاعر، وذات أبعاد مركبة، وكان لدى محمد (ﷺ) مواهب روحانية وسياسية عظيمة... كان أيضًا رءوفًا، شديد التأثر، وعلى قدر هائل من التعاطف... كثيرًا ما نجد محمدًا (ﷺ) يبتسم ويُدَاعب المقرَّبين منه، نراه - أيضًا - يلاعب الأطفال ويختلف مع زوجاته، ويبكي بحرقة لوفاة أحد أصحابه، ويعرض ابنه الوليد مزهوًّا كأي أب وَلِع، فنحن إذا استطعنا النظر

(1) كارين أرمسترونج: سيرة النبي محمد، ص154.
(2) السابق، ص172.
(3) السابق، ص23.
(4) السابق، ص84.

إلى محمد (ﷺ) كما ننظر إلى الشخصيات العظيمة الأخرى، فمن المؤكد أننا سنراه أحد أعظم العباقرة الذين عرفهم التاريخ»[1].

- الذوق الرفيع:

«وعُرِفَ في مكة باسم الأمين، وكان طَوَال حياته ذا مقدرة على كسب ثقة الآخرين... وتميزت شخصيته بالدفء الشديد، حتى إنه كان يهتم اهتمامًا تامًّا بكل ما يفعله، وعبَّرت لغته الجسدية في مشيته ووقوفه وجلوسه عن تلك السمات... ولم يحدث أنه حين كان يستدير لمحادثة شخص ما أن استدار إليه جزئيًا، بل كان يَتَّجِهُ إلى من يحادثه بكل جسده، ويحادثه وجهًا لوجه، وإن هو صافح أحدًا فلم يكن ليسحب يده أولاً»[2].

- الإنسان:

«ورغم أن محمدًا (ﷺ) كان إنسانًا مُتَّقِدَ العاطفة، فلم يتزوَّج بأخرى أصغر سنًّا من خديجة (رضي الله عنها) طَوَال سنوات زواجه بها، وتلك حقيقة أَوْلَى بهؤلاء الذين ينتقدونه لتعدُّد زوجاته في السنوات الأخيرة من حياته أن يُبَرِّرُوها، والواقع أنه بعد وفاتها كان مَدْحُ محمد (ﷺ) الدائم لخديجة (رضي الله عنها) يُغْضِب النساء اللاتي تزوَّجهن، كما أنه في إحدى المناسبات شحب وجهه من الأسى لاعتقاده أنه سمع صوتها، ليس هذا إذًا زواج مصلحة، كما أن محمدًا (ﷺ) كان يُخْرِج الجزء الأكبر من دخل أسرته للفقراء؛ مما نجم عنه أن يعيش هو وأسرته في تَقَشُّف، لكن على الرغم مما ساد داره من تقشف، فقد كانت أسرته سعيدة... وأَحَبَّ محمدٌ (ﷺ) الأطفالَ دائمًا، وظَلَّ طَوَال حياته يحتضنهم ويُقَبِّلَهم ويُشَاركهم ألعابهم، كما أنه تفانى في حُبِّ بناته»[3].

- حتى عندما أصبح السيد:

«كان محمد (ﷺ) نفسه يعيش حياة بساطة وتَقَشُّف، حتى عندما أصبح أقوى سيد في بلاد العرب، فكان يَكْرَه الترف، وكان منزله كثيرًا ما يخلو من الطعام»[4].

- نجاح غير عادي:

«لقد نجح محمد (ﷺ) نجاحًا سياسيًّا غير عادي، ويميل المسيحيون إلى التشكك في الطابع الرباني لهذا الانتصار الدنيوي»[5].

---

(1) كارين أرمسترونج: سيرة النبي محمد، ص81.

(2) السابق، ص122، 123.

(3) السابق، ص125، 126.

(4) السابق، ص144.

(5) السابق، ص24.

- الإنجاز السياسي:

«فحينما بدأ محمد (ﷺ) دعوته إلى كلمة الله في مكة، كانت تسـود بلاد العرب حالة مـن التفكُّك المزمن، فقد كان لكل قبيلة من قبائل البـدو العديدة قانون قائم بذاته، وكانت - أيضًـا - كل قبيلة في حالة من الحرب الدائمة مـع التجمعات القبلية الأخرى، وكان يبدو مسـتحيلاً للعرب أن يَتَجَمَّعُوا: مما عنى عدم إمكانهم إقامة مدينة[1] أو نظام للحكم يُمَكِّنُهم من احتلال مركز لهم في العالم.

أمَّا الحجاز فقد بدا وكأنَّ من الْمُقَدَّر له أن يبقى في حالة بربرية متوحشـة خارج نطاق الحضارة، ثم بعد ذلك بثلاثة وعشرين عامًا، أي عند وفاة محمد (ﷺ) في 8 يونيو عام (632م)، كان محمد (ﷺ) قد تمكَّن من لَمِّ شمل القبائل جميعها، وجعلها تلحق بمجتمعه المسلم.

ورغم أنه من الصحَّة القول: إن الأمر لم يكن مسـتقرًّا تمامًا؛ إذ كان محمد (ﷺ) يَعْلَم أن بدوًا كثيرين كانوا متمسكين بالوثنية. لكن وعلى العكس من كل الاحتمالات استمرَّت وَحْدة العرب التي أنجزها محمد (ﷺ)، وكان محمد (ﷺ) يتمتَّع بموهبة سياسـية رفيعة القدر؛ إذ تمكَّن من تغيير أحوال أُمَّته تغييرًا شـاملاً، وأنقذهم مـن العنف غير المجدي ومن التحلل، ومنحهم هوية جديدة يزهون بها، وبهذا أصبحوا على استعداد لتأسيس حضارتهم المتفرِّدَة، ولقد أَطْلَقَتْ تعاليم محمد (ﷺ) مخزونَ قوة العرب، لدرجة أنهم وفي خلال مائة عام امتدَّت إمبراطوريتهم من جبل طارق إلى الهيمالايا.

وعلى هذا، فإن كان ذلك النصر السياسي هو الإنجاز الوحيد لمحمد (ﷺ)، فمن حقِّه علينا أن يحوز إعجابنا»[2].

- عبقرية تستعصي على الإدراك:

«كان ذا عبقرية تستعصي على الإدراك، وقد أسس دينًا وموروثًا حضاريًّا لم يكن السيف دِعامته - برغم الأسطورة الغربية - ودينًا اسمه الإسلام؛ ذلك اللفظ ذو الدلالة على السلام والوفاق»[3].

- لا يسعنا إلا أن نُدهش:

«ولا يسـع الإنسان إلا أن يُدهش للعبقرية الروحية للنبي محمد (ﷺ)، الذي لم تكن له أية صلة تقريبًا باليهود أو النصارى الممارسين لدينهم، وكانت معرفته بتلك الكتب السماوية الأولـى - حتمًا - معرفـة بالغة الضآلة، ومع ذلك فقد نجح في النفاذ إلى قلب الخبرة بدين التوحيد»[4].

(1) كان الأنسب أن تكون: (مدنيَّة)، ولكن ربما قصدت الكاتبة المدينة من حيث هي عاصمة ومركز نشاط.

(2) كارين أرمسترونج: سيرة النبي محمد، ص72، 73.

(3) السابق، ص393.

(4) السابق، ص151.

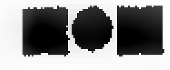
رونالد فيكتور بودلي (ر. ف. بودلي) (R. V. C. Bodley):



رائد التحق بالجيش البريطاني عام (1908م)، وتدرَّج في رتبه إلى أن وصل رتبة كولونيل، عَمِلَ في وحدة الجيش البريطاني بالعراق، ثم في شرقي الأردن عام (1922م)، ثم مستشارًا لسلطنة مسقط عام (1924م).

كان أول من عَبَر الربع الخالي، وكشــف عن أســـراره المجهولة بين عامي (1930-1931م)، وعندما ترك الخدمة الحكومية ذهب ليعيش بين عرب الصحراء، وكتب كثيرًا عن الصحراء وعن الشرق، وأشهر كتبه: (الرسول.. حياة محمد = The messenger; the life of Mohammed)، وهـــو مترجم للعربية، وأعمال أخرى منها: (Wind in the Sahara)، و(Sahara The soundless)، و(Indiscreet travels East)، وغيرها.

(الرسول.. حياة محمد = The messenger; the life of Mohammed):



- خلود:

«وخير دليل على العلاقة الطيبة السلمية بين المسلمين وأصحاب البلاد المفتوحة، أن جميع هذه البلاد (ما عدا إسبانيا) ظَلَّت أمينة للإسلام من القرن السابع إلى القرن الرابع عشر[(1)]»[(2)].

- سبق زمانه ومستقبله:

«ولــو أنه (ﷺ) جعل المُثُلَة من تعاليمه لــكان محافظًا على عادات زمانه، وعلى ما كان عليه المســيحيون في زمنه وبعد زمنه بكثير، فإنه لما غزا الصليبيون الأرض المقدسة سنة (1099م)، خلفوا وراءهم في كل مكان الموت والدمار، بيد أنه لما رَدَّ صلاح الدين الصليبيين على أعقابهم، لم يلجأ إلى وســائل الانتقام، ولم يُخَرِّب المسلمون الأماكن التي فتحوها، كما فعل المقاتلون الدينيون السابقون لهم من الممالك الأخرى، فأينما وضعوا أرجلهم نشأ شيء جديد أسمى وأفضل مما كان قبلاً»[(3)].

(1) فات بودلي أن يصرح بالسبب الحقيقي لهذا، وهو أن هذه الفترة كانت بدايات الاستعمار الأوربي لأراضي العالم الإسلامي، وهو الاســتعمار الذي فرض دينه بالسـيف والحديد والنار والتعذيب، حتى بدأ الإسلام ينزوي ويختفي قسرًا وقهرًا في بعض البقاع غير الناطقة بالعربية خاصة.

(2) ر. ف. بودلي: الرسول، ص93.

(3) السابق، ص147.

- مقام أسمى:

ويقول بودلي عن قوانين (الأحوال الشخصية) في الإسلام: «وإن هذه القوانين قد جعلت للمرأة مقامًا أسمى منه في أي بلد غربي في ذلك الوقت، وإن المسلم اليوم ليس له سلطان على ممتلكات زوجه، بعكس الزوج في كثير من الجماعات الأوربية؛ فالإسلام قد منح المرأة الحرية والاستقلال عن زوجها في التمتع بحقوق ما تملك منذ ألف وثلاثمائة سنة»[1].

- تَعَدُّد الزوجات:

يقــول بودلي وبرغم أنه لا يُوافق على تعــدُّد الزوجات: «فليس من العدل أن يذكر نظامُ تعدُّد الزوجات كجزء من الدين الإســلامي، دون ذكر الرقِّ كجزء من الدين المســيحي، فقد صاحب الرقُّ المســيحية، وجعل يُبَرِّر وجودَه حتى القرن التاســع عشر بالقوانين المسيحية، وإن هــذا ينطبــق على تعدُّد الزوجات في الإســلام، ولكنَّ هناك فرقًا واحــدًا، هو أن تعدُّد الزوجات قد لَمَّ شمل الأسرة ولم يُفَرِّقها، وجعل البيت شيئًا مُقَدَّسًا»[2].

- ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[3]:

«القــرآن هو العمــل الوحيد الذي عاش أكثر من اثني عشــر قرنًــا دون أن يُبَدَّل فيه، ولا يوجــد شــيء يمكن أن يُقَارَن بهــذا أدنى مقارنة، لا في الديانــة اليهودية ولا في الديانة المسيحية»[4].

- سحر القرآن:

«ولهذا الكتاب سحر خفي، له تأثير عجيب في العرب؛ فقد حوَّل الرعاة والتجار والبدو والبسطاء إلى مقاتلين وبناة إمبراطورية، ومؤسسي مدن كبغداد وقرطبة ودلهي، وإلى علماء وحكماء ورياضيين، وإن هذا الكتاب - ولا شَكَّ - لهو الذي عاون هؤلاء الرجال على أن يغزوا عالمًا أوسع من العالم الذي سيطر عليه الفرس والروم، وقد فعلوا ذلك في عشرات السنين، واستغرق ذلك ممن سبقوهم قرونًا»[5].

- في ظلال الإسلام:

«حافظ المســلمون - ببعض اســتثناءات - على أمر محمد (ﷺ) الخاصِّ بعطفهم على المسيحية، وهذا على عكس ما يظنه الغربيون عمومًا.

(1) ر. ف. بودلي: الرسول، ص222.
(2) السابق، ص90.
(3) (الحجر: 9).
(4) ر. ف. بودلي: الرسول، ص231، 232.
(5) السابق، ص235.

إن الأمريكي أو الأوربي العادي الذي يحترف الدين، يؤمن لأن أي دين خلاف المسيحية باطل، وحتى في حظيرة المسيحية، فالطوائف المختلفة تعتقد كلٌ منها أن الأخرى على ضلال، فهناك قليل من التسامح بين الكنيسة والمعبد، ولا تسامح بين الكاتدرائية والمسجد، والأمر ليس كذلك في الإسلام.

فبينما دين الإسلام يُحَرِّم الوثنية دون قيد، فهو يعترف بالمسيحية دون تَحَفُّظ[1]، وقد كتب محمد (ﷺ)[2] في السورة الثانية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[3]، ثم في السورة الخامسة: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾[4].

وقال لما كان يتحدَّث عن الشروط التي يعيش بها اليهود والنصارى في أرض إسلامية ليعتبروا جزءًا من المجتمع: «**مَنْ يُسِئْ إِلَى يَهُودِيٍّ أَوْ نَصْرَانِيٍّ كُنْتُ خَصْمَهُ**»[5].

وأكَّد هذا التسامح بالنسبة للدين الذي يشابه دينه كثيرًا، وقد ضمن حرية العبادة للمسيحيين في جميع المعاهدات التي عقدها معهم.

ولما أصبح عمر (رضي الله عنه) خليفة، واستولى على بيت المقدس أصدر أوامر مشدَّدة بعدم الإضرار بالمسيحيين أو بكنائسهم، ولما غزا المسلمون إسبانيا في القرن الثامن احترم المسلمون كل شيء مسيحي، واستمرَّ الحال على ذلك حتى زوال الحكم العربي من أوربا في القرن الخامس عشر، ولم يستمرَّ الحال على ذلك لَمَّا أصبح للمسيحيين اليد العليا؛ فَحَلَّ الاضطهاد الديني محلَّ التسامح الإسلامي»[6].

- وذلك الحَجُّ شاهد:

«والحج أعظم شاهد على ديمقراطية الإسلام؛ فهناك يجتمع المسلمون الأوربيون والآسيويون والإفريقيون، والصعاليك والأمراء، والتجار والمقاتلون في نفس الإزار البسيط

(1) إن كان يقصد الاعتراف بالمسيحية كدين، وبالمسيح كنبي ورسول، وبالمكانة العظمى لمريم البتول فهو كذلك، ولكن للإسلام تحفظات بل تناقضات جذرية مع المسيحية التي تعريفها هي أن المسيح هو ابن الله، على أية حال هو يتحدث في هذا النص عن التسامح الإسلامي ولهذا أثبتناه.

(2) باعتباره لا يؤمن بأن القرآن وحي فهو يعتقد بأن محمدًا (ﷺ) قد كتبه.

(3) (البقرة: 62).

(4) (المائدة: 82).

(5) لعله يقصد قوله (ﷺ): «مَنْ ظَلَمَ مُعَاهَدًا، أَوِ انْتَقَصَهُ حَقًّا، أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ، أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ مِنْهُ؛ فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». رواه أبو داود (3052)، وقال الألباني: صحيح. انظر: السلسلة الصحيحة (445).

(6) ر. ف. بودلي: الرسول، ص309، 310.

الـــذي كان محمد (ﷺ) وأتباعه يرتدونه في حجة الوداع عام (632هـ). إنهم جميعًا يتناولون نفس الطعام، ويتقاسمون نفس الخيام، ويُعَامَلون دون تمييز، سواء أجاءوا من مرافئ سيراليون أم من قصر نظام حيدر أباد. إنهم جميعًا مسلمون»[1].

- الحاكم العظيم:

«حكم جزيرة العرب، ولكن ما كان يجد ما يضيره في تناوله الطعام مع عبد من العبدان، وفي مشاركته ابن السبيل تمرة من التمرات»[2].

- !!!!!!

بلغ إعجاب بودلي ببســاطة الإســلام أن تَوَقَّع أن الإســلام لم يكن لينتشر في أوربا ولو انتصر عبد الرحمن الغافقي على شــارل مارتل في موقعة بلاط الشهداء؛ ذلك أن الأوربيين معقدون بعيدون عن روح الطبيعة، يقول: «فما كانت أوربا لتعتنق الإســـلام لو أن شارل مارتل قد هُزم في تور[3]، فهذا الدين يوائم أناسًا غير مُعَقَّدين: أناسًا أرواحهم قريبة من الطبيعة، والعرب حقًّا غير مُعَقَّدِين، وكان محمد (ﷺ) غير معقد»[4].

- كالغيث.. أينما حَلَّ نفع:

«كانوا (أي المســلمين) كالغيث الذي يخصب المكان الذي ينزل فيه، وإن عصر الإحياء في أوربا ليرجع إلى أحفاد صحابة محمد (ﷺ)، الذين حملوا مشعل الثقافة، حين كانت أوربا غارقة في ظلمات العصور الوســطى، لقد كان المجد الهندســي لدمشق، وفارس، وإشبيلية، وغرناطة، وقرطبة نتيجة غير مباشرة أثرًا لما بدأه محمد (ﷺ)»[5].

- عظيم متواضع:

«كانت رغبات محمد (ﷺ) يسيرة، فكان الزهد فيها أمرًا ميسورًا، ولكنه كان رجل دنيا أيضًا، وما كانت دنيا الماضي السحيق، وما كان محمد (ﷺ) ليحس امتعاضًا لترف المجتمع الغربي أو الشـــرقي، فقد أحب كما أحببنا، وكان له أولاد، وكان فارسًا لا يشق له غبار، وكان يخصف نعله ويرقع ثيابه، وكانت فيه دعابة حسنة، وكان يعرف في نفسه أنه قائد، ولكنه ما كان أبدًا محبًّا للمظاهر، ولم يحاول أبدًا أن يؤسس شيئًا يشابه البلاط، ولم يسمح لأحد أن يعتقد أن له صفات إلهية أو خارقة للطبيعة»[6].

(1) ر. ف. بودلي: الرسول، ص339.
(2) السابق، ص339.
(3) يقصد معركة بلاط الشهداء، التي كانت قريبة من مدينة تور.
(4) ر. ف. بودلي: الرسول، ص340.
(5) السابق، ص147.
(6) السابق، ص15.

- **إنجاز بلغ الخيال:**

«كانوا قبائل مستقلَّة، لكلٍّ عاداتها ولهجتها، على أهبة الذَّوْدِ عن حياضها، وما زال العرب حتى اليوم يحسون مثل ذلك الإحساس، وهذا يجعل من المستحيل قيام حكومة عربية مركزية، فإذا ما صار رجل من رجال الصحراء قائدًا لهذه القبائل، ثم يجمعها جميعًا تحت لواء واحد لتموت دونه، لأمر يدعو إلى الدهشة، فما بالك إذا خرج هذا الرجل من رجال الحضر الذين لا يُوَقِّرهم أهل البادية كل التوقير! إن هذا ليبلغ حَدَّ الوهم والخيال»(1).

- **لمسة الجمال:**

«وكان حاضر البديهة، عذب الحديث، مَيَّالاً إلى معاشرة الناس، معتنيًا دائمًا بملابسه وهندامه، فكان يلبس للخيام لبسًا، وللطريق لبسًا، ويعتني بلباسه غاية العناية إذا ما كان في الدار، وكان يَهْتَمُّ بعمامته، وكانت ملابسه نظيفة أبدًا، وكان يُفَضِّل البياض، وإن كان قد لبس الألوان الزاهية في أيامه الأخيرة»(2).

- **ولفتة الذوق الرفيع:**

«وكانت مصافحته كبسمته صادقة التعبير، فكان يضغط اليد التي تصافحه، وما كان البادئ أبدًا بسحب يده، وكان وفيًّا غاية الوفاء لأصدقائه، فما عُرِفَ عنه أنه خان عهده، وكان حدبه(3) على الصغار والحيوان صادقًا، فإذا سار الْتَفَّ به الصبيان، وأمر أتباعه بالرفق بالحيوان.

وما كان محمد (ﷺ) ثرثارًا، وإن كان صادق الترحاب بمن يُقْبِل عليه، وكان على سليقته العربية لا يتكلم إلا إذا كان هناك ما يصلح للحديث، وقد أعلن أنه من الإيمان الإعراض عن اللغو»(4).

- **وعَدُوُّ الخمول:**

«ما كان محمد (ﷺ) كَسِلاً، وما عرف الكسل يومًا من طفولته إلى أن لاقى ربه»(5).

- **خرافة الصرع:**

«وسواء أكان صرعًا أم ملاريا أم غيبوبة روحية، فلن يُؤَثِّر ذلك في الأمر شيئًا على الرغم من كل ما قيل في هذا الموضوع، فما كان الصَّرَع ليجعل من أحد نبيًّا أو مُشَرِّعًا،

---

(1) ر. ف. بودلي: الرسول، ص23.

(2) السابق، ص43.

(3) الحدب: العطف والحنوّ، من حَدِبَ عليه أي: تَعَطَّفَ وحَنا عليه، يقال: هو له كالوالد. ابن منظور: لسان العرب، مادة حدب 300/1، والمعجم الوسيط ص159.

(4) السابق، ص43.

(5) السابق، ص52.

وما رفع الصرع أحدًا إلى مراكز التقدير والسلطان يومًا، وكان مَنْ تنتابه مثل هذه الحالات في الأزمنة الغابرة يُعْتَبَر مجنونًا أو به مسٌّ من الجنِّ، ولو كان هناك مَنْ يُوصف بالعقل ورجاحته فهو محمد (ﷺ)»[1].

- هل الدجال وفيٌّ؟!

«ويختلف المؤرخون فيما إذا كان محمد (ﷺ) قد بدأ حياته كمؤمن مُلْهَم، أو دجَّال مغرض، وإنَّ جواب هذا عند خديجة، فما كان من المعقول أن تختار شخصًا لقيادة قوافلها، ثم لإدارة أعمالها جميعًا، ثم زوجًا لها، إذا كان هذا الشخص دجَّالاً مغرضًا أو غير مغرضٍ، وما كان من المعقول أن دجَّالاً له في الأسرة مثل ذلك النفوذ الواسع المدى، ثم يستغلّ الفرصة الذهبية التي واتته ذلك الاستغلال الضئيل، وما كان من المفهوم أن تظلَّ شخصية كشخصية محمد (ﷺ) التي رسموها (الدجَّال المغرض) وفيَّة لخديجة حتى الممات، وما كان لأَفَّاكٍ أن يُهْمِلَ السعادة المادية الملموسة لوحي رُوحي لا يُلمس»[2].

- دليل التجرُّد:

«إن ثبات محمد (ﷺ) على مبدئه، وعدم إذعانه للضغط الذي نزل به، لأعظم دليل على تجرُّده من عرض الدنيا»[3].

- هذا سبب تافه، وإنها لفطنة:

ورغم أن بودلي لا يُقِرُّ ولا يُوَافق على تعدُّد الزوجات إلا أنه يُبْصِر في هذا حكمة رسول الله فيقول: «وإن أعداء محمد (ﷺ) ليهاجمونه هجومًا عنيفًا غير مشروع بسبب تعدُّد الزوجات، فلطالما سمعت أن نجاح الإسلام يعود إلى أنه دين شهواني، وإنه على الرغم من أنه من المحال أن يعزى انتشار ديانة عظيمة لسبب تافه كهذا، لم يكن محمد (ﷺ) له في الأمر شيء، فما كانت أخلاق العرب من صنعه، وكان من الفطنة بحيث إنه ما كان ليتصوَّر بأن في مقدوره إعادة تكوين هذه الأخلاق، أو تجريد الناس مما طُبِعُوا عليه دفعة (واحدة)»[4].

- عمل جبار:

«وقد أنجز كل هذا رجل واحد في الإسلام، وتمَّ كل هذا التبدُّل في جيل واحد... إن عمل محمد (ﷺ) كان جبارًا، حتى إن عيسى (عليه السلام) لا يمكن أن يُسَجَّل له شيء يُقَارِب ما أتاه محمد (ﷺ)، ولا حتى بولس»[5].

---

(1) ر. ف. بودلي: الرسول، ص58، 59.
(2) السابق، ص63، 64.
(3) السابق، ص81.
(4) السابق، ص89.
(5) السابق، ص89.

- لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَجُوزٌ!

«وكان محمد (ﷺ) مجامل (رقيق) جدّ مجامل في مخاطبته للنساء، وتُعتبر الحادثة التالية رقمًا قياسيًّا في الذوق وحُسن السياسة، فقد سألته عجوز كيف ستدخل الجنة؟ فقال: «لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَجُوزٌ»[1]. فذعرت المرأة، فقال: إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا﴾[2]»[3].

- الأثر الخالد:

«وإن مما يُؤَثِّر في الغريب اليوم أدب العربي الصميم، ورقَّة قلبه، وحسن ضيافته، ولا يوجد جنس بشري آخر يبلغ في الكرم ما يبلغه العربي، كرمٌ يصدر عن نفس صادقة، لقد انقضى ثلاثة عشر قرنًا منذ أعطى محمد (ﷺ) دروس الأخلاق في المدينة، ولكن تلك الدروس لم تُنْسَ إلى الآن»[4].

- معجزة عظمى:

«ويبدو هذا العمل عظيمًا لمن لا يعرف العرب عن كثب، ولكنه أعظم خطورة مما يظهر؛ فالعرب فوضويون بطبعهم، لا يخضعون لقانون، فإذا ما اشتغل العربي أو حارب، فإنما يفعل ذلك بدافع من حماسته الشخصية، ولا يتحلَّى العربي بروح الجماعة... إن طريقة صَهْر محمدٍ (ﷺ) العرب في فريق واحد لا يُهزم، لإحدى معجزاته العظمى، وإن الفضل كل الفضل له»[5].

- في مسألة الرِّق:

«ما كان في مقدوره أن يُحَرِّم الرقَّ جملة، كحاله في مسألة تَعَدُّد الزوجات[6]، ولكنه خَفَّف قوانين الرقِّ، وعَمِلَ على تشجيع فكِّ الرقاب، وإن ما أمر به هو تحرير جميع مَن اعتنقوا الإسلام، وأضاف إلى ذلك الأمر، أنه لا وصمة تصم العبد المحرَّر، وفي الحقيقة إن العبد المحرَّر في الإسلام له جميع الفرص التي للرجل أو المرأة التي وُلِدَتْ حُرَّة،

(1) هو بلفظ: «عن عائشة أن نبي الله (ﷺ) أتته عجوز من الأنصار، فقالت: يا رسول الله، ادع الله أن يدخلني الجنة. فقال نبي الله: «إِنَّ الْجَنَّةَ لا يَدْخُلُهَا عَجُوزٌ». فذهب نبي الله (ﷺ) فصلى، ثم رجع إلى عائشة، فقالت عائشة: لقد لقيت من كلمتك مشقة وشدة. فقال نبي الله (ﷺ): «إِنَّ ذَلِكَ كَذَلِكَ؛ إِنَّ الله إِذَا أَدْخَلَهُنَّ الْجَنَّةَ حَوَّلَهُنَّ أَبْكَارًا». الطبراني في المعجم الأوسط عن عائشة (رضي الله عنها) (5545)، والترمذي: الشمائل المحمدية (238)، وصححه الألباني، انظر السلسلة الصحيحة (2987).

(2) (الواقعة: 35، 36).

(3) ر. ف. بودلي: الرسول، ص95.

(4) السابق، ص138.

(5) السابق ، ص140.

(6) لأن بودلي غير مقتنع كذلك بمسألة تعدد الزوجات، وليس على غير المسلم فضلاً عن غربي في هذا من حرج.

وقد أوصى بالعبيد الذين بقُوا في الرِّقّ، قال: «إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ[1]. جَعَلَهُمُ اللهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِنْ طَعَامِهِ وَلْيُلْبِسْهُ مِنْ لِبَاسِهِ، وَلَا يُكَلِّفُهُ مَا يَغْلِبُهُ، وَإِنْ كَلَّفَهُ مَا يَغْلِبُهُ فَلْيُعِنْهُ عَلَيْهِ[2]»[3].

- لم يثأر:

«ومــا كان محمــد (ﷺ) ليميل إلى الثأر من قريش، وما كان يحــب أن يُؤْذِيَ قومًا آذوه واضطهدوه، على الرغم من أنه ســاق هذا الجيش اللَّجِــب[4] الضخم، وما كان يودُّ أن يقتل الأخُ أخاه، والمرء أهله وذويه»[5].

- .. ولم يتغيّر:

«وما كان شيء مما حدث في الأشهر الماضية[6] لِيُبَدِّل من طريقة حياته، أصبح يملك مبالغ كثيرة من الأموال، وازداد مجدًا وتألُّقًا، ولكن ما كان هذا ليبدل من الأمر شـيئًا، فإنه لَيُعْطِــي المال للفقــراء، ويحتفل بالمجد بنفس طعامه المتواضع البســيط، في نفس الدور البسيطة التي لا أثاث بها المحيطة بالمسجد، وظَلَّت العلاقات الديمقراطية بين الملك غير المتوَّج وجنوده كما كانت عليه في أيام الشدة والاضطهاد الأولى»[7].

- أب الأسرة العظيمة:

وعن عودة الجيش الإســلامي العظيمة من تبوك يقــول بودلي: «وعلى الرغم من ذلك، فــإن محمــدًا (ﷺ) لم يَتَّخذ هيئة البطل الفاتح، فما الْتَفَّ الناس ببغلته حتى راح يُحَدِّث كلًّا باسمه، وترك الأطفال يَتَعَلَّقون في ركابه، ويركبون أمامه وخلفه، كان كأب أسرة عظيمة عاد من رحلة صيد»[8].

- لا طبقية ولا عنصرية:

«وقضى محمدٌ (ﷺ) على فروق الطبقات واللون والأجناس»[9].

---

(1) خولكم: خدمكم، انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري 115/1.

(2) روي بلفـظ: «إِخْوَانُكُـمْ خَوَلُكُمْ، جَعَلَهُـمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَـنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَـدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْـهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلاَ تُكَلِّفُوهُـمْ مَـا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ». البخاري: كتاب الإيمان، باب المعاصي من أمر الجاهلية، ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك (30) عن أبي ذرٍّ (رضي الله عنه)، ومسلم: كتاب الأيمان والنذور، باب إطعام المملوك مما يأكل (1661).

(3) ر. ف. بودلي: الرسول، ص190.

(4) اللَّجب: ذو الغلبة والكثرة. ابن منظور: لسان العرب، مادة لجب 735/1.

(5) ر. ف. بودلي: الرسول، ص287.

(6) يقصد بعد فتح مكة وخضوع الجزيرة العربية لرسول الله (ﷺ).

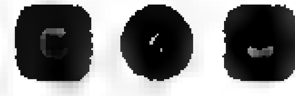
(7) ر. ف. بودلي: الرسول، ص301.

(8) السابق، ص305.

(9) السابق، ص339.

- **والتاريخ يسخر:**

«أكان في مقدور رجل - ما لم يكن ملهمًا - أن يأتي إلى الوجود بمثل هذه الأُخُوَّة العالمية؟ ألا تنعكس سخرية معادي الإسلام عليهم! وكيف يتركُ دجَّالٌ عقيدةً ازدهرت ونمت بعد موته؟ إن عدد معتنقي الإسلام ليزيد اليوم بمقدار ربع مليون كل عام[1]، ودون ضغط أو إرهاب لنشر رسالة الإسلام»[2].



(1) هذا لحظة كتابة بودلي لهذا الكتاب.

(2) ر. ف. بودلي: الرسول، ص339.



مونتجمري وات (William Montgomery Watt):

(19 مارس 1909 - 24 أكتوبر 2006م)

مؤرخ وباحث إنجليزي، وهو محاضر في اللغة العربية وآدابها، ومتخصِّص في الدراسات الأكاديمية، وفي علم الكلام الإسلامي، وفي التاريخ الإسلامي، وعميد لقسم الدراسات العربية في جامعة أدنبرا، وحاصل على الدكتوراه في علم الكلام الإسلامي، بموضوع الكسب والجبر والاختيار.

ظَلَّ مونتجمري وات يُدَرِّس الإسلام لأكثر من ثلاثين عامًا دراسة متواصلة، وعَمِلَ في الأسقفية الإنجليكانية في القدس، ولقي كثيرًا من مسلمي الهند وباكستان، وزار بعض الدول الإفريقية، بما أتاح له أن يصف نفسه بأنه (احتكَّ بقلب العالم الإسلامي).

وله العديد من المؤلفات منها: (عوامل انتشار الإسلام)، و(محمد في مكة)، و(محمد في المدينة)، و(الإسلام والجماعة الموحدة)، وهو دراسة فلسفية اجتماعية لردِّ أصل الوحدة العربية إلى الإسلام، و(محمد .. النبي ورجل الدولة)، و(الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر)، و(تاريخ إسبانيا الإسلامية)، و(من هو العربي)، و(تأثير الإسلام على الحضارة الغربية)، و(الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر).

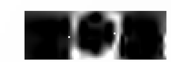
ويغلب على مونتجمري وات لهجة حوارية واضحة في كتاباته، وهو من مؤيدي التواصل والتعايش بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية، وممن ساهم في محاولة إزالة الصورة الذهنية السلبية عن التاريخ الإسلامي ونبي الإسلام والشريعة الإسلامية، وإن كان قد جاء في كتاباته ببعض الآراء المتعسفة - أحيانًا - في محاولته أن يُقَدِّمَ صورة لا تُغْضِبَ المسلمين ولا المسيحيين.

(فضل الإسلام على الحضارة الغربية = The Influence of Islam on Medieval Europe)

(محمد في مكة = Muhammad at Mecca)

(محمد في المدينة = Muhammad at Medina)

(الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر = Islamic Revelation In the Modern World)



- **تعايش:**

«الثابت هو أن المسلمين والمسيحيين واليهود في الدولة العربية أثناء تلك الحقبة اختلطوا بعضهم ببعض في حُرِّيَّة تامَّة، وكان لكل فئة منهم نصيب كامل من الثقافة المشتركة»(1).

- **واثقون من دينهم:**

«هناك اهتمام في الإحصاءات الإرسالية (التبشيرية) بعدد المتحوِّلين للمسيحية، وبزيادة الأعضاء المنتمين للكنائس المحلية، والمسيحية في هذا الصدد تصل إلى حَدٍّ التناقض مع الإسلام، فرغم أنه دين دعوة كالمسيحية، إلا أنه أقلُّ تباهيًا بالداخلين فيه: فالمجتمع الإسلامي يجذب أناسًا إلى الإسلام لمجرَّد قبولهم كإخوة (في الإسلام)، وهذا الاتجاه لا يَتَّخذه إلا أصحاب دينٍ واثقون من دينهم ثقة عظيمة لا تجعلهم يؤكدونها بالإحصاءات، بينما نجد المسيحيين الغربيين يمرُّون بأزمة ثقة في النفس»(2).

- **المُحَرِّرون:**

«عندما فتح المسلمون سوريا ومصر رَحَّب بهم السكان باعتبارهم مُحَرِّرِينَ لهم من سطوة اليونانيين (البيزنطيين) الممقوتين»(3).

- **حضارة ذات إنجازات عظيمة:**

يبدأ مونتجمري وات مقدمة كتابه (فضل الإسلام على الحضارة الغربية) عن تأثير الإسلام في أوربا بقوله: «لن أنظر إلى المسلمين باعتبارهم دخلاء من بين العديد من الدخلاء على القارة الأوربية، وإنما باعتبارهم مُمَثِّلِينَ لحضارة ذات إنجازات عظيمة تَدِين لها بالفضل رقعةٌ كبيرة من سطح الأرض، ثم فاضت ثمار هذه الإنجازات على رقعة أرض مجاورة»(4).

- **اعتراف بالفضل:**

«وقد أدرك الناس منذ زمن أن الكُتَّاب المسيحيين في العصر الوسيط خَلَقُوا صورة للإسلام، هي صورة شائهة(5) من وجوه عديدة، غير أن جهود الباحثين خلال القرن الأخير قد مَهَّدَت السبيل من أجل تكوين صورة أكثر موضوعية له في عقول الغربيين، ومع ذلك فإننا

(1) مونتجمري وات: فضل الإسلام على الحضارة الغربية، ص67.

(2) مونتجمري وات: الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر، ص225، 226.

(3) السابق، ص183.

(4) مونتجمري وات: فضل الإسلام على الحضارة الغربية، ص7.

(5) يعني صورة تم تغييرها فأصبحت قبيحة غير صادقة تُنبِئ عن نظرة حاسدة حاقدة. ابن منظور: لسان العرب، مادة شوه 508/13.

- معشر الأوربيين - نأبى في عناد أن نُقِرَّ بفضل الإسلام الحضاري علينا. ونميل أحيانًا إلى التهوين من قدر وأهمية التأثير الإسلامي في تراثنا، بل ونتجاهل هذا التأثير أحيانًا تجاهلاً تامًّا. والواجب علينا من أجل إرســاء دعائم علاقات أفضل مع العرب والمسلمين، أن نعترف اعترافًا كاملاً بهذا الفضل، أمَّا إنكاره أو إخفاء معالمه فلا يدل إلا على كبرياء زائفة»[1].

- أمر يخلب اللبّ:

«إننا لنجد شــيئًا لا يكاد العقل يصدقه، وبالتالــي فهو أمر يخلب اللبَّ، حين نقرأ كيف تحوَّلت الحضارات القديمة في الشرق الأوسط إلى حضارة إسلامية»[2].

- لم يقعوا في الأسر:

وعن هضم الحضارة الإســلامية لما قبلها من الحضــارات هضمًا واعيًا، لا وقوعًا في أســرها يقــول مونتجمري: «فإذا بكل مــا ارْتُؤِيَ أنه ذو قيمة وينبغــي الحفاظ عليه من بين تجارب تلك الآلاف من السنين قد أضحى يُعَبَّر عنه بلسان عربي.

ونحن نعلــم أنه حين ضمَّ الرومان أراضي اليونانيين إلــى إمبراطوريتهم كانت النتيجة - كما عَبَّر عنها أحد شعراء اللاتينية - أن أوقعت اليونان الأسيرة فاتحها القوي في أسرها، فــإن كانت قد تمــت ترجمة بعض المؤلفات إلى اللاتينية فقد ظَلَّت اللغة اليونانية بوجه عامٍّ لغة الثقافة والعلم، غير أن الفتوحات العربية لم تُؤَدِّ إلى وقوع العرب في (الأســر) على ذلك النحو؛ بالعكس، لقد فرضوا لغتهم وبعض مناحي تفكيرهم على معظم شعوب دولتهم، وذلك بالرغم من أن الكثيرين من أفراد هذه الشعوب كانوا على مستوًى حضاري وثقافي أعلى من مستوى الفاتحين»[3].

- ذلك التعصب القائم:

ويُنَدِّد مونتجمري وات بالتعصب الموجود عند الأوربيين في حديثهم عن إســهام العرب في الحضارة الإنسانية، فيقول: «ويبدو أن الكثيرين من الباحثين الأوربيين يطرقون الموضوع مــع بعض التحيز ضد العرب؛ بــل إنه حتى أولئك الذين يمتدحونهم إنما يفعلون ذلك وكأنما يَضُنُّون عليهم بالثناء... إنه من الواضح أن ثمة صعوبات تكتنف التقييم المتوازن للإنجازات العلميــة العربية، بســبب التعصب القائم ضــدَّ العرب، وهو تعصُّب لا شَــكَّ في أنه مرتبط بالصورة الشائهة عن الإسلام»[4].

(1) مونتجمري وات: فضل الإسلام على الحضارة الغربية، ص8.

(2) السابق، ص19.

(3) السابق، ص19، 20.

(4) السابق، ص46، 47 بتصرف بسيط.

- كانوا مبدعين:

وبعد أن عرض مونتجمري بإيجاز إسهامات المسلمين في العلوم والمعارف قال: «المرء متى أدرك مدى التجارِب العربية، والفكر العربي، والتأليف العربي، بوسعه أن يرى أن العلوم والفلسفة الأوربية ما كانت ستتطوّر بدون فضل العرب في الوقت الذي تطورت فيه، ولم يكن العرب مجرَّد نَقَلَة للفكر اليوناني، وإنما كانوا حملة للشعلة مبدعين، حافظوا على العلوم التي درسـوها، ثم وَسَّعُوا آفاقها، وحين شرع الأوربيون حوالي عام (1100م) في الاهتمام الجدِّيِّ بعلوم أعدائهم العرب وفلسـفتهم، كانت هذه العلوم والفلسفة في أوجها، وكان على الأوربيين أن يَتَعَلَّموا كل ما بوسعهم تَعَلُّمه من العرب قبل أن يتمكَّنُوا هم أنفسهم من إحراز المزيد من التقدُّم في هذه المجالات»[1].

- تعلموا من العرب الكثير:

«المؤكد أن العلماء الأوربيين المهتمين بالعلوم والفلسـفة بدءوا في القرن الثاني عشـر يُدْرِكون أن بوسعهم أن يتعلَّمُوا من العرب الكثير»[2].

- فتْح عالم جديد:

«لقـد زَوَّد الفكرُ العربـي الفكرَ الأوربي بغذاء ومـوادَّ جديدة، وفتـح أمامه عالمًا كاملاً جديـدًا مـن الميتافيزيقا، وكان على كافَّـة مذاهب الفكر الأوربي أن تـدرس أولاً ترجمات المؤلفات العربية»[3].

- دَيْنٌ ضخم:

«ومتى ألَّم المرءُ بكافة جوانب مواجهة المسيحية للإسلام في العصور الوسطى، وضح له أنَّ تأثير الإسـلام في العالم المسيحي الغربي هو أضخم مما يُظَنُّ عادةً؛ فلم يقتصر دور الإسـلام في العالم المسيحي الغربي على تعريف أوربا الغربية بالكثير من منتجاته المادِّية، واكتشـافاته التكنولوجية، ولا على إثارة اهتمام الأوربيين بالعلوم الفلسفية، بل إنه دفع أوربا - أيضًا - إلى تكوين صورة جديدة لذاتها، وقد أدَّت مواجهة الأوربيين العدائية للإسلام إلى تهوينهم من شـأن أثر المسـلمين في حضارتهم، ومبالغتهم في بيان أفضال التراث اليوناني والروماني عليها، ومن ثَمَّ فإنَّ من أهم واجباتنا معشر الأوربيين الغربيين - والعالمُ في سبيله لأنْ يُصبـح عالمًا واحـدًا - أن نُصَحِّحَ هذه المفاهيم الخاطئـة، وأن نعترف اعترافًا كاملاً بالدَّيْن الذي نَدِين به للعالم العربي والإسلامي»[4].

---

(1) مونتجمري وات: فضل الإسلام على الحضارة الغربية، ص62.

(2) السابق، ص81.

(3) السابق، ص97.

(4) السابق، ص114.

- مجرَّد الجهل والتخبط:

«وغالبًا ما يُرَكِّز أعداء الإسلام على أن محمدًا (ﷺ) كان مصابًا بالصرع؛ وبالتالي فإن رسالته الدينية غير صحيحة، والحقيقة أن الأعراض المصاحبة للوحي عند محمد (ﷺ) ليست هي أعراض الصرع؛ فالصرع يُؤَدِّي إلى انهيار القوة البدنية والعقلية، بينما كان محمد (ﷺ) في كامل قواه العقلية والبدنية، وفي كامل ملكاته، لكن بفرض أن هذا الزعم صحيح، فإن البراهين عليه زائفة تمامًا، وقائمة على مجرد الجهل والتخبُّط»[1].

- مزج رائع:

«ولولا هذا المزج الرائع من الصفات المختلفة الذي نجده عند محمد (ﷺ) لكان من غير الممكن أن يتمَّ هذا التوسُّع، ولاستُنْفِذَتْ تلك القوى الجبارة في غارات على سوريا والعراق دون أن تُؤَدِّيَ لنتائج دائمة، ونستطيع أن نميِّزَ ثلاث هبات مهمة أوتيها محمد (ﷺ)، وكانت كل واحدة منها ضرورية لإتمام عمل محمد (ﷺ) بأكمله، لقد أُوتِيَ أولاً موهبة خاصة على رؤية المستقبل، وكان ثانيًا رجل دولة حكيمًا، وكان ثالثًا رجل إدارة بارعًا....»[2].

- ذهول!!

«كلما فَكَّرْنَا في تاريخ محمد (ﷺ) وتاريخ أوائل الإسلام، تَمَلَّكَنَا الذهول أمام عظمة مثل هذا العمل، ولا شَكَّ أن الظروف كانت مواتية لمحمد (ﷺ) فأتاحت له فرصًا للنجاح لم تُتِحْهَا لسوى القليل من الرجال، غير أن الرجل كان على مستوى الظروف تمامًا، فلو لم يكن نبيًا ورجل دولة وإدارة، ولو لم يضع ثقته بالله، ويقتنع بشكل ثابت بأن الله أرسله؛ لما كتب فصلاً مهمًا في تاريخ الإنسانية، وَلِي أملٌ أن هذه الدراسة عن حياة محمد (ﷺ) يمكنها أن تساعد على إثارة الاهتمام من جديد برجل هو أعظم رجال أبناء آدم»[3].

-.. بسرعة خارقة:

«وكان محمد (ﷺ) رجل إدارة بارعًا؛ فكان ذا بصيرة رائعة في اختيار الرجال الذين يندبهم للمسائل الإدارية؛ إذ لن يكون للمؤسسات المتينة والسياسة الحكيمة أثر إذا كان التطبيق خاطئًا مترددًا، وكانت الدولة التي أَسَّسها محمد (ﷺ) أصبحت عند وفاته مؤسسة مزدهرة، تستطيع الصمود في وجه الصدمة التي أحدثها غياب مُؤَسِّسها، ثم إذا بها بعد فترة تتلاءم مع الوضع الجديد، وتتسع بسرعة خارقة اتساعًا رائعًا»[4].

(1) مونتجمري وات: محمد في مكة، ص130.
(2) مونتجمري وات: محمد في المدينة، ص510، 511.
(3) السابق، ص512.
(4) السابق، ص511.

وليم موير (William Muir):



(1819 - 1905م)

مستشـــرق بريطاني إســـكتلندي الأصل، تَعَلَّم الحقوق في جامعتي جلاســـجو وأدنبرا، وعُيِّنَ أمينًا لحكومة الهند (1865 - 1868م)، ثـــم اختيـــر رئيسًـــا لجامعـــة أدنبـــرا (1885-1902م).

من مؤلفاته: (ســـيرة النبي والتاريخ الإسلامي)، وهو من المراجع التي يُعتمد عليها في الجامعات الإنجليزية والهندية؛ لما احتواه من شمول ودقَّة باستناده إلى المصادر الإسلامية، وهـــو في أربعة أجـــزاء، وكتاب (حوليـــات الخلافة، صعودها وانحدارها وسقوطها)، والذي كتبه استنادًا إلى المصادر العربية الوافـــرة والمخطوطات القديمة، فَعُدَّ من أهم ما صُنِّـــف في هذا الموضوع بالإنجليزية، وكتاب (مصادر الإسلام)، وكتاب (دولة المماليك في مصر)، وكَتَبَ عدَّة مقالات عن شعراء العرب.

(حياة محمد = The life of Mahomet)



- أسمى من الوصف:

«ومهما يكن هناك من أمر فإن محمدًا (ﷺ) أســـمى من أن ينتهي إليه الواصف، وخبيرٌ بـــه مَنْ أمعن النظر فـــي تاريخه المجيد؛ وذلك التاريخ الذي تـــرك محمدًا (ﷺ) في طليعة الرسل ومفكري العالم»[1].

- لم يكن طامعًا:

« إن محمدًا (ﷺ) لم يكن في وقت من الأوقات طامعًا في الغنى، إنما سعيه كان لغيره، ولو ترك الأمر لنفسه لآثر أن يعيش في هدوء وسلام قانعًا بحالته»[2].

- أخلاق النبي (ﷺ):

«ومـــن صفات محمد (ﷺ) الجليلة الجديرة بالذكر، والحَرِيَّة بالتنويه: الرقَّة والاحترام، اللـــذان كان يُعَامِل بهما أصحابه، حتى أقلهم شـــأنًا؛ فالســـماحة والتواضـــع والرأفة والرقَّة تغلغلت في نفسه، ورسخت محبَّته عند كل مَنْ حوله، وكان يكره أن يقول: لا. فإن لم يمكنه أن

(1) وليم موير: حياة محمد، ص20.
(2) السابق، ص103.

يُجيب الطالب على سؤاله، فَضَّل السكوت على الجواب، ولقد كان أشدَّ حياءً من العذراء في خدرها، وقالت عائشة (رضي الله عنها): وكان إذا ساءه شيء تَبَيَّنَّا ذلك في أسارير وجهه. ولم يمس أحدًا بسوء إلا في سبيل الله، ويُؤثر عنه أنه كان لا يمتنع عن إجابة الدعوة من أحد مهما كان حقيرًا، ولا يرفض هدية مهداة إليه مهما كانت صغيرة، وإذا جلس مع أحد أيًا كان لم يرفع نحوه ركبته تشامخًا وكبرًا»[1].

- أدهش الألباب:

«امتاز محمد (ﷺ) بوضوح كلامه، ويُسْرِ دينه، وأنه أتمَّ من الأعمال ما أدهش الألباب، لم يشهد التاريخ مصلحًا أيقظ النفوس، وأحيا الأخلاق الحسنة، ورفع شأن الفضيلة في زمن قصير كما فعل محمد (ﷺ)»[2].

- ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[3]:

«كانت السهولة صورة من حياته كلها، وكان الذوق والأدب من أظهر صفاته في معاملته لأقلِّ تابعيه: فالتواضع والشفقة والصبر والإيثار والجود صفات ملازمة لشخصه، وجالبة لمحبَّة جميع من حوله، فلم يُعْرَف عنه أنه رفض دعوة أقل الناس شأنًا، ولا هدية مهما صغرت، وما كان يتعالى ويبرز في مجلسه، ولا شعر أحد عنده أنه لا يختصُّه بإقباله وإن كان حقيرًا، وكان إذا لقي مَنْ يفرح بنجاح أصابه أمسك يده وشاركه سروره، وكان مع المصاب والحزين شريكًا شديد العطف حسن المواساة، وكان في أوقات العسر يقتسم قُوتَه مع الناس، وهو دائم الاشتغال والتفكير في راحة مَنْ حوله وهناءتهم»[4].

- حتى أعداؤه:

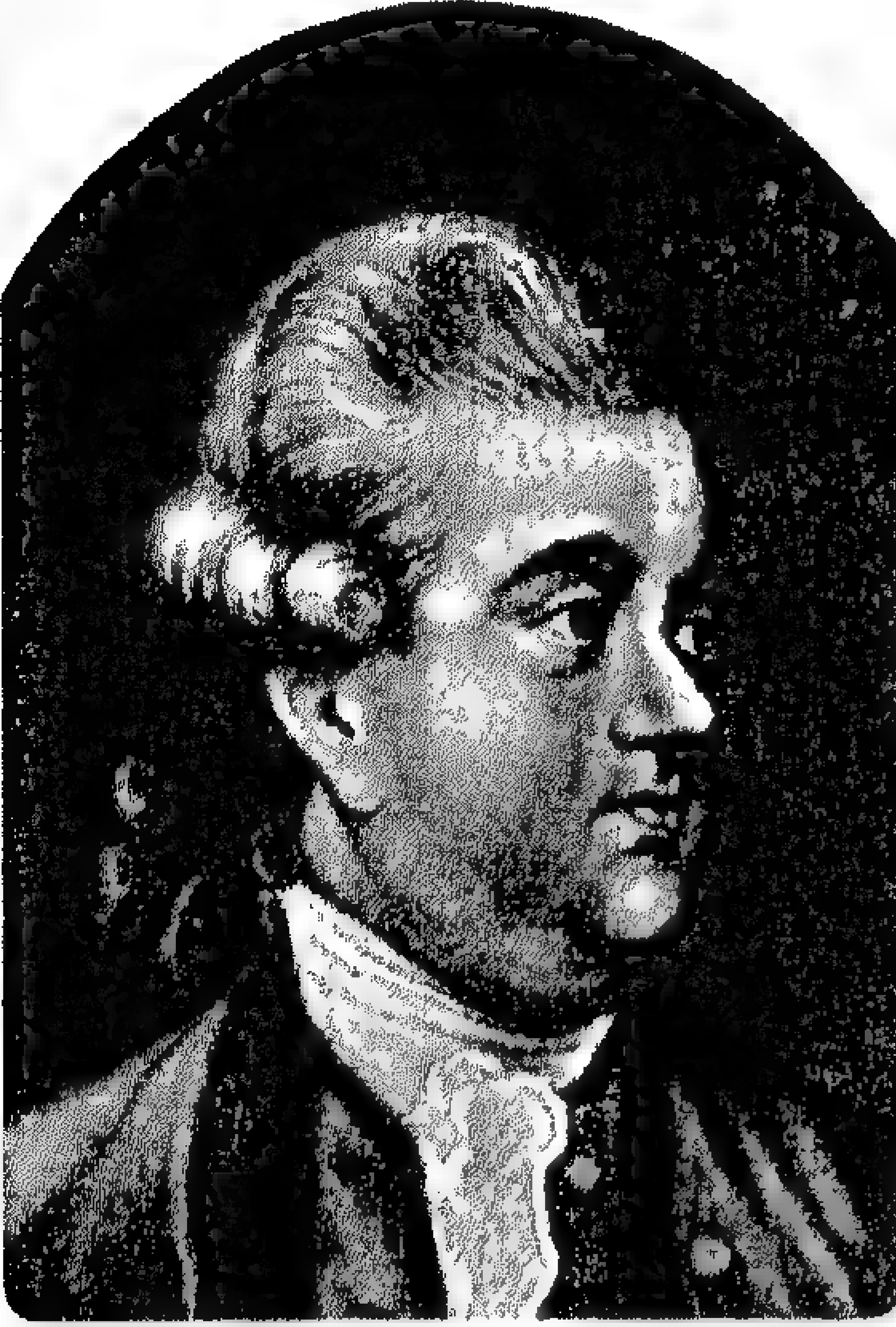
«عامل حتى ألدَّ أعدائه بكل كرم وسخاء حتى مع أهل مكة، وهم الذين ناصبوه العداء سنين طوالاً، وامتنعوا عن الدخول في طاعته، كما ظهر حلمه وصفحه في حالتي الظفر والانتصار، وقد دانت لطاعته القبائل التي كانت من قبل أكثر مناجزة وعداء له»[5].

- طُبع بالطُهر:

وعن عظيم خصاله، يقول وليم موير: «إن النبي محمدًا (ﷺ) في شبابه طُبِعَ بالهدوء والدعة والطهر، والابتعاد عن المعاصي التي كانت قريش تُعْرَف بها»[6].

(1) وليم موير: حياة محمد، ص14.
(2) السابق، ص31.
(3) (القلم: 4).
(4) وليم موير: حياة محمد، ص14.
(5) السابق، ص88.
(6) وليم موير: الإسلام، ص103.

إدوارد جيبون (Edward Gibbon):



(27 إبريل 1737 م - 16 يناير 1794م)

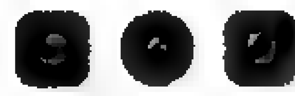
وُلِـدَ إدوارد جيبون في بلـدة بنتي في مقاطعة سـري بجنوب بريطانيا، وكان أبوه آنذاك عضوًا في البرلمان الإنجليزي، وهو مؤرخ إنجليزي كبير، يُعتبر أكبر مؤرخ إنجليزي في القرن الثامن عشر، وفي سنة (1761م) نشر جيبون باللغة الفرنسية أول مؤلف له، وهو: (بحث في دراسـة الأدب)، وفي عام (1774م) فـاز جيبون بمقعد فـي مجلس العمـوم البريطاني، واحتفظ بعضويته فيه طيلة ثماني سـنوات، اشـتهر بكتابه الضخـم: (اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسـقوطها)، الـذي كتبه مـا بين عامـي (1776م، 1788م)، تُوُفِّيَ في لندن.

(اضمحــلال الإمبراطورية الرومانية وســقوطها = The History of the Decline and Fall of the Roman Empire)



-.. إلا أن يُقِرّ:

«إن أي فيلسوف يؤمن بوجود إله لا يمكنه إلا أن يُقِرَّ بعقيدة محمد (ﷺ) المألوفة، فهي عقيدة ربما كانت أسمى من عقولنا في الوقت الحاضر»(1).



(1) إدوارد جيبون: اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، 3/29.

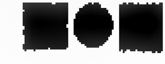


هربرت چورچ ولز (H. G. Wells):

(1866 - 1946م)

الكاتب والأديب البريطاني المعروف، حصل على بكالوريوس العلوم سنة (1888م)، تولَّى التدريس بضع سنين ثم انصرف إلى التأليف، اشتهر بقصصه التي تعتمد على الخيال العلمي؛ مثل: (آلة الزمن)، و(الرجل الخفي)، فضلاً عن رواياته النفسية والاجتماعية؛ مثل: (ميكافيللي الجديد)، و(الزواج)، ولم يغفل ولز البحث في التاريخ فأنجز عام (1920م) (معالم تاريخ الإنسانية)، وأعقبه بـ(موجز تاريخ العالم)، وكان آخر كتاب أصدره هو (العقل في أقصى تواتراته) عام (1944م)، ولولز كتاب في السيرة الذاتية بعنوان: (تجربة في كتابة السيرة الذاتية).

(معالم تاريخ الإنسانية = Outline of History)



- أسس تقاليد عظيمة:

«حجَّ محمد (ﷺ) حجة الوداع من المدينة إلى مكة قبل وفاته بعام، وعند ذاك ألقى على شعبه موعظة عظيمة... إنَّ أول فِقْرَة فيها تجرف أمامها كل ما بين المسلمين من نهب وسلب ومن ثارات ودماء، وتجعل الفقرة الأخيرة منها الزنجي المؤمن عدلاً للخليفة... إنها أَسَّسَت في العالم تقاليدَ عظيمةً للتعامل العادل الكريم، وإنها لتنفخ في الناس روحَ الكرم والسماحة، كما أنها إنسانية السمة ممكنة التنفيذ، فإنها خلقت جماعة إنسانية يقلُّ ما فيها مما يغمر الدنيا من قسوة وظلم اجتماعي، عما في أي جماعة أخرى سبقتها»[1].

- الأصدقاء دليل:

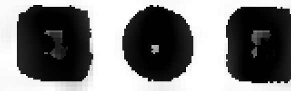
« ... هل تراك عَلِمْتَ قط أن رجلاً على غير كريم السجايا مستطيع أن يتخذك صديقًا؟ ذلك أن من عرفوا محمدًا (ﷺ) أكثر من غيرهم، كانوا أشدَّ الناس إيمانًا به، وقد آمنت به خديجة (رضي الله عنها) كل حياته، على أنها ربما كانت زوجة محبة فأبو بكر (رضي الله عنه) شاهد أفضل وهو لم يتردَّد قطُّ في إخلاصه؛ كان يؤمن بالنبي (ﷺ)، ومن العسير على أي إنسان

(1) هربرت چورج ولز: معالم تاريخ الإنسانية، 3/640، 641.

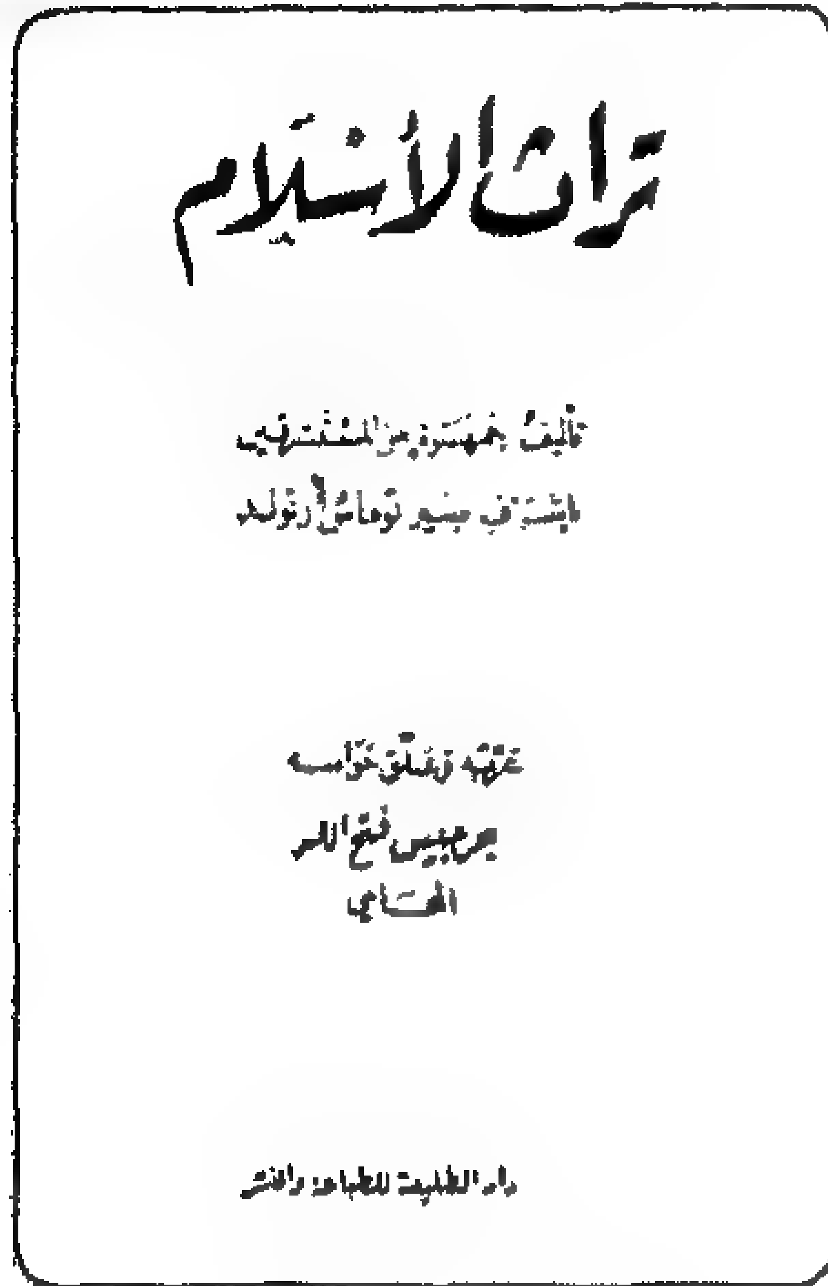
يقــرأ تلك الأيام إلا يؤمن بأبي بكر (رضي الله عنه)، وكذلك عَلِيّ (رضي الله عنه): فإنه خاطر بحياته من أجل النبي (ﷺ) في أحلك أيامه سوادًا...»[1].

- **ذلك القبس العربي:**

«لقد منح العربُ العالم ثقافة جديدة، وأقاموا عقيدة لا تزال إلى اليوم من أعظم القوى الحيوية في العالم، أما الرجل الذي أشعل ذلك القبس العربي فهو محمد (ﷺ)»[2].



(1) السابق، 639/3.
(2) هربرت چورچ ولز: موجز تاريخ العالم، ص200، 201.



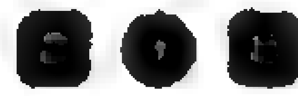
مارتن إس بريكز (Martin. S. Briggs):

مستشرق إنجليزي وهو من المتخصصين في فنِّ العمارة العربية الإسلامية، وهو أستاذ بجامعة أكسفورد، وله كتاب: (فن العمارة الإسلامية في مصر وفلسطين) أكسفورد سنة (1924م)، والعديد من المقالات في العمارة الإسلامية.



- نسيج وحدها[1]:

«ولكن مع احتمال جهل العرب في أمور الهندسة المعمارية في أوائل عهد الفتوح، فإن الحقيقة الساطعة عن العمارة الإسلامية هي أنها بقيت نسيج وحدها في كل البلاد وكل العصور التي مرَّ بها الإسلام، مع بقاء أصولها معقدة غاية التعقيد (أي مصادر التأثُّر والاقتباس)، هنالك شيء يُمَيِّزها عن آثار جميع المدارس المعمارية المحلية التي كانت أداة فنية لخلقها»[2].



(1) نَسِيج وحدِها، تعني: أنه ليس لها شبيه، ونسيج وحده: لا ثاني له، وأصله الثوب الذي لا يُسْدى على سَداه لِرِقَّة غيره من الثياب. ابن منظور: لسان العرب، مادة وحد 446/3.

(2) مارتن إس بريكز: الهندسة المعمارية، دراسة منشورة في كتاب (تراث الإسلام)، بإشراف توماس أرنولد، ص232.

هاملتون جب

(Hamilton Alexander Rosskeen Gibb):



(2يناير 1895-22 أكتوبر 1971م)

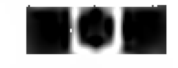
وُلِدَ في الإسكندرية بمصر، كان إمامًا للمستشرقين الإنجليز، وهو أحد محرِّري دائرة المعارف الإسلامية، كان أستاذًا للغة العربية في جامعة لندن وجامعة أكسفورد، وهو عضو مؤسس في المجمع العلمي العربي بدمشق، والمجمع اللغوي في القاهرة، وأعطت جامعة هارفارد - وهي من كبرى الجامعات الأمريكية والعالمية - جب مكانة خاصة ومنصبًا تشريفيًّا بعد تقاعده، بحيث يستطيع أن يُحَاضِرَ وقتما يشاء، ويقابل مَنْ يشاء من الطلاب، ويُشرف على البحوث التي يرغبها[1]، ومن أشهر مؤلفاته: (دراسات في حضارة الإسلام)، و(فتوح العرب في آسيا الوسطى وعلاقتها الأولى ببلاد الصين)، و(المدخل إلى تاريخ الأدب العربي)، و(الاتجاهات الحديثة في الإسلام).

(دراسات في حضارة الإسلام = Studies on the civilization of Islam)

(الاتجاهات الحديثة في الإسلام = Modern Trends in Islam)

(المحمدية = Mohammedanism: An Historical Survey)

(المجتمع الإسلامي والغرب = Islamic Society and the West)



- إلحاح على فعل الخير:

«إذا رأى أحد أن إلحاح القرآن على فعل الخير غير كثير، أثبتنا له بالحجة القاطعة خطأه، وسقنا إليه ذلك التعريف الشامل للبرِّ في تلك الآية العظيمة: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[2]، فالبرُّ إذن تاج الإيمان الحقِّ»[3].

---

(1) ذكر هذا د. مازن مطبقاني وهو باحث في مجال الاستشراق، أخبره به البروفسور كينيث مورجان، وهذا في مقال له عن جب منشور بموقع «مركز المدينة لبحوث الاستشراق على الرابط: www.madinacenter.com

(2) (البقرة: 177).

(3) جب: دراسات في حضارة الإسلام، ص254.

- سِجِلٌّ لتجربة حيَّة:

«هذه – إذن – هي الرسالة التي بَلَّغها القرآن إلى الجيل الأول من المسلمين. وظَلَّ يُبلِّغها إلى جميع الأجيال منذ ذلك العهد: فالقرآن سِجِلٌّ لتجربة حيَّة مباشرة في ميدان الألوهية... ودعوة للمخلوق كي ينظِّمَ حياته: ليتمكن من الأخذ بنصيب في تلك التجربة، وحين يتبع المسلم أوامر القرآن ويسعى ليَسْتَكْنِهَ رُوحِ تعاليمه، لا بفكره فحسب، بل بقلبه ورُوحه أيضًا، فإنه يحاول أن يستملك شيئًا من الرؤى الحدْسية ومن التجربة التي كانت للرسول الحبيب (ﷺ). ويعظم في عينيه مغزى كل آية فيه؛ لإيمانه بأنه كلام الله، ولو لم يكن هذا الإيمان شعبة من عقيدته لما تناقصت قيمته لديه من حيث هو منبع حي للإلهام والاستبصار الديني»[1].

- إيمان حيٌّ يَتَجَدَّد:

«إننا نخطئ خطأ فاحشًا إذا اقتصرنا على النظر إلى هذه العقيدة نظرتنا لمذهب لاهوتي أُتْقِنَ بشكل وراثي من جيل إلى جيل منذ ألف وثلاثمائة سنة. إنها على العكس من ذلك يقين وإيمان حيٌّ يتجدَّد ويتأكَّد باستمرار في قلوب المسلمين وأرواحهم وأفكارهم، ولدى العربي بشكل خاصٍّ، حين يدرس النصَّ المقدس»[2].

- حلاوة وطلاوة، ونظم بديع:

«والواقع أن القرآن لا يمكن ترجمته بشكل أساسي، كما هي الحال بالنسبة للشعر الرفيع؛ إذ ليس بالإمكان التعبير عن مكنون القرآن باللغة العادية، ولا يمكن أن يُعبِّر عن صوره وأمثاله؛ لأن كل عطف أو مجاز أو براعة لغوية يجب أن تُدْرَسَ طويلاً قبل أن ينبثق المعنى للقارئ، والقرآن كذلك له حلاوة وطلاوة ونظم بديع مرتب لا يمكن تحديده؛ لأنها تُعِدُّ بسحرها أفكارَ الشخص – الذي يُصْغِي إلى القرآن – لِتَلَقِّي تعاليمه، ولا شَكَّ أن تأويل كلمات القرآن إلى لغة أخرى لا يمكن إلا أن يُشَوِّهَها، ويُحَوِّل الذهب النقي إلى فَخَّار..»[3].

- بناء جديد متميز:

«إن المواقف الدينية التي عَبَّر عنها القرآن ونقلها إلى الناس تشمل بناءً دينيًّا جديدًا متميزًا»[4].

- أمر مُسَلَّم به:

« إنه من الْمُسَلَّم به عالميًّا بصفة عامَّة أن إصلاحاته (ﷺ) رفعت من قدر المرأة ومنزلتها ووضعها الاجتماعي والشرعي»[5].

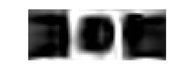
(1) جب: دراسات في حضارة الإسلام، ص254.
(2) جب: الاتجاهات الحديثة في الإسلام، ص30.
(3) السابق، ص30، 31.
(4) جب: دراسات في حضارة الإسلام، ص255.
(5) جب: المحمدية، ص33.

روم لاندو (Rom Landau):

نحّات وناقد فني إنجليزي، زار زعماء الدين في الشرق الأدنى عام (1937م)، عُيِّنَ قائد اتصال في القوات الجوية الملكية (1939م)، وخبيرًا في وزارة الأنباء (1941م)، ومحاضرًا عن المغرب في جامعات كولومبيا، وبرنستون، وبيل، وغيرها من جامعات الولايات المتحدة ما بين أعوام (1952-1957م)، وكان أستاذ الدراسات الإسلامية وشمال إفريقيا في المجمع الأمريكي للدراسات الآسيوية في سان فرنسيسكو، وفي المعهد الباسفيكي (1953م).

من آثاره: (مينوس النزيه) عام (1925م)، و(بلسوديسكي بطل بولونيا) عام (1929م) و(بدريفسكي) عام (1934م)، و(الله ومغامراتي)، و(بحث عن الغد)، و(سلم الرسل)، و(دعوة إلى المغرب)، و(سلطان المغرب)، و(فرنسا والعرب)، و(الفن العربي)... وغيرها.

(الإسلام والعرب = Islam and the Arabs)



- بضربة واحدة:

«إن شهادة التوحيد فيها من الحيوية ما يقطع بضربة واحدة شجرة الوثنية... وإن المسلم ينعم بالأمن والطمأنينة؛ لأن في إمكانه أن يبلغ - مثل دينه - الأعلى هنا على سطح الأرض... فالإسلام دين عملي ومُيَسَّر... لقد كان الإسلام دينًا توحيديًّا على نحو لا يعرف هوادة، دينًا واقعيًّا شاملاً يُنَظِّم كل شيء»[1].

- ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾[2]:

لأن مهمة ترجمة القرآن بكامل طاقته الإيقاعية إلى لغة أخرى تتطلب عناية رجل يجمع الشاعرية إلى العلم؛ فإننا لم نعرف حتى وقت قريب ترجمة جيدة استطاعت أن تتلقَّفَ شيئًا من رُوح الوحي المحمدي، والواقع أن كثيرًا من المترجمين الأوائل لم يعجزوا عن الاحتفاظ بجمال الأصل فحسب، بل كانوا إلى ذلك مفعمين بالحقد على الإسلام إلى درجة جعلت ترجماتهم تنوء بالتحامل والغرض، ولكن حتى أفضل ترجمة ممكنة للقرآن في شكل مكتوب لا تستطيع أن تحتفظ بإيقاع السور الموسيقي الآسر، على الوجه الذي يُرَتِّلها به المسلم، ولا يستطيع الغربي أن يُدْرِكَ شيئًا من روعة كلمات القرآن وقُوَّتها إلا عندما يسمع مقاطع منه مُرَتَّلة بلغته الأصلية»[3].

(1) روم لاندو: الإسلام والعرب، ص48، 52، 210.
(2) (يوسف: 2).
(3) السابق، ص36، 37.

- لا تحريف:

« .. كُلِّفَ كاتب الوحي زيد بن ثابت (رضي الله عنه) جمع الآيات القرآنية في شكل كتاب، وكان أبو بكر (رضي الله عنه) قد أشرف على هذه المهمة، وفيما بعدُ، إثر جهد مستأنف بُذِلَ بأمرٍ من الخليفة عثمان (رضي الله عنه) اتخذ القرآن شـكله التشـريعي النهائي، الذي وصل إلينا سليمًا لم يطرأ عليه أي تحريف»[1].

- ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾[2]:

«إن بين آيات قصار السـور ترابطًا باهرًا لـه تأثيره الوجداني، برغم أنه ليس ثمة أيما وزن نظامي، وفي الحقِّ إن سـماع السـور تُتلى في الأصل العربي، كثيرًا ما يخلف في نفس المرء تأثيرًا بليغًا، لقد أُرِيدَ بالقرآن أن يُتْلى في صوت جهير، ويتعيَّن على المرء أن يسـمعه مرتَّـلاً؛ لكي يحكم عليه حكمًا عـادلاً، ويُقَدِّره حقَّ قدره، وبوصفه كلمـة الله الحقيقية كان معجزًا لا سبيل إلى محاكاته»[3].

- إلى درجة العجز:

«إن الحضارة الغربية مدينة للحضارة الإسـلامية بشيء كثير؛ إلى درجةٍ نعجز معها عن فهم الأُولَى إن لم تتم معرفة الثانية»[4].

- العلم والدين معًا:

«العلـم الإسـلامي لم ينفصل عن الدين قـط! والواقع أن الدين كان هـو ملهمه وقُوَّته الدافعة الرئيسة، ففي الإسلام ظهرت الفلسفة والعلم معًا إلى الوجود، لا ليحلاَّ محلَّ ألوهية الدين (البدائية)، ولكن لتفسـيرها عقليًّا؛ لإقامة الدليل عليها وتمجيدها ... إن المسـلمين وُفِّقوا - طوال خمسـة قرون كاملة - إلى القيام بخطوات حاسمة في مختلف العلوم من غير أن يُدِيـرُوا ظهورهم للدين... وأنهم وجدوا في ذلك الانصهار عامل تسـريع وإنجاح لا عامل تعويق وإحباط»[5].

- الدين باعث العلم:

«... في الإسـلام لم يُوَلِّ كلٌّ من الدين والعلم ظهره للآخر ويتخذ طريقًا معاكسـة، لا، والواقع أن الأول كان باعثًا من البواعث الرئيسة للثاني»[6].

---

(1) روم لاندو: الإسلام والعرب، ص296.

(2) (الفرقان: 32).

(3) روم لاندو: الإسلام والعرب، ص296، 297.

(4) السابق، ص46.

(5) السابق، ص280، 281.

(6) روم لاندو: الإسلام والعرب، ص246.

- **كانوا أهل ذمة:**

«علـــى نقيض الإمبراطوريـــة النصرانية التي حاولت أن تفرض المســـيحية على جميع رعاياهـــا فرضًا، اعترف العـــرب بالأقليات الدينية، وقَبِلُوا بوجودهـــا: كان النصارى واليهود والزرادشتيون يُعْرَفُون عندهم بأهل الذمة، أو الشعوب المتمتِّعَة بالحماية، لقد ضمنتْ حرية العبادة لهم من طريق الجزية.. التي أمســـت تُدْفَع بدلاً من الخدمة العســـكرية، وكانت هذه الضريبـــة - مضافًا إليها الخَرَاج - أقلَّ في مجموعها من الضرائب التي كانت مفروضة في ظـــلِّ الحكـــم البيزنطي، كانت كل فرقـــة من الفرق - التي تُعَامَل كمِلَّـــة، أي كطائفة - نصف مستقلَّة استقلالاً ذاتيًّا ضمن الدولة، وكانت كل ملَّة تخضع لرئيسها الديني»[1].

- **ذلك رسول الله (ﷺ):**

«كان محمـــد (ﷺ) تقيًّا بالفطرة، وكان من غير ريب مُهَيَّأً لحمل رســـالة الإصلاح التي تَلَقَّاهـــا في رؤاه، وبالإضافـــة إلى طبيعته الروحية، كان في جوهره رجلاً عمليًّا عرف مواطن الضعـــف ومواطن القوة في الخلق العربـــي، وأدرك أن الإصلاحات الضرورية ينبغي أن تُقَدَّم إلـــى البـــدو - الذين لا يعرفـــون انضباطًا - وإلـــى المدنيين الوثنيين فـــي آنٍ معًا على نحوٍ تدريجي، وفي الوقت نفســـه كان محمد (ﷺ) يملك إيمانًا لا يلين بفكرة الإله الواحد - وهي فكرة لم تكن جديدة كل الجدَّة في بلاد العرب - وعزمًا راســـخًا على اســـتئصال كل أثر من آثار عبادة الأصنام، التي كانت سائدة بين الوثنيين العرب»[2].

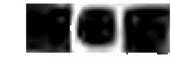
■■■

(1) روم لاندو: الإسلام والعرب، ص119.
(2) السابق، ص32.

براند تراند جون (Gohn , Brande, Treand):

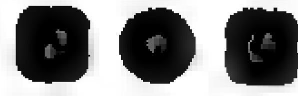
مستشرق إسباني، وهو واحد من رُوَّاد تاريخ إسبانيا، شغل كرسي الأستاذية في جامعة كمبريدج، واشتغل في معهد الدراسات الشرقية بلندن، وزار العديد من بلاد الغرب والشرق، وتقلَّد العديد من الأوسمة.

ومن آثاره الفكرية: (صورة لإسبانيا الحديثة) عام (1921م)، و(موسيقى تاريخ إسبانيا) عام (1925م)، و(لغة إسبانيا وتاريخها) عام (1953م)، و(إسبانيا والبرتغال).



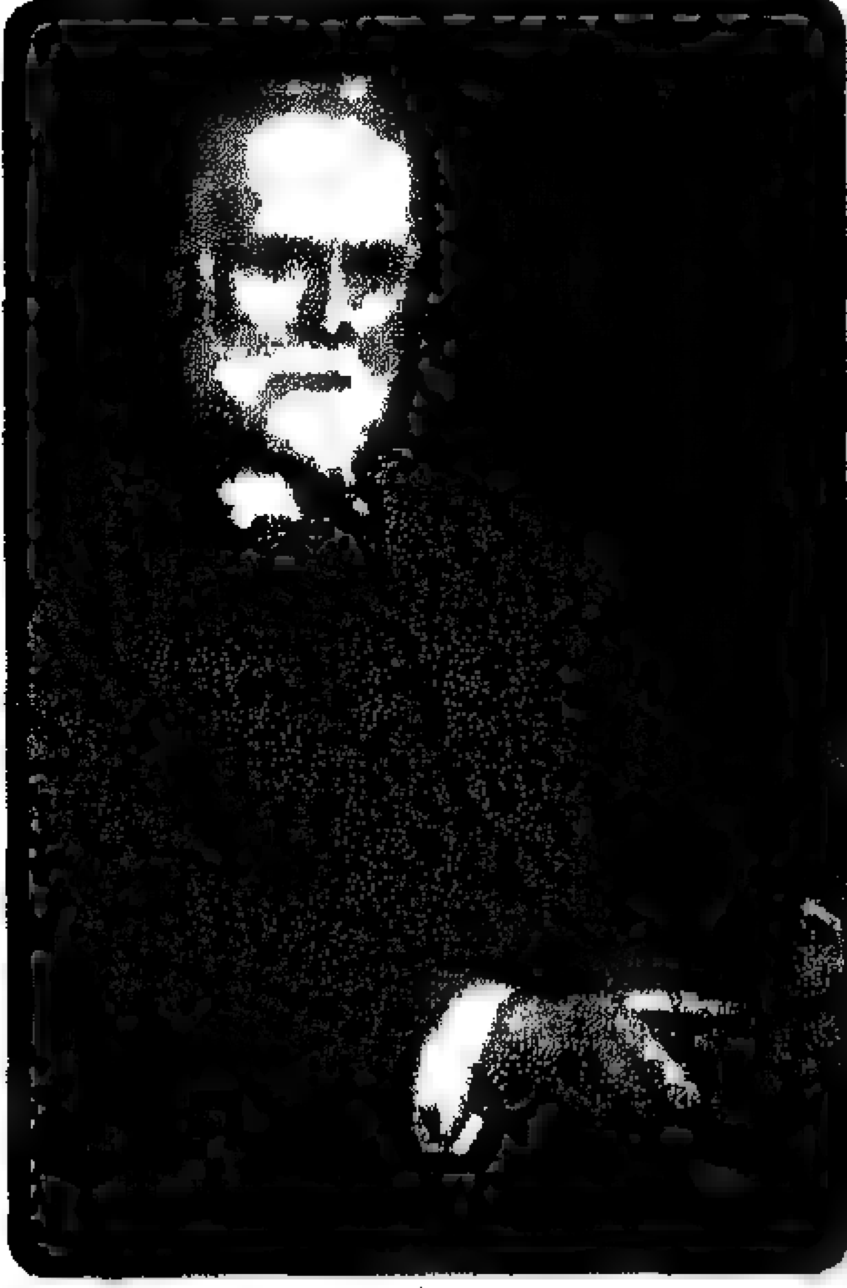
- أسطورة قرطبة:

وعن مكانة قرطبة - خاصَّة في انتقال الحضارة الإسلامية - يقول **براند تراند جون**: «إن قرطبة التي فاقت كل حواضر أوربا مدنيةً - أثناء القرن العاشر - كانت في الحقيقة محطَّ إعجاب العالم ودهشته، كمدينة فينسيا في أعين دول البلقان، وكان السياح القادمون من الشمال يسمعون بما هو أشبه بالخشوع والرهبة عن تلك المدينَة؛ التي تحوي سبعين مكتبة، وتسعمائة حمَّام عمومي؛ فإنْ أدركتِ الحاجةُ حُكَّام ليون أو النافار أو برشلونة إلى جَـرَّاح، أو مهندس، أو معماري، أو خائط ثياب، أو موسيقي **فلا يتَّجِهُون بمطالبهم إلاَّ إلى قرطبة**»[1].



(1) جون براند تراند: إسبانيا والبرتغال، دراسة منشورة في كتاب (تراث الإسلام) بإشراف توماس أرنولد، ص27.

بوزورت سميث (Bosurt Smith):



(1839 - 1908م)

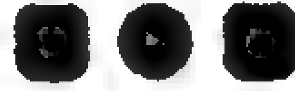
أديب إنجليزي كبير، وله بحوث مهمة في التربية، وكذلك في التاريخ، ومن أهم مؤلفاته كتاب: (محمد والمحمدية).

(محمد والمحمدية =

(Mohammed And Mohammedanism

- دين ودنيا:

«لقد كان محمد (ﷺ) قائدًا سياسيًّا، وزعيمًا دينيًّا في آن واحد... لكن لم تكن لديه عجرفة رجال الدين، كما لم تكن لديه فيالق مثل القياصرة، ولم يكن لديه جيوش مجيشة، أو حرس خاص، أو قصر مشيد، أو عائد ثابت... إذا كان لأحد أن يقول: إنه حَكَمَ بالقدرة الإلهية، فإنه محمد (ﷺ)؛ لأنه استطاع الإمساك بزمام السلطة دون أن يملك أدواتها، ودون أن يُسانده أهلها»[1].



(1) بوزورت سميث: محمد والمحمدية، ص92.

جون ويليام دريبر (John William Draper):

(5 مايو 1811-4 يناير 1882م)



أمريكـــي مولود في إنجلتـــرا، وهو عالم وفيلســـوف، وفيزيائـــي وكيميائي، ومؤرِّخ ومصوِّر، قـــام ببحث مهم في الكيمياء الضوئية، وقد جعل من الصورة الفوتوغرافية أمرًا ممكنًا، مضيفًا تحســـينات على طريقة التصوير المنسوبة إلـــى (Louis Daguerre)، كما نشـــر كتابًا عن الكيمياء عام (1846م)، وآخر عن الفلسفة الطبيعية عام (1847م)، وآخر عن الفيزياء عام (1866م)، وكتاب (مذكرات علمية) عام (1878م) عن الطاقة الإشـــعاعية، وكان أول مَنِ الْتَقَطَ صـــورة فلكية؛ فقـــد التقـــط أول صورة للقمـــر أوضحت الميـــزات القمرية في عام (1840م)، ثم التقط صورًا في عـــام (1843م) عن طريق عملية الداجيروتيـــب، والتـــي أوضحت ميزات جديـــدة للقمر في الطيف المرئـــي، ثم بدأ في عام (1850م) في التصوير الميكروسكوبي.

كما طوَّر افتراض أن أشـــعة الضوء التي تمَّ امتصاصهـــا هي فقط التي يمكنها إحداث تغيير كيميائي، وهو ما عُرِفَ بعد ذلك باسم (قانون جروتاس - دريبر)، حيث اشترك معه في نفس الفكرة مذيع سابق غير معروف يدعى تيودور جروتاس.

مســـاهماته في فرع التاريخ: عُرِفَ - أيضًا - بأنه مؤلف كتاب (تاريخ التطور الفكري في أوربا) عام (1862م)، حيث طَبَّق أساليب العلم الفيزيائي على التاريخ، و(تاريخ الحرب الأهلية الأمريكية) ثلاثـــة أجزاء (1867-1870م)، و(تاريخ الصراع بين الدين والعلم) عام (1874م)، وقد كان هذا الكتاب الأخير من أكثر الأعمال تأثيرًا في مجال هذا الصراع، وهو يأخذ اسمه من لقب دريبر، وكان أول رئيس للجمعية الكيميائية الأمريكية ما بين عامي (1867م، 1877م).

(تاريـــخ التطور الفكري في أوربـــا = History Of The Intellectual Development Of Europe)



- أعظم تأثير في حياة البشر:

«عـــام (569) ميلادي وُلِـــدَ في مكة في بلاد العرب الرجل الذي مارس أعظم تأثير في حياة الجنس البشري... محمد (ﷺ)»[1].

(1) جون ويليام دريبر: تاريخ التطور الفكري في أوربا، 329/1.



أرنولد توينبي (Arnold Toynbee):

(1889 - 1975م)

مـؤرخ بريطانـي، وُلِـدَ في لنـدن، وتقلَّـب في عدَّة مناصب: منها: أستاذ الدراسـات اليونانيَّة والبيزنطيَّة في جامعـة لندن، ومدير دائرة الدراسـات في وزارة الخارجية البريطانية، انصبت معظم دراساته على تاريخ الحضارات، وكان أبرزها كتابه: (دراسـة للتاريخ)، الذي شـرع فيه منذ عـام (1921م)، وانتهـى منه عـام (1961م)، وهو يتكون من اثني عشـر جزءًا، عرض فيه توينبـي رؤيته الحضارية للتاريخ، ولقد وضع المسـتر سـومر فيل - تحت إشـراف توينبي نفسـه - مختصرًا في جزأين لهذا العمل الواسـع، بسـط فيه جميع آراء المؤلف، مستخدمًا عباراته الأصلية في معظم الأحيان، وحذف الكثير مـن الأمثلة والآراء دون إخلال بالسـياق العامِّ للكتاب، وهذا المختصـر هو الذي تُرْجِمَ إلى العربية في أربعة أجزاء.

(دراسة التاريخ = Study of History)



- سرُّ القوة الجبارة:

«بفضل نظام الإسـلام الشامل - الذي ضمَّ بين ظهرانيه الوحدانية والسلطة التنفيذية معًا - غدت للإسـلام قوَّة دافعة جبارة، لم تقتصر على كفالة احتياجات العرب، ونقلهم من أُمَّة جهالة إلى أُمَّة متحضِّرة، بل تدفَّق الإسلام من حدود شبه الجزيرة، واستولى على العالم بأسره من سواحل الأطلسي إلى شواطئ السهل الأوراسي»[1].

- تنظيم حياة الجميع:

«... لقد أخذتْ سـيرةُ الرسـول العربي بألباب أتباعه، وسَـمَتْ شـخصيَّتُه لديهم إلى أعلى عِلِّيِّين، فآمنوا برسـالته إيمانًا جعلهم يتقبَّلون ما أُوحِيَ به إليه، وأفعاله - كما سجَّلتها السُّـنَّة - مصدرًا للقانون، لا يقتصر على تنظيم حياة الجماعة الإسلامية وحدها، بل يُرَتِّبُ كذلك علاقات المسلمين الفاتحين برعاياهم غير المسلمين»[2].

(1) أرنولد توينبي: مختصر دراسة للتاريخ، 381/3.
(2) السابق، 98/3.

دولاسي أوليري (De Lacy O'Leary):

(1872-1975م)

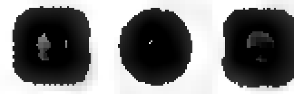
رجل دين بريطاني له العديد من المؤلفات: من أهمها: (الفكر العربي ومركزه في التاريخ) عام (1922م)، و(الإسلام في مفترق طرق) عام (1923م)، و(تاريخ مختصر للخلافة الفاطمية) عام (1923م)، و(الجزيرة العربية قبل محمد) عام (1927م).

(الإسلام في مفترق طرق = Islam at the crossroad)



- أكبر خرافة:

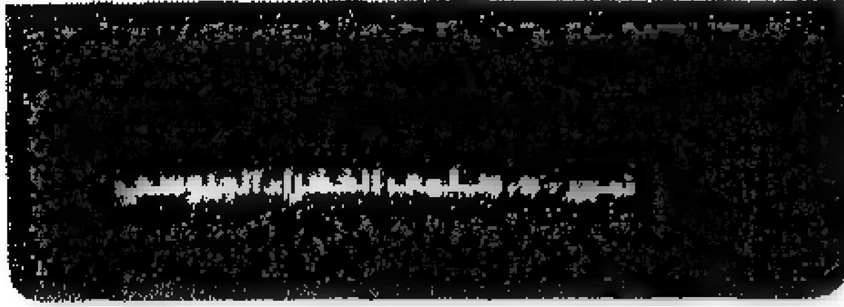
«لقد أوضح التاريخ أن الأسطورة القائلة باجتياح المسلمين المتعصبين العالم، وفرضهم الإسلام على الأجناس المقهورة تحت تهديد السلاح، هي إحدى أكبر الأساطير أو الخرافات الخيالية التي رَدَّدَها المؤرِّخُون في أي وقت، سخافة ومنافاة للعقل»[1].



(1) دولاسي أوليري: الإسلام في مفترق الطرق، ص8.

جيمس دكي (Games Dickie):





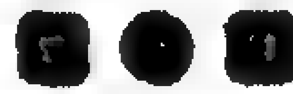
أكاديمـــي متخصص في تاريخ إســبانيا الإســلامية والشـــريعة الإسلامية بجامعات مانشستر ولانكستر ومعهد ماساتشوسيتس للتكنولوجيا، كما عَمِل مستشارًا لمهرجان العالم الإسلامي (1974 - 1976م)، ونشر عام (1975م) تحقيقًا لديوان ابن شهيد الأندلسي مع ترجمة للديوان، كما نشـــر من قبل طبعة محققة من الديوان لا تتضمن الترجمة عـــام (1969م) في القاهرة، ونشـــر عددًا من الدراســـات فـــي المجلات الأكاديمية المتخصصة، وأســـهم في الكتابة للموسوعة البريطانية.

(الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس = The Legacy of Muslim Spain)



- صُنِعَ في حضارة الإسلام:

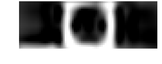
قال بعد حديـث مبهور عن قصر الحمراء في غرناطة: «عَمَلٌ بمثل هذه الرقَّة والروعة لا يمكن أن تُنْتِجَه حضارة غير الحضارة الإسلامية»[1].



(1) سلمى الخضراء الجيوسي: الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، مبحث جيمس دكي، بعنوان: (الحجم والمساحة في العمارة النصرية) 2/890.

لايتنر (Lightner):

باحث إنجليزي، حصل على أكثر من شهادة دكتوراه في الشريعة والفلسفة واللاهوت، وزار الأستانة عام (1854م)، كما طَوَّف بعددٍ من البلاد الإسلامية، والْتقى برجالاتها وعلمائها.



- المرأة.. كانت وصارت:

«هذا التعدُّد في الزواج مشروط بشروطه، فيقول: يَقدر الرجل أن يتزوج من أربع نساء بشرط المساواة بينهن في كل شيء حتى بالمحبة والوداد، فإن لم يكن قادرًا على كل ذلك فلا يُبَاح له أن يتزوج غير واحدة[1]، ومَنْ يتدبَّر شريعته (ﷺ) يرى أنه قد حضَّ على الزواج بامرأة واحدة، ولقد رفع مقام المرأة ورقَّاها رقيًّا عظيمًا، فإنها بعد ما كانت تُعَدُّ كمتاع مملوك صارت مالكة، وحكمها مؤيد وحقوقها محفوظة»[2].

- لولا هذا الدين:

«... ولقد صار دينه الواسطة لإرشاد وتمدُّن الملايين من البشر، ولولا هذا الدين للبثوا غرقى في التوحُّش والهمجية، ولما كان لهم هذا الإخاء المعمول به في دين الإسلام»[3].

- كأنه سنَّ الاسترقاق!

«... إنَّا نرى الأغبياء من النصارى يُؤَاخِذون دين الإسلام كأنه هو الذي قد سنَّ الاسترقاق، مع أن محمدًا (ﷺ) قد حضَّ على عتق الرقاب، وهذه أسمى واسطة لإبطاله حقيقة»[4].

- ليس اقتباسًا:

«بقدر ما أعرف من دِينَي اليهود والنصارى أقول بأن ما علمه محمد (ﷺ) ليس اقتباسًا؛ بل قد أُوحِيَ إليه به، ولا ريب بذلك طالما نؤمن بأنه قد جاءنا وحي من لدن عزيز عليم، وإني بكل احترام وخشوع أقول: إذا كان تضحية الصالح الذاتي، وأمانة المقصد، وإيمان القلب الثابت، والنظر الصادق الثاقب بدقائق وخفايا الخطيئة والضلال، واستعمال

(1) لعله يقصد قوله (سبحانه وتعالى): ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ (النساء: 3).

(2) لايتنر: دين الإسلام، ص11.

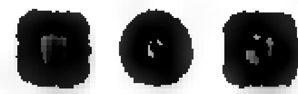
(3) السابق، ص5.

(4) السابق، ص7.

أحسن الوسائط لإزالتها، فذلك من العلامات الظاهرة الدالة على نبوة محمد (ﷺ) وأنه قد أُوحِيَ إليه»[1].

- **وهذا دليل:**

«... مــرةً أَوْحَى الله تعالى إلى النبي (ﷺ) وحيًا شــديد المؤاخذة؛ لأنه أدار وجهه عن رجل فقير أعمى ليخاطب رجلاً غنيًّا من ذوي النفوذ، وقد نشــر ذاك الوحي، فلو كان (ﷺ) كما يقول أغبياء النصارى بحقه؛ لما كان لذاك الوحي من وجود»[2].



(1) لايتنر: دين الإسلام، ص4، 5.

(2) السابق، ص6.

الفصل الثاني: فرنسا

نبذة عن الاستشراق الفرنسي:

تُعَدُّ العلاقة بين فرنسا والعالم الإسلامي من أقدم العلاقات الغربية الإسلامية، إن لم تكن أقدمها على الإطلاق، ففي خلال الفتوحات الإسلامية الأولى في أرض أوربا عبر الأندلس استمرَّ الانتشار الإسلامي داخل فرنسا، وفتح المسلمون بلادًا كثيرة في جنوب فرنسا، حتى لنستطيع أن نقول: إن جنوب فرنسا كان تحت السيطرة الإسلامية مدَّة قرنين من الزمان. ولكن أمرًا بالغ الخطورة جعل المسلمين لا يستقرُّون في فرنسا ذلك الاستقرار الزاهي الزاهر الذي عرفته إسبانيا في العصر الإسلامي.

لقد هُزم عبد الرحمن الغافقي أمام جيوش متحالفة يقودها شارل مارتل في معركة (بلاط الشهداء)، أو المعروفة في الأدبيات الفرنسية بمعركة (بواتيه)، وكان هذا في عام (114 هـ=732م)، وهي الهزيمة التي تَوَقَّفَتْ بعدها الفتوح الإسلامية في شمال فرنسا، أما في الجنوب الفرنسي فقد امتدَّ الحكم الإسلامي إلى قرنين من الزمان، وترك حتى هذه اللحظة آثارًا واضحة في الملامح البشرية وفي بعض العادات والتقاليد لمواطني هذه المناطق.

خَلَّدَ شارل مارتل بهذا النصر في تاريخ الغرب، واعتُبِر منقذًا للغرب والمسيحية من الإسلام والقرآن، ولكن بعض المؤرخين الغربيين يتحسَّرُون أن هذا النصر حدث، وأنه لو قُدِّرَ للمسلمين أن يحكموا فرنسا لأنشئوا فيها الحضارة الزاهرة، وجعلوا باريس قرينة قرطبة، التي عاشت نهضة حضارية خالدة.

ومنذ هذا الاحتكاك بدأ الاستشراق الفرنسي من خلال المسلمين في جنوب فرنسا، ثم تلك البقعة الحضارية المتألقة في الأندلس، ثم كانت فرنسا كذلك، وتحديدًا شمالها هو البقعة التي انطلق منها النورمان الذين سيطروا في القرون الوسيطة على ألمانيا وإيطاليا، وهم الذين أَجْلَوا المسلمين عن صقلية، واستفادوا من حضارتها، وساروا في ظلالها وعلى نظامها.

ثم تلك العصور التي ابتدأت فيها الحروب الصليبية، حيث كانت فرنسا أرض البداية ورأس السهم، وصاحبة نصيب الأسد من الجيوش، التي اجتاحت الشرق، ومكثت فيه قرابة القرنين من الزمان، وكان هذا الاحتكاك هو المؤثِّر الأكبر في تَعَرُّف الفرنسيين على الشرق المسلم: نظمه، وعاداته، وتقاليده، وأساليبه، وسائر جوانب الحضارة فيه.

ولـم يعدم الحال بعض احتكاكات أخـرى، حتى وإن كانت فردية من خلال طلاب العلم. الذين تعلموا في صقلية والأندلس وبلاد الشرق.

ثـم انقلب الحال. وابتدأ عصر الاسـتعمار الـذي بدأته إسـبانيا والبرتغال. ثم حملت الراية من بعدهما بريطانيا وفرنسـا. فكانت الحملة الفرنسية على مصر بقيادة نابليون. ثم الاسـتعمار الفرنسي للشمال الإفريقي إلى جانب سوريا ولبنان، وهذا العصر استمرَّ - أيضًا - قرابة القرنين من الزمان.

منذ القرن الحادي عشـر ابتدأ إنشاء المدارس في فرنسا، وكان يُشرف عليها ويقودها في ذلك الحين مَنْ تعلَّمُوا على أيدي المسلمين في الأندلس أو في صقلية، وكانت أشهر هذه المدارس مدرسـة ريمس، التي أُنشـئت بأمر البابا سلفستر الثاني، وهو البابا الذي تَعَلَّم في جامعة قرطبة. بل ونزل إلى الشمال الإفريقي، فتَعَلَّم كذلك في جامع القرويين بالمغرب.

وكذلك مدرسة شـارتر، التي كانت في ذروتها في النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي، وفي أوائل القرن الثالث عشـر الميلادي كانت مدرسـة الطب في مونبيليه، التي أنشـأتها في فرنسا بقيةٌ من الجالية الإسـلامية المغربية، وهي مهوى طلاب الطب من كل أوربا، ثم بدأت تكثر مدارس الرهبان، وأُنْشِـئَتْ جامعة باريس في أوائل القرن الثالث عشـر الميلادي، وصارت زعيمة الفكر الفلسفي في العالم الأوربي.

أمَّا على صعيد دراسـة الشرق تحديدًا فسـنجد أن أول معهد لدراسة اللغات الشرقية أنشئ في جامعة فرنسا بأمر البابا هونوريوس الرابع في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي (1285م)، وبعدهـا بربـع قرن كان قـرار البابا إكليمنص الخامس في مجمع فيينا بإنشـاء كراسـي للغة العربية والعبرية والكلدانية، فأنشـأت جامعة باريس كرسيًّا للُّغات السامية، ما لبث أن سيطرت عليها فلسفة ابن رشد، واستمرَّ الأمر إلى العصر الحاضر، الذي أُنْشِئَ فيه كرسـي للدراسات الإسلامية في جامعة باريس، تتمَّة للقسـم العربي من جامعة السوربون، وهو الذي يُعْنَى بدراسة تاريخ وحضارة العرب والفقه الإسلامي، ثم أُلْحِقَ به معهد للدراسات الإسلامية.

وأنشـأ الملك فرانسـوا الأول كرسـيًّا للُّغة العربيـة والعبرية في مدرسـة ريمس عام (1519م)، وأنشـأ الملك هنري الثالث كرسيًّا للُّغة العربية عام (1587م)، وفي أوائل القرن الثامن عشر دعمت الدولة تشكيل بعثات من الطلاب الفرنسيين يُتْقِنُونَ اللغات الشرقية، وفي أواخر القرن نفسه أُنشئت المدرسة الوطنية للغات الشرقية الحية في باريس عام (1795م) للسـفراء والقناصل وكبار التجار ذوي العلاقات مع الشـرق، وما لبثت أن ازدهر الحال فيها حين تولَّى التدريس فيها العلامة سلفسـتر دي ساسـي، ونجد - أيضًـا - معهد آداب اللغة

العربية والتمدين الإسلامي في جامعة بوردو، التي أُنْشِئَتْ في منتصف القرن الخامس عشر الميلادي (1441م).

وكما ذكرنا كان تطوُّر النهضة الأوربية ثم دخول عصر الاستعمار كفيلاً بازدهار حركة الاستشراق الغربي، الفرنسي والبريطاني خاصَّة: لأنهما كانتا الدولتان الكبريان اللتان تتقاسمان - تقريبًا- احتلال البلاد الشرقية، ولا نُبَالِغ إذا تخيَّلْنَا وجود معاهد ومدارس تُعْنَى بلُغَةِ البلاد وتاريخها وحضارتها موجودة في أغلب جامعات تلك الدول، وكذلك في البلاد التي احتلَّتْهَا.

وتُعَدُّ أكبر المكتبات الزاخرة بالنفائس والمخطوطات العربية والشرقية في فرنسا مكتبة باريس الوطنية، التي أُنْشِئَتْ في عام (1654م)؛ ففيها نحو سبعة آلاف مخطوط عربي، ثم نجد من مكتبات الجامعات والمعاهد مما يحفل بالتراث الإسلامي مكتبة ستراسبورج، ومكتبة المدرسة الوطنية للغات الشرقية الحية، ومكتبة الجمعية الآسيوية في باريس[1].

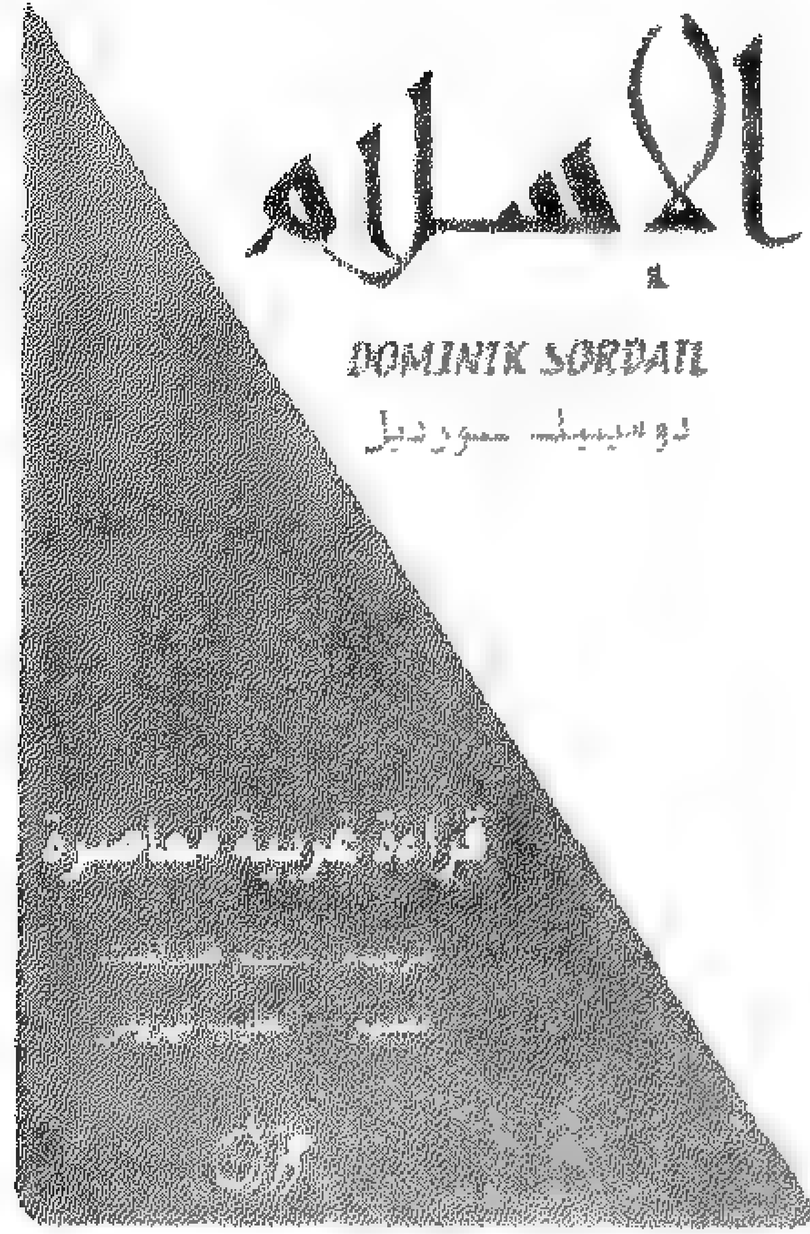
(1) نجيب العقيقي: المستشرقون، 1/138-146.

شهادات علماء فرنسا

«إن العقل يحار كيف يتأتى أن تصدر تلك الآيات عن رجل أُمّيّ، وقد اعترف الشرق قاطبة بأنها آيات يعجز فكر بني الإنسان عن الإتيان بمثلها لفظًا ومعنًى»

هنري دي كاستري

دومينيك سورديل (SOURDEL (Dominique) = Dominik Sordail):



مفكر، وقانوني فرنسـي معاصر، أَوْلَى اهتمامًا كبيرًا لمسألة العلاقات الدولية وحقوق الإنسان، وكتب عددًا من الأبحاث للمؤتمرات والدوريات المعنية بهاتين المسألتين، ويُعتبر كتابه: (إنسانية الإسلام) - الذي انبثق عن الاهتمام نفسه - علامة مضيئة في مجال الدراسات الغربية للإسلام؛ بما تميَّز به من موضوعية وعمق، وحرص على اعتماد المراجع التي لا يأسرها التحيُّز والهوى، فضلاً عن الكتابات الإسلامية الأخرى.

(الإسلام = L'Islam)



- لا يمكن الإنكار:

«لا يمكن إنكار أن الإسلام مارس فضائل حقيقية وخاصَّة منها الفضائل الاجتماعية، وهي استجابة لنداءات القرآن، نعثر فيها على أساليب تضيف إلى وصايا الله، وتبدو كأنها استمرار للبرِّ؛ وذلك كما تحدِّدُ الآية الرائعة التالية: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[1]. فالتعاون وحسن الضيافة والكرم والأمانة للالتزامات - التي تؤخذ تجاه أعضاء المجتمع والاعتدال في الرغبات والقناعة - تلك هي الفضائل التي لا تزال تميِّز المسلمين، وهي مثالية حقيقية، تريد أن ترتقي بقوى الطبيعة البشرية، والتي تكفي لإعطائهم عزة نفس وكرامة كان يجهلها عرب الجاهلية»[2].

- عاصمة الإسلام:

«تحوَّلت بغداد في عهده إلى مركز للإشعاع الثقافي، وقد ساهم في ذلك العرب الأصليون، والفرس المتنوِّرون، فما حدث في بغداد كان بمثابة نمو للحضارة المدنية، التي وضعت أسسها في العصر الأموي، والتي تَجلَّت في تَقَدُّم العلوم الدينية واتساع المناقشات

(1) (البقرة: 177).

(2) دومينيك سورديل: الإسلام، ص107.

الكلامية، ونشـوء النثر وتجديد مواضيع الشـعر وأفكاره، وإدخال العلوم الدنيوية في الهند واليونان».

- نهضة اقتصادية:

«وترافق هذا الازدهار مع حياة اقتصادية نشيطة جدًّا، تصنع أصناف الحرير والسجاجيد والأقمشة المطرزة وتصديرها، وكذلك صُنِعَ الورق في بغداد وسمرقند، وهي التجارة الهامة مع الشرق الأقصى والمغرب الأقصى»(1).

- دور بارز:

ويتحدَّث دومينيك سـورديل عـن الحضارة في الأندلس قائـلاً: «وعلى مدى القرنين العاشـر والحادي عشر انتشـرت الثقافة المشرقية ذات الجذور السـورية وازدهرت، وقد صمدت هذه الثقافة الأصلية أمام الثقافات المجاورة، وظَلَّت محافظة على أمانتها، وانتشرت خارج حدود الإسـلام، وكان لها دور بارز في تطوير الفكـر والمعرفة الأوربية لعصر ما قبل النهضة»(2).

- علم الفلك:

«ازدهر منذ بداية الخلافة العباسـية؛ فبُنِيَت مراصد في بغداد حيث حدَّد ثابت بن قرة طول السـنة الشمسية، واكتشف البتَّاني نحو سـنة (900م) انحناء مستوى دائرة البروج في القاهرة وسمرقند وقرطبة وطليطلة»(3).

- وعلوم الرياضيات:

«وقد أدَّى علم الفلك بالعلماء العرب إلى تأسيس علم حساب المثلثات المستوية الموحدة السـطح والكروية التي كانت عمليًّا غير معروفة لدى الإغريق، وقد أدخل البتاني وتلميذه أبو الوفاء مفهومي الجيب والمماس، وقد عكفوا خاصة على دراسة علم الجبر، وجعلوا من هذا الفرع العلمي علمًا دقيقًا، وعملوا على تطويره إلى حَدٍّ كبير (الخوارزمي المتوفى 840م)، ثم الشاعر الفارسي عالم الرياضيات عمر الخيام (المتوفى عام 1123م) دون أن يفصلوه تمامًا عن علم الهندسة فوضعوا بذلك علم الهندسة التحليلية»(4).

- كذلك الكيمياء:

(1) دومينيك سورديل: الإسلام، ص65-66.
(2) السابق، ص68.
(3) السابق، ص156.
(4) السابق، ص156، 157.

«وعلى الأُسس التي وضعها اليونانيون، عمل العرب على تحسين الكيمياء (المختلطة بعلم الكيمياء القديم)، التي مزجت بين عمليات المراقبة العلمية واهتماماتهم الروحانية، إن الأعمال المنسوبة إلى جابر بن حيان الشهير وموسوعة الرازي دَلّت على اكتشاف العرب لأجسام مهمة (منها الكحول)، التي انتقلت أسماؤها إلى الفرنسية، كما استخدموا إحدى الطرق الأساسية في الكيمياء (وهي التقطير)»[1].

- والفيزياء:

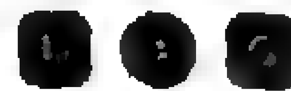
«وفي الفيزياء قاموا بالأبحاث الأكثر أصالة وابتكارًا، وخاصة في العلوم البصرية، إذ فَنَّد ابن الخازن نظرية بطليموس وإقليدس، ووضع نظرية جديدة لم يَتَبَنَّها خلفاؤه»[2].

- والطب أيضًا:

«وفي الطب اشتهر العلماء العرب بمراقبتهم السريرية وبعلمهم المنهاجي، وكان الرازي - وهو من أكبر الأطباء المسلمين والمقيم في الري ثم في بغداد - أحد المتمرسين النابهين والدقيقي الملاحظة، وقد ترك نوعين من الأعمال: أبحاثًا عملية أشهرها يدور حول الجدري، وموسوعة كبرى حول المعارف الطبية هي كتاب (الحاوي)، الذي حلَّ محلَّه (القانون) لابن سينا، وعرف العرب الجراح الشهير الزهراوي، وعلماء مثل ابن زهر وابن رشد وابن ميمون اليهودي، الذين أفادت المسيحية من مصنفاتهم وعلومهم، وفي الواقع كانت بلاد الإسلام متقدِّمة إلى حدٍّ كبير على العصر الوسيط اللاتيني في مجال الطب، وكانت أوربا قد أخذت عنهم بعد الحروب الصليبية بناء المشافي ذات الأصل الفارسي، والتي كانت عديدة ومزدهرة في الشرق»[3].

- لم يكن نقلاً:

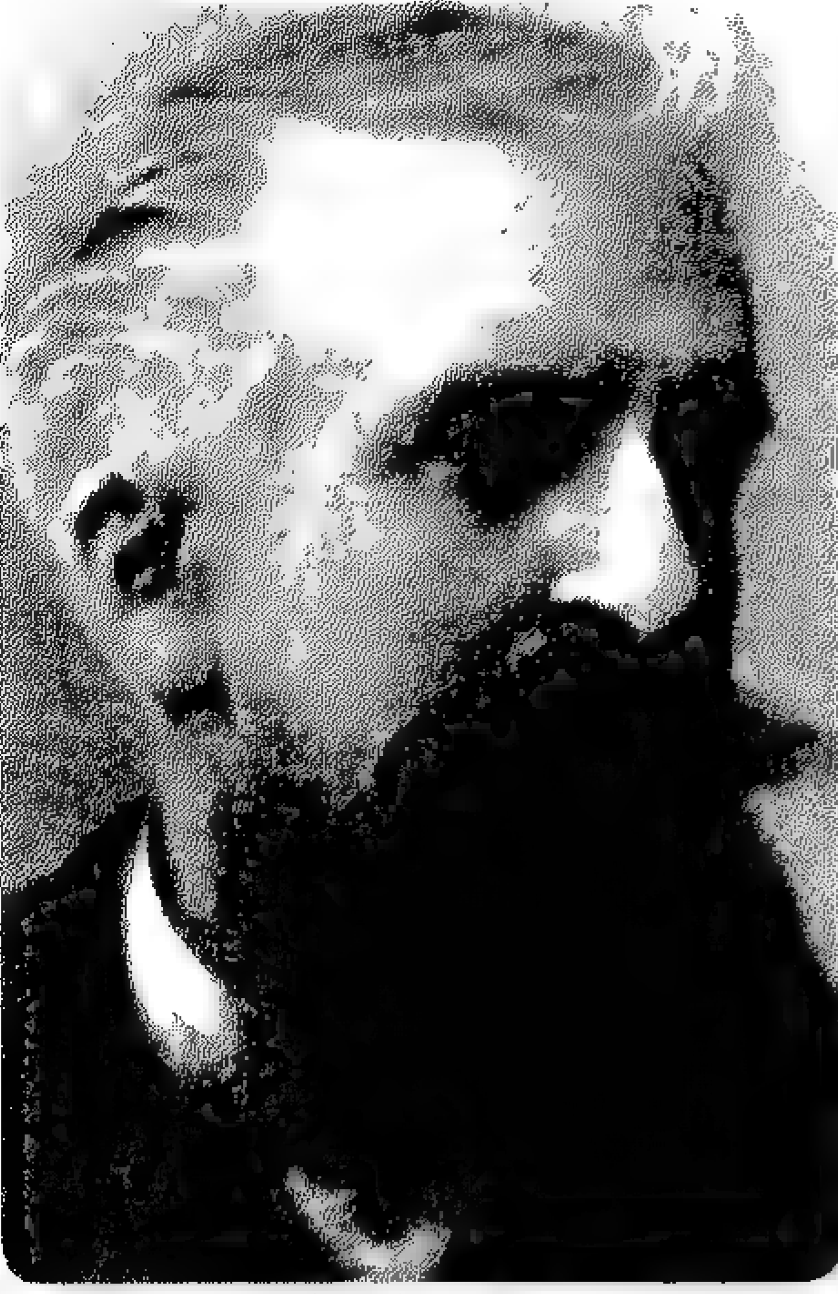
«ولم يكتف العرب بنقل التراثين الفكريين الإغريقي والهندي إلى أوربا الغربية، بل أضافوا إليها ملاحظات عديدة واكتشافات مهمة»[4].



(1) دومينيك سورديل: الإسلام، ص157.
(2) السابق، ص157.
(3) السابق، ص157.
(4) السابق، ص157.

جوستاف لوبون (Gustave le Bon):

(1841 - 1921م)



مستشرق فرنسي شـهير له العديد من المؤلفات من أشهرها: (حضارة العرب) الذي يُعَدُّ من أمهات الكتب التي صـدرت في العصر الحديث في أوربـا لإنصاف الحضارة العربية الإسلامية.

كاتب فرنسـي، وباحث في علوم النفـس والاجتماع، تُرْجِمَتْ معظم أعماله إلى العربية، خاصة تلك التي أشادت بفضل الحضارة العربية على الحضارة الأوربية عندما نقلت تراث اليونان، وعندما وضعت تراثها الخاصّ.

وتميَّز - أيضًا - بإسـهاماته العديدة في مجال علم النفس الاجتماعي، واشـتهر بكتابه (الحشد)، الذي يَرُدُّ فيه مشكلة سيكولوجية الحشد (الجماعة) إلى مشكلة سلوكيات الأفراد تحـت تأثير نـوع خاصٍّ من الدوافع، ويخلص إلى أن السـلوك الذي ينتهجه الحشـد يتميز بخواصٍّ جديدة ومختلفة عن تلك التي يتميز بها سـلوك الأفراد الذين يتكون منهم الحشـد؛ إذ يختفي - في حالة الحشـد - شعور الفرد بذاته، ومن هنا يتكون ما يُسَمِّيه العقلَ الجمعي الذي يتألَّف من رغبات لا شعورية كالتعصب والانفعال، وغير ذلك.

ومـن أهم مؤلفاتـه: (روح الجماعات)؛ و(السـنن النفسـية لتطور الأمم)؛ و(فلسـفة التاريـخ)، و(الدين والحياة)، و(الحضارة المصرية)، و(حضارة العرب في الأندلس)، و(الآراء والمعتقدات).

وإن كتاب جوستاف لوبون (حضارة العرب) يعتبر شهادة وحده في حقِّ الإسلام والحضارة الإسلامية، وهي شهادة عظيمة حقًّا، وكانت كثير من المباحث والفقرات تستحقُّ أن توضع هنا، ولكن هدف الكتاب لم يكن يسمح إلا بالتقاط ما رأيتُ أنه أهم وأوضح فقرات تلك الشهادة.

(حضارة العرب = Civilization of the Arabs = La civilisation des Arabes)



- لأنه منهج الله:

«والإسـلام من أكثر الديانات ملاءمة لاكتشـافات العلم، ومـن أعظمها تهذيبًا للنفوس وحملاً على العدل والإحسان والتسامح»[1].

---

(1) جوستاف لوبون: حضارة العرب، ص126.

- التسامح المطلق:

«ويمكن القول بأن التسامح الديني كان مطلقًا في دور ازدهار حضارة العرب. وقد أوردنا في هذا غير دليل، ولا نُسهب فيه: وإنما نشير إلى ما ترجمه مسيو دوزي من قصة أحد علماء العرب، الذي كان يحضر ببغداد دروسًا كثيرة في الفلسفة، يشترك فيها أناس من اليهود والزنادقة والمجوس والمسلمين والنصارى.. إلخ. فيُستَمَع إلى كل واحد منهم باحترام عظيم، ولا يطلب منه إلا أن يستند إلى الأدلة الصادرة عن العقل، لا إلى الأدلة المأخوذة من أي كتاب ديني كان، فتسامحٌ مثل هذا هو مما لم تصل إليه أوربا بعد ما قامت به في أكثر من ألف سنة من الحروب الطاحنة، وما عانته من الأحقاد المتأصِّلَة، وما مُنِيتْ به من المذابح الدامية»(1).

- ما لم يروا مثله:

«وسيرى القارئ حين نبحث في فتوح العرب وأسباب انتصاراتهم، أن القوة لم تكن عاملاً في انتشار القرآن، فقد ترك العربُ المغلوبين أحرارًا في أديانهم، فإذا حدث أن اعتنق بعضُ الأقوام النصرانيةِ الإسلامَ، واتخذوا العربية لغة لهم، فذلك لِمَا رأوا من عدل العرب الغالبين ما لم يروا مثله من سادتهم السابقين، ولِمَا كان عليه الإسلام من السهولة التي لم يعرفوها من قبلُ»(2).

- الأديان لا تُفْرَض بالقوة:

«وقد أثبت التاريخ أن الأديان لا تُفْرَض بالقوة، فلما قَهَر النصارى عربَ الأندلس فَضَّل هؤلاء القتل والطرد عن آخرهم على ترك الإسلام.

ولم ينتشر القرآن بالسيف إذن، بل انتشر بالدعوة وحدها، وبالدعوة وحدها اعتنقته الشعوب التي قهرت العرب مؤخَّرًا كالترك والمغول»(3).

- ولهذا أسلموا:

«فلما دخل (عمر بن الخطاب) القدس أَبْدَى من التسامح العظيم نحو أهلها ما أَمِنوا به على دينهم وأموالهم وعاداتهم، ولم يَفْرِض سوى جزية زهيدة عليهم، وأبدى العربُ تسامحًا مثل هذا تجاه المدن السورية الأخرى كلها، ولم يلبث جميع سكانها أن رضوا بسيادة العرب، واعتنق أكثر أولئك السكان الإسلام بدلاً من النصرانية، وأقبلوا على تعلُّم اللغة العربية»(4).

(1) جوستاف لوبون: حضارة العرب، ص570.
(2) السابق، ص127.
(3) السابق، ص127، 128.
(4) السابق، ص151.

- الرفق العظيم:

«ويثبت لنا سلوك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في مدينة القدس مقدار الرفق العظيم الـــذي كان يُعَامِل به العربُ الفاتحون الأممَ المغلوبة، والذي ناقضه ما اقترفه الصليبيون في القـــدس بعد بضعة قرون مناقضة تامَّة، فلم يُرِدْ عمر أن يدخل مدينة القدس معه غيرُ عددٍ قليـــل مـــن أصحابه، وطلب من البطـــرك صفرونيوس أن يرافقه في زيارتـــه لجميع الأماكن المقدســـة، وأعطى الأهلين الأمـــان، وقطع لهم عهدًا باحترام كنائســـهم وأموالهم، وبتحريم العبادة على المسلمين في بِيَعِهم»[1].

- لم يحدث في مصر من قبل!

«ولم يكن سلوك عمرو بن العاص بمصر أقلَّ رفقًا من ذلك؛ فقد عرض على المصريين حرية دينية تامَّة، وعدلاً مطلقًا، واحترامًا للأموال، وجزية ســـنوية ثابتة لا تزيد على خمســـة عشـــر فرنكًا عـــن كل رأس، بدلاً من ضرائـــب قياصرة الروم الباهظـــة، فرضي المصريون طائعين شـــاكرين بهذه الشروط، دافعين للجزية سلفًا، وقد بالغ العرب في الوقوف عند حدِّ هذه الشـــروط والتقيُّد بها؛ فأحَبَّهم المصريون، الذين ذاقوا الأَمَرَّيْنِ من ظلم عُمَّال قياصرة القسطنطينية النصارى، وأقبلوا على اعتناق دين العرب ولغتهم أيما إقبال، ونتائج مثل هذه لا تُنَال بالقوة كما قلتُ غير مرَّة، ولم يظفر بمثلها مَنْ مَلَكَ مصر من الفاتحين قبل العرب»[2].

- سارعت المدن تُرَحِّبُ:

«أتمَّ العرب فتح إســـبانيا بســـرعة مدهشـــة؛ وذلك أن المدن الكبيرة سارعت إلى فتح أبوابها للغزاة، فدخل الغزاة قرطبة ومالَقة وغرناطة وطُلَيْطِلة صلحًا تقريبًا... وأحسن العربُ سياســـةَ ســـكان إسبانيا، كما أحســـنوا سياسة أهل ســـوريا ومصر، فقد تركوا لهم أموالهم، وكنائسهم، وقوانينهم، وحقَّ المقاضاة إلى قضاة منهم، ولم يَفْرِضوا عليهم سوى جزية سنوية تبلغ دينارًا عن كلِّ شريف ونصف دينار عن كل مملوك، فرَضِيَ سكان إسبانيا بذلك طائعين، وخضعوا للعرب من غير مقاومة»[3].

- لم تعرف فاتحين مثل العرب:

«وكان يمكن أن تُعمي فتوح العرب الأولى أبصارهم، وأن يقترفوا من المظالم ما يقترفه الفاتحون عادة، ويُسِـــيئُوا معاملة المغلوبين، ويُكْرِهُوهم على اعتناق دينهم، الذي كانوا يرغبون في نشره في العالم... فالحقُّ أن الأمم لم تعرف فاتحين متسامحين مثل العرب، ولا دينًا مثل دينهم»[4].

(1) جوستاف لوبون: حضارة العرب، ص135.

(2) السابق، ص135.

(3) السابق، ص266.

(4) السابق، ص605.

- الفتح بالتسامح:

«وما جَهِله المؤرخون من حِلْم العرب الفاتحين وتسامحهم، كان من الأسباب السريعة في اتساع فتوحهم، وفي سهولة اعتناق كثير من الأمم لدينهم ونُظُمهم ولغتهم، التي رَسَخَت وقاومت جميع الغارات، وبَقِيَتْ قائمةً حتى بعد تواري سلطان العرب عن مسرح العالم، ونَعُدُّ من الواضح خاصةً أمرَ مصر التي لم يُوَفَّق فاتحوها من الفرس والإغريق والرومان أن يقلبوا الحضارةَ الفرعونية القديمة فيها وأن يُقيموا حضارتهم مقامها»[1].

- وفي أقصى الغرب أيضًا:

«وكان عرب إسبانيا يتَّصفون بالفروسية المثالية خلال تسامحهم العظيم، وكانوا يرحمون الضعفاء ويرفقون بالمغلوبين، ويقفون عند شروطهم، وما إلى هذه الخِلال»[2].

- باريس.. وقرطبة:

ولا يُخفي لوبون أسفه من أن المسلمين لم يحكموا فرنسا وأن فتوحاتهم تَوَقَّفَتْ عند معركة بواتيه (بلاط الشهداء) وهو يرى أنها معركة لا تستحقُّ كل ما قيل فيها، ولا ما قيل في شأن قائدها شارل مارتل؛ لأنه لم يفعل إلا أن أوقف الفتوحات في شمال فرنسا، بينما استمرَّت فتوحات العرب في جنوب فرنسا، وهو يُفَسِّر عدم تكرار العرب لمحاولة الفتح بأنَّ الجو في شمال فرنسا كان باردًا وممطرًا، إلى الحدِّ الذي لا يناسبهم، ولا يجعلهم يُفَكِّرُون في الإقامة في تلك الأنحاء، غير أنه يَرُدُّ على مَنْ قال بأن هذه المعركة أنقذت الغرب والمسيحية، فيقول: «لنفرض جدلاً أن النصارى عجزوا عن دحر العرب، وأن العرب وجدوا جَوَّ شمال فرنسا غيرَ باردٍ ولا ممطر كجوِّ إسبانيا، فطابت لهم الإقامة الدائمة به، فماذا كان يصيب أوربا؟ كان يصيب أوربا النصرانية المتبربرة مثلُ ما أصاب إسبانيا من الحضارة الزاهرة تحت راية النبي العربي، وما حدث في أوربا التي تكون قد هُذِّبت ما حَدَثَ فيها من الكبائر كالحروب الدينية، وملحمة سان بارتملي، ومظالم محاكم التفتيش وكل ما لم يَعْرِفْه المسلمون من الوقائع الخطيرة التي ضَرَّجَت أوربا بالدماء عِدَّة قرون»[3].

- بهذا قال من عرف:

«رأينا من آي القرآن... أن مسامحة محمد (ﷺ) لليهود والنصارى كانت عظيمة إلى الغاية، وأنه لم يَقُلْ بمثلها مؤسسو الأديان التي ظهرت قبله كاليهودية والنصرانية على الخصوص، وسنرى كيف سار خلفاؤه على سُنَّتِه، وقد اعترف بذلك التسامح بعض علماء

(1) جوستاف لوبون: حضارة العرب، ص605.
(2) السابق، ص278.
(3) السابق، ص317.

أوربا المرتابون أو المؤمنون القليلون الذين أنعموا النظر[1] في تاريخ العرب، والعبارات الآتية التي أقتطفها من كتب الكثيرين منهم تُثبت آن رَأْيَنا في هذه المسألة ليس خاصًّا بنا.

قال روبرتسون في كتابه (تاريخ شارلكن): إن المسلمين وحدهم هم الذين جمعوا بين الغيرة لدينهم وروح التسامح نحو أتباع الأديان الأخرى، وإنهم مع امتشاقهم الحسام نشرًا لدينهم، تركوا من لم يرغبوا فيه أحرارًا في التمسك بتعاليمهم الدينية.

وقال ميشود في كتابه (تاريخ الحروب الصليبية): إن القرآن - الذي أمر بالجهاد - متسامحٌ نحو أتباع الأديان الأخرى، وقد أعفى البطاركة والرهبان وخدمهم من الضرائب، وحَرَّم محمد (ﷺ) قتل الرهبان لعكوفهم على العبادات، ولم يمس عمر بن الخطاب النصارى بسوء حين فتح القدس، فذبح الصليبيون المسلمين، وحرقوا اليهود بلا رحمة وقتما دخلوها.

وقال الراهب ميشود في كتابه (رحلة دينية في الشرق): ومن المؤسف أن تقتبس الشعوب النصرانية من المسلمين التسامح، الذي هو آية الإحسان بين الأمم واحترام عقائد الآخرين، وعدم فرض أي معتقد عليهم بالقوة»[2].

- براعة سياسية:

«لم تَقِلَّ براعة الخلفاء الأولين السياسيةُ عن براعتهم الحربية التي اكتسبوها على عَجَل؛ وذلك أنهم اتصلوا منذ الوقائع الأولى بسكان البلاد المجاورة الأصليين، الذين كان يَبْغِي عليهم قاهروهم منذ قرون كثيرة، والذين كانوا مستعدِّينَ لأن يستقبلوا بترحاب وحُبُورٍ أيَّ فاتحٍ يُخَفِّف وطأةَ الحياة عنهم، وكانت الطريقُ التي يجب على الخلفاء أن يَسْلكوها واضحة، فَعَرفوا كيف يُحْجِمون عن حمل أحدٍ بالقوة على ترك دينه، وعَرَفوا كيف يبتعدون عن إعمال السيف في من لم يُسْلِم، وأعلنوا في كلِّ مكان أنهم يحترمون عقائد الشعوب وعُرْفها وعاداتها، مكتفين بأخذهم - في مقابل حمايتها - جزيةً زهيدة تَقِلُّ عما كانت تدفعه إلى سادتها السابقين من الضرائب»[3].

- مُعَلِّمو التسامح:

«فهُمُ الذين علموا الشعوب النصرانية، وإن شئت فَقُلْ: حاولوا أن يُعَلِّمُوها التسامح الذي هو أثمن صفات الإنسان، وبلغ حِلْمُ عرب إسبانيا نحو الأهلين المغلوبين مبلغًا كانوا يسمحون به لأساقفتهم أن يَعْقِدُوا مؤتمراتهم الدينية، كمؤتمر إشبيلية النصراني الذي عُقِدَ في سنة (782م)، ومؤتمر قرطبة النصراني الذي عُقِدَ في سنة (852م)، وتُعَدُّ كنائس النصارى

(1) أَنْعَمَ النظر في الشيء: إذا أطالَ الفكرة فيه. ابن منظور: لسان العرب، مادة نعم 579/12.

(2) جوستاف لوبون: حضارة العرب، هامش1، ص128.

(3) السابق، ص134.

الكثيـــرةُ التـــي بَنَوْهَا أيام الحكم العربيِّ من الأدلة على احتـــرام العرب لمعتقدات الأمم التي خضعت لسلطانهم»[1].

- برغم الانحسار:

«وجَرَت حضارةُ العرب - التي أوجدها أتباعُ محمد (ﷺ) - على سُنَّة جميع الحضارات التـــي ظهرت في الدنيا: نشـــوء، فاعتلاء، فهبوط، فموت، ومـــع ما أصاب حضارةَ العرب من الدُّثُـــور - كالحضارات التي ظهرت قبلهـــا - لم يَمَسَّ الزمنُ دين النبيِّ الذي له من النفوذ ما له في الماضي، والذي لا يزال ذا سلطانٍ كبير على النفوس، مع أن الأديان الأخرى، التي هي أقدم منه تَخْسَر كلَّ يوم شيئًا من قُوَّتها»[2].

- كل إناء بالذي فيه ينضح:

«ولم يشأ السلطان صلاح الدين أن يفعل في الصليبيين مثلَ ما فعله الصليبيون الأولون من ضروب التوحش، فيُبيد النصارى عن بَكْرَة أبيهم؛ فقد اكتفى بفرض جزيةٍ طفيفة عليهم مانعًا سلبَ شيءٍ منهم»[3].

- قَلَب الدنيا:

«لقد اعتنقت قبائل البدو في جزيرة العرب دينًا أتى به أُمِّيٌّ، فأقامت بفضل هذا الدين في أَقَلّ من خمســـين سنة دولة عظيمة كدولة الإســـكندر، وزَيَّنَتْ جيدها بقلادة من المباني الفخمـــة، التي هي آية في الإعجاز... فقد أيقن محمـــد (ﷺ) أن الله أمر بالدعوة إلى دين جديد، أوحي به إليه لتجديد العالم، فاستطاع بفضل يقينه أن يقلب الدنيا»[4].

- طابع حضاري خاصّ:

«وللفتوح العربية طابع خاصٌّ لا تَجِدُ مِثْلَه لدى الفاتحين الذين جاءوا بعد العرب، وبيانُ ذلـــك أن البرابرة الذين اســـتولَوْا على العالم الرومانيِّ والتركَ وغيرَهم، وإن اســـتطاعوا أن يؤسســـوا دولاً عظيمة، لم يؤسســـوا حضارة، وكانت غاية جهودهم أن يستفيدوا بمَشَقَّةٍ من حضارة الأمم التي قهروها، وعكسُ ذلك أمرُ العرب الذين أنشـــئوا بســـرعةٍ حضارة جديدة كثيرةَ الاختلاف عن الحضارات التي ظهرت قبلها، والذين تَمَكَّنُوا من اجتذاب أممٍ كثيرة إلى دينهم ولغتهم، فضلاً عن حضارتهم الجديدة»[5].

(1) جوستاف لوبون: حضارة العرب، ص276، 277.

(2) السابق، ص126.

(3) السابق، ص329.

(4) جوستاف لوبون: الآراء والمعتقدات، ص6.

(5) جوستاف لوبون: حضارة العرب، ص135.

- أوربا مَدِينَةٌ للعرب بحضارتها:

«إن تأثيـــر العرب في الغـــرب عظيم أيضًا، وإن أوربا مَدِينَةٌ للعـــرب بحضارتها، والحقُّ أن تأثير العرب في الغرب ليس أقلَّ منه في الشـــرق... ولا يمكن إدراك أهمية شـــأن العرب فـــي الغرب إلا بتصوُّر حال أوربا حينما أدخلوا الحضارة إليها، إذا رَجَعْنَا إلى القرن التاســـع والقرن العاشـــر من الميلاد - حين كانت الحضارةُ الإســـلامية في إســـبانيا ساطعة جدًّا - رأينا أن مراكز الثقافة في الغرب كانت أبراجًا يَسْـــكُنُها سنيوراتٌ متوحشون، يَفْخَرُونَ بأنهم لا يقـــرءون، وأن أكثر رجال النصرانية معرفةً كانوا من الرهبان المســـاكين الجاهلين الذين يقضون أوقاتهم في أديارهم ليَكْشـــطوا[1] كُتب الأقدمين النفيسة بخشوعٍ، وذلك كيما يكون عندهم من الرقوق ما هو ضروريٌّ لنَسْخِ كتب العبادة»[2].

- قبل.. وبعد:

«شـــأن العـــرب المدني لم يَبْدُ في قُطْـــر ملكوه كما بدا في إســـبانيا، التي لم تكن ذات حضارة تُذْكَر قبل الفتح العربي، فصارت ذات حضارة ناضرة في زمن العرب، ثم هبطت إلى الدَّرْك الأسفل من الانحطاط بعد جلاء العرب»[3].

- رسالة الحضارة:

«ولـــم يَكَـــدِ العـــرب يُتِمُّونَ فتح إســـبانيا حتى بدءوا يَقُومُون برســـالة الحضـــارة فيها؛ فاســـتطاعوا في أقلَّ من قرن أن يُحْيُوا مَيِّتَ الأرضيـــن، ويُعَمِّرُوا خَرِب المدن، ويُقيموا فخم المباني، ويُوَطِّدُوا وثيقَ الصلات التجارية بالأمم الأخرى، ثم شرعوا يتفرَّغون لدراسة العلوم والآداب، ويُتَرْجِمـــون كتب اليونان واللاتين، ويُنْشِـــئُون الجامعات، التـــي ظَلَّتْ وحدها ملجأً للثقافة في أوربا زمنًا طويلاً»[4].

- وصقلية أيضًا:

«كانت صقلية حين جلاء العرب عنها أرقى ثقافة وصناعة واجتماعيًّا منها حين دخلوها، ونحـــن إذا علمنـــا أن قيمة تأثير إحدى الأمم في أُمَّة أخرى من ناحية الحضارة تُقَدَّر بمقدار نهوضها بها، وإصلاحها لها، رأينا أنه كان للعرب تأثيرٌ عظيم في صقلية»[5].

(1) يكشطوا يقصد يُزيلوا الكتابة التي عليها، من كشط الشيء إذا أزاله.

(2) جوستاف لوبون: حضارة العرب، ص566.

(3) السابق، ص272.

(4) جوستاف لوبون: حضارة العرب، ص273.

(5) السابق، ص308.

- ليس روجر بيكون:

«ويُعْزَى إلى بيكون – على العموم – أنه أول من أقام التجربة والترصد – اللذين هما ركن المناهج العلمية الحديثة – مقامَ الأستاذ، ولكنه يجب أن يُعْتَرَف اليوم بأن ذلك كلَّه من عمل العرب وحدَهم، وقد أبدى هذا الرأيَ جميعُ العلماء الذين درسوا مؤلفات العرب»[1].

- بدائع التفوق:

«وكلما أمعنَّا في درس حضارة العرب، وكتبهم العلمية، واختراعاتهم، وفنونهم ظهرت لنا حقائقُ جديدة وآفاق واسعة، وسرعان ما رأينا أن العرب أصحابُ الفضل في معرفة القرون الوسطى لعلوم الأقدمين، وأن جامعات الغرب لم تَعْرِف لها – مُدَّة خمسة قرون – موردًا علميًّا سوى مؤلفاتهم، وأنهم هم الذين مَدَّنُوا أوربا مادةً وعقلاً وأخلاقًا، وأن التاريخ لم يعرف أُمَّة أنتجت ما أنتجوه في وقت قصير، وأنه لم يَفُقْهم قوم في الابتداع الفني»[2].

- ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[3]:

«ومهما يكن من أمر فإن مما لا ريب فيه أن محمدًا (ﷺ) أصاب في بلاد العرب نتائجَ لم تُصِب مثلها جميعُ الديانات التي ظهرت قبل الإسلام، ومنها اليهودية والنصرانية؛ ولذلك كان فضلُ محمد (ﷺ) على العرب عظيمًا»[4].

- مِنْ أعظم مَنْ عرفهم التاريخ:

«وإذا ما قِيسَتْ قيمة الرجال بجليل أعمالهم كان محمد (ﷺ) مِنْ أعظم مَنْ عَرَفهم التاريخ، وأخذ بعض علماء الغرب يُنْصِفُون محمدًا (ﷺ)، مع أن التعصُّب الديني أعمى بصائر مؤرخين كثيرين عن الاعتراف بفضله»[5].

- عظمة الفاتح:

«عامل محمد (ﷺ) قريشًا – الذين ظَلُّوا أعداءً أشدَّاءَ له عشرين سنة – بلطف وحِلم، وأنقذهم من سَوْرة[6] أصحابه بمشقَّة، مكتفيًا بمسح صُوَر الكعبة وتطهيرها من الأصنام الـ360، التي أمر بِكَبِّهَا على وجوهها وظهورها، ويجعل الكعبة معبدًا إسلاميًّا، وما انفكَّ هذا المعبد يكون بيتَ الإسلام»[7].

(1) جوستاف لوبون: حضارة العرب، ص435.

(2) السابق، ص26.

(3) (آل عمران: 110).

(4) جوستاف لوبون: حضارة العرب، ص115.

(5) السابق، ص116.

(6) السَّوْرَة: السطوة والغضب والاعتداء والثورة، وسورة الشيء حِدَّته. ابن منظور: لسان العرب، مادة سور 384/4.

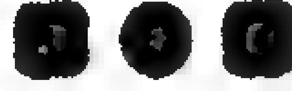
(7) جوستاف لوبون: حضارة العرب، ص108.

- ﴿خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1]:

«لقد كان محمد (ﷺ) ذا أخلاق عالية، وحكمة، ورقَّة قلب، ورأفة، ورحمة، وصدق، وأمانة»[2].

- العرب في رؤية لوبون:

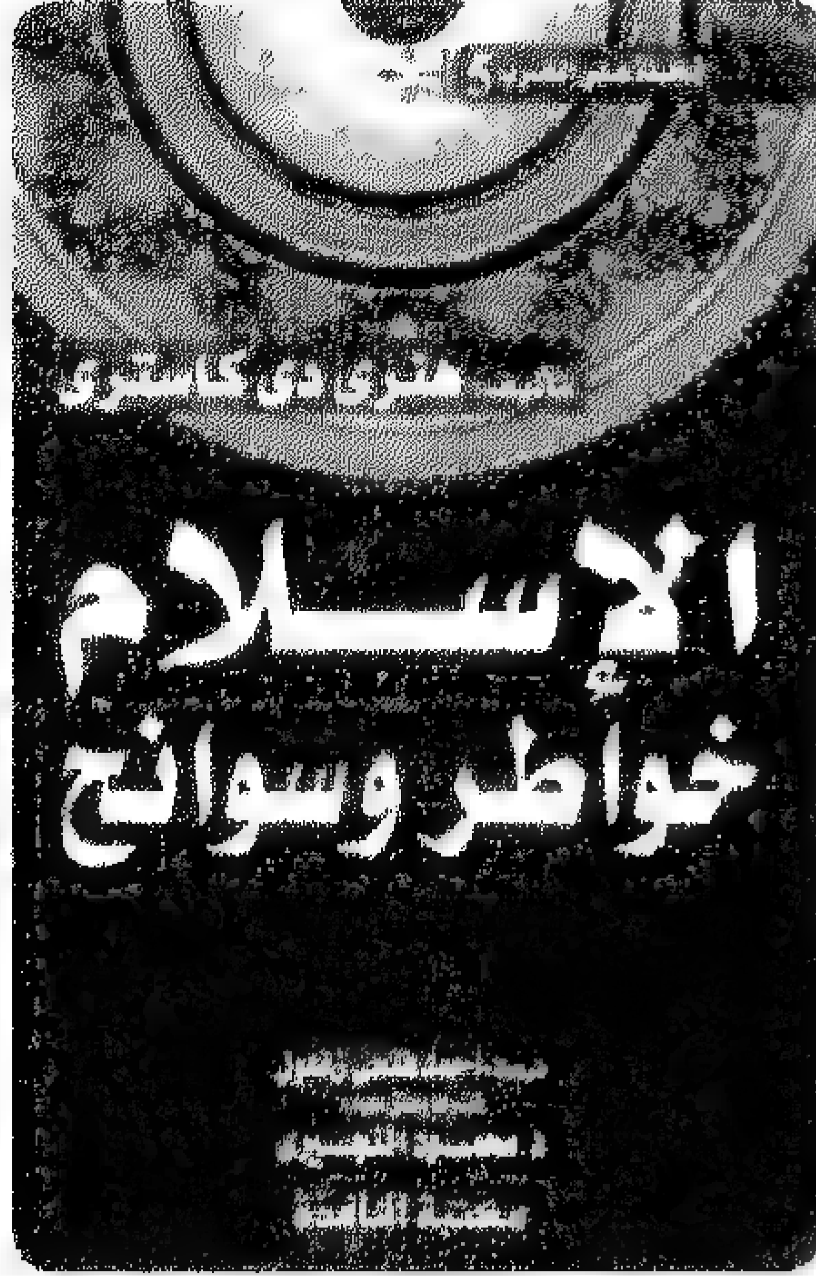
«إن الأمم التي فاقت العرب تَمَدُّنًا قليلةٌ إلى الغاية، وإننا لا نذكر أُمَّة كالعرب حَقَّقَتْ من المبتكرات العظيمة في وقت قصير مثلَ ما حَقَّقُوا، وإن العرب أقاموا دِينًا من أقوى الأديان التي سادت العالم، أقاموا دِينًا لا يزال تأثيرُه أشدَّ حيويَّة مما لأيِّ دينٍ آخر، وإنهم أنشئوا - من الناحية السياسية - دولةً من أعظم الدول التي عَرَفها التاريخ، وإنهم مَدَّنوا أوربا ثقافةً وأخلاقًا؛ فالعروقُ التي سَمَتْ سُمُوَّ العرب وهَبَطَتْ هبوطَهم نادرةٌ ولم يَظْهَرْ كالعرب عِرْقٌ يَصْلُح أن يكون مثالاً بارزًا لتأثير العوامل التي تُهَيْمن على قيام الدول وعظمتها وانحطاطها»[3].



(1) (القلم: 4).

(2) جوستاف لوبون: الدين والحياة، ص67.

(3) جوستاف لوبون: حضارة العرب، ص618.



هنري دي كاستري (Henry de Castrie):

(1850 - 1927م)

الكونت هنري دي كاستري، كاتب مسيحي فرنسي، كان مُقَدَّمًا في الجيش الفرنسي بالجزائر، قضى في الشمال الإفريقي ردحًا من الزمن، من مؤلفاته: (مصادر غير منشورة عن تاريخ المغرب) عام (1950م)، و(الأشراف السعديون) عام (1921م)، و(رحلة هولندي إلى المغرب) عام (1926)، وغيرها.

(الإسلام خواطر وسوانح =

(L'ISLAM, IMPRESSIONS ET ETUDES



- حيرة الجمال:

«إن العقل يحار كيف يتأَتَّى أن تصدر تلك الآيات عن رجل أُمِّيٍّ، وقد اعترف الشرق قاطبة بأنها آيات يعجز فكر بني الإنسان عن الإتيان بمثلها لفظًا ومعنى، آيات لما سمعها عقبة بن ربيعة حار في جمالها، وكفى رفيع عبارتها لإقناع عمر بن الخطاب فآمن برب قائلها، وفاضت أعين النجاشي إمبراطور الحبشة بالدموع حين تلا عليه جعفر بن أَبي طالب سورة مريم»[1].

- ﴿مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾[2]:

«والقرآن بالنسبة إلى التوراة، كالتوراة بالنسبة إلى الزبور، أو أن محمدًا (ﷺ) بالنظر إلى عيسى (عليه السلام)، كعيسى (عليه السلام) بالنظر إلى موسى (عليه السلام)، ولكن الأمر الذي تهم معرفته، هو أن القرآن آخر كتاب سماوي ينزل للناس، وصاحبه خاتم الرسل، فلا كتاب بعد القرآن، ولا نبي بعد محمد (ﷺ)، ولن تجد بعده لكلمات الله تبديلاً»[3].

- لم يكن فيه عيب:

«لا يمكن أن نُنكر على محمد (ﷺ) في الدور الأول من حياته كمالَ إيمانه وإخلاصه وصدقه، أمَّا في الدور الثاني فلم يتزعزع الإيمان من قلبه مثقال ذرة، وما أُوتِيَهُ من النصر،

(1) هنري دي كاستري: الإسلام خواطر وسوانح، ص42، 43.
(2) (الأحقاف: 9).
(3) هنري دي كاستري: الإسلام خواطر وسوانح، ص51.

كان من شـــأنه أن يُقَوِّيه على الإيمان، لولا أن الاعتقـــاد كله قد بلغ منه مبلغًا لا محلَّ للزيادة فيه، ولم يكن فيه عيب، بل أن ما نســبوه إليه من هذا القبيل[1]، لا يُؤَثِّر بشـــيء على ســيرته الطاهرة»[2].

- قال جان جاك روسو:

«نحن معشـــر الغربيين لا يســعنا أن نفقه معاني القرآن كما هـــي؛ لمخالفته لأفكارنا، ومغايرته لما رُبِّيَتْ عليه الأمم عندنا، غير أنه لا ينبغي أن يكون ذلك سببًا في معارضة تأثيره في عقول العرب، ولقد أصاب (جان جاك روســو) حيث قال: (من الناس من يَتَعَلَّم قليلاً من العربيـــة ثم يقرأ القرآن ويضحك منه، ولو أنه ســمع محمــدًا (ﷺ) يُمْليه على الناس بتلك اللغة الفصحى الرقيقة، وصوته المشبع المقنع الذي يُطرب الآذان، ويُؤَثِّر في القلوب... لَخَرَّ ساجدًا على الأرض، وناداه: أيها النبي رسول الله، خذ بيدنا إلى مواقف الشرف والفخار، أو مواقع التهلكة والأخطار، فنحن من أجلك نودُّ الموت أو الانتصار)»[3].

- هذا السر المكنون:

«أتى محمد (ﷺ) بالقرآن دليلاً على صدق رســالته، وهو لا يزال إلى يومنا هذا ســرًّا من الأســرار التي تعذر فكّ طلاسمها، ولن يسبر غور هذا السرّ المكنون إلا مَنْ يُصَدِّق بأنه مُنَزَّل من الله»[4].

- حقيقة لا مطعن فيها:

«وأنا قد قرأت التاريخ، وكان رأيي – بعد ذلك – أن معاملة المســلمين للمســيحيين تدلُّ على تَرَفُّع عن الغلظة في المعاشـــرة، وعلى حســن مسايرة، ولطف مجاملة، وهو إحساس لم يُشَـــاهَد في غير المسلمين إذا ذاك، وخصوصًا أن الشفقة والحنان كان عنوان الضعف عند الأوربيين، وهذه الحقيقة لا أرى وجهًا للطعن فيها على وجه العموم»[5].

- ما زال يبسط جناحيه:

«ولو كان دين محمد (ﷺ) انتشر بالعنف والإجبار، للزم أن يَقِفَ سيره بانقضاء فتوحات المسلمين، مع أننا لا نزال نرى القرآن يبسط جناحيه في جميع أرجاء المسكونة»[6].

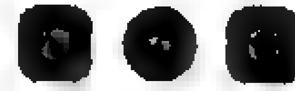
(1) يقصد ما نُسِبَ من قِبَلِ بعض الكتاب الأوربيين.
(2) هنري دي كاستري: الإسلام خواطر وسوانح، ص52.
(3) السابق، ص44.
(4) السابق، ص46.
(5) السابق، ص79.
(6) السابق، ص131.

- ﴿ كَآفَّةً لِّلنَّاسِ ﴾[1] :

«ومن مزايا الإســلام أنه دين رحيم، فهو يَعِدُ الجنــة والنعيم لكل مؤمن، من دون تمييز على التقريب؛ فالمحارب يموت شــهيدًا ، والعالم يكتفي بتلاوة القرآن، والاثنان مقبولان عند الله، وللفقير مكان عَلِيٌّ، وللغني درجة رفيعة»[2].

- يأخذ القلوب:

«ولــو لم يكن في القرآن غيــر بهاء معانيه وجمال مبانيه لكفى بذلك أن يســتولي على الأفكار ويأخذ بمجامع القلوب»[3].



(1) (سبأ: 28).
(2) هنري دي كاستري: الإسلام خواطر وسوانح، ص139.
(3) السابق، ص46.

مكسيم رودنسون (Maxime Rodinson):

(1915 - 2004م)



مستشرق فرنسي شهير ومعاصر، وُلِدَ رودنسون في عائلة متواضعة من والد روسي وأم بولندية، وعَمِلَ في مطلع حياته كمستخدم جوال في أحد المكاتب، ونجح رودنسون في السابعة عشرة من الالتحاق بمعهد اللغات الشرقية، ونجح لاحقًا في شهادة البكالوريا، وفي سنة (1937م) تزوَّج ودخل إلى المركز الوطني للبحوث العلمية، وانتسب إلى الحزب الشيوعي.

وعُيِّنَ أستاذًا بمدرسة الدراسات العليا بباريس، ثم مديرًا لها، وهو صاحب الدراسات العديدة عن أصول الإسلام، وعلم الاجتماع الإسلامي، وعن رسول الإسلام، وعن المقارنة بين الإسلام والرأسمالية، والإسلام والشيوعية، وعن تأثيرات اللغة العربية في بعض اللغات الأوربية، والتأثير الإسلامي في الشاعر الإيطالي دانتي (1265-1321م).

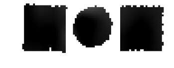
وله العديد من المؤلفات منها: (محمد (ﷺ)) عام (1961م)، و(الإسلام والرأسمالية) عام (1966م)، و(الماركسية والعالم الإسلامي) عام (1972)، و(العرب) عام (1979م)، و(سحر الإسلام) عام (1980)، و(شعب يهودي أم مسألة يهودية؟) عام (1981م)، و(الإسلام.. سياسة وإيمان) عام (1993)، و(بين الإسلام والغرب.. حوارات مع جيرار خوري) عام (1998م).

وقال المؤرخ جيرار خوري - الذي يَعْرِف رودنسون منذ ثلاثين عامًا: «كان شخصًا شديد التدقيق والتمحيص وموسوعيًّا كبيرًا». وفي سنة (1977م) بدأ الرجلان حوارًا نُشِرَ تحت عنوان: (بين الإسلام والغرب).

وأوضح خوري «أن أعماله المعترف بها من قِبَلِ الأوساط العلمية تصل في الوقت نفسه إلى العموم». مضيفًا أن العمل الرئيس لمكسيم رودنسون هو (محمد) (1961م)، وهو قراءة ماركسية مُوَثَّقة لحياة النبي (ﷺ)، وأضاف خوري أن «رودنسون ساهم في تعديل القراءة الطائفية للإسلام، الذي لا يعجز - حسب رأيه - عن الدخول إلى الحداثة، إنه إسهام كبير على نقيض ما نشهده اليوم، أي جهل بالإسلام».

ومكسيم رودنسون - الذي عَمِلَ من أجل التقارب بين ضفَّتَي المتوسط عن طريق التعددية وحوار الثقافات - اتخذ موقفًا في عام (1968م) من القضية الفلسطينية، وأنشأ مع المستشرق الفرنسي جاك بيرك مجموعة الأبحاث والإعمال من أجل فلسطين.

وقـــال خوري: إن هذا العمل «سَـــبَّبَ له بصفتـــه يهوديًّا ومعاديًـــا للصهيونية. كل أنواع الانتقادات والتهديدات الممكنة. لكنه لم يتخلَّ عن هذا الموقف أبدًا».



- فروسية صلاح الدين:

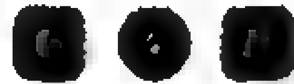
«أثار العدو الأكبر صلاح الدين إعجابًا واســـع الانتشـــار بين الغربيين: فقد شنَّ الحرب بإنسانية وفروسية، برغم قِلَّة مَنْ بادلوه هذه المواقف، وأهمهم ريتشارد قلب الأسد»[1]

- تُرَحِّب من كل قلبها:

«في إيطاليا عَبَّرَتْ كثيرٌ من الأقاليم لحكوماتها المســـتبدَّة عن أنها تُرَحِّب من كل قلبها بغزوٍ تركيٍّ مثلما فعل بعض البلقانيين المسيحيين»[2].

- الملجأ.. الإسلام:

«لقد لجأ أتباع مذهب (كالفن) (1509-1564م) في هنغاريا وترنســـلفانيا، وبروتسنت ســـيليزيا، وقدماء المؤمنين من قفقاس روســـيا إلى تركيا، أو تطلعوا إلـــى الباب العالي في هروبهم من الاضطهاد الكاثوليكي أو الأرثوذكســـي، وذلك مثلما فعل اليهود الإســـبانيون قبل ذلك بقرنين»[3].



(1) مكســـيم رودنسون: الصورة الغربية والدراســـات الغربية والإسلامية، دراسة منشورة في كتاب (تراث الإسلام)، بإشراف شاخت، وكليفورد بوزوروث، ص41.
(2) السابق، ص49.
(3) السابق، ص55.

البارون كار دي فو (Baron Carre De Vaux):

(1868 - 1939م)

مستشرق فرنسي كبير من المعهد الكاثوليكي بباريس، درس اللغة العربية، ودَرَّسها في المعهد الكاثوليكي بباريس، وتميَّز بالناحية العلمية، فألَّف في الرياضة والفلسفة، وشرح كتاب (الكرويات) تصحيح يحيى بن محمَّد المغربي عام (1891م)، ونشر كتابًا يبحث في الساعات المائية وكتاب المجسطي لأبي الوفاء البوزجاني عام (1892م)، وكتاب (الآلات والحيل) لهيرون الإسكندري، مستندًا إلى قسطا بن لوقا عام (1893م)، ووضع كتابًا عن ابن سينا في سنة (1900م)، وكتابًا عن الغزالي سنة (1902م)، وأصدر كتاب (مفكرو الإسلام) في أجزاء خمسة (1921-1926م).

كذلك تَرْجَمَ كتاب (التنبيه والإشراف) للمسعودي سنة (1904م)، وترجم قصيدة النفس لابن سينا، وتائية ابن الفارض.



- أعظم المكتشفات العلمية:

وبرغم أن المستشرق الفرنسي **كاردي فو** يبدأ بحثه بعبارة تقول: «قد لا نتوقَّع أن نجد عند العرب تلك العبقرية العظيمة، وموهبة الابتكار العلمي، والنشاط الفكري الذي نجده عند الإغريق». لا يلبث بعده إلا بضعة أسطر ليقول: «أنجز العرب أعظم المكتشفات العلمية فعلاً؛ فَعَلَّمُونا استعمال الصِّفْر - ولو أنهم لم يكونوا مبتكريه - وهكذا ابتدعوا حساب الحياة اليومية، إنهم جعلوا الجبر علمًا متقنًا وتَقَدَّمُوا به، ووضعوا أسس علم الهندسة التحليلية، وهم بلا منازع موجدو عِلْمَي المثلثات المستوية والكروية، اللذين لم يكن للإغريق فضل في وجودهما إذا ما توخينا الحقيقة والإنصاف، كما أنهم عملوا في الفلك أرصادًا عديدة قَيِّمَة، وحفظوا لنا بترجماتهم عددًا كبيرًا من كتب الإغريق وأبحاثهم التي ضاعت أصولها»[1].

- بضدِّها تتميَّز الأشياء:

«والسبب الآخر لاهتمامنا بعلم العرب هو تأثيره العظيم على الغرب؛ إن العرب ارتفعوا بالحياة العقلية والدراسة العلمية إلى المقام الأسمى، في الوقت الذي كان العالم المسيحي يناضل نضال المستميت للانعتاق من أحابيل البربرية وأغلالها»[2].

---

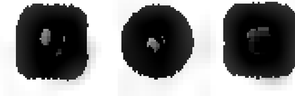
(1) كار دي فو: الفلك والرياضيات، دراسة منشورة في كتاب (تراث الإسلام) بإشراف توماس أرنولد، ص563، 564.

(2) السابق، ص564.

- **بهذا نهضوا:**

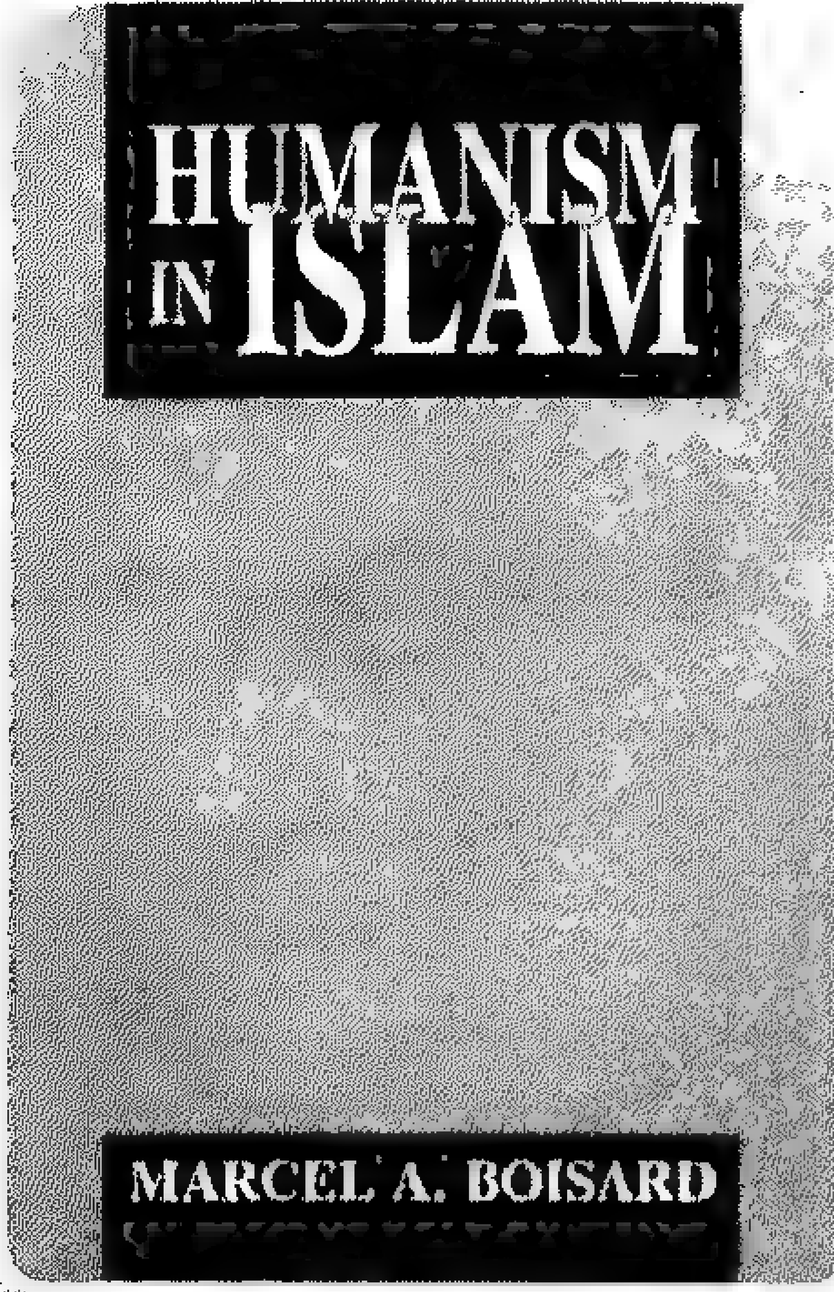
«ومن القرن الثاني عشـــر فصاعدًا كانت مَرَّاكش والشـــرق محطّ أنظار كل غربي يميل إلى العلم ويتذوَّقه، في هذه الفترة شـــرع أبناء أوربا يُتَرجِمُون آثار العرب، كما كان العرب قد ترجموا آثار الإغريق، وهكذا كانوا همزة وصل بين الثقافة القديمة والمدنية الجديدة. عندما عادت النفس الإنســـانية في عهد الإحياء العلمي لتمتلئ ثانية بحب المعرفة والاســـتقصاء، ولتتنبه بوميض من العبقرية العلمية.

فإن هي أفلحت في سلوك السبيل الأقوم للعمل، وإن أتيح لها الإنتاج والابتكار؛ فما ذلك إلا لأن نفسية العرب قد حفظت وأكملت مختلف فروع العلم، وصانت روح البحث العلمي حيَّة تائقة للتحرُّر والحركة، متهيئة للمكتشفات المقبلة»[1].



(1) كار دي فو: الفلك والرياضيات، دراسة منشورة في كتاب (تراث الإسلام) بإشراف توماس أرنولد، ص564، 565.

مارسيل بوازار (M. Poizar):



مُفَكِّر وقانوني فرنسي معاصر، أَوْلَى اهتمامًا كبيرًا لمسألة العلاقات الدولية وحقوق الإنسان، وكتب عددًا من الأبحاث للمؤتمرات والدوريات المعنيَّة بهاتين المسألتين، ويُعْتَبَر كتابه (إنسانية الإسلام) - الذي انبثق عن الاهتمام نفسه - علامةً مضيئةً في مجال الدراسات الغربية للإسلام؛ بما تميَّز به من موضوعية وعمق، وحرص على اعتماد المراجع التي لا يأسرها التحيُّز والهوى، فضلاً عن الكتابات الإسلامية الأخرى.

(إنسانية الإسلام = Humanism in Islam)



- ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾[1]:

«لا بُدَّ عند تعريف النصِّ القدسي في الإسلام من ذكر عنصرين: الأول: أنه كتاب مُنَزَّل أزلي غير مخلوق. والثاني: أنه (قرآن)، أي كلام حيٌّ في قلب الجماعة... وهو بين الله والإنسانية (الوسيط) الذي يجعل أي تنظيم كهنوتي غير ذي جدوى؛ لأنه مرضيٌّ به مرجعًا أصليًّا، وينبوع إلهام أساسي... وما زال حتى أيامنا هذه نموذجًا رفيعًا للأدب العربي تستحيل محاكاته، إنه لا يُمَثِّل النموذج المحتذى للعمل الأدبي الأمثل وحسب؛ بل يُمَثِّل كذلك مصدر الأدب العربي والإسلامي الذي أبدعه؛ لأن الدين الذي أوحي إليه هو في أساس عدد كبير من المناهج الفكرية التي سوف يشتهر بها الكُتَّاب»[2].

- تأكيد لا يتزعزع:

«ويظهر أن الإسلام يتراءى أكثر تسامحًا كلما قَوِيَ واشتدَّ على الصعيدين الداخلي والخارجي، وتنص الآية القرآنية التي تمنع الإكراه على اعتناق الدين عن تأكيد لا يتزعزع، وقوة الأُمَّة تُوَفِّر للمؤمن ألا (يُخِيفَ) اليهودي ولا المسيحي، وأن يحترم - بالتالي - شخصهما ودينهما ومؤسساتهما»[3].

(1) (الإسراء: 88).
(2) مارسيل بوازار: إنسانية الإسلام، ص52، 53.
(3) السابق، ص202.

- كيان متميز:

«لقد كان الدين حافزًا فعالاً على تأليف كيان متميّز لم تُصَدّعه صروف الدهر. والاحتكاك بمختلف الحضارات على مرّ العصور.. ولقد تمكّن المجتمع الإسلامي - الذي قام على الدين - من الصمود في وجه التفكيك السياسي. ولم تتأثر الروابط الدينية على الحدود والتخوم بين الدول كبير التأثير»[1].

- دعوة التعايش:

«وقد فتح الإسلام الباب للتعايش على الصعيد الاجتماعي والعرقي: حين اعترف بصدق الرسالات الإلهية المنَزَّلَة من قَبَلُ على بعض الشعوب... وأتاح منطق تعاليمه القوي، وبساطة عقيدته، وما يرافقها من تسامح - أتاح كل هذا للشعوب التي فتح بلادها حريَّةً دينيَّةً تفوق بكثير تلك التي أتاحتها الدول المسيحية نفسها»[2].

- «شَقَائِقُ الرِّجَالِ»:

«إن الإسلام يخاطب الرجال والنساء على السواء، ويعاملهم بطريقة (شبه) متساوية. وتهدف الشريعة الإسلامية بشكل عامٍّ إلى غاية متميزة هي الحماية، ويُقَدِّم التشريع للمرأة تعريفات دقيقة عما لها من حقوق، ويُبْدِي اهتمامًا شديدًا بضمانها: فالقرآن والسُّنَّة يحضَّان على معاملة المرأة بعدل، ورفق، وعطف... وسَعَيَا (أي القرآن والسُّنَّة) إلى رفع وضع المؤمنة بمنحها عددًا من الطموحات القانونية أمام القانون، والملكية الخاصة الشخصية والإرث»[3].

- حامي حمى المرأة:

«أثبتت التعاليم القرآنية وتعاليم محمد (ﷺ) أنها حامية حمى حقوق المرأة»[4].

- نهج لا مثيل له:

«وليس طابع معاهدة الحماية (الذِّمَّة) التشريعي قابلاً للمقارنة أو المماثلة بأفكار المذهب التشريعي الغربي الرائجة، أضف إلى ذلك أن المؤسسة تطوَّرت بتطوُّر تاريخ الإمبراطورية الإسلامية... وإنه ليكتفي أن نستخرج خطوط النظام العامَّة الكبرى من ركام كثير التشويش من الأحداث التاريخية، والآراء التشريعية، والعلاقات بين الأحداث: لنُبَيِّنَ كيف حاول الإسلام منذ القرن السابع للميلاد أن يقدم حلًّا لمشكلة الأقليات فريدًا في نوعه، والمقابلات القانونية التاريخية خطرة؛ لأن المؤسسات القديمة نتاج مفاهيم بعيدة جدًّا في الأغلب عن تطلعاتنا أو إنجازاتنا الحديثة.

(1) مارسيل بوازار: إنسانية الإسلام، ص73، 74.
(2) السابق، ص184.
(3) السابق، ص108.
(4) السابق، ص140.

وتســتحق جماعة غير المســلمين على أرض الإسلام أن تُتناول بالتحليل؛ لأنه ثبت أنها نهــجٌ لا مثيل له، في الوقت الــذي كان فيه الغرب على أهبة الخروج من العصور الوســطى وإدراك ضرورة وضع الأنظمة المحدَّدة للعلاقات مع الغرباء»[1].

- تقدميَّة بشكل جوهري:

«لقد أظهرت الرســالة القرآنية وتعاليم النبي أنها تقدميَّة بشــكل جوهري، وتُفَسِّر هذه الخصائصُ انتشار الإسلام السريع بصورة خارقة خلال القرون الأولى من تاريخه»[2].

- في مسألة الأقليات:

«وينبغي أن يُحْتَفَظ لغير المؤمنين بوضع خاصٍّ في مجتمع قائم بشــكل أساســي على الدين، ومع ذلك فليس شأن الأجنبي كشأن العدوِّ في المدينَة القديمة، وتتمثل أصالة النظام الإســلامي بالنظر إلى ما كان ســائدًا في العصور الإغريقية والرومانية في شمولية الوحي وإرشادية الدين، ويُمَثِّل تَفَوُّقه في هذا المضمار على اليهودية والمسيحية في تَقَبُّلِه الديانات التوحيدية السابقة التي يُصَدِّقها الإسلام، ولكنه يجاوزها في الوقت نفسه إلى جانب توكيده على الوحدة الجوهرية للأديان السماوية.

فالنســبية إذن قاعدة مقبولة في حقل التشريع، إلا حين يتعدَّى الأمر التوكيد الجوهري لعامَّة القانون الإلهي، وإليك إحدى أهم مساهمات الإسلام في تأليف مفهوم عالمي حديثٍ: التســامح، وهو واجب ديني وأمر شــرعي، والقرآن واضح في الإشــارة إليه: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ ﴾[3].

وترتســم في هذا الإطار العامِّ ثلاثُ فئات من غير المســلمين؛ فهناك أولاً: المشــرك المدعــوُّ للدخول في الدين الجديــد، دون أن يُتَّخَذ بحقِّه تدبيرُ طردٍ، وليس أمامه نظريًّا إذا ناصب الإسلام والمسلمين العداء إلا أن يختار بين اعتناق الدين والقتال حتى الموت. وهناك ثانيًا: (المعتنق) لدينٍ توحيديٍّ - القاطن خارج العالم الإسلامي (الحربي) - ولكن في وسعه أن يُقيم مؤقتًا فيه تبعًا لإجراء في غاية البساطة، ويبدو هذا النموذج الثاني أقرب إلى فكرة (الأجنبي) حســب المذهب الحديث. وتضــم الفئة الثالثة أخيــرًا الموحدين الذين تحميهم الجماعة الإسلامية، وكثير ما لجأت الكتابات الغربية إلى عملية تعميم مفرطة في التبسيط،

(1) مارسيل بوازار: إنسانية الإسلام، ص186، 187.
(2) السابق، ص74.
(3) (المائدة: 48).

فاعتبـرت هؤلاء المحميين بمثابة مواطنين من الدرجة الثانية، والواقع أن هؤلاء القوم كانوا أجانب خاضعين لقوانينهم الخاصة، ومحميين بالمعنى الفعلي للفظة؛ لأنهم مقيمون جغرافيًّا في المجال الخاضع سياسـيًّا وثقافيًّا للإسـلام، وكانوا يُؤَلِّفُون أقليات دينية متناسقة، تكفل أوضاعَها نظمٌ قانونية ملزمة إلزامًا شديدًا للأغلبية المسلمة؛ لأنها جزء من التنزيل»[1].

- آثاره خالدة:

«قد كان محمد (ﷺ) نبيًّا، لا مصلحًا اجتماعيًّا، وأحدثت رسـالته في المجتمع العربي القائم آنذاك تغييرات أساسية، ما تزال آثارها ماثلة في المجتمع الإسلامي المعاصر»[2].

- صالحٌ لهذا العصر:

«إن الأدوات التـي يُوَفِّرهـا التنزيـل القرآنـي قـادرةٌ - ولا ريب - على بنـاء مجتمع حديث»[3].

- .. ولكل الأزمنة:

«إن القرآن لم يُقَدَّر قَطُّ لإصلاح أخلاق عرب الجاهلية، إنه على العكس يحمل الشريعة الخالدة والكاملة والمطابقة للحقائق البشرية، والحاجات الاجتماعية في كل الأزمنة»[4].

- القرآن لا السياسات والأيديولوجيا:

«يخلـق الـرُّوحُ القرآني منـاخَ عيشٍ ينتهي به الأمـر إلى مناغمة التعبيـرات الذهنية، والمسـاواة بين العقليـات والنظم الاجتماعيـة، بأكثر مما تفترض التصريفات السياسـية والطوابع الأيديولوجية التي تسـند إلى الدول، ولا يكفـي - قَطُّ - ما يتردَّد عن درجة تأثير القـرآن الكبـرى في (الذهنية الإسـلامية) المعاصرة، فهو ما يزال مصـدر الإلهام الفردي والجماعي الرئيسي، كما أنه ملجأ المسلمين وملاذهم الأخير»[5].

- دِينٌ ونظامٌ اجتماعي معًا:

«لقد أثبت التنزيل - برفضه الفصل بين الروحي والزمني - أنه دينٌ ونظام اجتماعي... ومـن البديهـي أن التنزيل والسـبيل الـذي ظنَّ إمكان اسـتخدامه فيه قد طبعَـا المجتمع بعمق..»[6].

(1) مارسيل بوازار: إنسانية الإسلام، ص183، 184.
(2) السابق، ص42.
(3) السابق، ص345.
(4) السابق، ص109.
(5) السابق، ص343.
(6) السابق، ص206، 207.

- **مرونة الشريعة الإسلامية:**

«ويبقى القانون الإسلامي في أيامنا أَحَدَ الأنظمة القانونية الكبرى، لا لأنه يُنَظِّم العلاقات بين حوالي سبعمائة مليون نسمة، ويُستَلْهَم لإنشاء القواعد الدستورية في عدة بلدان، وتكبح القناعة الدينية جماحَ الوسط الاجتماعي بِرُمَّتِه، والتصوُّرُ الذي يفرضه التنزيل ماثل بشكل خاصٍّ في الجماهير الشعبية، التي تزداد أهميتها السياسية في مؤازة تطوُّر بعض الصيغ الديمقراطية؛ فَكُل حركة من الحركات يشتدُّ تَلَوُّنها بالدين بازدياد نفاذها إلى الجماهير، فهذه الجماهير تُقَدِّم الانفعالات بالنظام الاجتماعي والتعبير عنه، كما تُقَدِّم في كثير من الأحيان مادَّته بالذات، ويُشَكِّل الدين عنصرًا حيويًّا مؤثِّرًا في العلاقات بين الأفراد والزمر والأمم، تزداد فعاليته تدريجيًّا على ما يبدو، وتؤكد الظاهرة، وتدعم قابلية القانون الإسلامي للتطبيق، وتسهم في الوقت نفسه مرونتُه ومطاوعتُه»[1].

- **الوسطية العبقرية:**

«ويعود الإسلام بصورة إجمالية إلى الظهور في العالم المعاصر، بوصفه أَحَدَ الحلول للمشكلات التي يطرحها مصير الإنسان والمجتمع، ويخلق التطوُّر السياسي الداخلي للدول حلولاً وتغييرات خاصة، ولقد تَأَكَّد أن جميع الانتفاضات - التي ساورت البلدان الإسلامية في عشرات السنين الأخيرة - كانت إسلامية بصورة حقيقية، مهما تكن صبغة الأزياء التي أُلْبِسَتْهَا ولا تزال هذه الحركات جادَّة في استلهام الماضي المجتمعي.

وأصالة النظام الإسلامي الأُولَى في مفهومه للإنسان الاجتماعي، الذي يُعَارِض في آن معًا الشيوعية التي تلاشي الفردَ في الجماعة، والليبرالية التي تُعَادِي ما بين الفرد والمجتمع، ويكفل التضامن بين أفراد المجتمع احترام حقوق الإنسان داخل الزمرة وفي الخارج؛ لأنه معتبر أحد رعايا القانون الدولي، ويضع الإسلامُ ثم رُوحِيَّتُه في مقابل المادية الوضعية - التي تسلخ عن الإنسان إنسانيته - حائلاً بذلك دون أن تصبح الدولة يومًا (الإله الآلة)، الذي عَرَّفه الغرب، والذي تجهد الدول المزعوم أنها (اشتراكية) في فرضه، ويَحُولُ المعنى الجازم للمسئولية الفردية - وهي أحد عوامل التحرر الهامة - دون أن يخلي الإنسان عن شخصه للزمرة الفائقة القدرة، ويُوَجّه الإخلاص أول ما يُوَجّه لمُثُلِ الدين العليا لا للمؤسسات الحكومية، وترسيخ غايات الإنسان المترفِّعة عن الدنيا ينزع إلى إخضاع الدولة للقانون، بدلاً من إخضاع الفرد للجهاز السياسي، وفي نظام فكري مماثل ينادي الإسلام - على المستوى الدولي - بالتعاون بين الشعوب أكثر مما ينادي بالاكتفاء الذاتي للأمم،

(1) السابق، ص426.

وينادي مذهبه القانوني باختصار: بالاستقامة، والعالمية السلمية، والواقعية، والاعتدال. وكلها فضائل متوافقة مع طبيعة الإنسان الرُّوحِيَّة»[1].

- رباط سياسي ديني:

«ليس لفكرة الأمة الإسلامية مقابل في فكر الغرب، ولا في تجربته التاريخية: فالجماعة الإسلامية - وهي تَجَمُّعٌ من المؤمنين يُؤَلِّف بينهم رباطٌ سياسي وديني في آنٍ واحد، ويتمحورون حول كلام الله القدسي... والفرد يندمج في الإسلام بالجماعة المؤمنة بالتساوي، عن طريق شهادته الفردية، واستبطان إرادته وصفاته الخاصَّة كمؤمن: فالنية المعلنة والجهر بالكلام شرطان من شروط الانتماء إلى المجتمع، وبصورة تلازمية يُحَدِّدُ الامتثالُ لمشيئة الله البنيةَ الاجتماعية، وهكذا تكون النظم التأسيسية للجماعة مشروطة بالعبادة الواجبة عليها نحو الله»[2].

- الشريعة.. جوهر إلهي ونهج بشري متطور:

«وتسمح ديمومة القناعة الدينية بالتشديد على صلاح الإسلام للزمن الراهن، عن طريق أمثلة مستقاة من الحقبة المعاصرة ومن الماضي، وقد احتفظنا من القانون الإسلامي بما اعتبرناه ثابتًا لا يتحوَّل، لا بوصفه قواعد ابتدعها أو استنتجها الفقهاء، إنما بوصفه تعبيرًا عن إجراء رُوحيٍّ مرتبط بحضارة خاصَّة، وجوهر القانون وَهَبَتْهُ الإرادة الإلهية، فهو من هذه الناحية - وبصورة عامَّة جدًّا - مثالي وثابت، وهكذا اهتمَّ التفكير القانوني الإسلامي بالمحافظة على النظام المجتمعي أكثر من اهتمامه ببناء مجتمع، وراح يتطوَّر مع نموِّ المجتمع، وأكسبه مظهره الأممي مرانًا كبيرًا، ولم يعمل المظهر القانوني على عكس صورة الواقع بالتطابق مع الأحداث، بل كان مفروضًا فيه - على العكس - أن يُوَجِّهها بوصفه عِلْمًا نظريًّا مرتبطًا بجوهر القانون - الوحي - وخاضعًا له، كما أن الأغصان جزء من الشجرة... وباختصار بدا لنا أن رُوح القانون الإسلامي أصلح لبحثنا من طريقة تطبيقه»[3].

- الإنسان والقائد:

«لا تنفك الأحاديث الشريفة والسيرة النبوية تُصَوِّر في الأذهان كرم الرسول وتواضعه، كما تُصَوِّر استقامته ونقاءه ولطفه وحلمه، وكما يُظْهِرُه التاريخ قائدًا عظيمًا مِلْءَ قلبه الرأفة، يُصَوِّره كذلك رجل دولةٍ صريحًا، قويَّ الشكيمة، ديمقراطيًّا»[4].

(1) مارسيل بوازار: إنسانية الإسلام، ص431، 432.
(2) السابق، ص182، 183.
(3) السابق، ص422.
(4) السابق، ص46.

- الفعل والأثر:

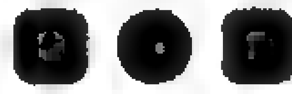
«منذ استقر النبي محمد (ﷺ) في المدينة، غدت حياته جزءًا لا ينفصل من التاريخ الإسلامي. فقد نقلت إلينا أفعاله وتصرفاته في أدق تفاصيلها. ولما كان منظمًا شديد الحيوية، فقد أثبت نضالية في الدفاع عن المجتمع الإسلامي الجنيني، وفي بث الدعوة. وبالرغم من قتاليته ومنافحته، فقد كان يعفو عند المقدرة، لكنه لم يكن يلين أو يتسامح مع أعداء الدين. ويبدو أن مزايا النبي الثلاث، الورع والقتالية والعفو عند المقدرة قد طبعت المجتمع الإسلامي في إبان قيامه وجسّدت المناخ الروحي للإسلام»[1].

- غيَّر مجرى التاريخ:

«ولم يكن محمد (ﷺ) على الصعيد التاريخي مُبَشِّرًا بدين وحسب؛ بل كان كذلك مُؤَسِّسَ سياسة غَيَّرت مجرى التاريخ، وأَثَّرت في تطوُّر انتشار الإسلام فيما بعد على أوسع نطاق»[2].

- فوق مستوى البشر:

«وإذا تَذَكَّرْنَا أخيرًا على الصعيد النفساني هشاشة السلطان - الذي كان يمتَّع به زعيم من زعماء العرب، والفضائل التي كان أفراد المجتمع يطالبونه بالتحلي بها - استطعنا أن نستخلص أنه لا بُدَّ أن يكون محمد (ﷺ) - الذي عَرَفَ كيف ينتزع رضا أوسع الجماهير به - إنسانًا فوق مستوى البشر حقًّا، وإنه لا بُدَّ أن يكون نبيًّا حقيقيًّا من أنبياء الله»[3].



(1) مارسيل بوازار: إنسانية الإسلام، ص46.
(2) السابق، ص42.
(3) السابق، ص46.

بلاشير (Régis Blachère):



(1318 - 1393 هـ = 1900 - 1973 م)

من أشهر مستشرقي فرنسا في القرن العشرين، ومن أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق، وُلِدَ في مونروج (من ضواحي باريس). تَعَلَّم العربية في الدار البيضاء (بالمغرب)، وتخرج في كلية الآداب في الجزائر عام (1922م)، وعُيِّنَ أستاذًا في معهد الدراسات المغربية العليا في الرباط (1924-1935م)، وانتقل إلى باريس محاضرًا في السوربون عام (1938م)، فمديرًا لمدرسة الدراسات العليا العلمية عام (1942م)، وأشرف على مجلة (المعرفة) الباريسية (بالعربية والفرنسية)، وألَّف بالفرنسية كتبًا كثيرة تُرجم بعضها إلى العربية، ونجح في فرض تدريسها في بعض المعاهد الثانوية الفرنسية.

(تاريخ الأدب العربي = Histoire de la Litterature Arabe)



- ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾(1) :

«.. إن معجزة النبي عليه الصلاة والسلام الحقيقية والوحيدة هي إبلاغه الناس رسالة ذات روعة أدبية لا مثيل لها، فمن هو ذلك الرجل المكلَّف بالمهام الثقيلة العبء، وهي حَمْلُ النور إلى عرب الحجاز في أوائل القرن السابع؟! إن محمدًا عليه الصلاة والسلام لا يبدو في القرآن إطلاقًا مُنْعَمًا عليه بمواهب تُنَزِّهه عن الصفات الإنسانية، فهو لا يستطيع - في نظر معاصريه المشركين - أن يفخر بالاستغناء عن حاجات هي حاجاتهم، وهو يُصَرِّح بفخر أنه لم يكن سوى مخلوق فانٍ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾(2). وهو لم يتلقَّ أي قدرة على صنع المعجزات، ولكنه انتُخب ليكون منذرًا ومبشرًا للكافرين، إن نجاح رسالته مرتبط إذن في قيمتها الإحيائية وإلى شكلها المنقطع النظير، ولم يكن محمد عليه الصلاة والسلام رغم ذلك، صاحب بيان ولا شاعرًا، فإن الأخبار التي روت سيرته لم تحسن الاحتفاظ بذكرى مفاخراته الشخصية، وثمة عوامل تحملنا على الشك فيما إذا كان عرف استعمال السجع، أو أنه تلقى من السماء فنَّ ارتجال الشعر، وعندما قال عنه المكِّيّون المشركون أنه شاعر، أو حين عرَّضوا بأن مصدر الوحي جنِّيّ معروف، أزال الله عنه هذه التهمة:

(1) (الحاقة: 41).
(2) (الكهف: 110).

﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[1]. وهكذا يطرح هذا الوحي البالغ جماله حدَّ الإعجاز، الواثق بحمل الناس بقوة بيانه على الهداية، كظاهرة لا علاقة لها بالفصاحة ولا الشعر»[2].

- ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾[3]:

«لا جرم في أنه إذا كان ثمة شـيء تعجز الترجمة عـن أدائه فإنما هو الإعجاز البياني واللفظـي، والجرس الإيقاعي فـي الآيات المنزلة في ذلك العهـد.. إن خصوم محمد عليه الصلاة والسـلام قد أخطئوا عندما لم يشاءوا أن يروا في هذا إلاَّ أغاني سحرية وتعويذية، وبالرغم من أننا على علم – اسـتقرائيًّا فقط – بتنبؤات الكهان، فمن الجائز لنا الاعتقاد مع ذلك بخطل هذا الحكم وتهافته، فإن للآيات التي أعاد الرسول عليه الصلاة والسلام ذكرها في هذه السـور اندفاعًا وألقًا وجلالةً تخلّف وراءها بعيدًا أقوال فصحاء البشـر، كما يمكن استحضارها من خلال النصوص الموضوعة التي وصلتنا»[4].

- ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[5]:

«إن القـرآن ليس معجزة بمحتواه وتعليمه فقط، إنـه – أيضًا – يمكن أن يكون قبل أي شـيء آخر تحفة أدبية رائعة تسـمو على جميع ما أقرّته الإنسـانية وبجّلته من التحف.. إن الخليفة المقبل عمر بن الخطاب (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) المعارض الفظ في البداية للدين الجديد، قد غدا من أشد المتحمسين لنصرة الدين عقب سماعه لمقطع من القرآن»[6].

- ﴿لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ﴾[7]:

«الإعجاز هو المعجزة المصدِّقة لدعوة محمد (ﷺ) الذي لم يرتفع في أحاديثه الدنيوية إلى مستوى الجلال القرآني»[8].

- **أسباب النجاح:**

«أمـا عن انتصار الإسـلام فثمّة أسـباب تداخلت وفي طليعتها القرآن والسـنة وحالة الحجاز الدينية، ونصح وبيان وأمانة الرجل المرسل لإبلاغ الرسالة المنزلة عليه»[9].

(1) (يس: 69، 70).
(2) بلاشير: تاريخ الأدب العربي، 14/2، 15.
(3) (الحاقة: 42).
(4) بلاشير: تاريخ الأدب العربي 22/2.
(5) (الواقعة: 80).
(6) بلاشير: تاريخ الأدب العربي 104/2.
(7) (يونس: 16).
(8) بلاشير: تاريخ الأدب العربي، 104/2.
(9) السابق، 50/2.

إميل درمنجم (Émile Dermenghem):



مستشرق فرنسي، عمل مديرًا لمكتبة الجزائر، من آثاره: (حياة محمد) (باريس 1929) وهو من آدق ما صنّفه مستشرق عن النبي (ﷺ)، و(محمد والسنة الإسلامية) (باريس 1955)، ونشر عددًا من الأبحاث في المجلات الشهيرة مثل: (حوليات معهد الدراسات الشرقية)، و(نشرة الدراسات العربية)، ومن مباحثه: تقاليد شمالي إفريقيا (المجلة الإفريقية 89، 1945م)، والحرالي صوفيٌّ من القرن الثالث عشر وعالم وفيلسوف وشاعر (حوليات معهد الدراسات الشرقية 7، 1948م)، وأبو بكر شبلي شاعر متصوف بغدادي (المصدر السابق8، 1948-1950م)، وذكريات الأمير عبد القادر (نشرة الدراسات العربية 9، 1949)، والجمعيات السرية في الجزائر (المجلة الإفريقية 97، 1953م)، وميتولوجيا الحب الإلهي بعد العهر في فولكلور شمالي إفريقيا (المجلة الإفريقية 89، 1947م)، وبمعاونة محمد الفاسي: قصة ملك الجنون وبنته وابن السلطان (مجلة العالم الإسلامي 62، 1925م)، وحول القيم الدائمة والحالية في الحضارة الإسلامية (الإسلام والغرب 1947م)، وأولياء الجبل (الطاولة المستديرة 126، 1958م)، وبمعاونة غيره: أهل الكهف (مجلة الدراسات الإسلامية 1959-1962م).

(حياة محمد = La Vie De Mahomet = The Life Of Mahomet)



- يهز الروح بأسرها:

«كان محمد (ﷺ) يعد نفسه وسيلة لتبليغ الوحي، وكان مبلغ حرصه أن يكون أمينًا مصغيًا أو سجلاً صادقًا، أو حاكيًا معصومًا لما يسمعه من كلام الظل الساطع، والصوت الصامت للكلام القديم على شكل دنيوي لكلام الله الذي هو أمُّ الكتاب، للكلام الذي تحفظه ملائكة كرام في السماء السابعة، ولا بُدَّ لكل نبي من دليل على رسالته، ولا بُدَّ له من معجزة يتحدى بها.. والقرآن هو معجزة محمد (ﷺ) الوحيدة، فأسلوبه المعجز وقوة أبحاثه لا تزال.. إلى يومنا يثيران ساكن من يتلونه، ولو لم يكونوا من الأتقياء العابدين، وكان محمد (ﷺ) يتحدَّى الإنس والجن بأن يأتوا بمثله، وكان هذا التحدي أقوم دليل لمحمد (ﷺ) على صدق رسالته.. ولا ريب أن في كل آية منه، ولو أشارت إلى أدق حادثة في حياته الخاصة،

تأتيه بما يهزّ الروح بأسرها من المعجزة العقلية، ولا ريب في أن هنالك ما يجب أن يبحث به عن سرّ نفوذه وعظيم نجاحه»[1].

- وذلك دليل ألوهية القرآن:

«كان محمد (ﷺ) وهو البعيد من إنشاء القرآن وتأليفه ينتظر نزول الوحي إليه أحيانًا على غير جدوى، فيألم من ذلك، ويود لو يأتيه الملك متواترًا»[2].

- تلك هي النصرانية الصحيحة:

«للمسيح (عليه السلام) في القرآن مقام عالٍ، فولادته لم تكن عادية كولادة بقية الناس، وهو رسول الله الذي خاطب الله جهرًا عن مقاصده وحدث عن ذلك أول شخص كلمه، وهو كلمة الله الناطقة من غير اختصار على الوحي وحده.. والقرآن يقصد النصرانية الصحيحة حينما يقول: إن عيسى (عليه السلام) كلمة الله، أو روح الله، ألقاها إلى مريم، وأنه من البشر.. وهو يَذمّ مذهب القائلين بألوهية المسيح (عليه السلام) ومذهب تقديم الخبز إلى مريم عبادة ثم أكله، وما إلى ذلك من مذاهب الإلحاد النصرانية، لا النصرانية الصحيحة، ولا يسع النصراني إلا أن يرضى بمهاجمة القرآن للثالوث المؤلف من الله وعيسى ومريم»[3].

- وذلك هو شأن المرأة:

« مما لا ريب فيه أن الإسلام رفع شأن المرأة في بلاد العرب وحسَّن حالها، قال عمر بن الخطاب (رضي الله عنه): «ما فتئنا نعد النساء من المتاع حتى أوحى في أمرهن مبينًا لهن». وقال النبي (ﷺ): «**أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا، وَخِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ خُلُقًا**»[4]. أجل، إن النبي (ﷺ) أوصى الزوجات بإطاعة أزواجهن، ولكنه أمر بالرفق بهن ونهى عن تزويج الفتيات كرهًا وعن أكل أموالهن بالوعيد أو عند الطلاق»[5].

- والخطبة دليل العظمة:

« ... تجلت بهذه الرحلة الباهرة - حجة الوداع - ما وصلت إليه من العظمة والسؤدد رسالة ذلك النبي (ﷺ) الذي أنهكه اضطهاد عشر سنين وحروب عشر سنين أخرى بلا انقطاع، وهو النبي الذي جعل من مختلف القبائل المتقاتلة على الدوام أمة واحدة»[6].

---

(1) إميل درمنجم: حياة محمد، ص195.

(2) السابق، ص285.

(3) السابق، ص131-132.

(4) الترمذي: كتاب الرضاع، باب ما جاء في حق المرأة على زوجها (1162) وقال: حديث أبي هريرة هذا حديث حسن صحيح. وأحمد (7396)، وابن حبان (4176).

(5) إميل درمنجم: حياة محمد، ص329، 330.

(6) إميل درمنجم: حياة محمد، ص359.

- ﴿وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾[1]:

«الواقع أنه لم يبقَ أدنى شك في صدق محمد (ﷺ)، فإن جميع حياته تدل على ذلك.. وكانـــت عظمة محمد (ﷺ) الحقيقية هي العظمة الآتية له من الله بالإلهام الإلهي الذي كان يُقذف في روعه»[2].

- هداية لا جباية:

«لقد نال السلطان والثراء والمجد، ولكنه لم يغتر بشيء من هذا كله فكان يُفَضِّل إسلام رجل على أعظم الغنائم»[3].

- رقيق القلب عظيم الإنسانية:

«وإن بعضهم يعيب محمدًا (ﷺ) في كثرة ميله إلى النساء، فإنه مما لا مشاحة فيه، أن محمدًا (ﷺ) لم يكن شـــرهًا ولا فخورًا ولا متعصبًا ولا منقادًا للمطامع، بل كان حليمًا رقيق القلب عظيم الإنسانية»[4].

- سؤال بسيط:

«وأيهما أفضل: تعدد الزوجات الشرعي أم تعدد الزوجات السري؟... إن تعدد الزوجات من شأنه إلغاء البغاء والقضاء على عزوبة النساء ذات المخاطر»[5].

- .. وبشرط العدل:

«وأباح النبي (ﷺ) تعدُّد الزوجات... ولم يوصِ الناس به، ولم يأذن فيه إلا بشرط العدل بين الزوجات فلا يهب لإحداهن إبرة دون الأخرى»[6].

- دليل الشمس.. شمس:

«.. وُلِـــدَ لمحمد (ﷺ) من مارية القبطيـــة ابنه إبراهيم فمات طفلاً، فحزن عليه (ﷺ) كثيرًا ولحده بيده وبكاه، ووافق موته كســـوف الشمس، فقال المسلمون: إنها انكسفت لموته، ولكن محمدًا (ﷺ) كان من سموّ النفس ما رأى به ردّ ذلك فقال: «**إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللهِ لا يَخْسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ...**»[7]. فقول مثل هذا مما لا يصدر عن كاذب دجال..»[8].

(1) (النمل: 14).

(2) إميل درمنجم: حياة محمد.

(3) إميل درمنجم: حياة محمد، ص360.

(4) السابق، ص183.

(5) السابق، ص330، 331.

(6) إميل درمنجم: حياة محمد، ص330.

(7) البخاري: كتاب الكســـوف، باب قول النبي (ﷺ): «يخوف الله عباده بالكســـوف». (1001)، ومســـلم: كتاب الكسوف، باب صلاة الكسوف (901).

(8) إميل درمنجم: حياة محمد، ص318.

جاك ريسلر (Jaque Risler):



باحث وكاتب فرنسي معاصر، وأستاذ بالمعهد الإسلامي بباريس، حاصل على جائزة الأكاديمية الفرنسية؛ تقديرًا لكتابه: (الحضارة العربية) بوصفه دراسة أساسية لمعرفة الإسلام.

(الحضارة العربية

(The Culture of Arabs = La Civilisation Arabe

- ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ ﴾[1]:

«لما كانت روعة القرآن في أسلوبه فقد أنزل ليقرأ ويتلى بصوت عال، ولا تستطيع أية ترجمة أن تعبر عن فروقه الدقيقة المشبعة بالحساسية الشرقية، ويجب أن تقرأه في لغته التي كتب بها لتتمكن من تذوق جمله وقوته وسمو صياغته، ويخلق نثره الموسيقي والمسجوع سحرًا مؤثرًا في النفس؛ حيث تزخر الأفكار قوة وتتوهج الصور نضارة، فلا يستطيع أحد أن ينكر أن سلطانه السحري وسموه الروحي يسهمان في إشعارنا بأن محمدًا (ﷺ) كان ملهمًا بجلال الله وعظمته»[2].

- ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾[3]:

«كان في القرآن فوق أنه كتاب ديني خلاصة جميع المعارف... ولا يزال حتى اليوم النص الذي تقوم عليه أسس التعليم في الجامعات الإسلامية، ولا تستطيع الترجمات أن تنقل ثروته اللغوية (إذ يذبل جمال اللغة في الترجمات كأنها زهرة قطفت من جذورها)؛ ولذلك يجب أن يُقرأ القرآن في نصه الأصلي»[4].

- ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ﴾[5]:

«إن القرآن يجد الحلول لجميع القضايا، ويربط بين القانون الديني والقانون الأخلاقي، ويسعى إلى خلق النظام والوحدة الاجتماعية، وإلى تخفيف البؤس والقسوة والخرافات، إنه

---

(1) (البقرة: 252).
(2) جاك ريسلر: الحضارة العربية، ص30، 31.
(3) (الشعراء: 195).
(4) جاك ريسلر: الحضارة العربية، ص45.
(5) (الأنعام: 38).

يسعى إلى الأخذ بيد المستضعفين، ويوصي بالبر. ويأمر بالرحمة، وفي مادة التشريع وضع قواعـد لأدق التفاصيـل للتعاون اليومي. ونظم العقود والمواريث. وفي ميدان الأسـرة حدَّد سلوك كل فرد تجاه معاملة الأطفال، والأرقاء، والحيوانات. والصحة، والملبس... إلخ»[1].

- شريعة راسخة:

«حقًا، لقد ظلت شـريعة القرآن راسـخة على أنها المبدأ الأساسي لحياة المسلم، ولم يتعرض ما جاء في القرآن من نظر وأخلاق ونظام لأية تغييرات ولا لتبديلات»[2].

- الرحمة الإجبارية!

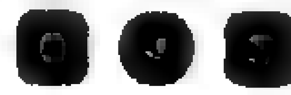
«كانت الزكاة قبل كل شيء عملاً تعاونيًا حرًا وإداريًا ينظر إليه على أنه فضيلة كبرى... وفي تنظيم جماعة (المدينة) اعتمد النبي (ﷺ) هذا العمل الخير كضريبة شـرعية إجبارية لصالح الفقراء والمعوزين، وسـيتحول فيما بعد هذا النظام وسيتولد عنه هيئة من موظفين وبيـت مال.. لكن إذا كانت الدولة قـد صنعت هذا العمل الخيِّر مصدرًا لمواردها، فإن مبدأ الزكاة ظلَّ – بفضل القرآن – فضيلة مارسـها المسلمون تلقائيًا بوصفه واجبًا دينيًا، وينبغي أن نزجي الثناء لمحمد (ﷺ) فقد كان أول من شرع ضريبة تجبى من الأغنياء للفقراء، هكذا أوجد القرآن الرحمة الإجبارية»[3].

- ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ﴾[4]:

«.. لقد وُضِعَت المرأة على قدم المسـاواة مع الرجال في القضايا الخاصة بالمصلحة، فأصبح في استطاعتها أن ترث، وأن تورث، وأن تشتغل بمهنة مشروعة»[5].

- تعدد الزوجات حقق تماسك الأسرة:

«وفـي الحق إن تعدد الزوجات بتقييده الانزلاق مع الشـهوات الجامحة، قد حقق بهذا التشريع الإسلامي تماسك الأسرة، وفيه ما يسوغ عقوبة الزوج الزاني»[6].



(1) جاك ريسلر: الحضارة العربية، ص51.
(2) السابق، ص75.
(3) السابق، ص43.
(4) (البقرة: 228).
(5) جاك ريسلر: الحضارة العربية، ص52.
(6) السابق، ص52.

هنري ماسيه (Henry Mase):



وُلِدَ عام 1886م، عمل مديرًا للمعهد الفرنسي بالقاهرة، وعين أستاذًا في جامعة الجزائر (1916-1927م)، وعضوًا في المجمع العلمي العربي بدمشق، وانتدبته الحكومة لعديد من المهام الثقافية واختارته اليونسكو في لجنة المستشرقين، من مؤلفاته: كتاب (الإسلام)، ونشر العديد من الأبحاث في المجلات الاستشراقية الشهيرة.

ترجم كتاب قانون ديوان الرسائل لابن الصيرفي، وحقق جزءًا من (فتوح مصر والمغرب) لابن عبد الحكم، والجزء الثاني من (أخبار مصر) لابن ميسر، وحقق كتاب (الاكتفاء) للكلاعي.

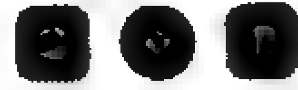


- بفضل محمد (ﷺ):

«بفضل إصلاحات محمد (ﷺ) الدينية والسياسية - وهي إصلاحات موحدة بشكل أساسي - فإن العرب وعوا أنفسهم وخرجوا من ظلمات الجهل والفوضى، ليعدّوا دخلوهم النهائي إلى تاريخ المدنيَّة»[1].

- رحمة وحزم ودين ودنيا:

« إذا بحثنا عن محمد إجماليًّا نجده (...)[2] دائم التفكير، ونفس باطنها حزن، وأما مداركه فهي تمثل شخصًا يعتقد بإله واحد، وبوجود حياة أخرى، ويتصف بالرحمة الخالصة، والحزم في الرأي والاعتقاد، ويضاف إليه أنه رجل حكومة، وأحيانًا رجل سياسة وحرب، ولكنه لم يكن ثائرًا بل كان مسالمًا»[3].



(1) هنري ماسيه: الإسلام، ص55.

(2) المحذوف من هذا الاقتباس هو قوله: «عصبي المزاج» وهي صفة غريبة لا ندري على أي شيء استند في قولها، خاصة وأنه يذكر بعدها في نفس السطر أنه كان: «رجل حكومة»، و «رجل سياسة»، وأنه «كان مسالمًا»!

(3) هنري ماسيه: الإسلام، ص11.

فرناند بروديل (Fernand Braudel):

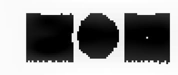


كان أول مــؤرخ فرنســي فــي عصر ما بعــد الحرب، ورائدًا لمدرســة الحوليات، وقد نظم حياته الدراسية حول ثلاثة مشاريع عظيمة كل واحد منها يستحق عدة قرون من الدراسة المكثفة وهي: البحر المتوسط (1923-1949 ثم 1949-1966م) والحضارة والرأسمالية (1955-1979م) وهوية فرنسا (1970-1985م).

وقد اعتبر أحد أعظم المؤرخيــن المعاصرين؛ حيث أكــد على الدور الكبير للعوامــل الاجتماعية - الاقتصادية في صنع التاريخ وحكايته، كما يمكن اعتباره أحد المبشرين بنظرية النظام العالمي.

من مؤلفاته: (الحضارة والرأسمالية.. من القرن الخامس عشر إلى القرن الثامن عشر)، 3 أجزاء (1979م)، الجزء الأول: بناء الحياة اليومية، والجزء الثاني: عجلات التجارة، والجزء الثالث: منظور العالم. وكتاب: (عن التاريخ) عام (1980م)، و(هوية فرنســا) عام (1986م)، و(تاريخ الحضارة) عام (1995م).

(تاريخ وقواعد الحضارات = **A History of Civilizations**)



- الرسالة الحاسمة:

«إن المصادر المباشــرة للإســلام تضعنا في الحال أمام رجل وكتاب ودين، فبين عامي (610م) و(612م) - وهــي تواريخ غير دقيقة إلا أنها أقرب إلــى الحقيقة - وعام (632م)، وقعت رسالة محمد الحاسمة، فلولاه ما كان للبلاد العربية أن تتوحد، إذ كانت منهمكة موزعة بين قبائل متصارعة مكشــوفة أمام تيارات النفوذ الأجنبي والتطلعات الاســتعمارية للفرس وأثيوبيا المسيحية وسوريا ومصر البيزنطية»[1].

- معارف جديدة وحديثة:

«كانــت الأولوية للعلوم فقد كان العرب هم الذين ســاهموا في هذه العلوم وجلبوا فيها معارف جديدة وحديثة لم تكن معروفة من قبل ولنقصر حديثنا في هذا المجال على حساب

(1) فرناند بروديل: تاريخ وقواعد الحضارات، ص45.

المثلثات والجبر وللعلم الأخير دلالته.. ففي حساب المثلثات اخترعوا (حاصل العمود على القوس) والـ (خطط المماس) وكان معروفًا عن قدماء اليونانيين أنهم لا يقيسون الزاوية إلا بالخيط والدائرة وهو نصف هذا الخيط»[1].

- بعد ثمانية قرون:

«وفي عام (820) يقوم الخراساني الذي اتخذ لنفسه لقب محمد بن مُوسى (الخوارزمي) دراسة جبرية تصل إلى معادلة الدرجة الثانية فصار بعد ترجمة هذه الدراسة إلى اللغة اللاتينية في القرن السادس عشر المؤلف الذي لقن الغرب وأطلعهم على هذا العلم، ومنذ ذلك الحين تمكن علماء الجبر المسلمون من حل الجذور [2].

- أكثر من نصف الدواء في الغرب جاء من المسلمين:

«ونستطيع كذلك الثناء على العلماء المسلمين الذين تخصصوا في علوم الحسابات الجغرافيا وعلماء الفلك وما اخترعوه ويسمى الأسطرلاب، واستطاعوا قياس خطوط الطول وخطوط العرض؛ وبذلك تمكنوا من تصحيح الأخطاء الفاضحة التي وقع فيها بطليموس، كما يجب أن نعترف لهم بأستاذيتهم في علوم الزوايا البصرية وعلوم الكيمياء (تقطير الكحول وإعداد الأكاسير) وحمض الكبريتيك، وفي علوم الصيدلة والعقاقير، ويجب أن نقر بأن نصف بل أكثر من نصف الأدوية المعالجة للأمراض التي يستخدمها الغرب، إنما جاءت عن العلماء المسلمين؛ منها على سبيل المثال لا الحصر: السنة (وهو نبات شجري مسهل)، وأعشاب الرواند، والتمر الهندي، وجوزة الطيب، وجوز الفين، والسنديان، والكافور، وعصائر السكر والجلاب (شراب منعش مهدئ) من الماء المقطر، والمراهم الدهنية، وتقطير المياه، ولا جدال في أن الطب لديهم كان ممتازًا كما استطاع العالم المصري ابن النفيس اكتشاف الدورة الصدرية والدورة الدموية، وهو وإن لم يستخدم فإن اكتشافاته قد سبقت ميشيل سرفيه بثلاثة قرون»[3].

- .. وتطوير أرسطو:

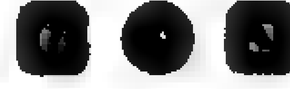
«وعلى صعيد الفلسفة كان للمسلمين باع طويل في تطوير أفكار وأبحاث الفيلسوف اليوناني أرسطو طاليس.

(1) فرناند بروديل: تاريخ وقواعد الحضارات، ص92.
(2) السابق، ص92.
(3) السابق، ص92، 93.

ولم يقتصر التطوير على مجرد إعادة النقل أو التناول من جديد فحسب وإلا لما استحق الإشادة إلا عن جدارة هزيلة: لذا وجب أن نذكر أن التطور الذي حققه العلماء المسلمون كان مجالاً للتفسير والتوضيح والخلق والإبداع أحيانًا»[1].

- موجة ابن رشد:

«وكان ابن رشــد يقينًا هو الأهم (من بين فلاســفة المســلمين بالنسبة للغرب) نجد ما تركــت بصماتــه من آثــار ضخمة على الحياة عبــر أوربا مما اســتدعى الوصف موجة ابن رشد»[2].



(1) فرناند بروديل: تاريخ وقواعد الحضارات، ص93.

(2) السابق، ص93.

سيديو (Louis Pierre, Eugène):



(1808 - 1875م)

لوي (لويس) بيير أوجين أميلي سيديو Louis Pierre, Eugène, Sèdillot Amèlie مستشرق فرنسي، مولده ووفاته بباريس، كان مدرسًا للتاريخ في كلية بوربون، وهو صاحب كتاب (Histire des Arabes) ألّفه بالفرنسية، وأشرف علي مبارك باشا على ترجمته إلى العربية مهذبًا وسماه (خلاصة تاريخ العرب العام)، كما نشر كتاب: (جامع المبادئ والغايات في الآلات الفلكية) لأبي الحسن علي المراكشي، مع ترجمة فرنسية.

(تاريخ العرب العام = Histoire des Arabes)



- حليم متواضع:

«وكان محمد (ﷺ) حليمًا معتدلاً، وكان يأتي بالفقراء إلى بيته ليقاسمهم طعامه، وكان يستقبل بلطف ورفق جميع من يودون سؤاله، فيسحر كلماءه بما يعلو وجهه الرزين الزاهر من البشاشة، وكان لا يضجر من طول الحديث، وكان لا يتكلم إلا قليلاً فلا ينم ما يقول عن كبرياء أو استعلاء»[1].

- أفلا يتذكرون؟

«من التجني على حقائق التاريخ ما كان من عزو بعض الكتاب إلى محمد (ﷺ) القسوة والجبن، فقد نسي هؤلاء أن محمدًا (ﷺ) لم يأل جهدًا في إلغاء عادة الثأر الموروثة الكريهة التي كانت ذات حظوة لدى العرب، كحظوة المبارزات بأوربا فيما مضى، وكأن أولئك الكتاب لم يقرءوا آيات القرآن التي قضى محمد (ﷺ) فيها على عادة الوأد الفظيعة، وكأنهم لم يفكروا في العفو الكريم الذي أنعم به على ألد أعدائه بعد فتح مكة، ولا في الرحمة التي حبا بها كثيرًا من القبائل عند ممارسة قواعد الحرب الشاقة، ولا إلى ما أبداه من أسف على بعض الأمم الشديدة، وكأنهم لم يبصروا أن الأمة أم القبائل العربية كانت تعد الانتقام أمرًا واجبًا، وأنها ترى من حق كل مخلص أن يقتل من غير عقاب مَنْ يكون خطرًا عليها ذات يوم... وكأنهم لم يعلموا أن محمدًا (ﷺ) لم يسئ استعمال ما اتفق له من السلطان العظيم، قضاء لشهوة القسوة الدنيئة، وأنه لم يألُ جهدًا في تقويم من يجور من أصحابه، والكل يعلم أنه

(1) سيديو: تاريخ العرب العام، ص90.

رفض رأي عمر بن الخطاب في قتل الأسـرى، وأنه عندما حلّ وقت مجازاة بني قريظة ترك الحكم في مصيرهم لحليفهم القديم سعد بن معاذ، وأنه صفح عن قاتل عمه حمزة، وأنه لم يرفض - قط - ما طُلب إليه من اللطف والسماح»(1).

- مؤسسون:

«اتفق للعلوم الطبيعية عند العرب مثل ما اتفق للعلوم الرياضية من الرقي، ويرى همبولد وجوب عدّ العرب مؤسسين حقيقيين للعلوم الطبيعية بالمعنى الحديث»(2).

- ومبتكرون:

«والعرب هم الذين أوجـدوا الصيدلية الكيميائية... وأدت الصيدلة ومادة الطب اللتان يقوم عليهما فن الشـفاء؛ إلى دراسـة علـم النبات والكيمياء في وقـت واحد ومن طريقين مختلفين، وبالعرب فُتح عهد جديد لذلك العلم»(3).

- نشاط منقطع النظير:

وينقل عن همبولد أيضًا: «والعرب كانوا ذوي نشـاط منقطع النظير، وهذا النشاط هو آية دور ممتاز في تاريخ الدنيا، والعرب على عكس بني إسرائيل ذوي التعصب وعدم التسامح كانـوا راغبين في مصاهرة الأمم المغلوبة من غير جحـود بخُلُقهم القومي وذكريات وطنهم الأصلي»(4).

- العرب أساتذة لنا:

وبعد جولته في اسـتعراض أوجه الحضارة الإسلامية يقول سيديو: «وهكذا تجلَّى تأثير العرب في جميع فروع الحضارة الأوربية الحديثة، وظهرت بين القرن التاسع والقرن الخامس عشر آداب تعد من أعظم ما عرف، وتشهد الإنتاجات المتنوعة والاختراعات المهمة على ما كان يتصف به عرب ذلك الزمن من النشاط العجيب، وبما كان لهم من الأثر البالغ في أوربا النصرانية، فجاء هذا مسـوغًا للرأي القائل إن العرب كانوا أسـاتذة لنا، وما أتي به العرب من المواد التي لا تقدر بثمن عن تاريخ القرون الوسـطى ومن كتب الرحلات ومعاجم تراجم الأحوال من ناحية، وما جاء به العرب من صناعة منقطعة النظير، ومن مبان دالة على تفكير

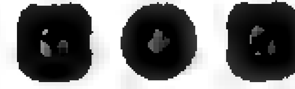
(1) سيديو: تاريخ العرب العام، ص88، 89.
(2) السابق، ص380.
(3) السابق، ص381.
(4) السابق، ص332.

عظيم وتنفيذ جسيم ومن اكتشافات مهمة في الفنون من ناحية أخرى، كلها أمور يجب أن ترفع في أعيننا شأن الأمة العربية التي ازدريناها زمنًا طويلاً»(1).

- انتصار سلطان الحضارة:

ويلاحظ سيديو أن اضطراب الأحوال السياسية للعرب لم يُؤَثِّر على مسيرة العلم، إذ إن ضعف العرب وتسلط غيرهم أظهر لنا – للعجب – دخول الغالبين في ثقافة المغلوبين فيقول: «ما انفك المشرق يحترق منذ أوائل القرن الحادي عشر من الميلاد فأسفرت فتوح محمود الغزنوي، وغارة الأتراك السلجوقيين، والحروب الصليبية، وهدم السلطان الأيوبي الأول صلاح الدين لخلافة القاهرة(2) (1171م)، وهدم الخان المغولي هولاكو لخلافة بغداد (1258) عن تغيير عميق في الوضع السياسي بآسيا.

ما فتئ العلم يكون ثابت الخطوة مع ذلك، وما فتئ حملته محافظين على أمانته مع ذلك... فبينما كانت خلافة المشرق تفقد أجمل ولاياتها بالتتابع كان الغالبون يدينون بالطاعة لتفوق المغلوبين الثقافي؛ فيدرسون كتبهم ويستضيئون بنورهم... حقًّا إنه لمنظر رائع أن ترى انتصار سلطان حضارة العرب على همجية فاتحي الشمال أولئك الذين انقضوا على آسيا الغربية والجنوبية»(3).



(1) سيديو: تاريخ العرب العام، ص425.

(2) يقصد الدولة العبيدية (الفاطمية).

(3) سيديو: تاريخ العرب العام، ص352، 353.



فولتير (Voltaire):

(1694 - 1778م)

فرانسوا-ماري أرويه عُرِفَ باسمه المستعار فولتير: فيلسوف وصحفي فرنسي، ومؤرخ، وأحد زعماء حركة التنوير الفرنسية، تعلم في الكلية اليسوعية، واعتقل مرتين (1717 و1725م) لسخرياته من الأوضاع الإقطاعية، وأمضى معظم حياته خارج فرنسا.

حارب الإقطاع ودافع عن المساواة أمام القانون، وطالب بفرض ضريبة على الأملاك، كما طالب بحرية الكلام، غير أنه رفض نقد الملكية الخاصة على أساس أن المجتمع يجب أن ينقسم بالضرورة إلى أغنياء وفقراء؛ وذهب إلى أن الشكل الأكثر معقولية للدولة، هو الملكية الدستورية التي يحكمها ملك مستنير.

وقد مال في أخريات حياته إلى الرأي القائل بأن خير شكل للدولة هو الجمهورية، وقد نقد في مؤلفاته التاريخية النظرة الإنجيلية والمسيحية عن تطور المجتمع ورسم خطوطًا عريضة لتاريخ الإنسانية. فـ «فلسفة التاريخ» (والمصطلح من ابتكاره) تقوم عنده على أساس فكرة التطور التقدمي للمجتمع في استقلال عن إرادة الله، غير أنه فسر التغير التاريخي تفسيرًا مثاليًّا على أنه يرجع إلى التغيرات في الأفكار، وكان لنضاله ضد الكهنوتية والشطحات الخيالية الدينية أهمية كبيرة في أعماله؛ وكان الهدف الرئيسي لتهكمه المسيحية والكنيسة الكاثوليكية التي اعتبرها العدو الرئيس للتقدم، ومع هذا فإن فولتير لم يتقبل الإلحاد، ورغم أنه أنكر إمكان أي تجسد لله، إلا أنه اعتبر أن فكرة إله منتقم جبار يجب استبقاؤها، أي الاحتفاظ بها بين الناس، وكانت تلك واحدة من الحدود الطبقية لنظرته.

ومن مؤلفاته: (رسائل فلسفية) عام (1733م)، و(مقال في الميتافيزيقا) عام (1734م)، و(مبادئ فلسفة نيوتن) عام (1734م)، و(التاريخ العالمي) عام (1769م).. و(موسوعة الماركسية)، ومن أشهر مسرحياته: مسرحية إريفيل (1732م)، ومسرحية محمد (1741م)، ومسرحية ميروب (1741م)، ومسرحية زئير (1732م).

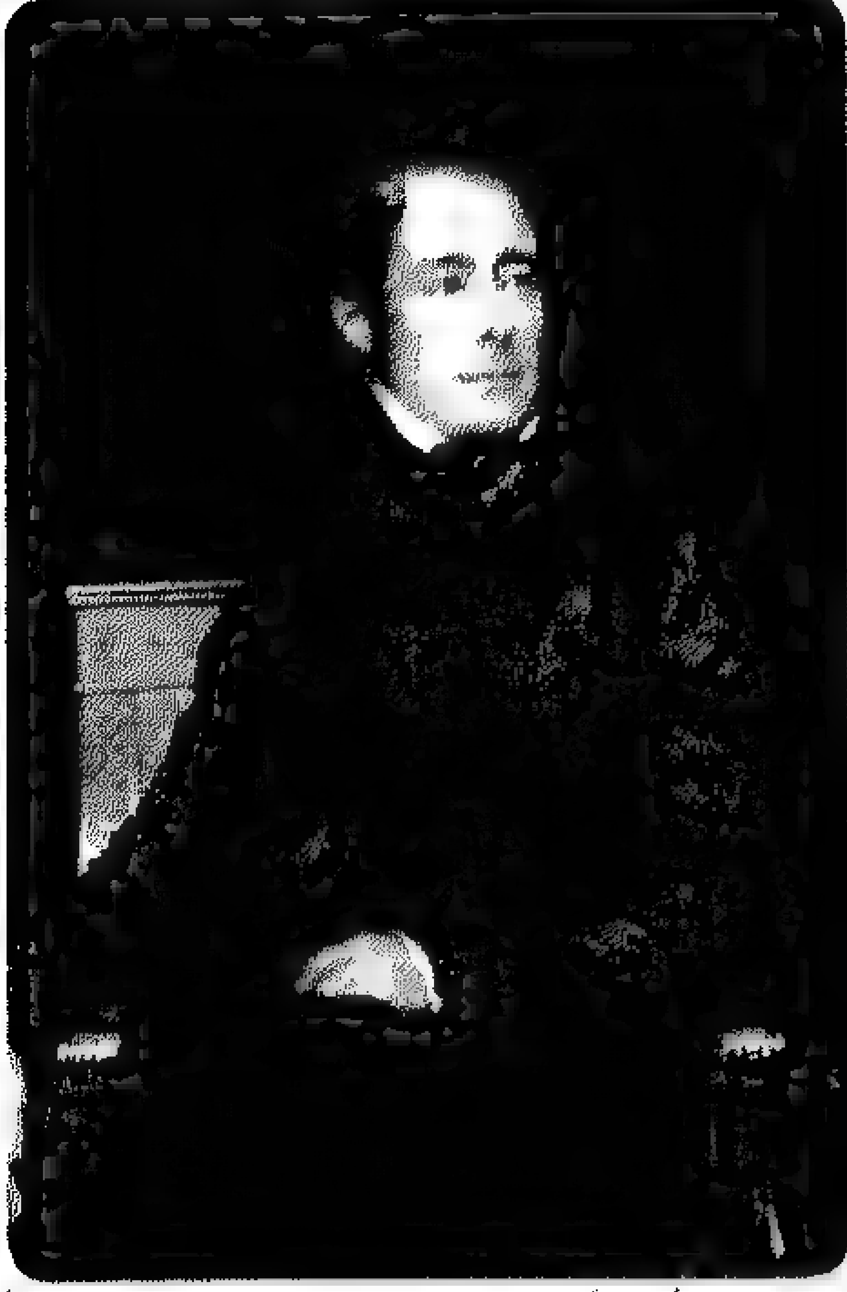


في آخر مقاله عن أخلاق الأمم والذي يصف فيه الإسلام وصفًا إيجابيًّا إلى القول بأن محمدًا (ﷺ) كان «يعتبر رجلاً عظيمًا، ولم يختلف على ذلك من كانوا يعرفون أنه دجال، كما كان سائر الناس يبجلونه باعتباره نبيًّا»[1].

(1) كارين أرمسترونج: سيرة النبي محمد، ص58. وهي تنقل عن Daniel: Islam and the West p. 290

لامارتين (Alphonse de Lamartine):

(1790 - 1869م)



ألفونس دي لامارتين، كاتب وشـــاعر وسياسي فرنسي كان ينتمي إلى طبقة النبلاء الفرنسيين، ولذلك نشأ وترعرع في قصر ميلي.

اهتم بالأدب والشـــعر ونشر أولى مجموعاته الشعرية عام (1820م) تحت عنوان: (تأملات شـــعرية)، وبعد ثلاث ســـنوات من ذلك التاريخ أصدر لامارتين مجموعة شـــعرية ثانية تحت عنوان: تأملات شـــعرية جديدة. ثم نشر بعدئذ عدة كتب من بينها: موت سقراط، وآخر أنشودة جحيم للطفل هارولد.

ثم نشـــر لامارتين بعد ذلك عدة كتب مهمة نذكر من بينها: رحلة إلى الشرق (1835م)، جوسلين (1836م)، سقوط ملاك (1838م)، خشوع شعري (1839م)، كما نشر كتابًا جميلاً عن تاريخ الثورة الفرنسية التي كانت لا تزال حديثة العهد.

(تاريخ تركيا = Histoire de la Turquie)



- أعظم العظماء:

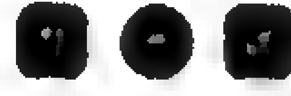
«إذا كانت الضوابط التي نقيس بها عبقرية الإنســـان هي سمو الغاية والنتائج المذهلة لذلك رغم قلة الوســـيلة، فمن ذا الذي يجرؤ أن يقارن أيًّا من عظماء التاريخ الحديث بالنبي محمد (ﷺ) في عبقريته؟ فهؤلاء المشـــاهير قد صنعوا الأســـلحة، وسنُّوا القوانين، وأقاموا الإمبراطوريـــات، فلم يجنـــوا إلا أمجادًا بالية لم تلبث أن تحطمت بيـــن ظهرانَيْهم؛ لكن هذا الرجل (محمدًا (ﷺ)) لم يَقُدِ الجيوش، ويســـن التشـــريعات، ويُقِـــم الإمبراطوريات، ويحكم الشـــعوب، ويـــروض الحكام فقط، وإنما قـــاد الملايين من الناس فيمـــا كان يعد ثلث العالم حينئـــذ، ليس هذا فقط، بل إنه قضى علـــى الأنصاب والأزلام والأديان والأفكار والمعتقدات الباطلة.

لقد صبر النبي (ﷺ) وتجلد حتى نال النصر (من الله). كان طموح النبي (ﷺ) موجهًا بالكليـــة إلى هدف واحد، فلم يطمح إلى تكوين إمبراطورية أو ما إلى ذلك، حتى صلاة النبي الدائمـــة ومناجاته لربـــه ووفاته (ﷺ) وانتصاره حتى بعد موتـــه، كل ذلك لا يدل على الغش

والخداع، بل يدل على اليقين الصادق الذي أعطى النبي الطاقة والقوة: لإرساء عقيدة ذات شقين: الإيمان بوحدانية الله، والإيمان بمخالفته تعالى للحوادث. فالشق الأول يبين صفة الله (ألا وهي الوحدانية)، بينما الآخر يوضح ما لا يتصف به الله تعالى (وهو المادية والمماثلة للحوادث)، لتحقيق الأول كان لا بد من القضاء على الآلهة المدعاة من دون الله بالسيف، أما الثاني فقد تطلَّب ترسيخ العقيدة بالكلمة (بالحكمة والموعظة الحسنة).

هذا هو محمد (ﷺ) الفيلسوف، الخطيب، النبي، المشرع، المحارب، قاهر الأهواء، مؤسس المذاهب الفكرية التي تدعو إلى عبادة حقة، بلا أنصاب ولا أزلام. هو المؤسس لعشرين إمبراطورية في الأرض، وإمبراطورية روحانية واحدة. هذا هو محمد (ﷺ).

بالنظر لكل مقاييس العظمة البشرية، أودُّ أن أتساءل: هل هناك من هو أعظم من النبي محمد (ﷺ)؟»[1].



(1) لامرتين: تاريخ تركيا، 2/276، 277.

رينان (Ernest Renan):



(1823 - 1892م)

مؤرخ وناقد ومستشرق فرنسي، دخل المدارس اللاهوتية حيث برز فيها، وتضلع من اللغات الشرقية حتى صار من ثقاتها، ثم أخذ بمذهب حرية الفكر ورحل إلى المشرق ونزل بلبنان – حيث صنف كتابه حياة يسوع في دير الآباء اليسوعيين بغزير – وعني بالعقائد الإسلامية، وقد انتخب عضوًا في المجمع اللغوي الفرنسي (1878م).

من أشهر مؤلفاته: (ابن رشد والرشديين).

وله في المجلة الآسيوية: مخطوطات سريانية عن الفلسفة، في المتحف البريطاني (1852م)، وطابع الشعوب السامية، وثلاث كتابات فينيقية مكتشفة في أم العواميد (1873م)، وكتابه نبطية جديدة (1873م)، ومفردات عربية في الخطوط اليونانية (1882م).



- ألا لَعْنَةَ اللّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ:

«لقد كتب المسيحيون تاريخًا غريبًا عن محمد... إنه تاريخ ممتلئ بالحقد والكراهية له، لقد ادعوا بأن محمدًا كان يسجد لتمثال من الذهب كانت تخبئه الشياطين له، ولقد وصمه دانتي بالإلحاد في رواية الجحيم، وأصبح اسم محمد عنده وعند غيره مرادفًا لكلمة كافر أو زنديق، ولقد كان محمد في نظر كتاب العصور الوسطى تارة ساحرًا وتارة أخرى فاجرًا شنيعًا ولصًّا يسرق الإبل، وكاردينالاً لم يفلح في أن يصبح بابا، فاخترع دينًا جديدًا، أسماه الإسلام؛ لينتقم به من أعدائه، وصارت سيرته رمزًا لكل الموبقات وموضوعًا لكل الحكايات الفظيعة»[1].

- أسف محقق:

«ما دخلت مسجدًا قط، دون أن تهزني عاطفة حادة، وبعبارة أخرى، دون أن يصيبني أسف محقق على أنني لم أكن مسلمًا»[2].

- الإسلام:

«الإسلام هو دين الإنسان»[3].

(1) أرنست رينان: دراسات في التاريخ الديني، نقلاً عن دفاع عن محمد لعبد الرحمن بدوي، ص6.
(2) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص459.
(3) نقلاً عن: دافيد دي سانتيلانا: القانون والمجتمع، تراث الإسلام بإشراف أرنولد، ص413.

الفصل الثالث: ألمانيا

نُبذة عن الاستشراق الألماني:

في استعراضنا المختصر للاستشـراق الألماني لن نستطيع أن نتحدث عن «احتكاك» ألماني عربي؛ لأن الموقع الألماني في الشـمال الأوربي كان بعيدًا دائمًا عن مناطق التماس بين الغرب والإسـلام، إلا من بعض الحملات الصليبية التي شـارك فيها أباطرة من الألمان قديمًـا، أو من خـلال الحرب العالمية الثانية؛ حيث كانت المواجهـة بين دول المحور، وفي مقدمتهـا ألمانيا، وبين دول الحلفاء، ففي هذه الحرب نزلـت الجيوش الألمانية - أحيانًا - إلى عمق المنطقة العربية، قبل أن تُحْسَـم المعـارك لصالح الحلفاء وتنهار أحلام هتلر، في الإمبراطورية الكبرى.

وإذا كان الحال هكذا، على مسـتوى الاحتكاك مع العالم الإسـلامي، فإن الاستشـراق الألماني بدأ من ذلك الإشـعاع الكبير الذي انطلق من الأندلس الإسلامية، ففتح أعين أوربا المظلمة وقتذاك على أنوار العلم والحضارة.

ونفس هذا الإشـعاع انطلق إلى أوربا عبر جزيرة صقلية، التي عاشت حضارة مزدهرة في ظلال العصر الإسلامي.

كما كان الألمان جزءًا من الشـعوب الأوربية - وفيهم من شارك في الحملات الصليبية على بلاد الشرق - فلقد كان هذا هو المعبر الثالث الذي انساحت من خلاله حضارة الشرق إلى الغرب، فكان فاتحة اهتمام الغربيين بالاستشراق.

ولهذه الطبيعة الألمانية - حيث لم يدخل الإسـلام إلى أرضها - ولم تدخل هي كذلك إلى أراضي المشـرق، لم يكن الاستشـراق الألماني معنيًّا بالتنصير أو بالغزو الثقافي لبلاد الشرق، كما هو الحال في الاستشراق في باقي الدول الأوربية والذي كان من أهدافه إحكام السيطرة على البلاد المُسْتَعمرة، وإيجاد أفضل الوسائل لتطويع شعوبها، إلا أن هذا لا يعني «انعدام» الصلة الألمانية الشـرقية، بل يمكن القول بأنها تَوَقَّفَتْ عند حدود التبادل التجاري والثقافي.

غيـر أن مرحلة تاريخيـة - وإن كانت قصيرة إلا أنها مهمة - تسـتحق التوقف عندها في إطار العلاقة بين ألمانيا والعالم الإسـلامي في العصور الوسـطى، وذلك حين سـاعد القدر الإمبراطور الألماني هنري السـادس، فتزوَّج من ابنة عم وليام ملك صقلية النورماني،

(والنورمان هم الذين أخرجوا المسـلمين من صقلية وحكموها بعدهم)، وقد مات وليام دون أن ينجب أبناء يرثون العرش، بما جعل الاستيلاء على عرش صقلية سهلاً، وهو ما تمَّ فعلاً.

أنجب هنري من زوجتـه الصقلية فريدريك الثاني، أعظم ملوك أوربا قاطبة في القرن الثالث عشر، وهو الذي نقل عرشه إلى الجنوب الإيطالي، وهَامَ بالحضارة الإسلامية وعلومها، وكان عرشه عربيًّا صرفًا، ونشأت علاقة قوية بينه وبين الملك الكامل الأيوبي، وكانت بينهما مراسـلات وأسئلة علمية وفلسفية، وكان راعيًا للعلماء على اختلاف دياناتهم، وكانت مملكته التـي اتحدت فيهـا إيطاليا وألمانيا في عهده مملكة قوية وزاهـرة، غير أن وفاته أنهت تلك المرحلة التاريخية، وعادت العلاقات بين ألمانيا والعالم الإسـلامي إلى التوقف عند مستوى التبادل التجاري والثقافي الطبيعي باعتبارها جزءًا من أوربا.

ولذا نجد أن الاستشـراق الألماني كان معنيًّا كثيرًا بالدراسـات اللغوية لبلاد الشـرق (الفيولوجيا)، أكثر من العناية بالتاريخ والعقيدة والثقافة الشرقية، والاستشراق الألماني في مجمله أكثر إنصافًا للإسلام وحضارته من غيره، كما كان أكثر عمقًا وجِدِّيَّة، وله نصيب كبير في نشر التراث العربي والإسلامي.

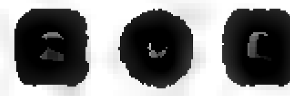
وإذا تحدثنا عن البدايات البحثية الرسمية - إن صحَّ التعبير - للاستشراق في ألمانيا، فسنجد أن البداية في تدريس اللغة العربية في الجامعات الألمانية كانت في القرن السادس عشـر، وكان أوَّلُ مَنْ سـعى لأن يُدَرِّس اللغة العربية كمادة مستقلَّة عن بقية اللغات الشرقية الأخرى هو المستشرق الألماني الشهير يوهان رايسكه (1716-1774م) في منتصف القرن الثامن عشر، وهو المستشرق الذي أَوْلَى عناية خاصة بدراسة الأدب العربي والأمثال العربية، وترجم إلى الألمانية بعضًا من شعر المتنبي، ثم ازداد الاهتمام بالدراسات العربية فيما بعد، على أيدي المستشـرقين الألمان، الذين درسوا العربية على يَدِ المستشرق الفرنسي الكبير ورائد دراسـات اللغة العربية في كل أوربا سلفسـتر دي ساسي (1758 - 1838م)؛ أمثال: فيلهلم فرايتاغ (1861-1788م)، وهاينريش فلايشـر (1801-1888م)، وَيُعَدُّ هذا الأخير هو المؤسـس الفعلي للدراسات العربية في ألمانيا، وأسـتاذ الجيل الثاني من المستشرقين الألمان.

ومـا زال الاستشـراق الألماني مُهْتَمًّا في مجمله بالدراسـات اللغويـة أكثر من غيرها من الجوانـب، وتوجد في ألمانيا الآن المعاهد الاستشـراقية المتخصصة في الدراسـات العربية والإسـلامية، ويبلغ عددها حوالي 25 معهدًا، أبرزها معهد اللغات الشرقية، الذي تم تأسيسـه في عام (1887م) في برلين، ثم حلَّ محلَّه معهد اللغات الشرقية في بون، ومعاهد فرانكفورت، وهامبورج.

ونجد أقسامًا للغات الشـرقية بجامعات برلين، وبون، وماربورج، وميونيخ، وهايدلبرج، وغيرها، ونستطيع أن نقول: إن طفرة حقيقية حدثت في الاستشراق الألماني في الفترة بعد الحرب العالمية الثانية.

وأهم المكتبات الألمانية التي تحوي المخطوطات الشرقية هي مكتبة برلين، والتي يبلغ عدد مخطوطاتها عشرة آلاف مخطوط، وتليها في الأهمية مكتبات جامعات: جوتنجن، التي يبلـغ عدد المخطوطات فيها حوالي ثلاثة آلاف مخطـوط، ومكتبة جامعة بون، وهايدلبرج، وماينس، وغيرها، وكل هذه المكتبات غنية بالمخطوطات العربية والشرقية.

هـذا بخـلاف المكتبات العامـة والخاصة، وأهمها مكتبة درسـدن الوطنيـة، ومكتبة مجلس الشـيوخ في ليبزيـج، والمكتبة الملكية في ميونيخ، ومكتبـة هامبورج... وغيرها من المكتبات[1].



(1) نجيب العقيقي: المستشرقون، 2/340-348.

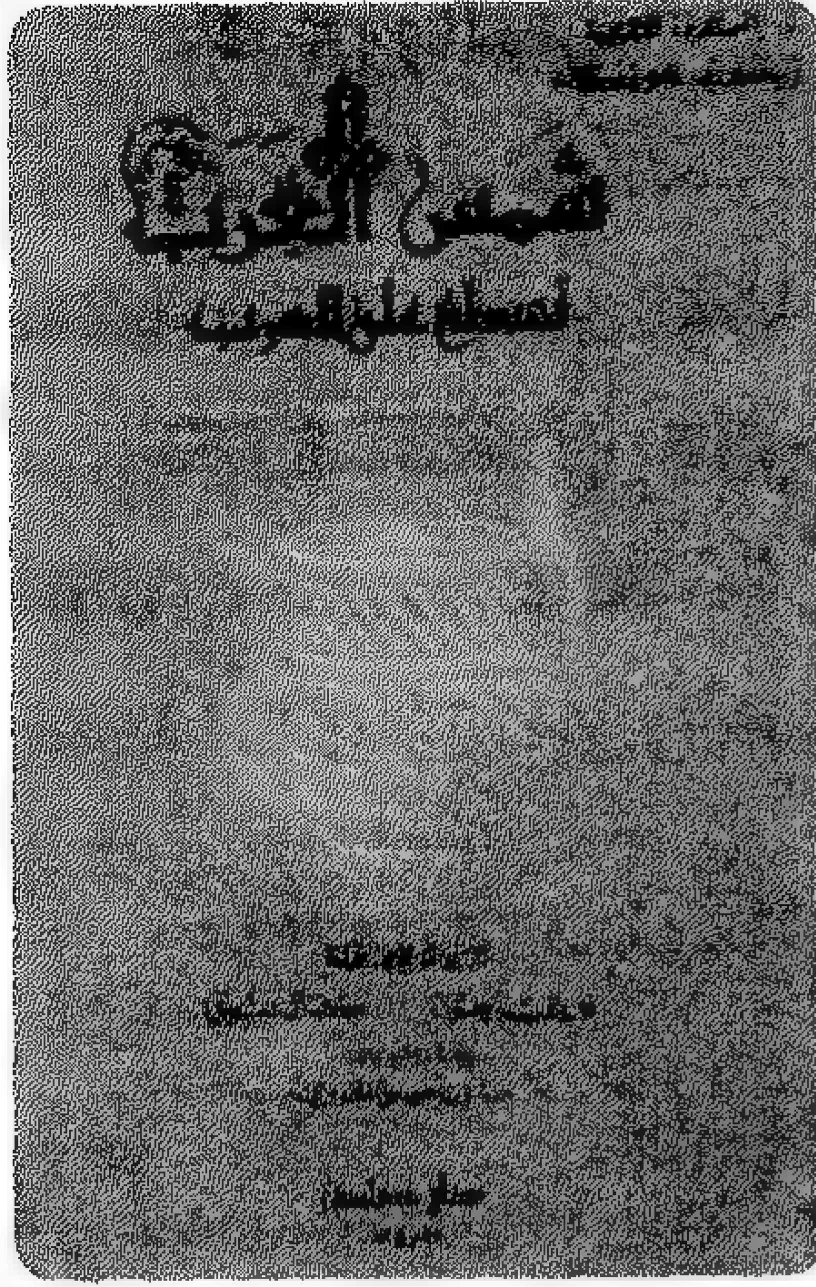
شهادات علماء ألمانيا

«إن العـرب لم يُنقـذوا الحضارة الإغريقيـة من الزوال ونَظَّمُوها ورَتَّبُوها ثـم أَهْدَوْهَا إلى الغرب فحسب؛ إنهم مُؤَسِّسُو الطـرق التجريبية فـي الكيميـاء، والطبيعة، والحسـاب، والجبـر، والجيولوجيا، وحسـاب المثلثات، وعلـم الاجتمـاع، وبالإضافـة إلـى عـدد لا يُحصَى من الاكتشافـات والاختراعات الفردية فـي مختلف فروع العلوم، والتي سُرق أغلبهـا ونُسِبَ لآخرين، قَدَّم العرب أثمـن هدية وهي طريقة البحـث العلمي الصحيح التي مَهَّدَتْ أمام الغرب طريقه لمعرفة أسرار الطبيعة».

زيجريد هونكه

زيجريد هونكه (Sirgid Hunke):

(1913 - 1999م)



مستشـــرقة ألمانية شـــهيرة وُلِدَتْ في 26 إبريل سنة (1913م) بمدينة كيـــل - الألمانية، وتَخَرَّجَتْ في جامعات كيـــل، وفرايبـــورج، وبرليـــن، وتخصصـــت في الدراســـات المقارنة بين الحضارات والديانات، حصلت على الدكتوراه مـــن جامعة همبولدت في برلين ســـنة (1939م) بأطروحة عنوانهـــا: (حول تأثير الأنمـــاط الغربية في ضوء فنِّ الغزل العربي والألماني)، وقامت بتدريس الفلســـفة وعلم الأديان المقارن وتاريخ القرون الوسطى في العديد من الجامعات.

كمـــا قَدَّمت للمكتبـــة أعمالها الفكرية الممتازة، التي تخصصت في دراســـة الإســـلام وحضارتـــه، مقارنةً بالحضارة الغربية والنصرانية، ومن هذه الأعمال الفكرية: (شـــمس الله تسطع على الغرب) سنة (1960م) وهو الذي تُرجم بعنوان (شمس العرب تسطع على الغرب)، ولقد بيعت منه أكثر من مليون نسخة، و(العقيدة والمعرفة)، الذي صدرت ترجمته العربية سنة (1987م)، و(قوافل عربية في رحاب القيصر) ســـنة (1976م)، وهو عن الصلات التاريخية بين العرب والألمان، و(الله ليس كذلك) وقد ترجم إلى العربية ونشر سنة (1995م).

ولقد أسست هونكه لمشروعها الفكري (المقارنات الحضارية والدينية) سنة (1973م) رابطة حملت اسمها، وتَوَلَّت الرئاسة الفخرية لها.

وهي عضو شرف بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية بمصر، وحاصلة على العديد من الجوائز والأوســـمة العالمية؛ منها: جائزة وسام الفيلســـوف سنة (1981م)، وجائزة الشاعر (شـــيللر) (1985م)، ووســـام الاســـتحقاق والتقدير المصري من الطبقة الرفيعة في العلوم والفنون سنة (1988م).

وهي زوجة الدكتور شولتزا، المستشرق الألماني المعروف، الذي تعمَّق في دراسة آداب العرب والمسلمين والاطلاع على آثارهم ومآثرهم.

(الله ليس كذلك = allah ist ganz anders = Allah is completely different)

(شمس الله تسطع على الغرب = Allahs Sonne uber dem Abendlan)



- الظل والنار:

«وبينما عاشت النصرانية في ظلِّ الحكم الإسلامي قرونًا طوالاً - في الأندلس، وفي صقلية، والبلقان - فإن انتصار النصرانية على الإسلام - في الأندلس سنة (1492م) - لم يَعْنِ سوى طرد المسلمين واليهود، واضطهادهم وإكراههم على التنصُّر، واستئناف نشاط محاكم التفتيش، التي قامت بتعقُّب كلَّ مَنْ يَتَّخِذ سوى الكاثوليكية دينًا، والحرقِ العلني - في احتفالات رسمية تحفُّها الطقوس والشعائر الكنسية - لكل من اعتنق الإسلام أو اليهودية»[1].

- ما أبعد ما بينهما!!

«وحين تمكَّن صلاح الدين الأيوبي من استرداد بيت المقدس (583هـ=1187م) - التي كان الصليبيون قد انتزعوها من قبل (492هـ=1099م) بعد أن سفكوا دماء أهلها في مذبحة لا تُدَانيها مذبحةٌ وحشيةٌ وقسوةً - فإنه لم يسفك دم سكانها من النصارى انتقامًا لسفك دم المسلمين، بل إنه شملهم بمروءته، وأسبغ عليهم من جُودِه ورحمته، ضاربًا المثل في التخلُّق بروح الفروسية العالية، وعلى العكس من المسلمين، لم تعرف الفروسية النصرانية أي التزام خُلقي تجاه كلمة الشرف أو الأسرى»[2].

- ثمار السماحة.. ازدهار:

«إن سماحة النفس العربية وتسامحها الآسر الغامر الذي نما في ثرى تلك القارة تحت ظلال الحضارة العربية الفريدة، كان له أبلغ الأثر في ازدهار إسبانيا العربية -على العكس من اضطهاد إيزيدورس لليهود والمارقين إبان عصر القوط الغربيين - لقد سمح لضروب الفكر - على تباين المفكرين واختلافهم - أن تتلاقح وتثمر في تساوق سام وانسجام تامٍّ، دون أن يدبَّ إليها الانحطاط إذا سكنت رياحها: لا فرق بين العرب والقوط، والبربر والمصريين، واليهود والسوريين، وسكان أيبيريا والفرس، ولقد انسحب ذلك على المسلمين - وقد كانوا الأغلبية - وعلى غيرهم من اليهود ومن النصارى غير مغبونين»[3].

- والحق ما شهدت به الخصوم:

«ولقد كتب بطريرك القدس (تيودوسيوس) - في أوائل القرن الحادي عشر - إلى الأسقف (أجنايتوس) في بيزنطة يقول: إن العرب هنا هم رؤساؤنا الحكام، وهم لا يحاربون النصرانية، بل على العكس من ذلك يحمونها، ويذودون عنها، ويُوَقِّرُون قساوستنا ورهباننا، ويُجِلُّون قِدِّيسِينَا»[4].

(1) زيجريد هونكه: الله ليس كذلك، ص45.
(2) السابق، ص34.
(3) السابق، ص53.
(4) السابق، ص20.

- وثيقة أخرى:

وتُبرز زيجريد هونكه صورة مشرقة من صور التسامح الإسلامي، التي قلما أن تجد لها مثيلاً في التاريخ، ألا وهي المعاملة الكريمة لأسرى الصليبيين من قِبَلِ السلطان الكامل، وهم الذين أبادوا المسلمين في مدينة دمياط بناءً على أوامر البابا، وبالرغم ذلك تناسى السلطان الكامل هذه القسوة والوحشية وعاملهم بما تُمَلِيه عليه أخلاق الإسلام، فتقول هونكه: «فلما انتصر السلطان الكامل على هذه الحملة سنة (1221م) أكرم أسراهم، ولم يقتص منهم: العين بالعين، والسن بالسن، وإنما أطعمهم في مسغبة أربعة أيام طوالاً، مُرْسِلاً إلى جيوشهم المتضوِّرة جوعًا كل يوم ثلاثين ألف رغيف، ومواد غذائية أخرى، وشهد بهذا الإكرام أحد هؤلاء الأسرى – عالم الفلسفة اللاهوتية أوليفروس من كولونيا نهر الراين بألمانيا – فكتب يقول للملك الكامل: منذ تَقَادُم العهود لم يَسمع المرءُ بمثل هذا الترفُّق والجود، خاصة إزاء أسرى العدو اللدود، ولما شاء الله أن نكون أسراك، لم نعرفك مستبدًّا طاغية، ولا سيدًا داهية، وإنما عرفناك أبًا رحيمًا، شملنا بالإحسان والطيِّبات، وعونًا منقذًا في كل النوائب والملمَّات، ومن ذا الذي يمكن أن يَشُكَّ لحظة في أن مثل هذا الجود والتسامح والرحمة من عند الله.

إن الرجال الذين قتلنا آباءهم وأبناءهم وبناتهم وإخوانهم وأخواتهم، وأذقناهم مُرَّ العذاب، لما غدونا أسراهم، وكدنا نموت جوعًا، راحوا يُؤْثِرُوننا على أنفسهم على ما بها من خصاصة، وأسدوا إلينا كل ما استطاعوا من إحسان، بينما كنا تحت رحمتهم لا حول لنا ولا سلطان»(1).

- أعظم ديانة على الأرض:

«إن الإسلام هو – ولا شكَّ – أعظم ديانة على ظهر الأرض سماحةً وإنصافًا، نقولها بلا تحيُّز، ودون أن نسمح للأحكام الظالمة أن تُلَطِّخَه بالسواد، وإذا ما نَحَّيْنَا هذه المغالطات التاريخية الآثمة في حقِّه والجهل البحت به، فإن علينا أن نتقبَّل هذا الشريك والصديق مع ضمان حقِّه في أن يكون كما هو»(2).

- ﴿لَآ إِكۡرَاهَ﴾(3):

«لا إكراه في الدين: تلك هي كلمة القرآن الملزمة، فلم يكن الهدف أو المغزى للفتوحات العربية نشر الدين الإسلامي، وإنما بسط سلطان الله في أرضه، فكان للنصراني أن يظلَّ نصرانيًّا، ولليهودي أن يظلَّ يهوديًّا كما كانوا من قبل، ولم يمنعهم أحدٌ أن يُؤَدُّوا شعائر دينهم،

(1) زيجريد هونكه: الله ليس كذلك، ص33.
(2) السابق، ص101.
(3) (البقرة: 256).

ولم يكــن أحد لِيُنزِل أذًى أو ضررًا بأحبارهم أو قساوســتهم ومراجعهم، وبِيَعِهم وصوامعهم وكنائسهم»[1].

- مؤسسو البحث العلمي:

«إن روجر بيكون أو باكوفون فارولام أو ليوناردو دافنشـــي أو جاليليو ليســوا هم الذين أسسوا البحث العلمي.. إنما السباقون في هذا المضمار كانوا من العرب»[2].

- نسخة ممسوخة من الطب العربي:

«بقي (الطب الغربي) قرونًا طويلة من الزمن نسخة ممسوخة عن الطب العربي، وكانت معظم المخطوطات الأوربية الطبية في أول عصور الترجمة وحتى القرن السابع عشر تقليدًا للعرب ونقلاً عنهم»[3].

- بل سرقة أيضًا:

«ولــم يعنِ (إحــراق الكتب العربية) اختفــاء التراث العربي مــن رءوس العلماء ورفوف المكاتب وجيوب الأطباء، بل ظلَّ محافظًا على مكانته يســرق منه السارقون ما شاء الله لهم أن يســرقوا: فميخائيل ســرفيتوس - مثلاً - نسب لنفسه اكتشاف الدورة الدموية الصغرى، هذا الاكتشاف العربي دون أن يُرجعه إلى أصله الحقيقي»[4].

- مدهش أن العرب بالذات استطاعوا:

«إن هذه القفزة الســريعة المدهشة في سُــلَّم الحضارة - التي قفزها أبناء الصحراء، والتــي بَدَتْ من اللاشــيء - لهي ظاهرة جديــرة بالاعتبار في تاريخ الفكر الإنســاني، وإن انتصاراتهم العلمية المتلاحقة - التي جعلت منهم سادة للشعوب المتحضرة في هذا العصر - لفريــدة في نوعها، لدرجة تجعلها أعظم من أن تُقَارن بغيرها، وتدعونا هنا أن نقف هنيهة متأملين: كيف حدث هذا؟ وكيف أمكن لشعب لم يُمَثِّل من قبلُ دورًا حضاريًّا أو سياسيًّا يُذْكَرُ، أن يقف مع الإغريق في فترة وجيزة على قدم المساواة؟

إن ما حققه العرب لم تســتطع أن تحققه شعوب كثيرة أخرى، كانت تمتلك من مقومات الحضارة ما قد كان يؤهلها لهذا، وبيزنطة وريثة الحضارتين الشرقية والإغريقية بقيت على جهالتها، مع أنها بِلُغَتِهَا اليونانية كانت أقرب إلى الحضارة الإغريقية، والسوريون هم تلامذة الإغريق، كان لهم من الحضارة قبل الإســلام حظٌّ وفير، ولقد نقلوا - عن طريق الترجمة -

(1) زيجريد هونكه: الله ليس كذلك، ص41.
(2) زيجريد هونكه: شمس الله تسطع على الغرب، ص148.
(3) السابق، ص315.
(4) السابق، ص315.

كثيرًا من أعمال الإغريق إلى لغتهم، ولكنهم - أيضًا - فشلوا في أن يجعلوا مما اقتبسوه عن الإغريق بذرة لحضارة تزدهر كما فعل العرب فيما بعد.

ولم تكن فارس التي اقتبست من حضارات الصين والهند والإغريق بأسعد حظًّا من بيزنطة أو سوريا، وبرغم تحسُّن الحالة الاقتصادية في تلك البلاد ورعاية الدولة للعلوم والعلماء، فإنه لم يُتَحْ لحضارة تلك البلاد أن تُصبح حضارة مبتكرة مُؤَثِّرة إلا في جوٍّ عقلي آخر، وفي ثنايا حضارة ثانية أنجح هي الحضارة العربية»[1].

- نصب تذكارية:

«إن كل مستشفى مع ما فيه من ترتيبات ومختبر، وكل صيدلية ومستودع أدوية في أيامنا هذه، إنما هي في حقيقة الأمر نصب تذكارية للعبقرية العربية.

كما أن كل حبة من حبوب الدواء، مذهبة أو مسكرة، إنما هي - كذلك - تذكار صغير ظاهر، يُذَكِّرنا باثنين من أعظم أطباء العرب[2] ومعلمي بلاد الغرب»[3].

- عالمان منفصلان:

«لقد أوصى محمد (ﷺ) كل مؤمن - رجلاً كان أو امرأة - بِطَلَبِ العلم، وجعل من ذلك واجبًا دينيًّا، وكان يرى في تعمُّق أتباعه في دراسة المخلوقات وعجائبها وسيلة للتعرُّف على قدرة الخالق، وكان يرى أن المعرفة تُنير طريق الإيمان... ويلفت أنظارهم إلى علوم كل الشعوب؛ فالعلم يخدم الدين، والمعرفة من الله وترجع إليه؛ لذلك فمن واجبهم أن يصلوا إليها وينالوها أيًّا كان مصدرها، ولو نطق بالعلم كافر، وعلى النقيض تمامًا يتساءل بولس الرسول (Paulus) مُقِرًّا: ألم يصف الرب المعرفة الدنيوية بالغباوة؟

مفهومان مختلفان، بل عالَمَان منفصلان تمامًا، حدَّدَا بهذا طريقين متناقضين للعلم والفكر في الشرق والغرب، وبهذا اتَّسعت الهوة بين الحضارة العربية الشامخة والمعرفة السطحية المعاصرة في أوربا؛ حيث لا قيمة لمعرفة الدنيا كلها»[4].

- الشكُّ هو أول شروط المعرفة:

«لقد طوَّر العرب - بتجاربهم وأبحاثهم العلمية - ما أخذوه من مادَّة خام عن الإغريق، وشكَّلُوه تشكيلاً جديدًا؛ فالعرب في الواقع هم الذين ابتدعوا طريقة البحث العلمي الحقّ القائم على التجربة.

(1) زيجريد هونكه: شمس الله تسطع على الغرب، ص354.
(2) تُريد: ابن سينا والرازي.
(3) زيجريد هونكه: شمس الله تسطع على الغرب، ص334.
(4) زيجريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب، ص369.

لقد سَـرَتْ بين العلماء الإغريق - الذين لم يكونـوا جميعًا بالإغريقيين، بل كان أغلبهم من أصل شـرقي - سـرت بينهم رغبة في البحث الحقِّ وملاحظة الجزئيات، ولكنهم تقيَّدوا دائمًا بسيطرة الآراء النظرية، ولم يبدأ البحث العلمي الحقّ القائم على الملاحظة والتجربة إلا عنـد العـرب، فعندهم فقط بدأ البحث الدائـب الذي يمكن الاعتماد عليـه، يَتَدَرَّج من الجزئيات إلى الكليات، وأصبح منهج الاستنتاج هو الطريقة العلمية السليمة للباحثين، وبرزت الحقائق العلميـة كثمرة للمجهودات المضنية في القياس والملاحظة بصبر لا يعرف الملل. وبالتجـارِب العلمية الدقيقة التي لا تُحصى اختبر العرب النظريات والقواعد والآراء العلمية مـرارًا وتكـرارًا، فأثبتوا صحَّة الصحيح منهـا، وعَدَّلوا الخطأ في بعضهـا، ووضعوا بديلاً للخاطئ منها، متمتعين في ذلك بِحُرِّيَّة كاملة في الفكر والبحث، وكان شعارهم في أبحاثهم: (الشـكُّ هو أول شروط المعرفة). تلك هي الكلمات التي عرفها الغرب بعدهم بثمانية قرون طوال، وعلى هذا الأساس العلمي سار العرب في العلوم الطبيعية شوطًا كبيرًا، أثَّر فيما بعدُ - بطريق غير مباشـر - على مفكري الغرب وعلمائه؛ أمثال: روجر بيكون وماجنوس وفيتليو وليوناردو دافنشي وجاليليو.

إن العـرب لم يُنقذوا الحضـارة الإغريقية من الزوال، وَنَظَّمُوهـا ورَتَّبُوها، ثم أهدوها إلى الغرب فحسـب؛ إنهم مُؤَسِّسُـو الطـرق التجريبية في الكيمياء، والطبيعة، والحسـاب، والجبـر، والجيولوجيا، وحسـاب المثلثات، وعلم الاجتماع، وبالإضافـة إلى عدد لا يُحصى من الاكتشـافات والاختراعات الفردية في مختلف فروع العلوم، والتي سُـرق أغلبها ونُسِـبَ لآخرين، قَدَّم العرب أثمن هدية وهي طريقة البحث العلمي الصحيح، التي مَهَّدَتْ أمام الغرب طريقه لمعرفة أسرار الطبيعة»[1].

- لمسة ساحر:

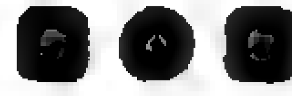
«قَدِمَ العربُ إلى صقلية من تونس، فحوَّلُوا خرائب صقلية إلى حدائق غناء، واسـتوردوا لها من بلادهم أشـجار النخيل، وزرعوا فيها أشـجار البرتقال والفستق والموز والزعفران، فحَوَّلُوا الجزيرة الفقيرة بالقطن وقصب السـكر إلى بلد يزخر بالخيرات، وزَيَّنُوها بالقصور والمساجد الرائعة، التي كانت تعج بالشعراء، والمغنين، والفلاسفة، والأطباء، وعلماء الرياضة والطبيعة، ويُحصيها ابن حوقل عام (970م) في بالرمو فقط بثلاثمائة ما بين قصر ومسجد، واسـتخدم المتعلمون فـي صقلية في كتاباتهم ورقًا أبيـض كان أول ورق عرفته أوربا، وكان ذلك قبل أن تُصَدِّره إسـبانيا (الأندلس التي كانت تحت حكم المسـلمين أيضًا) للغرب بزمن طويل»[2].

(1) السابق، ص401، 402.

(2) زيجريد هونكه: شمس الله تسطع على الغرب، ص410.

- **سلطان الحضارة يتكرر:**

وبعد سقوط صقلية وخروجها من حكم المسلمين إلى حكم الرومان، استمرَّت الثقافة والنظم الإسلامية مسيطرة على بلاط النورمان، وفي هذا تقول هونكه: «وجد النورمان أنفسهم محاطين بجمال وأناقة لم يعرفوا من قبلُ لهما مثيلاً، لقد وجدوا فنَّ البناء في ذروته، والأدب والشعر في أوج ازدهارهما، فلم يتمالكوا أنفسهم إلا وأن يسلموا مختارين لهؤلاء العرب بالسيادة، وهكذا بسط المسلمون سلطانهم المعنوي عليهم، كما بسطوه دائمًا على كل من احْتَكَّ بهم من الشعوب على اختلاف دياناتها»(1).



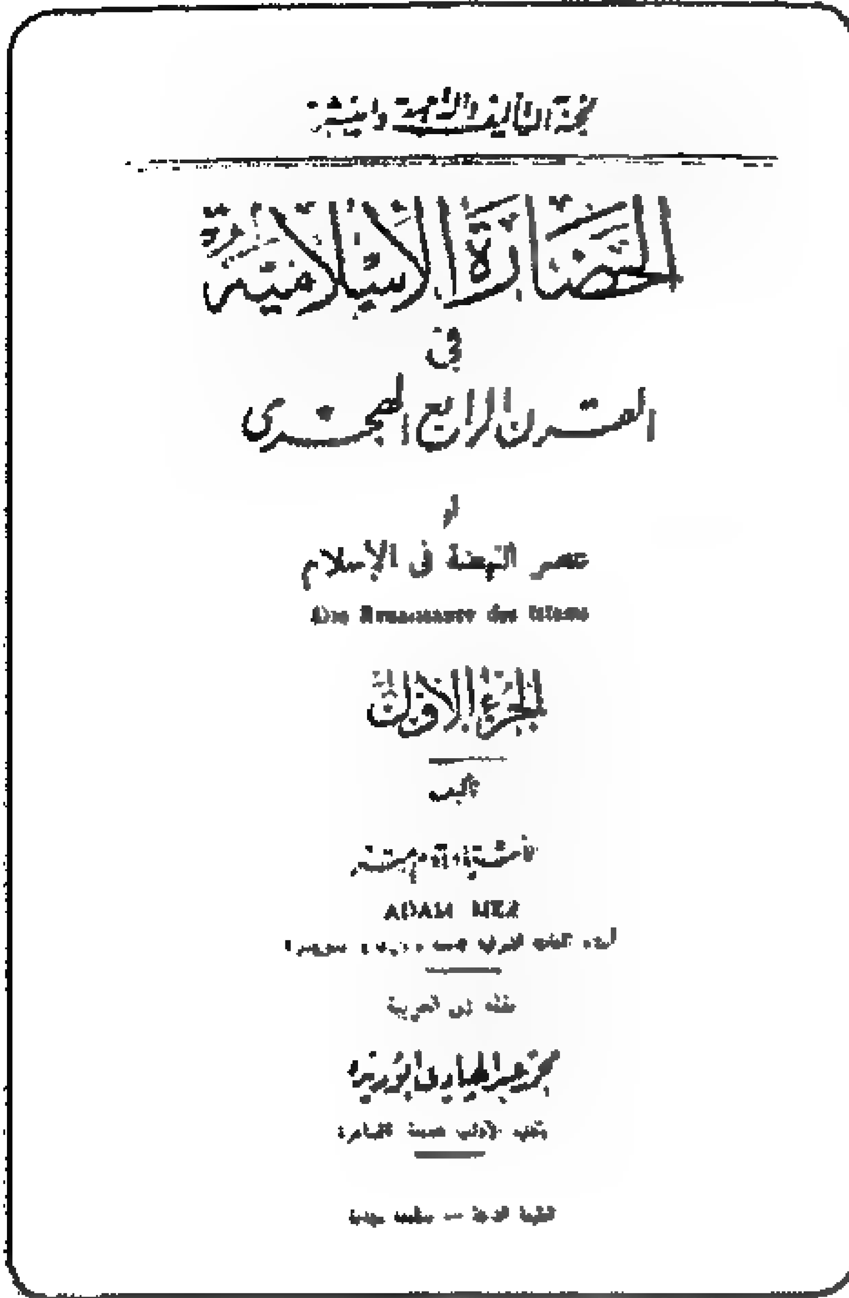
(1) السابق، ص411.

آدم متز (Adam Mez):

(1869-1917م)

مُــؤَرِّخ ألماني شــهير، عمل أســتاذًا للغات الشــرقية بجامعة بازل في سويســرا، ومن أشــهر كتبــه: (الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري).

(الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري = عصر النهضة في الإسلام = Die Renaissance des Islâms)



- هم وما يدينون:

«خلَّــت الدولة الإســلامية بين أهل الملل الأخرى وبين محاكمهــم الخاصة بهم، والذي نعلمــه مــن أمر هذه المحاكم أنها كانت محاكم كنســية، وكان رؤســاء المحاكــم الرُّوحيون يقومون فيها مقام كبار القضاة أيضًا، وقد كتبوا كثيرًا من كتب القانون، ولم تقتصر أحكامهم على مســائل الزواج، بل كانت تشمل إلى جانب ذلك مســائل الميراث وأكثر المنازعات التي تخصُّ المســيحيين وحدهم، مما لا شــأن للدولة به على أنه يجوز للذِّمِّيِّ أن يلجأ للمحاكم الإسلامية»[1].

ويتحــدث عن الخلفاء المســلمين فيقول: «وقد تركوا النصــارى يتصرَّفون في أمورهم الدينية من غير تَدَخُّل في ذلك، واشــتركوا في الجانب الاجتماعي المسلِّي من تلك الأعياد، كما فعل آباؤهم من قبل»[2].

- مسألة الجزية:

«وكان أهل الذمة بحُكم ما يتمتَّعون به من تســامح المســلمين معهم ومن حمايته لهم، يدفعون الجزية، كل واحد منهم بحســب مقدرته، وكانوا ثلاث طبقات: تدفع الدُّنْيَا منها اثني عشــر درهمًا، والوسطى أربعة وعشــرين، والعليا ثمانية وأربعين درهمًا في السنة، أو دينارًا أو دينارين أو ثلاثة في البلاد التي عُمْلَتها الذهب، وكانت هذه الجزية أشــبه بضريبة للدفاع

(1) آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، 75/1.
(2) السابق، 236/2.

الوطنـــي: فـــكان لا يدفعها إلا الرجل القادر على حمل الســـلاح، ولا يدفعهـــا ذوو العاهات، ولا المترهبون، ولا أهل الصوامع، إلا إذا كان لهم يسار»[1].

ويقول أيضًا: «وقد ظَلَّت الجزية بوجه عامٍّ عند المقدار الذي فرضته الشـــريعة، وإنما كانت تتغيَّر تغيرًا يسيرًا بحسب تغيُّر العملة»[2].

«وكانـــت الجزية تؤخذ مُقَسَّـــطة على ســـتة أجـــزاء، أو خمســـة، أو أربعـــة، أو ثلاثة، أو اثنين»[3].

- لا اضطهاد:

«ومن الأمور التي تعجب لها كثرة عدد العمال والمتصرِّفين غير المســـلمين في الدولة الإسلامية»[4].

- ولا تمييز عنصري:

«ولم يكن يوجد في المدن الإسلامية أحياء مختصَّة لليهود والنصارى بحيث لا يتعدَّوْنها، وإنْ آثَرَ أهل كل دين أن يعيشـــوا متقاربين، وكانت الأديرة المســـيحية منتشـــرة في كل أجزاء بغداد حتى كادت لا تخلو منها ناحية»[5].

- بل ازدهرت الأديرة:

«ولم تكن الحكومة الإســـلامية تَتَدَخَّل في الشـــعائر الدينية لأهـــل الذمة، بل كان يبلغ من بعض الخلفـــاء أن يحضر مواكبهم وأعيادهم ويأمر بصيانتهم... وكذلك ازدهرت الأديرة بهدوء»[6].

- تسامح لم يكن معروفًا آنذاك:

«وجـــود النصارى بين المســـلمين كان ســـببًا لظهور مبادئ التســـامح، التـــي يُنادي بها المصلحـــون الْمُحْدَثُون، وكانت الحاجة إلى المعيشـــة المشـــتركة – وما ينبغي أن يكون فيها مـــن وِفاق – مما أوجد من أول الأمر نوعًا من التســـامح، الـــذي لم يكن معروفًا في أوربا في العصور الوســـطى، ومظهر هذا التســـامح نشوء علم مقارنة الأديان، أي دراسة الملل والنحل على اختلافها، والإقبال على هذا العلم بشغف عظيم»[7].

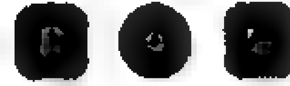
(1) السابق، 87/1.
(2) آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، 79/1.
(3) السابق، 80/1.
(4) السابق، 87/1.
(5) السابق، 75/1.
(6) السابق، 69/1، 70.
(7) السابق، 57/1.

- **ولا تدخُّل:**

«وصار الجاثليق[1] النسطوري رئيس المسيحيين الشرقيين بعد أن انتقل مركز الدولة الإسلامية إلى الشرق هو الرئيس الأكبر للنصرانية، وكانت تنتخبه الكنيسة ويصادق الخليفة على انتخابه، ويكتب له عهدًا كما يكتب لكبار العمال والمتصرِّفين»[2].

- **وضمانات أيضًا:**

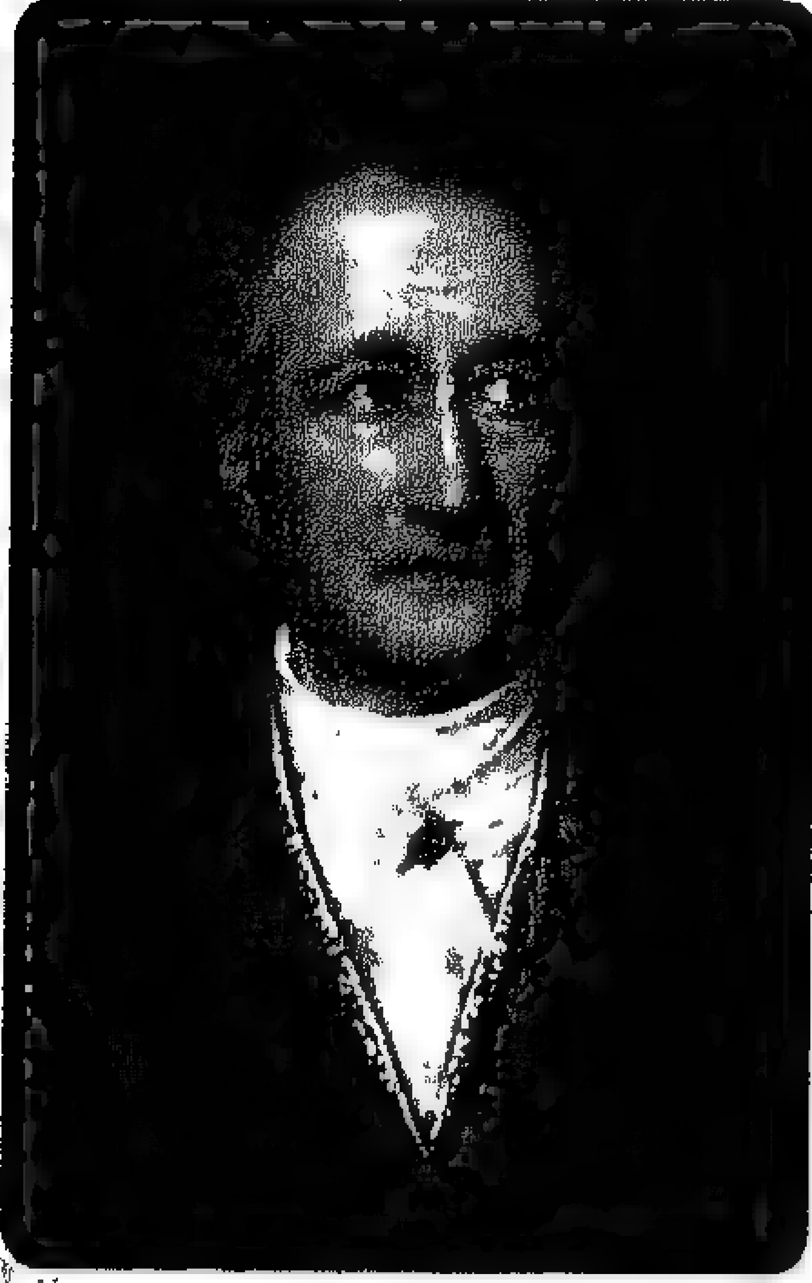
«كان في الدولة الإسلامية ما يضمن لكل ديانة من ديانات أهل الذمة كيانها الخاص»[3].



(1) الجاثِليق: هو رئيس النصارى في بلاد الإسلام بمدينة السلام، الزبيدي: تاج العروس، باب القاف فصل الجيم 123/25، المعجم الوسيط ص107.

(2) آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، 61/1.

(3) السابق، 59/1.



جوته (Goethe):

(1749-1832م)

هو أحد أشــهر أدباء ألمانيا المتميزيــن، وُلِدَ بمدينة فرانكفورت بألمانيا، تَأَثَّر جوته بالفكر الأدبي العربي، فبعد ترجمة جوته مسرحية (محمد (ﷺ)) لفولتير بدأ في كتابة مسرحية عن محمد (ﷺ)، إلا أنه لم يُتِمَّ كتابتها، وله قصيدة بعنوان: (الهجرة)، و(الديوان الشرقي للشاعر الغربي).

وله العديد من الأعمال أهمها:

رواية (آلام الشاب فيرتر) عام (1774م)، م)، ومجموعة قصائد بعنوان (بروميتيوس) عام (1774م)، ومســرحيات: (جوتس فون برليشــنجن ذو اليد الحديدية) عام (1773م)، و(كلافيجو) عام (1774م)، و(إيجمونت) عام (1775م)، و(شتيلا) عــام (1776م)، و(إفيجينا في تــاورس) عام (1779م)، و(توركواتو تاســو) عام (1780م)، و(المتواطئون) عام (1787م) و(فاوست) وهي ملحمة شعرية من جزأين.



- الإعجاب في النهاية:

«كلما اقتربنا منه تجدَّد امتعاضنا[1]، ثم يجذبنا بالتدريج ويُثِير فينا الدهشة، ثم يدفعنا إلى الإعجاب به في النهاية»[2].

- عظمة وثراء:

«إن أســلوب القرآن الكريم من خلال محتواه وهدفه غايــة في الدقَّة والعظمة والثراء، ويوحي بالصدق»[3].



(1) الامتعاض: الغضب والمشقة والألم، ابن منظور: لسان العرب، مادة معض 233/7.
(2) نقلاً عن: ر. ف. بودلي: الرسول، ص232، 233.
(3) نقلاً عن: أنا ماري شيمل: الإسلام دين الإنسانية، ص49.

تيودور نولدكه (Theodor Nöldeke):

(1836-1930م)



مـن أكابر المستشـرقين الألمان، ولد فـي هاربورج بألمانيـا، وتعلم في جامعات جوتنجن وفينة وليدن وبرلين، وانصرف إلى اللغات السـامية والتاريخ الإسـلامي، فعُين أسـتاذًا لهما في جامعة جوتنجن (سـنة 1861)، فجامعة كيل (1864م)، ثم في جامعة ستراسبورج (1872م)، ومات في كارلسـروه (Karlsruhe)، له كتب بالألمانية عن العرب وتاريخهـم:، منها: (تاريـخ القرآن)، و(حيـاة النبي محمد (ﷺ))، و(دراسات لشعر العرب القدماء)، و(النحو العربي)، وخمس معلقات ترجمها إلى الألمانية وشرحها.

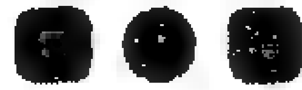
ونشـر في مجلات الغرب وموسـوعاته بحوثًا كثيرة،؛ منها: رسـالة في (أمراء غسان)، ترجمهـا إلـى العربية بندلي جوزي وقسـطنطين زريـق، وله بالعربية: (منتخبات الأشـعار العربية)، واشـترك في الإشـراف على طبـع (تاريخ الطبري) وترجمته إلـى الألمانية، كان يُحْسِن اللغات الشـرقية كلها: كالعربية، والآرمية، والعبرية، والصابئية، والحبشية، وغيرها، ولـه تصحيحات وتحقيقات في هذه الألسـنة، فضلاً عن معرفته بلغـات الغرب: كاليونانية، واللاتينية، والفرنسية، والإنجليزية، والإيطالية، والإسبانية، ولغته الألمانية.

(تاريخ القرآن = Gechichte des Qorans = History of Quran)

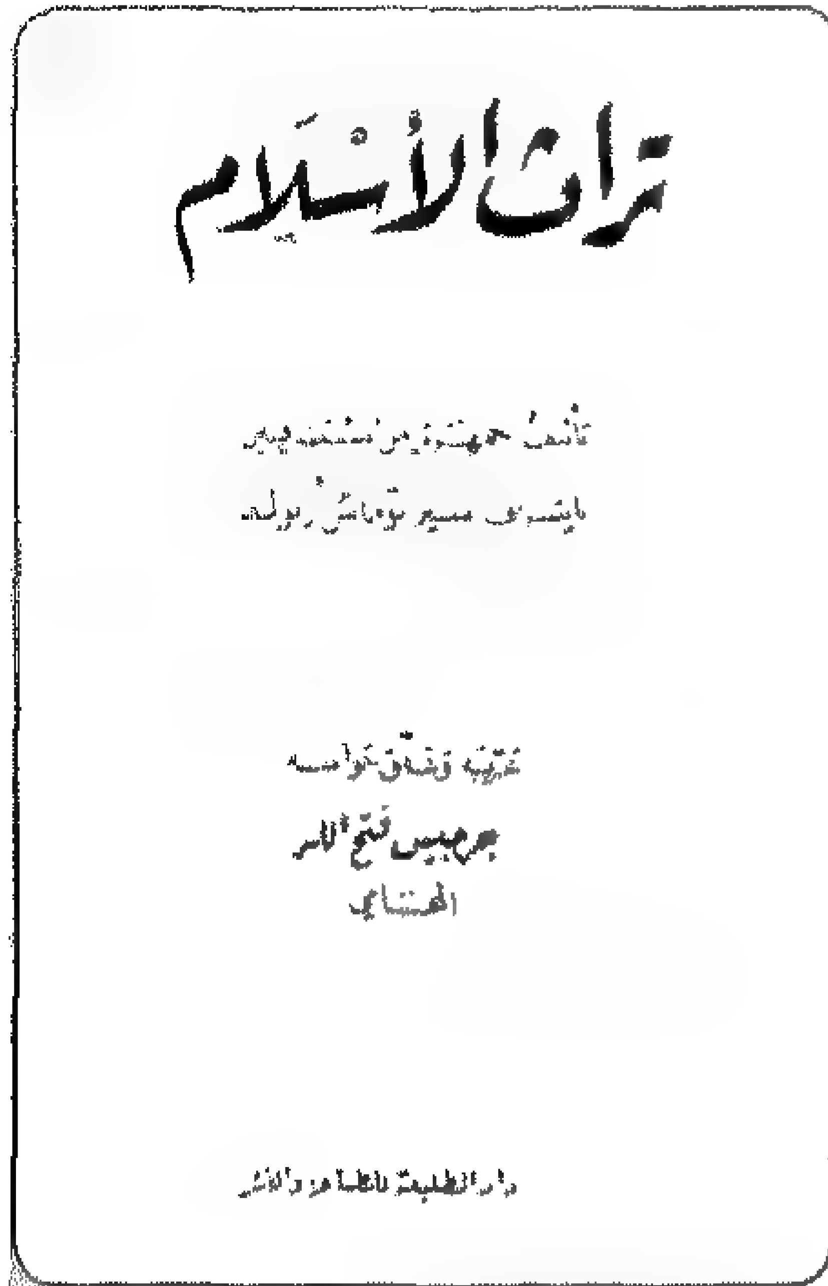


- دين عظيم:

«نزل القرآن على محمد (ﷺ) نبي المسلمين بل نبي العالم، جاء بدين إلى العالم عظيم، وبشريعة كلها آداب وتعاليم، وحَرِيٌّ بنا أن نُنْصِفَ محمدًا (ﷺ) في الحديث عنه؛ لأننا لم نقرأ عنه إلاَّ كُلَّ صفات الكمال، فكان جديرًا بالتكريم»[1].



(1) تيودور نولدكه: تاريخ القرآن، ص83.



ماكس مايرهوف (Meyerhof,Max):

(1874-1945م)

مستشرق ألماني، وهو من كبار أطباء العيون في العالم، وهو في طليعة مؤرخي الطب العربي، درس الطب في هايدلبرج، وبرلين، وستراسبورج، ونال الدكتوراه في الطب سنة (1897م)، وزار مصر سنة (1900م)، واستقرَّ بها سنة (1903م)، وعالج الفقراء مجانًا، وانخرط في دراسة الطب العربي، وانْتُخِبَ نائبًا لرئيس المعهد المصري والجمعية الطبية المصرية، وحصل على الدكتوراه الشرفية في الفلسفة من جامعة بون سنة (1928م)، وعُيِّنَ أستاذًا لتاريخ الطب في جامعة ليبزنج سنة (1930م)، ولكنه عاد إلى مصر واستقر بها، ومات ودُفِنَ بها.

وتُعَدُّ اكتشافاته وكتاباته في الطب العربي – بالفرنسية والإنجليزية والألمانية – مرجعًا دقيقًا وافيًا فيه، وله ما يقرب من خمسين عملاً علميًّا ما بين تحقيق وتأليف في الطب والصيدلة عند العرب، ونشر وأحيا كتبًا عربية منها: (عشر مقالات لحُنين بن إِسحاق) عام (1928م)، و(مسائل في العين لحنين) بالتعاون مع القس بُولس سباط (1938م)، و(العالم الإسلامي) عام (1926م)، هذا علاوة على رسائل قَيِّمَة بالفرنسية والإنجليزية في مواضيع تاريخ الطب العربي؛ منها: المختصر الذي عمله جرجس أبو الفرج لكتاب (الأدوية المفردة) في جزأين (1932–1933م)، ورسالة بالإنجليزية عن (ابن النفيس) ووصفه للدورة الدموية الصغرى (1935م)، وكثير من الرسائل والمقالات في مختلف المجالات العلمية.



- العصر الذهبي والموسوعات الدقيقة:

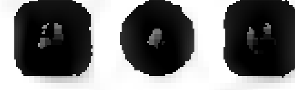
«في نهاية عصر الترجمة والنقل كان أطباء العالم الإسلامي وعلماؤهم قد كتبوا وهم على أسس مكينة من المعرفة بعلوم اليونان المتزايدة بمقدار كبير من الأفكار والتجارب الفارسية والهندية كأصل.

وبحلول هذا الزمن – العصر الذهبي (900 – 1100م) تقريبًا – أخذوا يعتمدون على مصادرهم ومنابع علومهم الخاصة، ويتقدمون بها بأنفسهم، وهنا راحت العلوم – ولا سيما الطب – تنتقل بسرعة من أيدي النصارى والصابئة إلى أيدي المسلمين، ومعظمهم من سكنة

بــلاد فارس، ففي الطب صرنا نجد عوضًا عن المجموعات المأخوذة من المصادر العتيقة، موســوعات منتظمة صُنِّفَتْ فيها معارف الأجيال الســابقة تصنيفًا دقيقًــا، ووُضِعَتْ مقابل المعلومات الجديدة»[1].

- الأعظم بلا جدال:

«كان الــرازي (865-925م) الكاتــب المعــروف عنــد اللاتين باســم (Rhazas) ... بلا جدال أعظم من أنجبته المدنيَّة الإســلامية من الأطباء، وأحد مشاهير أطباء العالم في كل زمن»[2].



(1) مايرهوف: العلوم والطب، دراسة منشورة في كتاب (تراث الإسلام) بإشراف توماس أرنولد، ص462.
(2) السابق، ص463.

الفصل الرابع: إيطاليا

نُبذة عن الاستشراق الإيطالي:

تُعْتَبَرُ إيطاليا أقرب الدول الأوربية إلى البلاد الشرقية، خاصة تلك المطلَّة على البحر المتوسط، وكانت إيطاليا قديمًا جزءًا من الإمبراطورية الرومانية، التي كانت تشمل كذلك أراضي الشمال الإفريقي.

وبعد الفتح الإسلامي السريع - الذي شمل أراضي الشمال الإفريقي بسهولة، ثم صَعِدَ من مضيق جبل طارق إلى الأندلس، ثم استمرَّ فافتتح بلاد الأندلس بسهولة كذلك، وانساح إلى الغرب حتى شمل الأراضي الفرنسية، مائلاً إلى أراضي الجنوب الفرنسية بعد أن تَوَقَّفَت الفتوحات في الشمال الفرنسي، إثر هزيمة الجيش الإسلامي في معركة بواتيه أو بلاط الشهداء عام (114هـ=732م) - بعد هذه الحركة المتلاحقة والسريعة من الفتوحات الإسلامية، صارت الجيوش الإسلامية من الجنوب والغرب عند حواف الأراضي الإيطالية، لا يفصل بينها إلا أجزاء ضيقة من الأراضي الفرنسية من الغرب، والبحر المتوسط من الجنوب.

لم يكد يمضي العقد الأول من القرن الثالث الهجري، أو الربع الأول من القرن التاسع الميلادي، حتى كانت قوات المسلمين بقيادة القاضي والمجاهد أسد بن الفرات تدخل إلى أراضي جزيرة صقلية، وهي أكبر الجزر الواقعة في المتوسط، والجزء الجنوبي لإيطاليا حاليًّا، ولم تزل الجيوش الإسلامية تنساح في صقلية حتى صارت صقلية كلها في حكم المسلمين، ثم صعدت الجيوش إلى إيطاليا كذلك، واقتربت من روما ذاتها.

وبشهادة المستشرقين الإيطاليين والغربيين فلقد عاشت صقلية تحت الحكم الإسلامي عصرها الذهبي، وكانت الفترة الإسلامية نقلة في مكانتها، فصقلية قبل الحكم الإسلامي وبعد انتهائه أيضًا تُعتبر نكرة في الجغرافيا والتاريخ، بينما كانت تحت الحكم الإسلامي حضارة مزدهرة، وكانت المعبر الرئيس الثاني بعد الأندلس في انتقال الحضارة الإسلامية إلى الغرب الأوربي.

استمرَّ الوجود الإسلامي في صقلية حتى النصف الثاني من القرن الخامس الهجري، وهو النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي، ولكن انتهاء الحكم السياسي للمسلمين في صقلية كان أحسن حالاً من انتهائه في المناطق الأخرى وخاصة إسبانيا.

لقد كان النورمان وارثي الحكم الإســلامي في صقليــة، والنورمان بدءوا كمجموعة من المحاربيــن المرتزقــة، ثم ما لبثت قُوَّتهم آن ازدادت وتكاثرت حتــى صاروا قوة، ورغبوا في تكوين مملكة خاصة بهم، وكانوا في المنطقة الحرجة بين الكنيسة الكاثوليكية في روما، وبين أراضــي الإمبراطورية البيزنطية، التي تشــمل معظم الأرجــاء الإيطالية، ثم إنهم ظهروا في وقت تَقَسَّــمت فيه هذه المناطق إلى دويلات متناثرة وضعيفة، فكانت ظروف الصراع الدائم بين الكنيســة الكاثوليكية في روما والأرثوذكســية في بيزنطة، وظروف التنازع بين الدويلات لحظة تاريخية ممتازة، لم يفلتها محاربون أشــداء مرتزقة في أن يُكَوِّنُوا إمبراطورية خاصة بهــم، ونجحوا بالفعل وهزموا البيزنطيين وجيوش الكنيســة في رومــا حتى لَمَّا تحالفا، كما توسَّعُوا جنوبًا، فوجدوا المسلمين في صقلية قد انقسموا - أيضًا - إلى طوائف، فتكوَّنت في لحظة تاريخية عجيبة وبإرادة قوية لمحاربين أشداء مملكة النورمان.

كان ملــوك النورمان - خاصة روجــر الأول والثاني، ثم حفيده فريدريك الثاني - أعقل مــن كثير من ملــوك أوربا، ودفعتهم ظــروف موضوعية وتاريخية إلــى التصالح مع الجالية الإسلامية التي كانت موجودة، وبهرتهم حضارة الإسلام المزدهرة في صقلية - خاصة وأنهم قوم بلا حضارة - فاســتمرَّ النظام الإسلامي في صقلية قرونًا بعد انتهاء الحكم الإسلامي، وكان عرش الرومان في صقلية لا يختلف في التقاليد والرسوم والأنظمة عن العروش العربية الإسلامية.

ولموقــع الفاتيكان مــن إيطاليا انطلقت منه فكرة وخطة وحماســة الحروب الصليبية، التي استمرَّت قرنين من الزمان، حدث فيهما ذلك الاحتكاك الرهيب بين عالم الغرب وعالم الشرق، وهو عصر فارق في تاريخ الاستشراق.

وبعد أن جرت سُــنَّة الله في التداول البشــري، فانقلب الحال ودخل المســلمون عصر الاستعمار، وكانت إيطاليا من الدول الأوربية التي دخلت في بلاد العالم الإسلامي.

وترجع جذور النفوذ الإيطالي في شــرق إفريقيا إلى النشاط التبشيري، والذي زاد منذ عــام (1838م)، وكذلك عام (1889م)، وأصبحت الحبشــة محمية إيطالية، وفي ذات العام كانت الصومال - كذلك - تحت الحكم الإيطالي، ثم توسَّــع النفوذ الإيطالي ليشمل ليبيا في عام (1911م)، واستمرَّ هذا العصر من الاستعمار حتى منتصف القرن العشرين.

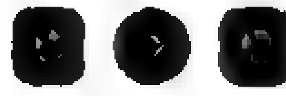
وفي جانب إجراءات الاهتمام بدراســة الشرق، ســنجد اهتمامًا عامًّا لجامعات بولونيا ونابولي وســيينا وروما، غير أن أوَّل اهتمام محدَّد باللغات الشــرقية كان في القرن الســابع عشر، حين كَلَّف مجمع نشر الإيمان الهبنات تأسيسَ مراكز اللغات الشرقية في روما، ثم قَرَّر المجمع تدريس العربية والسريانية والعبرية في البندقية، وغيرها إذا وُجد مَنْ يُعَلِّمُها.

وأنشـأ الكاردينال مديتشـي مدرسة للغات الشـرقية ومكتبة في فلورنسا، والكاردينال بورميو مدرسة للغات الشرقية في ميلانو، وتحوّل المعهد الذي أنشأه الأب ريبا آغُد الصيني إلى معهد شرقي في أواخر القرن التاسع عشر (1888م)، وفيه كرسي للغة العربية ولهجاتها، والبربرية، والتركية، والفارسية، والألبانية، وغيرها.

وفي القرن التاسـع عشر نَظَّمَتْ إيطاليا دراسـة اللغات الشرقية، وتَوَلَّى تدريسها كبار المستشرقين، ويوجد الآن في روما معهد الدراسات الشرقية الملحق بكلية الآداب في جامعة روما، وهناك المعهد الإيطالي لإفريقيا، أُنْشِـئَ عام (1906م)، وتم تنظيمه والتوسع فيه عام (1953م)، وهو مختص بالوثائق والنشاط الإيطالي في إفريقيا.

ويوجـد في المعهد البابوي للكتاب المقدس كلية للدراسـات الشـرقية، ويُعْنَى المعهد الشـرقي بتعريف الشـرق الإسـلامي، ومن أهم تلـك المعاهد المعهد الإيطالي للشـرقين الأوسط والأقصى، وهو يعنى بالشرق العربي وخاصة الإسلامي، ويُرسل البعثات الأثرية إلى تلك البلاد، كما يعنى بتدريس اللغات الشرقية والنظم الإسلامية.

ومـن أهم المكتبات التي توجد بها كنوز الشـرق وتراثه مكتبـة الفاتيكان، وهي مكتبة زاخرة، بلغ فيها فهرس المخطوطات العربية الإسـلامية عندما فهرسها ليفي دلافيدا 338 صفحة، ثم المكتبة الأمبروزيانية في ميلانو، وهذه تحوي 1400 مجلد عربي، وهناك العديد من المكتبات الأخرى الكثيرة التي استقرَّت فيها كثير من المخطوطات الشرقية[1].



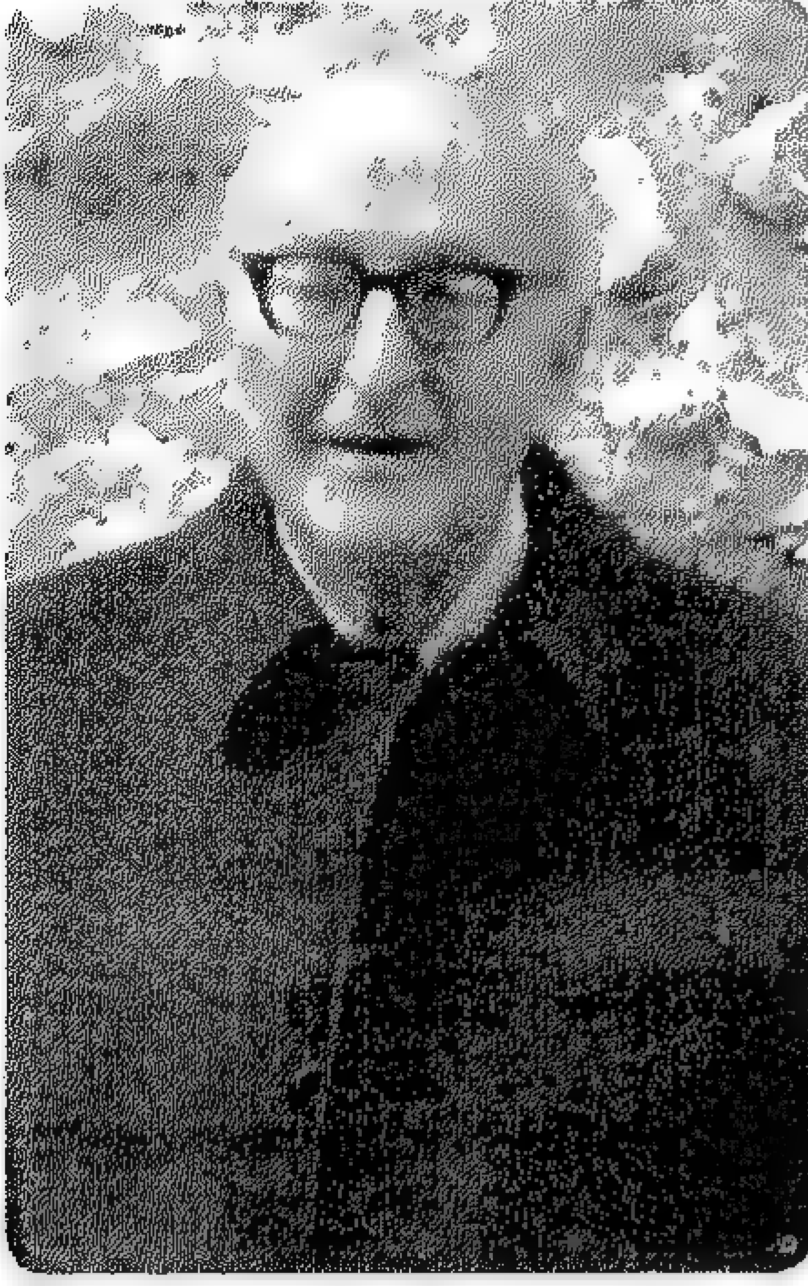
(1) نجيب العقيقي: المستشرقون 1/405-413.

شهادات علماء إيطاليا

«لا شك أن المستوى الأخلاقي الرفيع الذي يسم الجانب الأكبر من شريعة العرب قد عمِلَ على تطوير وترقية مفاهيمنا العصرية، وهنا يكمن فضل هذه الشريعة الباقي على مر الدهور».

دافيد دي سانتيلانا

فرانشيسكو جابرييلي (Gabrieli, Francesco):



هو كبير أساتذة اللغة العربية وآدابها في جامعة روما.. البارز في دراسة الشعر العربي وفي تحقيق نصوص التاريخ الإسلامي، ومقارنة النصرانية بالإسلام، وهو مترجم للعديد من نصوص الفكر الإسلامي إلى الإيطالية.

وقد انتُخِبَ عضوًا مراسلاً في المجمع العلمي العربي بدمشق عام (1948م)، ثم في غيره من المجامع والجمعيات العلمية.

ومن آثاره: (كتاب أخلاق الملوك)، و(خلف هارون الرشيد والحرب بين الأمين والمأمون)، و(الوثائق المتعلقة بخلافة الأمين)، و(عن الطبري)، و(تاريخ المسلمين للحروب الصليبية)، و(الشيعة في عهد المأمون)، وترجمة رسالة الشعر لأرسطو بالعربية.



- قمة ما وصلت إليه صقلية:

أما فيما يتعلَّق بخصائص الحكم العربي الإسلامي في صقلية، والآثار التي خلفها لنا، فيمكن أن نلاحظ.. من وجهة النظر الغربية والإيطالية، (ونحن هنا نتبع رأي أعظم مؤرخ لهذه الفترة، وهو (م. أماري)[1] فإن هذا الحكم يبدو إيجابيًّا ومفيدًا؛ لأنه بعث بدم جديد تغلغل في الكيان العرقي البائس لصقلية البيزنطية، والأهم من ذلك بسبب التغييرات التي آدخلها (الحكم العربي الإسلامي) على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في الجزيرة، حيث آلغى الإقطاعات الكبيرة، وشجَّع تمليك مساحات زراعية صغيرة، وأحيا الزراعة الصقلية، وأغناها بأساليب ومحاصيل جديدة.

(1) ميشيل أماري (Michele Amari) (1221-1307 هـ=1806-1889م): مستشرق إيطالي من رجال العلم والسياسة، وُلِدَ في بلرم بجزيرة صقلية، واشترك في جمعية سرية كانت تعمل لإخراج الأجانب من بلاده، فنُفي، وعاش في باريس ما بين عامي (1842-1848م)، فتعلم بعض اللغات الشرقية، ثم تخصص بالعربية وآدابها وتاريخها المتصل بتاريخ بلاده، ولما نشبت الثورة عاد إلى بلرم، وكان من أنصار (كافور)، فقام بسفارات إلى فرنسا وإنجلترا، وعُيِّن وزيرًا للمعارف، وبعد الثورة غادر البلاد ثانية إلى باريس، وعاد سنة (1859م) فدرَّس العربية في بيزا (Pise)، ثم في جامعة فلورنسا الإمبراطورية، وترأس مؤتمر المستشرقين بفلورنسا سنة (1878م)، وتوفي بها، وكان لا يفتر فكان يكتب أو يترجم أو ينشر، أشهر آثاره العربية: (المكتبة الصقلية) مجلدان في تاريخ جزيرة صقلية، صدّرهما بمقدمة إيطالية، و(الشروط والمعاهدات السياسية بين جمهوريات إيطاليا وسلاطين مصر وغيرهم) مع ترجمة إيطالية، جزءان، و(مذكرات جديدة لمعرفة تاريخ جنوا) مع ترجمة إيطالية، وبعض مقالات لكتبة العرب تسهيلاً لمعرفة تاريخ صقلية على عهد المسلمين مع ترجمة إيطالية، وترجم إلى الفرنسية (رحلة ابن جبير)، وإلى اللاتينية (سلوان المطاع) لابن ظفر، وله بالإيطالية (تاريخ العرب في صقلية) خمسة أجزاء.

وتظهر الأهمية الحاسمة للفترة العربية في هذا المجال في وجود ألفاظ عربية كثيرة متعلقة بالحياة الاقتصادية، حفظت في اللهجة الصقلية، ونقلت إلى الإيطالية.

وهكذا فإن الفترة العربية تظلُّ بالفعل أعلى قمة وصلت إليها تلك الجزيرة الكبيرة الواقعة في البحر المتوسط (صقلية)، سواء من حيث استثمار مواردها والحياة المتعلقة به[1].

- بين (مكانة خاصة) و(لا مكان):

«إننا يجب أن نذكر دائمًا أن الإسلام أضفى على (عقائد أهل الكتاب) - أي المسيحية واليهودية - مكانة خاصة يحميها الشرع، وإن تكن ذات مرتبة أدنى في الدولة، ولم يَدُم التزمت والاضطهاد فترات طويلة إلا في أوقات الشدَّة، وعدم الشعور بالأمان، أما قانون المسيحية فليس فيه أي مكان لأي دين آخر؛ لذا فقد انتقل بسرعة وبتطور منطقي، عندما انتصر على الإسلام إلى التعصب والاضطهاد»[2].



(1) جابرييلي: الإسلام في عالم البحر المتوسط، دراسة منشورة في كتاب (تراث الإسلام)، بإشراف شاخت، وكليفورد بوزوروث، ص97 بتصرف يسير.

(2) السابق، ص114.

دافيد دي سانتيلانا (David de Sautillana):

(1845 – 1931م)

تراث الإسلام

تأليف جمهرة من المستشرقين
بإشراف سير توماس أرنولد

عربه وعلق حواشيه
جرجيس فتح الله
المحامي

دار الطليعة للطباعة والنشر

مستشرق إيطالي وُلِدَ في تونس ودرس في روما، حصل على الدكتوراه في القانون، فدعاه المقيم العام الفرنسي في تونس لدراسة وتدوين القوانين التونسية، فوضع القانون المدني والتجاري معتمدًا بذلك على قواعد الشريعة الإسلامية، ومُنَسِّقًا إياهما بحسب القوانين الأوربية، كان على وقوف ومعرفة بالمذهبين المالكي والشافعي معرفة واسعة شاملة، وفي عام (1910م) عُيِّنَ أستاذًا لتاريخ الفلسفة في الجامعة المصرية، ثم في جامعة روما لتدريس التاريخ الإسلامي، ومن كتبه: (ترجمة وشرح الأحكام المالكية)، و(الفقه الإسلامي ومقارنته بالمذهب الشافعي)، ومن آثاره: (ترجمة وشرح الأحكام المالكية)، و(الفقه الإسلامي المالكي ومقارنته بالمذهب الشافعي) في نحو 1300 صفحة، و(القانون والمجتمع) في المقارنة بين الفقه الإسلامي والقوانين الأوربية، و(القوانين المدنية والتجارية) سنة (1898م)، وهو مُصَنَّف كبير وبحث جامع لفقه الحقوق الإسلامية، وله أيضًا (ملخص ابن الإنسان) للشيخ طنطاوي جوهري، و(الخلافة والسلطان في الشرع الإسلامي)، كما ترجم الجزء الثاني من كتاب (مختصر خليل) في الفقه المالكي (لابن إسحاق) وفيه مجموعة الأحكام المالكية الأكثر شيوعًا في الحقوق المدنية والجزائية مع تعليق عليه سنة (1919م).



- الله.. ضمان التماسك الإسلامي:

«إن أساس الوحدة الاجتماعية المسمى في المجتمعات الأخرى (حكومة) يُمَثِّلُه (الله) عند الإسلام؛ فالله هو الاسم الذي يُطْلَق على السلطة العاملة في حقل المصلحة العامة، وعلى هذا المنوال يكون بيت المال هو (بيت مال الله)، والجند هم (جند الله)، حتى الموظفون العموميون هم (عمال الله)، وليست العلاقة بين الله والمؤمن بأقل من ذلك، ولا يوجد بين المؤمن وربه وسيط، وما دام الإسلام لا يقرُّ بسلطان كنسي وكهنوتي، ولا يعترف بأسرار مقدسة، فأي فائدة تُرْتجى من الوسيط بين الإنسان وبين خالقه، الذي كان يعرفه قبل أن يُبدعه، والذي هو أقرب إليه من حبل الوريد»[1].

(1) دافيد دي سانتيلانا: القانون والمجتمع، دراسة منشورة في كتاب (تراث الإسلام) بإشراف توماس أرنولد، ص409، 410.

- **لا كهنوتية:**

ويُقَرِّر دي ســانتيلانا أن الإســلام خالٍ تمامًا من ســلطة الكهنوت، ولا يُقاربه في هذا حتى الاتجاهات المسيحية المتحررة كالبروتستانت، يقول: «إن أشد المذاهب البروتستانتية صرامة إنما تكاد تكون مذهبًا كهنوتيًا صرفًا إذا ما قورنت بعقيدة التوحيد الراســخة، التي لا تلين ولا تتزعزع. ولا تسمح بالتدخل بين الخالق والمخلوق»[1].

- **عقيدة دينية صحيحة:**

«إن هذا الاستســلام البشري المفعم بالانصياع والأمل إنما هو الإيمان الصحيح؛ لذلك كان الإسلام (ومعناه تسليم المرء نفسه لله) عقيدة دينية صحيحة، فذلكم هو الشكل الوحيد الذي يجب أن تتخذه النفس المؤمنة في حضرة الله»[2].

- **شريعة الحرية وقانون الرحمة:**

«إن آيات القرآن فُصِّلَتْ للناس بمعرفة خبير حكيم لتكون شريعة للحرية، وقانونًا للرحمة التي أنعم الله بها على الجنس البشري؛ للتخفيف من صرامة الكتب الإلهية الأولى، فالإسلام هــو عَوْد إلــى القانون الطبيعي، بل عود إلى الإيمان الأول الذي بَشَّــر بــه الأنبياء والأولياء الأقدمــون - نــوح (عليه السلام) وإبراهيم (عليه السلام) - والذي ابتعد به اليهــود والنصارى عن غرضه الحقيقي، إن الشــريعة الجديدة ألغت القيود الصارمــة والمحرمات المختلفة التي فرضتها شريعة موسى (عليه السلام) على اليهود، ونسخت الرهبانية المسيحية، وأعلنت رغبتها الصادقة في مسايرة الطبيعة البشرية والنزول إلى مستواها، واستجابت إلى جميع حاجات الإنسان»[3].

- **الحرية هي الأصل:**

ويُقَرِّر سانتيلانا أن الحرية هي القاعدة في الشريعة الإسلامية: «أمَّا الرق فهو استثناء لتلك القاعدة (كان آدم وحواء وكلاهما حُرٌّ)، من هذا المبدأ استخلص الفقهاء مسائل عديدة إليك بعضها:

1- اللقيط المجهول أصله تُرَجَّح حريته على عبوديته.

2- الحرُّ المشــكوك في حريته لا يُجْبَر مبادهة على إثبات حريته؛ حتى تنهض القرائن والدلائل القضائية على عكس ما يزعم.

3- تُرَجَّح حالة الحرية عند وجود الشكِّ.

(1) دافيد دي سانتيلانا: القانون والمجتمع، دراسة منشورة في كتاب (تراث الإسلام) بإشراف توماس أرنولد، ص410.
(2) السابق، ص410.
(3) السابق، ص410، 411.

... فالحرية على هذا الأساس لا يمكن أن تُبَاع أو تُشْتَرَى لرغبة ساورت صاحبها. أو لنزوة عارضة، والعبودية التي يختارها المرء بملء رغبته لا تعترف بها الشريعة قانونًا قط، وعلى هذا المنوال تُحَرِّم الشريعة الانتحار»[1].

- والمساواة أيضًا:

«وقد بشر الإسلام بهذه المساواة في وقت لم يعرف عنها العالم المسيحي شيئًا»[2].

- والإباحة أيضًا:

يؤيد سانتيلانا مقولة رينان: «الإسلام هو دين الإنسان». ويمضي قائلاً: «فرُوح الشريعة الإسلامية يتسم بطابع جَلِيٍّ هو إفساح أرحب المجال للأعمال البشرية، وهنا نَتَّفِق مع المشرعين والفقهاء المسلمين بأن القاعدة الأساسية في القانون هي (الإباحة) لكن هذه الإباحة لا يمكن أن تكون غير محدودة، فالإنسان بطبيعه طماع، كفور، جشع، يميل إلى السطو على مال الآخرين وهو شحيح كَزٌّ يستطيب الخمول، ويستنيم إلى الكسل، وهو كافر بنعم الله، فلو أن الله أطلق الحرية التامة لنزعات كل فرد، وأباح للناس كافة الظلم والتعدي، فإن المجتمع البشري يكون ضربًا من المحال»[3].

- مزية الشريعة الجوهرية:

يُوَصِّف سانتيلانا الشريعة الإسلامية واختلافها عن القوانين البشرية، التي أَقَرَّتها الشعوب على نفسها فيقول: «الخضوع لهذا القانون إنما هو واجب اجتماعي وفرض ديني في الوقت نفسه، ومن ينتهك حرمته أو يشقّ عصا الطاعة عليه لا يأثم تجاه النظام الاجتماعي، بل يقترف خطيئة دينية أيضًا»[4].

- شريعة أصيلة غير مقتبسة:

«عبثًا نحاول أن نجد أصولاً واحدة تلتقي فيها الشريعتان الإسلامية والرومانية كما استقرَّ الرأي على ذلك، إن الشريعة الإسلامية ذات الحدود المرسومة والمبادئ الثابتة، لا يمكن إرجاعها أو نسبتها إلى شرائعنا وقوانيننا؛ لأنها شريعة دينية تغاير أفكارنا أصلاً»[5].

(1) دافيد دي سانتيلانا: القانون والمجتمع، دراسة منشورة في كتاب (تراث الإسلام) بإشراف توماس أرنولد، ص417.
(2) السابق، ص432.
(3) السابق، ص413.
(4) السابق، ص411.
(5) دافيد دي سانتيلانا: القانون والمجتمع، دراسة منشورة في كتاب (تراث الإسلام) بإشراف توماس أرنولد، ص431.

- الروح لا النص الحرفي:

وفي إطار تبيين منطلقات الشـريعة الإسلامية، التي تجعل الإيمان فكرة جوهرية فلهذا تهتم الشـريعة بالمصلحة العامة، يقول: «إن شـريعة الإسلام تفسـح أوسع المجال لتحكيم الإرادة البشـرية، وتُعلِّق أعظم الأهمية على القصد القانوني لا على نصِّ القانون الحرفي... وقلما كان بطلان أو صحة أي مبدأ قانوني مرهونًا بأمر شـكلي أو بنصٍّ حرفي في الشريعة الإسلامية...

لما كان الشـرع الإسلامي يسـتهدف منفعة المجموع، فهو بجوهره شريعة تطورية غير جامدة خلافا لشريعتنا من بعض الوجوه... إنها ليست جامدة، ولا تستند على العرف والعادة، ومدارسها الفقهية العظيمة تتفق كلها على هذا الرأي»[1].

- المطالبة بالحقِّ واجب أخلاقي:

وبفهم عالٍ سديد لفلسفة الشريعة الإسلامية، يُبصر دافيد دي سانتيلانا الفارق الخطير الذي أحدثُه امتزاج القانون بالأخلاق في الشـريعة الإسـلامية، فيقول: «ونتيجة هذه الرُّوح الجميلة الخلابة في الشريعة ما كانت ممارسة الحق إلا إنجازُ واجبٍ؛ لأنه إن كان الحقُّ شيئًا حسـنًا، فلا يمكن إغفاله، وإهمالُ المطالبة به إثمٌ، ومَنْ يَدَّعِي بملكه مِنْ مغتصب لا حقَّ له فيه[2] إنما يُنجز واجبًا أخلاقيًّا، وفي بقائه ساكنًا مهملاً مطالبته بحقه يجعل الباغي متماديًا في بغيه»[3].

- واستعمال الحق واجب أخلاقي أيضًا:

ثم يتقدَّم خطوة فيشير إلى جانب عظيم آخر من جوانب التأثير الأخلاقي للشريعة، فإذا عرفنا أن المطالبة بالحق هي واجبة؛ لأنها حقٌّ أولاً، وليس لأنها منفعة شـخصية فقط، فإن الجانب الأخلاقي سيرشد المطالبة بها كذلك، يقول سانتيلانا: «ولكنه إذا كان حق المرء هو منفعتـه الخاصة وواجبه الأدبي معًا؛ فإن لذلـك الحقِّ حدودًا معينة بموجب مبادئ الأخلاق والمصلحة العامة؛ فالصلح والتراضي هما سـيِّدَا الأحكام فـي كل وقت، وأخذ الثأر ممنوع منعًا باتًّا، والتضييق البدني على المَدِين مخالف للقانون، ولا اعتسـاف في اسـتعمال الحقِّ تمامًا؛ إذ ليس لأحد أن يمارس حقًّا له، بالدرجة التي يسـبب للآخر ضررًا مُحَقَّقًا، وللفقهاء المسـلمين في هذا الصدد إحسـاس دقيق مرهف يفوق ما نتصوره؛ فمثلاً: يمنع أن يخوِّل حـقَّ الادعاء إلى وكيل هو عدو للطرف الـذي أُقِيمَتْ عليه الدعوى، وممنوع أن يُؤجر حيوان لشخص عُرِفَ بقسوته على الحيوان، كذلك حُرِّم بيع أمة صغيرة السن لرجل حُرٍّ بالغٍ خشية

(1) السابق، ص433.

(2) أي من يطالب بحقه المغتصب منه.

(3) دافيد دي سانتيلانا: القانون والمجتمع، دراسة منشورة في كتاب (تراث الإسلام) بإشراف توماس أرنولد، ص437.

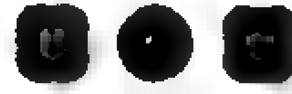
أن يُغَيِّرها بالفسق أو أن يَطَأها زانٍ، وهكذا ترسم الأخلاقُ والآداب في كل مسألة حدود القانون»[1].

- أرفعُ مكانٍ وأجلُّ مديحٍ:

«تلك هي الميزات التي تسم الشريعة الإسلامية في كبد حقيقتها، قد نجرؤ على وضعها في أرفع مكان، وتقليدها أجلَّ مديحِ علماء القانون وهو الخليق بها»[2].

- فضل الشريعة الإسلامية:

ثم يختم سانتيلانا مبحثه المنصف الجميل قائلاً: «ومن بين المسائل القانونية التي غنمناها من شريعة المسلمين، الأنظمة القضائية الخاصة بالشركة المحدودة (القيراط)، وبعض المصطلحات القانونية الفنية في قانون التجارة، وإننا لو ضربنا صفحًا عن كل ما تَقَدَّم، فلا شَكَّ وأن المستوى الأخلاقي الرفيع الذي يسم الجانب الأكبر من شريعة العرب قد عَمِلَ على تطوير وترقية مفاهيمنا العصرية، وهنا يكمن فضل هذه الشريعة الباقي على مرِّ الدهور»[3].



(1) دافيد دي سانتيلانا: القانون والمجتمع، دراسة منشورة في كتاب (تراث الإسلام) بإشراف توماس أرنولد، ص437.
(2) السابق، ص438.
(3) السابق، ص439.

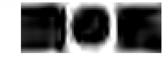
لورافيشيا فاغليري (Laura Veccia Vaglieri):

(1893-1989م)



باحثة إيطالية بارزة، من رُوَّاد الدراسات العربية والإسلامية في إيطاليا، وهي أستاذ فخري في المعهد الجامعي للدراسات الشرقية في نابولي، انصرفت إلى دراسة التاريخ الإسلامي واللغة العربية وآدابها، ولها عدد كبير من المقالات عن الإسلام، وهي من المساهمين في دائرة المعارف الإسلامية، وتحظى مؤلفاتها بانتشار على مستوى الدراسات الشرقية في العالم الغربي.

من أشهر مؤلفاتها: (قواعد العربية) في مجلدين، و(دفاع عن الإسلام)، وغيرها.
(دفاع عن الإسلام = APOLOGIE DE L'ISLAM)



- محفوظ وممتنع على التقليد:

«إن أول واجبات الإنسان أن يتدبَّر ظواهر الطبيعة، وأن يتأمَّل فيها لكي ينتهي إلى الإيقان بوجود الله، وانطلاقًا من هذا المبدأ الرئيسي ينشأ الإيمان بالأنبياء وبالكتب المنزَّلة، وللإسلام في كتابه المنزل شيء أعجوبي، إن معجزة الإسلام العظمى هي القرآن... وقد أثبت أنه ممتنع على التقليد والمحاكاة حتى في مادته... ولا يزال لدينا برهان آخر على مصدر القرآن الإلهي، في الحقيقة التالية: وهي أن نصَّه ظلَّ صافيًا غير مُحَرَّف طَوَال القرون التي تراخت ما بين تنزيله ويوم الناس هذا»[1].

- الحجاب مصدر فائدة لا تُثَمَّن:

«وليس هذا ناشئًا عن قلَّة احترام للنساء، أو ابتغاء كبت إرادتهن، ولكن لحمايتهن من شهوات الرجال، وهذه القاعدة العريقة في القدم، القاضية بعزل النساء عن الرجال، والحياة الأخلاقية التي نشأت عنها، قد جعلتا تجارة البغاء المنظمة مجهولة بالكلية في البلدان الشرقية، إلا حيثما كان للأجانب نفوذ أو سلطان، وإذا كان أحد لا يستطيع أن ينكر قيمة هذه المكاسب فيتعين علينا أن نستنتج أن عادة الحجاب.. كانت مصدر فائدة لا تُثَمَّن للمجتمع الإسلامي»[2].

(1) لورافيشيا فاغليري: دفاع عن الإسلام، ص56.
(2) السابق، ص103، 104.

- حدث بفضل الإسلام:

«وبفضل الإسلام هُزِمَت الوثنية في مختلف أشكالها... لقد أدرك الإنسان آخر الأمر مكانته الرفيعة... لقد هوى الكهان وحفظة الألغاز المقدسة الزائفون، وسماسرة الخلاص، وجميع أولئك الذين تظاهروا بأنهم وسطاء بين الله والإنسان، والذين اعتقدوا بالتالي أن سلطتهم فوق إرادات الآخرين، نقول: لقد هوى هؤلاء كلهم عن عروشهم. إن الإنسان أمسى عبدًا لله وحده.. وأعلن الإسلام المساواة بين البشر»[1].

- العمق والعذوبة:

«إن معجزة الإسلام العظمى هي القرآن، الذي تنقل إلينا الروايةُ الراسخة غير المنقطعة من خلاله أنباءَ تتصف بيقين مطلق، إنه كتاب لا سبيل إلى محاكاته، إن كلاً من تعبيراته شامل جامع، ومع ذلك فهو ذو حجم مناسب، ليس بالطويل أكثر مما ينبغي، وليس بالقصير أكثر مما ينبغي. أما أسلوبه فأصيل فريد، وليس ثمة أيما نمط لهذا الأسلوب في الأدب العربي تحدر إلينا من العصور التي سبقته، والأثر الذي يُحْدِثُه في النفس البشرية إنما يتمّ من غير أيما عوض عرضي أو إضافي من خلال سموِّه السليقي، إن آياته كلها على مستوى واحد من البلاغة، حتى عندما تعالج موضوعات لا بُدَّ أن تُؤَثِّر في نفسها وجرسها كموضوع الوصايا والنواهي وما إليها، إنه يُكَرِّر قصص الأنبياء، وأوصاف بدء العالم ونهايته، وصفات الله وتفسيرها، ولكن يُكَرِّرها على نحو مثير إلى درجة لا تُضْعف من أثرها، وهو ينتقل من موضوع إلى موضوع من غير أن يفقد قُوَّته، إننا نقع هنا على العمق والعذوبة معًا -وهما صفتان لا تجتمعان عادة- حيث تجد كل صورة بلاغية تطبيقًا كاملاً فكيف يمكن أن يكون هذا الكتاب المعجز من عمل محمد (ﷺ) وهو العربي الأُمِّيّ»[2].

- لا يَمَلُّه الأتقياء:

«إن هذا الكتاب، الذي يُتلى كل يوم في طول العالم الإسلامي وعرضه، لا يُوقع في نفس المؤمن أيما حسٍّ بالملل، على العكس إنه من طريق التلاوة المكَرَّرة يُحَبِّب نفسه إلى المؤمنين أكثر فأكثر يومًا بعد يوم، إنه يُوقع في نَفْسِ مَنْ يتلوه أو يُصغي إليه حسًّا عميقًا من المهابة والخشية. إن في إمكان المرء أن يستظهره في غير عسر، حتى إننا لنجد اليوم - على الرغم من انحسار موجة الإيمان - آلافًا من الناس القادرين على ترديده عن ظهر قلب، وفي مصر وحدها عدد الحفاظ أكثر من عدد القادرين على تلاوة الأناجيل عن ظهر قلب في أوربا كلها»[3].

(1) لورافيشيا فاغليري: دفاع عن الإسلام، ص45.
(2) السابق، ص56، 57.
(3) لورافيشيا فاغليري: دفاع عن الإسلام، ص59.

- أصفى عقيدة:

«دعا الرسول العربي عبدة الأوثان وأتباع نصرانيةٍ ويهوديةٍ محرَّفتين، إلى أصفى عقيدة توحيدية، وارتضى أن يخوض صراعًا مكشوفًا مع بعض نزعات البشر الرجعية، التي تقود المرء إلى أن يُشرك بالخالق آلهة أخرى»[1].

- لأنه كلمة الحق وأعظم معجزة:

«إن انتشار الإسلام السريع لم يتمَّ لا عن طريق القوة ولا بجهود المبَشِّرِينَ الموصولة، إن الذي أدَّى إلى ذلك الانتشار كون الكتاب الذي قَدَّمه المسلمون للشعوب المغلوبة - مع تخييرها بين قبوله ورفضه - كتاب الله، كلمة الحق، أعظم معجزة كان في ميسور محمد (ﷺ) أن يُقَدِّمَها إلى المتردِّدِينَ في هذه الأرض»[2].

- تفكير بلا قيود:

«فيما يتصل بخلق الكون فإن القرآن على الرغم من إشارته إلى الحالة الأصلية وإلى أصل العالم.. لا يُقِيم أيما حدّ مهما يكن في وجه قوى العقل البشري، ولكنه يتركها طليقة تتخذ السبيل الذي تريد..»[3].

- أعماهم الحقد:

«حاول أقوى أعداء الإسلام - وقد أعماهم الحقد - أن يرموا نبي الله ببعض التُّهَمِ المفتراة، لقد نسوا أن محمدًا (ﷺ) كان قبل أن يستهل رسالته موضع الإجلال العظيم من مواطنيه؛ بسبب أمانته وطهارة حياته، ومن العجب أن هؤلاء الناس لا يجشمون أنفسهم عناء التساؤل، كيف جاز أن يَقْوَى محمد (ﷺ) على تهديد الكاذبين والمرائين في بعض آيات القرآنِ اللاسعة بنار الجحيم الأبدية، لو كان هو قبل ذلك رجلاً كاذبًا؟! كيف جرؤ على التبشير، على الرغم من إهانات مواطنيه، إذا لم يكن ثمة قوى داخلية تحثُّه - وهو الرجل ذو الفطرة البسيطة - حثًّا موصولاً؟ كيف استطاع أن يستهلَّ صراعًا كان يبدو يائسًا؟ كيف وُفِّقَ إلى أن يُوَاصِلَ هذا الصراع أكثر من عشر سنوات في مكة في نجاح قليل جدًّا، وفي أحزان لا تُحْصَى، إذا لم يكن مؤمنًا إيمانًا عميقًا بصدق رسالته؟ كيف جاز أن يُؤمن به هذا العدد الكبير من المسلمين النبلاء والأذكياء، وأن يؤازروه، ويدخلوا في الدين الجديد، ويشدوا أنفسهم بالتالي إلى مجتمع مُؤَلَّف في كثرته من الأرقَّاء، والعتقاء، والفقراء المعدمين إذا لم

(1) السابق، ص43.
(2) السابق، ص59.
(3) السابق، ص60.

يلمســـوا في كلمته حرارة الصدق؟ ولسـنا في حاجة إلى أن نقول أكثر من ذلك، فحتى بين الغربيين يكاد ينعقد الإجماع على أن صدق محمد (ﷺ) كان عميقًا وأكيدًا»[1].

- سيرة عادل رحيم:

«لقـد امتزجت في ذات نفســه العدالة والرحمة، وهما اثنتان مــن أنبل الصفات التي يسـتطيع العقل البشــري تصورها، وليس عســير تأييد هذا بكثير من الأمثلة المنثورة في سيرته»[2].

- فهل كان ذلك شهوانية؟

«إن محمدًا (ﷺ) طوال سنين الشباب التي تكون فيها الغريزة الجنسية أقوى ما تكون، وعلى الرغم من أنه عاش في مجتمع كمجتمع العرب؛ حيث كان الزواج كمؤسســة اجتماعية مفقــودًا أو يكاد، وحيث كان تعدُّد الزوجات هو القاعدة، وحيث كان الطلاق ســهلاً إلى أبعد الحـدود، لم يتزوَّج إلا من امرأة واحدة ليس غيــر، هي خديجة (رضي الله عنها) التي كانت سِــنُّها أعلى من سِــنِّه بكثير، وأنه ظلَّ طوال خمس وعشرين ســنة زوجها المخلص المحبّ، ولــم يتزوَّج كرَّة ثانية، وأكثر من مرَّة إلا بعد أن توفيت خديجة (رضي الله عنها)، وإلا بعد أن بلغ الخمســين من عمره، لقد كان لكل زواج من زيجاته هذه سبب اجتماعي أو سياسي؛ ذلك بأنه قصد من خلال النســوة اللاتي تزوجهن إلى تكريم النســوة المتصفات بالتقوى، أو إلى إنشاء علاقة زوجية مع بعض العشائر والقبائل الأخرى؛ ابتغاء طريق جديد لانتشار الإسلام، وباستثناء عائشة (رضي الله عنها) ليس غير، تزوَّج محمد (ﷺ) من نسوة لم يكن لا عذارى، ولا شابات، ولا جميلات، فهل كان ذلك شهوانية؟»[3].

« ... ولكنه التزم دائمًا سبيل المساواة الكاملة نحوهن جميعًا، ولم يلجأ قطُّ إلى اصطناع حقِّ التفاوت[4] مع أي منهن»[5].

- شديد التسامح:

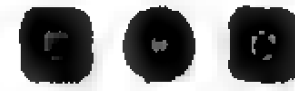
«كان محمد (ﷺ) المتمسك دائمًا بالمبادئ الإلهية شديد التسامح، وبخاصة نحو أتباع الأديــان الموحدة، لقد عرف كيف يَتَذَرَّع بالصبر مع الوثنيين، مصطنعًا الأناة دائمًا؛ اعتقادًا

(1) لورافيشيا فاغليري: دفاع عن الإسلام، ص37، 38.
(2) السابق، ص38، 39.
(3) السابق، ص99.
(4) أي عدم المساواة، والذي كان من حق الرجال في الجاهلية، وفي تلك العصور بشكل عام.
(5) لورافيشيا فاغليري: دفاع عن الإسلام، ص100.

منه بأن الزمن سوف يُتِمُّ عمله الهادف إلى هدايتهم، وإخراجهم من الظلام إلى النور... لقد عرف جيدًا أن الله لا بُدَّ أن يدخل آخر الأمر إلى القلب البشري»[1].

- ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ﴾[2] :

«هناك من يقول: إن الإسلام لم يُقَدِّم أيما عنصر جديد لتصوير العلاقة بين الإنسان والله. ولكن أية قيمة لمثل هذا النقد إذا عرفنا أن محمدًا (ﷺ) نفسه لم يزعم أنه جاء بأفكار جديدة، ولكنه أعلن في جلاء أن الله أرسله ليُعِيدَ ملَّة إبراهيم (عليه السلام) - التي حُرِّفت من بعده - إلى أصلها، وليُؤَكِّد ما كان الله قد أوحى به إلى أنبيائه السابقين؛ مثل: موسى (عليه السلام) ويسوع المسيح (عليه السلام)؟ لقد كان هو آخر الأنبياء حملة التشريع؛ ليس غير»[3].



(1) السابق، ص73.

(2) (الصف: 6).

(3) لورافيشيا فاغليري: دفاع عن الإسلام، ص54.

الفصل الخامس: إسبانيا

نُبذة عن الاستشراق الإسباني:

مَثَّلَت القرون الثمانية التي عاش فيها الإسلام على أرض الأندلس، تاريخًا فارقًا في مسيرة الحضارة الإنسانية كلها، فلقد كانت الأندلس قطعة تموج بالحضارة في الجنوب الشرقي لقارة أوربا، التي كانت قد ذهبت عنها شمس الحضارة اليونانية والرومانية، وعاشت قرونًا في ظلام الجهل والتخلُّف والحروب الدينية الدموية.

ولو أن الحضارة الإسلامية كغيرها من الحضارات، التي يُطلق على هيمنتها ألفاظ الاستعمار والتخريب والاحتلال، وتقوم استراتيجيتها على نهب المُسْتَعْمَرات، وتصدير خيراتها وكنوزها إلى عاصمة الإمبراطورية، أو حتى لو كانت مثل الحضارات التي تهتمُّ بتعمير الأرض ولكنها تستعبد البشر، نقول: لو كانت الحضارة الإسلامية هكذا، لكان الأمر أهون قليلاً حين التعرُّض لتأثيراتها الحضارية في الشعوب المغلوبة.. ولكن الأمر لم يكن كذلك.. لم يكن كذلك أبدًا.

كانت الحضارة الإسلامية، حضارة إنسانية أخلاقية في المقام الأول، وهي بهذا الامتياز على سائر الحضارات استطاعت أن تكون أسرع الحضارات انتشارًا في التاريخ كله، وأعمقها في التأثير، ونحن لا نزعم أن هذا امتياز للعرب أو لغيرهم، بل نراه الفارق بين مناهج البشر، ومناهج رب البشر، ونستطيع القول أن فضل منهج الله على مناهج خلقه كفضل الله على خلقه.

ولهذا نرصد، أنه ومن دون أي نوع من الإكراه لأصحاب الدين المخالف، أقبل الناس على الإسلام، ومن دون أي محاولات لنشر التعريب أقبل الناس من تلقاء أنفسهم على اللغة العربية؛ ليس فقط لأنها صارت لغة الدولة؛ بل لأنها كانت حينئذ لغة الحضارة.

وإذن، فقد كانت إسبانيا ولمدة ثمانية قرون تعيش في ظلِّ الإسلام، بما يجعل اهتمام الناس فيها ومن حولها بدراسة الإسلام والبحث عنه قديم قِدَم هذه الفترة، وعميق بعمق ما كان الوجود الإسلامي فيها.

وعلى غير ما كان الفتح الإسلامي متسامحًا مع الشعوب الإسبانية، كان الخروج الإسلامي وحشيًّا ومعبرًا عن كراهية عمياء، لم تكتفِ فقط بطرد الناس وإخراجهم من دينهم قسرًا، وبالحرق والموت ومحاكم التفتيش، إلى الحدِّ الذي نستطيع معه أن نقول: إن تلك المذابح التي تَعَرَّض لها المسلمون كانت أبشع مذابح التاريخ القديم والوسيط، بل امتدَّت إلى إحراق

المخطوطات العربية ونفائس العلوم، بدلاً من الاستفادة منها والبناء عليها، وما هي إلا بضع سنين وارتدت إسبانيا إلى عصر جديد من الانحطاط.

استمرَّ عصر الانحطاط الحضاري الإسباني المريع ثلاثة قرون إلى أواخر القرن الثامن عشر، ثم بدأ الحال يتحسَّن في القرن التاسع عشر، وإلى هذه اللحظة لم تبلغ إسبانيا أرض الحضارة ذات يوم، إلى ما وصلت إليه إنجلترا وفرنسا، اللتان لم يُسعدهما الحظ بحضارة أصلاً في العصور الوسطى.

وسيزداد بنا العجب، وإدراك حِدَّة الأزمة الحضارية في تلك العصور، أن إسبانيا والبرتغال (وهما معًا كانتا أرض الأندلس) فيما بعد العصر الإسلامي، بدأتا في حركات الكشوف الجغرافية حول الأرض، وهي الحركة التي استندت في بداياتها على الخرائط الإسلامية والملاح المسلم ابن ماجد، فبهما استطاع كولومبوس اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح، ثم ألقته الرياح دون أن يدري إلى سواحل الأمريكتين، وقد مات وهو يتخيل أنهما من أرض الهند لا أنهما عالَم جديد، حتى تصحَّح ذلك على يد أمريجو، ثم تيقن برحلات ماجلان.

لقد شهدت هذه الفترة - بُعيد العصر الإسلامي - اتساعَ وتدفُّق الأموال على البرتغال والإسبان، لما تغيَّر من حقائق اقتصادية جعلتهما يُسَيْطِرَان على البحار، وبالتالي على حركة التجارة - من الشرق إلى الغرب والعكس، وعلى السواحل الغربية الإفريقية، ثم سواحل آسيا الجنوبية - تكونت إمبراطورية برتغالية، كان عمادها هو البحر، ثم ورثها الإسبان والهولنديون، وأسفرت تلك الأحداث عن أشياء كثيرة فارقة على مستوى الحدث التاريخي، لكن ما يهمنا منها في هذا المقام شيئان فقط:

1- أنه مع الغنى المضطرد للإسبان والبرتغاليين - نتيجة سيطرتهما على التجارة البحرية، ثم اكتشاف الفضة والذهب بوفرة في أراضي الأمريكتين، حتى سُمِّيَ ذلك العصر بعصر الفضة - لم تَتَكَّون نهضة حضارية في تلك الأنحاء، بل زادت الحالة الحضارية سوءًا من حيث الزراعة والصناعة والتعدين والحركة العلمية، ولو كان الإسبان تَعَقَّلُوا قليلاً وصنعوا مثلما صنع النورمان في إيطاليا مع المسلمين وحضارتهم قبل أربعة قرون، لكانت إسبانيا رائدة تلك العصور بلا منافس مطلقًا؛ إذ قد تَوَفَّر لها ميراث حضاري ضخم، ثم عوامل ثروة متكاثرة.

2- أن حركة الكشوف الجغرافية كانت معارك أخرى مع أراضٍ مسلمة في غالبيتها، سواء ما كان منها على الساحل الإفريقي الغربي، أو الهندي الجنوبي، أو ما تمَّ من حروب مع الأسطول العثماني، تنافسًا على السيادة التجارية البحرية، كلها كانت مناطق احتكاك

أخرى مع العالم الإسلامي، وهو عالم بنكهات أخرى – لو صحَّ التعبير – غير النكهة الأندلسية، ولا بُدَّ أنها كانت محطات تأثير وتأثُّر آخر، ومعبرًا آخر تميَّزت به إسبانيا والبرتغال في تأثُّر الغرب بالشرق، بما يدخل معنا – بلا شَكٍّ – ونحن نبحث في تاريخ العلاقات الإسبانية الإسلامية، أو تاريخ العلاقات الغربية الشرقية.

ولكن هذه المعابر الحضارية، وهذه الثروة الوافرة، والتي استمرَّت منذ القرن السادس عشر، وحتى أوائل القرن السابع عشر، عاشت في ظلال تعصُّب غريب، لم يلبث أن أدَّى إلى تزعزع هذه الإمبراطورية ليرثها الإنجليز والفرنسيون والهولنديون وغيرهم، ثم لتبدأ إسبانيا من جديد تبحث عن نفسها وهويتها وعن طريق لتَقَدُّمِهَا.

كانت هذه نبذة عن تاريخ العلاقات الإسبانية بالإسلام وعالمه، وهي علاقة ستفيدنا حتى ننتقل إلى نبذة عن تاريخ الدراسات الشرقية في إسبانيا.

يمكننا أن نقول: إنها لم تنقطع منذ كان المسلمون في الأندلس، إلا في تلك العصور السوداء التي كانت عمليات الإبادة للمسلمين فيها قائمة. فحين عُقد مجمع فيينا الشهير برعاية البابا إكليمنص الخامس وقرَّر أن تُدَرَّس اللغات الشرقية في أوربا، كان ذلك في عام (1311-1312م)، فأنشئ في جامعة صلمنكا كرسي للغة العربية، وبلغت كراسي اللغات الشرقية في الجامعات الإسبانية 25 كرسيًّا، في القرن السابع عشر.

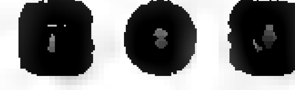
وحدث صعود في القرن الثامن عشر على يد الملك كارلوس الثالث، الذي وسع المكتبة الملكية ونظم مكتبة دير الأسكوريال، وكانت معرفة اللغة العربية من مؤهلات تَرَقِّي الموظفين في عهده، ولكن الاهتمام الحقيقي كان في حدود منتصف القرن التاسع عشر؛ إذ تَقَرَّر تدريس العربية في الجامعات، وتم إنشاء معهد الدراسات العربية في مدريد عام (1933م)، وتوسع المعهد حتى أصبح جزءًا من المجلس الأعلى للأبحاث العلمية في مدريد.

وأُنْشِئت في مدريد مدرسة الألسن العليا وتحوي قسمًا للُّغة العربية، كما أُنْشِئ المعهد المصري للدراسات الإسلامية عام (1950م)، وفي عام (1974م) كان من بنود قانون تنظيم الجامعات، جعل اللغة العربية من ضمن اللغات الحديثة مثلها مثل الإنجليزية والفرنسية، وفي العام التالي أنشئ المعهد الإسباني العربي للثقافة، وهو المعهد الذي امتدَّت فروعه إلى كثير من العواصم العربية، وله فرعان في مصر: القاهرة والإسكندرية، ويوجد الآن في كليات الآداب قسم للغة العربية، وهناك – أيضًا – أقسام خاصة باللغة العربية في مدارس التجارة.

أما أهم المكتبات الإسبانية الزاخرة بالمخطوطات الشرقية، فيأتي في المقدمة المكتبة الأهم والأشهر في إسبانيا، وهي مكتبة الأسكوريال، ويبلغ ما فيها حوالي ألفين من المخطوطات العربية وحدها، بخلاف باقي المخطوطات الشرقية، وأصل محتويات هذه

المكتبــة هو ما بَقِيَ ولــم يُحْرَق ولم يُفْقَدْ من مكتبة غرناطة، ســواء تلك المخطوطات التي أحرقتها محاكم التفتيش، أو تلك التي نشبت في المكتبة في عام (1671م)، وتأتي بعدها في الأهمية مكتبة مدريد الوطنية، ومكتبة جمعية الأبحاث العلمية.

وكذلك مكتبات الجامعات الإســبانية، والمعاهد العربية والشــرقية، والمراكز البحثية، ففي كل هذه نجد بعضًا قليلاً أو كثيرًا من التراث الإسلامي[1].



(1) نجيب العقيقي: المستشرقون 2/173-177.

شهادات علماء إسبانيا

«أعطى الإسلام -الذي كان قد خلق توافقًا واندماجًا بين حضارتين متضادتين باستناده على فكره العالمي وصفة التسامح لمفهومه الديني، وباعتماده على قدرته الهائلة في التمثل والإبداع وميله المتميز إلى التجريب والاختبار- ثمارًا عظيمة في بلاد الأندلس، التي شهدت أهم اندماج عرقي وحضاري بين الشرق والغرب».

مارجريتا جوميز

أميركو كاسترو (Américo Castro):



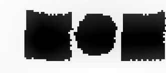
(1885 -1972م)

أحدُ أبرزِ النقاد والعلماء الإسبان، وُلِدَ في كانتاجالو بالبرازيل، كما يعتبر أبرز تلاميذ العلامة منديث بيدال، عمل أستاذًا جامعيًّا بجامعة مدريد، وكان المشرف العام على مركز الدراسات التاريخية، وعمل أستاذًا زائرًا بجامعة برنستون بالولايات المتحدة الأمريكية، ويُمْكِنُ اعتبارُه واحدًا من المدرسة التي تنتمي إلى المستعربِ الإسبانيِّ الكبير كوديا، أستاذ باثيوس وجوميز، وعشراتِ المستعربين الغربيين الذين أنْصفوا الوجودَ العربيَّ والحضارة العربية في إسبانيا، وسلكوا في النصف الأول من القرن العشرين طريقًا معاكسًا للدراسات التاريخية، التي كانت سائدةً في الثقافة الإسبانية التقليدية.

له العديد من المؤلفات المهمة في ميدان الدراسات اللغوية، مثل كتاب (العنصر الغريب في اللغة)، وكذا في ميدان الدراسات المتعلقة بالأدب الإسباني خلال العصر الذهبي، مثل كتاب (فكر ثريانتس).

ويُعتبر كتابه (إسبانيا في تاريخها) من أثرى الإسهامات في ميدان تكامل العناصر الثقافية الإسبانية، وقد صدرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب في بيونيس أيرس (الأرجنتين) عام (1948م)، كما صدر الكتاب نفسه وبشكل مختصر تحت عنوان آخر هو (الواقع التاريخي لإسبانيا) (المكسيك عام 1854م).

(إسبانيا في تاريخها Espana en su Historia)



- أعادوا الحياة:

«إن المسلمين حَلُّوا عام (711م)، واستطاعوا في غضون فترة قصيرة السيطرة على معظم الأراضي الأيبيرية، وقد جاء المسلمون مُدْفَعين بقوى تثير الإعجاب وهي الوحدة السياسية والوازع الديني، وقد نشأ هذا الدين الوليد مُتَّفِقًا تمامًا مع الطموحات الروحية والجسدية للبدوي، كما هبطت الغزوات البربرية على أوربا دون أن تخلف وراءها إدارة مركزية يمكن الحديث عنها، أما المسلمون فقد تَوَسَّعُوا بمرونة وهم يحملون على ظهورهم ميراثًا دينيًّا وسياسيًّا، وكذلك أصداء أفضل الثقافات الخاصة بالعالم القديم، وسرعان

ما أعادوا الحياة إلى تلك الأصداء، كما امتلك الأدب العربي - منذ القرن السابع - ثروة هائلة من الأفكار ووسائل التعبير، التي لا يمكن أن نجد لها مثيلاً في رومانيا»[1].

- أثر الإسلام:

«إن أغلب المتخصصين يعرفون أن صدى الإسلام ظلَّ باقيًا في الآثار التي خلفها في قرطبة وغرناطة وإشبيلية وطليطلة، وكذلك العديد من المدن الأخرى قليلة الأهمية في هذا المقام، أما فيما يتعلق باللغة فهناك الآلاف من الألفاظ والمصطلحات العربية التي ما زال بعضها حيًّا، بينما عفا الزمان على بعضها الآخر، كما أن الأدب استلهم المصادر العربية، ووضح هذا الإلهام في قواعد الكهنوت، فمن خلال هذا الكتاب انتشرت في إسبانيا المسيحية وأوربا - ابتداء من القرن الثالث عشر - ثلاث وثلاثون حكاية ذات أصول مشرقية... وعندما نفكر في الشخصية الإسبانية لا يمكننا أن نباعد جانبًا تسعة قرون من النسيج الاجتماعي الإسلامي المسيحي»[2].

- واللغة خير دليل:

«اللغة هي خير برهان، فهناك آلاف المفردات العربية في اللغة الإسبانية والبرتغالية، وهذا انعكاس لحاجات وضرورات مُلِحَّة؛ فقد حدث نفس الشيء بالنسبة للغة اللاتينية في اتخاذها الكثير من المفردات اليونانية، فما زال هناك الكثير من المفردات العربية في لغة الأدب واللغة الدارجة»[3].

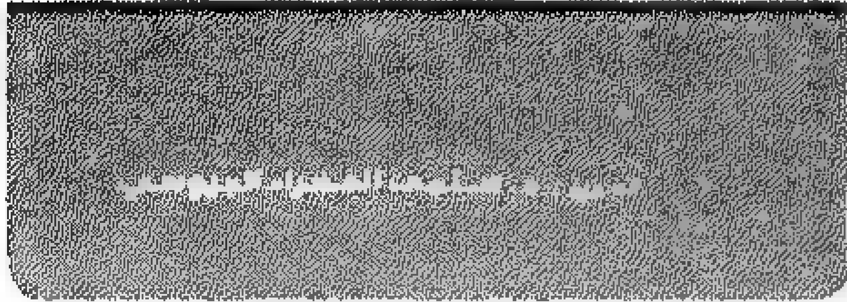
- بل أمثلة قرآنية:

«هناك تعبيرات قرآنية يتمُّ تداولها في لغة الحياة اليومية، ومَنْ يقرأ القرآن بعناية سيعثر على الكثير، ونقول على الآلاف من الأقوال والأمثال الإسبانية، فيقال بالإسبانية - مجازًا-: (إن فلانًا حمار محمل بالعلوم). وهذا معناه أن القيمة الثقافية لذلك الإنسان ضعيفة رغم أنه يعرف الكثير... ففي البرتغالية عبارة مرحة تقول: (إن الحمار المحمل بالكتب دكتور). وهنا يتضح معنى الاستعارة بشكل أفضل، وعندما نقرأ القرآن نجد أنه يُوَضِّحها بجلاء لا لبس فيه؛ إذ تقول الآية: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾[4]»[5].

(1) أميركو كاسترو: إسبانيا في تاريخها، ص59.
(2) السابق، ص63.
(3) السابق، ص75.
(4) (الجمعة: 5).
(5) أميركو كاسترو: إسبانيا في تاريخها، ص92.

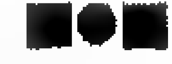
مارجريتا لوبيز جوميز (Margarita Lopez Gomez):





متخصصة في الفنِّ الإسلامي، ومديرة قسم التاريخ والفن في المعهد الغربي للثقافة الإسلامية في مدريد، ثم مديرة قسم التاريخ والفن في المؤسسة الغربية للثقافة الإسلامية، أشرفت حديثًا على معرضين مهمين للفنِّ الإسلامي في طليطلة عام (1987م)، وتيرويل (TERUEL) عام (1988م).

(الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس = The Legacy of Muslim Spain)



- ثمار عظيمة:

«أعطى الإسلام – الذي كان قد خلق توافقًا واندماجًا بين حضارتين متضادتين باستناده على فكره الكوني (العالمي)، وَصِفَةِ التسامح لمفهومه الديني، وباعتماده على قدرته الهائلة في التمثل والإبداع، وميله المتميز إلى التجريب والاختبار – ثمارًا عظيمة في بلاد الأندلس، التي شهدت أهم اندماج عرقي وحضاري بين الشرق والغرب، وكانت قرطبة في القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي – أيام خلافتي عبد الرحمن الثالث والحكم الثاني – عاصمة الإسلام السياسية الأكثر سطوعًا في ذلك الوقت، والأكثر تحضرًا في أوربا»(1).

- بعضٌ من الفضل:

«فالغرب مَدِين للحضارة الإسلامية بمعرفة الأعداد، وبضمنها الصفر، وكانت من أصل هندي، فنقلها مسلم من أصل فارسي، هو الخوارزمي، وقد طوَّر المسلمون علم الهندسة، ودرسوا مواقع الأجرام السماوية وحركاتها، وتَوَصَّلُوا إلى عدد كبير من الاكتشافات العلمية والطبية؛ مثل: اكتشاف الدورة الدموية الصغرى على يد الطبيب العربي ابن النفيس في القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي»(2).

(1) سلمى الخضراء الجيوسي: الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، مبحث مارجريتا جوميز، بعنوان: (إسهامات حضارية للعالم الإسلامي في أوربا عبر الأندلس) 2/1478.
(2) السابق، 2/1479.

- تحف إسلامية:

«واشـــتغل المسلمون في إنتاج الحرير والورق، وقد اكتسبوهما من الصينيين، وكان هذا ثورة في ازدهار الاقتصاد الصناعي للمنسوجات والكتب، التي بلغ إنتاجها مستويات عالية من الرقي، إلى درجة أن بعض تلك الأنســـجة الحريرية الموشّاة، والمخطوطات المنمّقة بالصور الملونة ما تزال تُحْفَظ حتى الآن في متاحفنا، كما تُحْفَظ الجواهر والأحجار الكريمة»[1].

- بَزُّوا أساتذتهم:

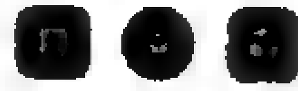
«عرف المســـلمون كيف يتمثّلون المتطورات التقنية للحضارات التي دانت لهم سياسيًّا كالحضـــارة الرومانية – البيزنطية، والحضارة الفارســـية، كما عرفـــوا في الوقت ذاته كيف يطبعونهـــا بطابع عبقريتهم الخاصة في الابتكار والخلق، فبَزُّوا أســـاتذتهم في حالات كثيرة، وانتفعت أوربا من ذلك كله انتفاعًا عظيمًا»[2].

- زينة الخطّ:

«لقـــد ترك الفنانون المســـلمون تراثًـــا من التقاليد في صناعة الخزف، ولا ســـيما في غرناطة ومَالقَة، واشتهرت هذه المدينة الأخيرة بإنتاج (الخزف الذهبي) الصقيل أيام الحكم الإسلامي، وقد تمَّ – أيضًا – بطبيعة الحال، انتقال وتبادل حضاري في ميدان الفنِّ عن طريق المحاكاة، فنُسِخَتْ في طُرز ملابسِ المراسيم لبعض الملوك النصارى كتاباتٌ بالخط الكوفي (أدعية وآيات قرآنية)، ظنًّا بأن تلك الكتابات ليست إلا نقوشًا للزينة خالية من المعنى»[3].

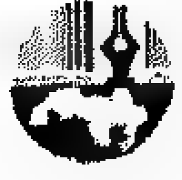
- وتأثير اجتماعي أيضًا:

وعن المؤثرات الإســـلامية في أوربا عن طريق الأندلس تقـــول مارجريتا جوميز: «لقد تَخَطَّتْ هذه المؤثرات حدود النقل الأكاديمي والعلمي؛ إذ شَكَّلَتْ بدورها عوامل بالغة الأهمية على صعيـــد التأثير الاجتماعي، نجمت عمومًا عن الاتصالات الحضارية المتبادلة في إطار نظام من التعايش بين الشعوب والثقافات، كما حصل دون شَكٍّ على أرض الأندلس»[4].



(1) سلمى الخضراء الجيوسي: الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، 1480/2.
(2) السابق، 1480/2.
(3) السابق، 1480/2، 1481.
(4) السابق، 1481/2.

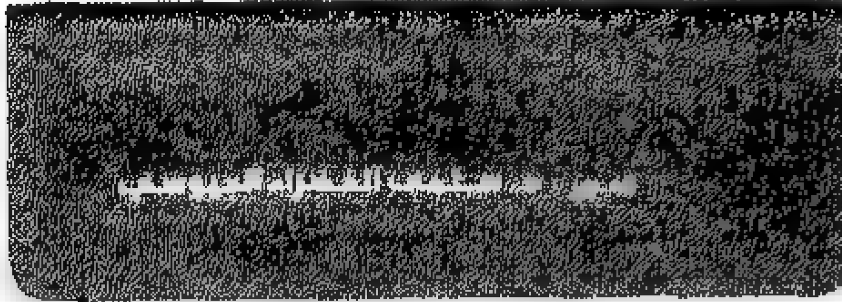
بدرو شلميطا (Pedro Chalmeta):



الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس

الجزء الثاني

الفن والعمارة • التاريخ الاجتماعي • التاريخ الاقتصادي
الفلسفة • الدراسات الدينية • العلم والتكنولوجيا والزراعة



أستاذ بجامعة كومبلتنسي في مدريد، وبالجامعة الفرنسية في باريس، وأستاذ زائر بجامعة كاليفورنيا، وله العديد من الدراسات الإسلامية، وعمل عضوًا في المركز الوطني الإسباني للبحث العلمي، ومديرًا لحلقة البحث العلمي التاريخية، وحلقة الحقوق والاقتصاد في المعهد العربي الإسباني، وهو عضو في أكاديمية تاريخ العراق.

وله العديد من المؤلفات؛ منها: كتاب (الحكم الصالح للسوق) لابن السقطي عام (1969م)، و(سيد السوق في إسبانيا.. العصور الوسطى والحديثة، مساهمة في دراسة تاريخ السوق) عام (1973م)، و(التنازل عن الأرض في الأندلس إلى وصول المرابطين) عام (1973م)، و(تَشَكُّل الأندلس في الأعوام الثمانين الأوائل) عام (1991م)، وبالاشتراك مع ف. كوريانتي (المقتبس) الجزء الخامس لابن حيان عام (1979م)، و(الوثائق والسجلات) لابن العطار عام (1983م)، وقد كتب - أيضًا - العديد من الدراسات بالإسبانية والفرنسية حول جوانب متباينة من إسبانيا الإسلامية.

(الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس = The Legacy of Muslim Spain)

■●■

- قطعة من الجنة:

«لقد كانت الأندلس بالنسبة إلى سكان الممالك النصرانية الشاملة من شبه الجزيرة الأيبيرية قطعة من الجنة وأرض المعاد»[1].

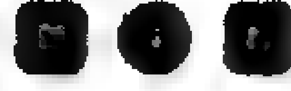
- اقتصاد جبّار:

«إذا أردنا فعلاً معرفة درجة غنى الأندلس وأهميتها، فيجب أن نتذكّر أن اقتصادها كان قد قام على الاكتفاء الذاتي، وأن نموّها دام ثلاثة قرون، لقد كانت الأندلس قادرة في سنة (400هـ=1009م)، وحتى 75 سنة إضافية على أن تدعم وتمول (دون إرادة منها[2]) نموَّ

(1) سلمى الخضراء الجيوسي: الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، مبحث بدرو شلميطا، بعنوان: (صورة تقريبية للاقتصاد الأندلسي)، 2/1060.

(2) يقصد بهذا التمويل الجزية الباهظة التي ظَلَّت الأندلس تدفعها لمملكة قشتالة خلال عصر ملوك الطوائف، وتلك المبالغ كانت عظيمة، إلى حَدٍّ أنها كانت جانبًا له تأثير عظيم في نهوض الصليبيين وتقويتهم على محاربة وتهديد الأندلسيين.

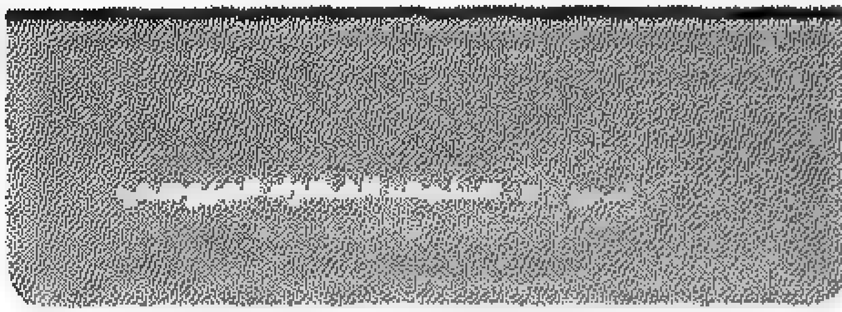
مجموعة اجتماعية أخرى، طفيلية وأجنبية: هي الدول النصرانية الشمالية، (ليس من) دليل أفضل من ذلك لحقيقة الاقتصاد الأندلسي وأهميته»[1].



(1) سلمى الخضراء الجيوسي: الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، مبحث بدرو شلميطا، بعنوان: (صورة تقريبية للاقتصاد الأندلسي)، 2/1060.

إكسبيراثيون جارثيا سانشيز (Expiracion Garcia Sanchez):





عَمِلَتْ في التدريس الجامعي في قسم التاريخ الإسلامي في جامعة غرناطة من عام (1979م) إلى عام (1985م)، وهي منذ ذلك الحين تعمل باحثة في قسم اللغة العربية في المجلس الأعلى للبحوث العلمية في مدريد، وقد أصبحت نائبة المدير منذ عام (1989م)، وهي متخصصة في تاريخ العلوم في الأندلس، مع اهتمام خاص بالتغذية والزراعة وحقول بحث متصلة بها، مثل: علم النبات، وعلم الأدوية، وعلم الغذائيات.

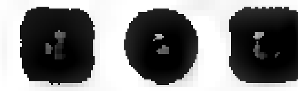
كما عَمِلَتْ باحثة أساسية في عدد من المشاريع، مثل تلك المتعلقة بالمعرفة الزراعية وتقنياتها في إسبانيا الإسلامية، وقد ترأست فريقًا للبحث في العلوم الطبيعية في الأندلس الإسلامية.

(الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس = The Legacy of Muslim Spain)



- أعمق تطور زراعي في هذه البلاد:

«لقد أشَّر وصول العرب إلى شبه الجزيرة الأيبيرية بداية أعمق وأكبر تطوُّر عرفته الزراعة في هذه البقعة التي كانت قد آلت إلى حالة من التخلف والكساد في السنين الأخيرة لحكم القوطيين الغربيين»[1].



(1) سلمى الخضراء الجيوسي: الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، مبحث إكسبيراثيون جارثيا سانشيز، بعنوان: (الزراعة في إسبانيا المسلمة) 2/1367.

الفصل السادس: أمريكا

نبذة عن الاستشراق الأمريكي:

اكْتُشِفَت الأراضي الأمريكية في ذات التوقيت الذي سقطت فيه غرناطة، آخر معاقل الإسلام في الأندلس، عَبْرَ الرحلة الشهيرة لكريستوفر كولومبوس، ولكن الحقيقة التي لا يعرفها الكثيرون في العالم وخاصة في العالم العربي أن مكتشفي الأمريكتين هم المسلمون وليس كولومبوس، وأن لدينا خريطة رسمها جغرافي مسلم - كان أحد أفراد الأسطول العثماني، وهو محيي الدين بن الريس - تظهر عليها السواحل الشرقية للأمريكتين، وهي المناطق التي لم يعرفها كولومبوس، مما أشرت إليه في كتابي (ماذا قدم المسلمون للعالم).

ولكن الشاهد في حديثنا هذا أن أمريكا لم يكن لها احتكاك قديم بالعالم الإسلامي، من حيث هي أرض وسياسة مستقلَّة، وإنما بدأ احتكاكها بالشرق منذ صعودها على سطح السياسة العالمي مع مطلع القرن العشرين، هذا الصعود الذي بلغ أَوْجَهُ بعد اشتراكها في الحرب العالمية الثانية، وهو الاشتراك الذي انقلبت به الموازين وانتصر به الحلفاء على دول المحور، ومنذ تلك الحقبة كان الأمريكان هم أصحاب الكعب العالي في دول الشرق، والشرق الأوسط تحديدًا.

إذ ورث الأمريكان الإمبراطوريات القديمة، والتي كانت قد شاخت وجرت عليها سنة الدول، فخرجت المنطقة العربية من أيادي الفرنسيين والبريطانيين لتدخل في هيمنة الأمريكان، وتُعَدُّ أبرز المنعطفات على هذا المسار الدعم الأمريكي الهائل لإنشاء دولة الكيان الصهيوني في عام 1948م، وما تبع هذا من زلزلة كاملة على المستوى السياسي والعسكري، بل والاجتماعي والثقافي للمنطقة كلها، ثم قصة الانقلابات العسكرية في العالم العربي والتي بدأت بانقلابات سوريا المتتالية في عامي (1948م) و(1949م)، والتي لم تكن في حقيقتها إلا صراعًا بين الأمريكان والإنجليز، ثم إجهاض ثورة مصدق في إيران (1952م) حين حاول تأميم النفط الإيراني، وإعادة الشاه إلى عرش إيران، وكذلك قصة باقي الانقلابات العسكرية في العالم العربي.

وكان المنعطف الأبرز على هذا المستوى هو انهيار الكتلة الشرقية، بزعامة الاتحاد السوفيتي، بما أخلى الجو للأمريكان، ليبدأ عصر جديد هو عصر الهيمنة الوحيدة والقطب الواحد، وهو الذي دفع باتجاه ظهور ما يسميه بعض المراقبين عصر (عودة الاستعمار)؛ إذ لم يكد الاتحاد السوفيتي يسقط حتى دخلت أمريكا بجيوشها وبوارجها إلى قلب العالم

العربي من خلال حرب الخليج الثانية (1991م)، والتي كان من نتائجها استقرار قطع كبيرة من الجيوش الأمريكية في الكويت والسعودية وقطر، وغيرها من الدول العربية، والحصار الأمريكي لإيران والعراق والسودان وليبيا، وهو حصار تفاوتت درجاته، ما بين عقوبات اقتصادية إلى تجميد الأموال، إلى فرض حظر جوي، إلى حصار كامل، وأحيانًا كانت الطائرات الأمريكية تقصف مناطق في قلب الدول العربية كما حدث في العراق والسودان والصومال، وغيرها.

لم يمض عقد آخر على الدخول الأمريكي للبلاد الإسلامية، حتى كان حادث الحادي عشر من سبتمبر، والذي أصبح من الحقائق المعروفة الآن بعد ما ظهر من دراسات وأفلام توثيقية أنه حادث مفتعل لخدمة السياسة الأمريكية، (وربما من المفيد أن نُذَكِّر القارئ بمشاهدة الفيلم التوثيقي (Loose change)، والذي يمكن أن نُتَرْجِمَه إلى المؤامرة غير المتقنة)، فكان الانطلاق الأمريكي لاحتلال أفغانستان بعد شهر واحد في 7 أكتوبر 2001م، ثم حرب العراق في 20 مارس 2003م، وتم الكشف وقتها عن الخطة القادمة وهي سوريا والسعودية ومصر.

ولولا لطف الله أولاً، وبطولات المقاومة العراقية والأفغانية لكان الحال غير الحال الآن.

ولا ننسى أن هذه هي التدخُّلات المكشوفة، أما السيطرة الناعمة فهي أكثر وأعمق، بالإضافة إلى التدخُّلات من خلال الكيان الصهيوني الدائم والذي هو صورة احتلالية، وقاعدة متقدِّمَة للاستعمار الغربي، وهو ما شرحه باستفاضة الخبير المتخصص الدكتور عبد الوهاب المسيري في كتاباته المختلفة عن (الجماعات الوظيفية)، وأيضًا من خلال فرض النظم الاقتصادية التي تُجْبِرُ الدول على صياغة اقتصادياتها على نمط الاقتصاد الأمريكي ومعايير البنك الدولي، ثم التدخلات الثقافية من خلال نظريات الليبرالية والعولمة والأمركة، وهي التدخلات التي يدعمها التفوق العسكري الأمريكي، والضعف العام الموجود في العالم العربي والإسلامي.

هذا على مستوى الاحتكاك الأمريكي بالعالم العربي، وهو احتكاك حديث نعم، لم يمضِ عليه سوى ستة أو سبعة عقود، ولكننا نخطئ خطأً كبيرًا إذا تناسينا أن أمريكا هي وارثة العالم الغربي التقليدي أو القديم، مثل: بريطانيا وفرنسا، فيمكننا أن نرى أن الاستشراق الأمريكي هو امتداد متطوِّر للاستشراق البريطاني، ورث عنه لغته وثقافته وهويته الحضارية، وأضاف ما أفرزه مجتمع المهاجرين الباحثين عن الثروة من مبادئ وقوانين.

ولهــذا ســنجد أن البداية البحثية للاستشــراق الأمريكي - كانت حديثــة أيضًا - من منتصف القرن التاســع عشــر فقط، ولكنــه الآن أكبر وأخطر وأقوى استشــراق في العالم كله، وتُرْصَد له الأموال والميزانيات الضخمة، وتعتبر الجامعات الأمريكية والمراكز البحثية الأمريكية هي الأقوى والأغنى على مستوى العالم.

ويمكن أن نُرجع الاهتمام البحثي بالشــرق إلى عام (1842م)، حين تأسســت الجمعية الشــرقية الأمريكيــة، والتي بدأ إنتاجهــا في العام التالي من خلال نشــر ترجمات أو وضع دراســات عن الشرق، ولكن التطور الكبير لحركة الاستشراق الأمريكي يمكن إدراكها من بعد منتصف القرن العشرين في الفترة التي تلت الحرب العالمية الثانية.

واليوم تُعَدُّ جامعة هارفارد أكبر الجامعات الأمريكية التي تعني بدراســة الشرق ولغاته وتاريخ شــعوبه، وأنشئ فيها ثلاثة مراكز مستقلَّة أحدها يعنى بالمنطقة العربية ويُدَرَّس فيه 28 برنامجًــا، من بينها اللغات العربية والتركية والفارســية، وتحتوي جامعة بيل على متحف فني يضمُّ الكثير من الآثار الشرقية خاصة البابلية والمصرية، وهي تعني على وجه التحديد بالمنطقة العربية وإفريقيا، وبها مطبعة لنشر الذخائر العربية.

وبدأت جامعة برنســتون بتعليم اللغات والآداب الشــرقية منذ عــام (1935م)، وتعتبر جامعة برنستون من أهم مراكز الاستشراق في العالم، وخاصة قسم دراسات الشرق الأدنى، وقد أسســه المســيحي اللبناني المعروف فيليب حتي، الذي كان أســتاذًا مساعدًا في قسم دراســة اللغات والآداب السامية، ثم أَسَّس هذا القسم لدراســة اللغة العربية وتاريخ الشرق وثقافاته ودياناته، كما أنشأ حتي مطبعة بالعربية لنشر التراث العربي.

ولأن الاشــتباك الكبير في العالم الآن هو بين أمريكا والعالم الإســلامي، فسنجد هذا الاهتمــام البحثي بعالم الإســلام موجودًا في كل الجامعــات الأمريكية الكبرى؛ مثل: جامعة كولومبيــا، وجامعة بنســلفانيا، وجامعة ميتشــجين، وجامعة كاليفورنيا، وجامعة بوســطن، وجامعة شيكاغو.. وغيرها.

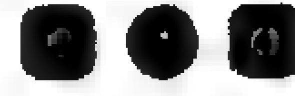
وتفاوت الاهتمام من مجرَّد الدراســة إلى إصدار الأبحاث والمطبوعات والدراســات، وعقد المؤتمرات والندوات، وإنشاء المراكز المستقلة للبحث في هذا العالم الشرقي.

ويمكننا أن نضيف إلى هذه الجامعات والمعاهد كذلك، تلك الموجودة في العالم العربي، مثــل الجامعــة الأمريكية في القاهــرة، والجامعة الأمريكية في بيــروت، والمعاهد البحثية المنتشرة في العالم العربي، وكثير منها يعمل بغير الاسم الأجنبي الصريح.

أمــا المكتبات التي تحوي الكنوز الشــرقية، فإن أهم وأكبر مكتبة في العالم قاطبة هي مكتبة الكونجرس، وتأسســت عام (1800م)، ويمكــن أن نعتبر هذه المكتبة مملكة في عالم

المعرفة، بما تحويه من عدد يتزايد كل ساعة من الكتب، والدوريات، والمطبوعات، والأفلام المرتيـــة. والمواد المســموعة، ثم مكتبــة نيويورك، وهـي مكتبة آخـــرى عظيمة. ثم مكتبات نيوبري في شيكاجو، ومكتبة فلادلفيا.

وإذا حاولنا التركيز على النفائس والدراسات العربية، فإنه يمكننا أن نقول: إن أهم هذه المكتبات بعد مكتبة الكونجرس، هي مكتبات الجامعات المعنية بالاستشراق، وخاصة مكتبة جامعة برنستون[1].



(1) نجيب العقيقي: المستشرقون 3/120-126.

شهادات علماء أمريكا

«وجملة القول أن ابن سينا أعظم مَنْ كَتَبَ في الطب في العصور الوسطى، وأن الرازي أعظم أطبائها، والبيروني أعظم الجغرافيين فيها، وابن الهيثم أعظم علمائها في البصريات، وجابر بن حيان أعظم الكيميائيين فيها.

تلك أسماء خمسة لا يعرف عنها العالم المسيحي في الوقت الحاضر إلا القليل، وإن عدم معرفتنا إياها ليشهد بضيق نظرتنا وتقصيرنا في معرفة تاريخ العصور الوسطى».

ول ديورانت

جورج سارتون (George Sarton):

(1884-1956م)



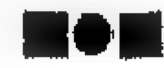
أبرز مؤرخي العلم العالمي في الغرب والشرق.. مستشرق بلجيكي الأصل، متخصِّص في العلوم الطبيعية والرياضية، استقرَّ بالولايات المتحدة الأمريكية.

حصل على الدكتوراه في العلوم الطبيعية والرياضية سنة (1911م)، عُيِّنَ محاضرًا في تاريخ العلم بجامعة واشنطن سنة (1916م)، وبجامعة هارفارد سنة (1917-1949م)، وهو محاضر في تاريخ العلم بالجامعات الأمريكية والأوربية.

وقد أكَبَّ على دراسة اللغة العربية في الجامعة الأمريكية ببيروت عامي (1931، 1932م)، وألقى في كلية المقاصد الإسلامية ببيروت محاضرات لتبيان فضل العرب على التفكير الإنساني، كما زار سوريا ومصر وشمالي إفريقيا متعمقًا في دراسة العربية والإسلام.

وقد مُنِحَ ست شهادات دكتوراه فخرية، وانتخب عضوًا في عشرة مجامع علمية دولية، وفي عديد من الجمعيات العالمية للعلم والتاريخ والفلسفة، وأُهْدِيَتْ له مجموعات دراسات باسمه عام (1947م)، وظلَّ أمدًا طويلاً رئيسًا للاتحاد الدولي لتاريخ العلوم في باريس، قبل أن يُصبح رئيسًا فخريًّا له، ولجمعية تاريخ العلوم الأمريكية، كما عُيِّنَ عضوًا مراسلاً للمجمع العلمي العربي بدمشق عام (1955م).

(الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط = The Incubation of Western Culture (in the Middle East



- لم يكونوا برابرة:

«إن الفتوح العربية لم تكن نتيجة صراع بين برابرة جياع، وبين سكان مدن أخذوا يتقهقرون في سُلَّم المدَنِيَّة، بل كانت في الأكثر صراعًا بين دين جديد وثقافة جديدة ناشئة في المحلِّ الأول، ثُمَّ بين ثقافات مُنْحَلَّة متعادية قلقة في المحلِّ الثاني»[1].

(1) جورج سارتون: الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط، ص32.

- واستقبلهم النصارى المحرومون:

«لقد سبق لإيمان المسيحي آن تزلزل بالمنازعات اللاهوتية التي امتدّت قرونًا عديدة. وبالحرمانات المتبادلة: فقاد ذلك إلى استقبال النصارى في الشرق الأوسط جيوش الفاتحين المسلمين على أنها منقذة لهم من استبداد الكنيسة الأرثوذكسية»(1).

- القرآن يُنَظِّم الحياة:

«إن الفرق بين القرآن والإنجيل عظيم جدًّا، وهو يرجع إلى أن القرآن الكريم قد صدع به النبي (ﷺ) نفسه.. وإلى أن القرآن يشتمل على جميع الأسس الضرورية للحياة الإسلامية: الدين والفقه والتشريع والتقويم واللغة»(2).

- نهلوا من كل مورد:

«إن العرب لم يستغلُّوا الآثار اليونانية فحسب، لقد كانوا يتشوَّقُون إلى أن ينهلوا من كل مورد، ثم إنهم لم يتأخَّروا كثيرًا قبل أن يتفهموا تلك المعرفة ويستنبطوا منها أشياء جديدة»(3).

- فما العلم إذن؟

«غير أن أولئك الذين يُنكرون محاسن العرب ويبخسونها قيمتها ليحتجون بقولهم: إن الأخذ من مصادر متعدِّدَة ليس على كل حال خيرًا من الأخذ من مصدر واحد، تلك طريقة في المجادلة مضللة، خاصة إذا كان الكلام يتناول الرياضيات، ثم إن الرياضيين العرب لم ينسخوا من المصادر اليونانية والسنسكريتية نسخًا، ولو أنهم فعلوا ذلك لما جاءوا بفائدة، ولكنهم جمعوا بين المصدرين، ثم لَقَّحوا الآراء اليونانية بالآراء الهندية.

وإذا لم يكن هذا الذي فعله العرب ابتكارًا، فليس في العلم إذن ابتكار على الإطلاق؛ فالابتكار العلمي في الحقيقة إنما هو حياكة الخيوط المتفرقة في نسيج واحد، وليس ثمة ابتكارات مخلوقة من العدم»(4).

- لا مستحيل في النهضة.. قالها سارتون:

«إن شعوب الشرق الأوسط قد سبق لها أن قادت العالم في حقبتين طويلتين طوال ألفي سنة على الأقل، قبل اليونان ثم في العصور الوسطى مدة أربعة قرون على الأقل؛

(1) السابق، ص34.

(2) جورج سارتون: الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط، ص36.

(3) السابق، ص51.

(4) السابق، ص54، 55.

ومن أجل ذلك ليس ثمة ما يمنع تلك الشعوب من أن تقود العالم ثانية في المستقبل القريب أو البعيد»[1].

- بل هو ممكن:

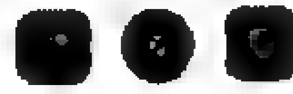
«ليس ما يمنع الشعوب العربية اليوم من أن تباري أسلافها، وأن تستعيد ثانية مكانتها الأولى في قيادة العالم، ومع أن ذلك ليس سهلاً – ثم هو يصبح أشدَّ صعوبة يومًا بعد يوم – فإنه ممكن»[2].

- نحن مَدِينُونَ لهم:

«إن التقدم المادي الخالص مدمِّر، وهو ليس تقدُّمًا على الإطلاق، بل تأخر أساسي، إن التقدم الصحيح – ومعناه تحسين صحيح لأحوال الحياة – لا يمكن أن يُبْنَى على وثنية الآلات ولا على العتلات، ولكن يجب أن يقوم على الدين وعلى الفنِّ، وفوق ذلك كله على العلم، العلم الخالص، وعلى محبة الله، وعلى محبَّة الحقيقة، وعلى حب الجمال وحب العدل، وهذا يبدو لنا جليًا حينما نلقي نظرة واحدة إلى الوراء، من هم أولئك الذين كانوا رجالاً عظماء في التاريخ؟ من هم أولئك الذين أحسنوا إلينا؟ ومن هم أولئك الرجال الذين نحن مدينون لهم بمسرات حياتنا ونعمها؟ لقد كانوا رجالاً أمثال: أفلاطون، وأرسطو، وإقليدس، وأرخميدس في تاريخ اليونان، أما في أثناء العصور الوسطى فكانوا رجالاً من أمثال: الفارابي، وابن سينا، وابن الهيثم، والبيروني، والغزالي، وابن رشد، وموسى بن ميمون، وأبي الفداء، وابن خلدون.. إن ما نراه واضحًا حينما نُلْقِي نظرة إلى الوراء يجب أن يكون واضحًا – أيضًا – حينما نمدُّ نظرنا إلى الأمام، فيهدي خطانا إلى المستقبل»[3].

- نبي اللغة والثقافة:

«لم يكن محمد (ﷺ) نبي الإسلام فحسب، بل نبي اللغة العربية والثقافة العربية على اختلاف أجناس المتكلمين بها وأديانهم»[4].



(1) السابق، ص57-59.
(2) چورج سارتون: الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط، ص70.
(3) السابق، ص72-73.
(4) السابق، ص43.

برنارد لويس (Bernard Lewis):



عالم إنجليزي شـــهير، وُلِدَ في عام (1916م)، يهودي الأصـــل، ويعيش في الولايـــات المتحـــدة الأمريكية، عمل أســـتاذًا للتاريخ الإســـلامي في جامعات لندن وكاليفورنيا، وهو رئيس دائرة الشرق الأدنى والأوسط لمعهد الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن.

وعمل في جامعة لندن مدرسًا في قسم التاريخ - مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية - حتى ترأَّس هذا القسم في أول أكتوبر 1957م، وظلَّ رئيسًـــا له مدة خمسة عشر عامًا حتى انتقل إلى قسم دراسات الشرق الأدنى بجامعة برنستون بولاية نيوجرسي الأمريكية عام (1973م)، بالإضافة إلى عضويته الدائمة في معهد برنستون للدراســـات المتقدمة، وهو المعهـــد الذي كان يعمل فيه ألبرت إينشـــتين، وحصل لويس على الجنســـية الأمريكية عـــام (1982م)، وقد أصبح عام (1986م) مديرًا مشـــاركًا لمعهد بحوث أننبرج للدراسات اليهودية ودراسات الشرق الأدنى بمدينة فلادلفيا بولاية بنسلفانيا.

لـــه عدد كبير من البحوث والكتـــب والمقالات الصحفية؛ من أشـــهر كتبه: (العرب في التاريخ)، وقد أعيد طبعه ســـبع مرات، و(الإســـلام في التاريخ.. الأفكار والناس والأحداث)، و(ظهور تركيا الحديثة)، و(إســـتانبول وحضارة الإمبراطورية العثمانية)، و(الغرب والشـــرق الأوســـط)، و(العرق واللون في الإســـلام)، و(يهود الإسلام)، و(الحشاشـــون فرقة ثورية في الإسلام)، و(اللغة السياسية في الإسلام).



- هم الأكثر تسامحًا:

«.. ففي حالة الصراع بين أوربا والأتراك كان هناك ترفُّع وتزمُّت من كلا الجانبين، وكان الأتراك هم الجانب الأكثر تسامحًا»[1].

- ﴿أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ﴾[2]؟

«وعندما انتهى الحكم العثماني في أوربا، كانت الأمم المسيحية - التي حكمها العثمانيون خلال عدة قرون - لا تزال هناك بلغاتها وثقافاتها ودياناتها، وحتى - إلى حَدٍّ ما - بمؤسساتها،

(1) برنارد لويس: السياسة والحرب، دراسة منشورة في كتاب (تراث الإسلام)، بإشراف شاخت، وكليفورد بوزورث، ص228.
(2) (مريم: 73).

كل هذه الأمور بقيت سليمة وجاهزة لاستئناف وجودها الوطني المستقل، أما إسبانيا وصقلية فليس فيهما اليوم مسلمون أو ناطقون بالعربية»[1]..

- الوحدة والأمن لا الصراع والفوضى:

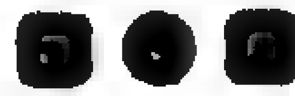
«إن الفلاحين في المناطق التي غُزِيت - من الأتراك - قد تمتَّعوا بدورهم بتحسُّن كبير في أوضاعهم، وقد جلبت الحكومة الإمبراطورية العثمانية الوحدة والأمن مكان الصراع والفوضى، وكان الفلاحون يتمتعون بقدر من الحرية في حقولهم أكبر بكثير من ذي قبل، وكانت الضرائب التي يدفعونها تُقدَّر بصورة مخفَّفة، وتُجمَع بطريقة إنسانية»[2].

- شهدوا بالحق:

«وحتى المدافعون عن النظام القائم كانوا يعجبون بالفاعلية السياسية والعسكرية للإمبراطورية التركية، وكان جزءٌ كبيرٌ من الأدب الغزير الذي أُنتِج في أوربا حَوْلَ التهديد التركي، يهتمُّ بمزايا النظام التركي والحكمة الكامنة في تقليده»[3].

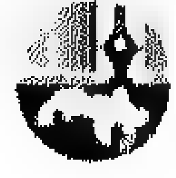
- لا يحكم أحد بحقٍّ من السماء:

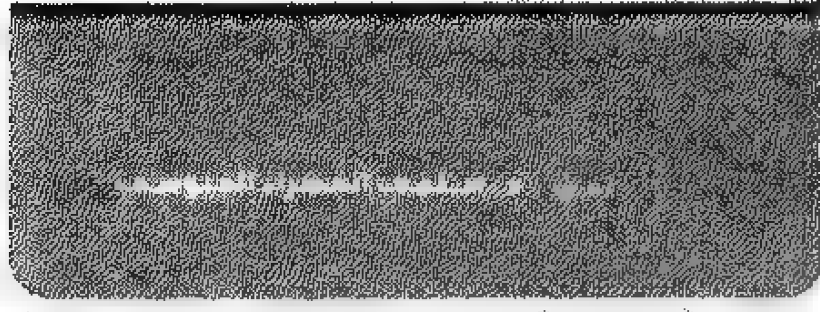
«ولقد قيل: إن الخليفة يجمع في آن واحد بين شخصيتي البابا والإمبراطور. على أن التشبيه مضلِّل، فلم تكن للخليفة وظائف بابوية أو حتى كهنوتية، ولم يكن يتلقَّى التعليم الرسمي لرجال الدين من العلماء، ولم يكن واجبه عرض الدين ولا تفسيره، بل كان واجبه هو دعمه وحمايته، وإيجاد الظروف التي من شأنها أن تُمَكِّنَ الناس من العيش حياة إسلامية صالحة في هذه الدنيا، وبذلك يَعُدُّون أنفسهم للحياة الآخرة؛ ولتحقيق ذلك يتوجَّب عليه أن يحافظ على القانون والنظام ضمن حدود الإسلام، وأن يُدَافع عن هذه الحدود ضِدَّ الهجمات الخارجية، وكان من واجبه - ما أمكنه ذلك - توسيع تلك الحدود حتى يصل العالم كله، عندما يحين الوقت إلى اعتناق الإسلام»[4].



(1) برنارد لويس: السياسة والحرب، دراسة منشورة في كتاب (تراث الإسلام)، بإشراف شاخت، وكليفورد بوزوروث، ص228.
(2) السابق، ص228.
(3) السابق، ص228، 229.
(4) السابق، ص190.

ريموند شايندلين (Raymond P. Scheindlin):





هو أستاذ الأدب العبري في العصر الوسيط في معهد اللاهوت اليهودي الأمريكي، وقد عمل سابقًا رئيسًا للمعهد، الحقل الرئيس لأبحاثه هو الشعر العبري في العصر الوسيط وصلاته بالأدب العربي، من منشوراته: (الشكل والبنية في شعر المعتمد بن عباد) عام (1975م)، و(مائتا كلمة وكلمة عربية) عام (1978م)، و(الخمر والنساء والموت.. قصائد عبرية من العصر الوسيط عن الحياة الطبية)، وقد أنجز - أيضًا - العديد من الدراسات والترجمات عن اليديش والعبرية، وحصل الدكتور شايندلين على زمالة جوجينهايم عام (1988م).



- حماية الإسلام:

«كان محمد (ﷺ) يأمل في هدى اليهود إلى الإسلام، ولكنه رغم تألمه لرفضهم رسالته كان يراعيهم بوصفهم من أهل الكتاب؛ لذا فقد أمر بالتسامح معهم شريطة دفع الجزية، حالهم في ذلك حال المسيحيين الذين هم كذلك من أهل الكتاب، وكان أتباع هاتين الديانتين اللتين حظيتا بحماية الإسلام يُدْعَوْنَ (أهل الذمة)، فجاء الشرع الإسلامي لينظم ما عليهم من واجبات نحو الإسلام وما لهم من حقوق؛ ولهم أن يطالبوا بها شريطة التقيد بالقواعد التي تُحَدِّد وضعهم الخاص»[1].



(1) سلمى الخضراء الجيوسي: الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، مبحث ريموند شايندلين، بعنوان: (اليهود في إسبانيا المسلمة)، ص302.

مايكل هاميلتون مورجان (Michael Hamilton Morgan):



كاتب أمريكي ودبلوماسي سابق، ورئيس مؤسسة أسس جديدة للسلام (anew foundations for peace)، وهي مؤسسة غير هادفة للربح، تُعَزِّز المفاهيم بين الحضارات، وتدعم مفهوم القيادة عند الشباب، ومن مؤلفاته: (تاريخ ضائع)، ورواية (حرب الغسق) (the twilight war)، كما شارك المستكشف روبرت بالارد في تأليف كتابي: (صدام مع التاريخ = collision with history)، و(البحث عن سفينة جون كينيدي بي تي 109)، (the search for gohn f. kennedy,s pt 109) وفي الفترة من (1990م) إلى (2000م) كان مديرًا ومشرفًا على جائزة بجاسوس الدولية للأدب.

(تاريخ ضائع.. التراث الخالد لعلماء الإسلام ومفكريه وفنانيه = Lost History.. The Enduring Legacy of Muslim Scientists, Thinkers, and Artists)



- شرف الفروسية الإسلامية (صلاح الدين):

«فترة الاضطراب هذه سوف تساعد على ظهور قائد مسلم، وهو رجل شديد التدين لن يتمتع بفكر مثل هارون الرشيد والمأمون، ولا الحَاكم في القاهرة، أو عبد الرحمن الثالث في قرطبة، إلا أنه سيجسد نوعًا من شرف الفروسية الإسلامية سيكون مثار انبهار الأوربيين، بل وسيدفعهم نبله هذا إلى العديد من المواقف المحرجة، فما كان منهم إلا التماس أن السبب وراء أخلاقه الرفيعة والكريمة ما هو إلا لأن لديه دماء أوربية تجري في عروقه، هذا الرجل هو صلاح الدين، ومثل هارون الرشيد، تجد القصص التي تحيط به لها طابع رومانسي وأسطوري، لكن رقيه الأساسي وحكمه الإنساني في الأمور المستفزَّة هو حقيقي ويُقْتَدَى به»[1].

- العبقرية العلمية (الخوارزمي):

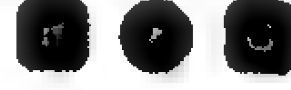
«وحتى حلول القرن الـ16 - أي بعد مضي 700 عام على وفاة الخوارزمي - يحترم الأوربيون ويُقَدِّرون كل ما كتبه هذا العالِم ويعتبرونه من المسلَّمَات، حتى الحواشي السفلية

(1) مايكل هاميلتون مورجان: تاريخ ضائع، ص268.

لكتاباتهم تحتوي على ملحوظة (كما قال الخوارزمي)، أي لأن كل حساباتهم قد تأسست على إيمانهم بكل علوم هذا العالم الفارسـي، وتُصبح الأعمال المترجمة للخوارزمي أسـاس كتب الرياضيات والفلك في الجامعة في أوربا والعالم الإسلامي»[1].

- التفوق الطبي (الزهراوي):

«إن هذا السـيد الجراح الأندلسي هو – أيضًا – سيد المسلمين في طب التوليد، وطب الأسـنان، والمنتجات الدوائية، ويشـمل هذه الأشـياء وأكثر الخلاصة الوافية التي وضعها والمكوَّنة من 30 مجلدًا، وبسبب تعقيدها ورفعتها سوف يستغرق المترجمون الأوربيون 300 عام حتى يُفَصِّلُوها، ومن ثم يُتَرْجموها إلى اللاتينية واللغات الأوربية»[2].



(1) مايكل هاميلتون مورجان: تاريخ ضائع، ص91.

(2) السابق، ص199.

فرانز روزنثال (Franz Rosenthal):



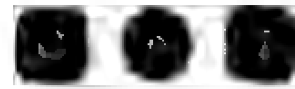
فيلسوف هولندي من أساتذة جامعة بيل، له العديد من الدراسات والأبحاث في المجلات الشهيرة مثل: (الثقافة الإسلامية)، (الشرقيات)، (صحيفة الجمعية الأمريكية الشرقية)، كما ألف عددًا من الكتب من أشهرها: (مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي)، و(علم التاريخ عند المسلمين)، و(فلسفة أفلاطون في العالم الإسلامي) سنة (1940م)، و(أثر الصوفية في اليهودية العربية) سنة (1940م)، و(الكندي والأدب) سنة (1942م)، و(الوهابية في مصر) سنة (1947م)، و(أساليب التعليم في الإسلام) سنة (1947م)، و(أبو حيان التوحيدي) سنة (1948م)، و(مطلع علم النفس في الإسلام) سنة (1952م)، و(تاريخ الأطباء) سنة (1954م)، و(السياسة في فلسفة الفارابي) سنة (1955م)، و(مقام العربية في اللغات السامية) سنة (1965م).

(علم التاريخ عند المسلمين = A History of Muslim Historiography)



- أثر الإسلام في ازدهار علم التاريخ:

يقول متحدثًا عن النشاط الذي أبدعه المسلمون في علم التاريخ: «إن أفكار الرسول (ﷺ) التاريخية[1] نَشَّطت دراسة التاريخ نشاطًا لا مزيد عليه، فقد أصبحت أعمال الأفراد، وأحداث الماضي، وحوادث كافة شعوب الأرض أمورًا ذات أهمية دينية، كما أن شخصية الرسول (ﷺ) كانت خطًا فاصلاً واضحًا في كل مجرى التاريخ... ومن الدوافع العملية لدراسة التاريخ توافر المادة التاريخية في القرآن؛ مما دفع مُفَسِّرِيهِ إلى البحث عن معلومات تاريخية لتفسير ما جاء فيه، وقد أصبح الاهتمام بالمادة التاريخية - على مرِّ الزمن - أحد فروع المعرفة التي تَمَّت بالارتباط بالقرآن... لقد أشار القرآن إلى كثير من الأحداث التي أحاطت بالرسول (ﷺ)... وكان لذلك أهمية في التاريخ الإسلامي؛ لأن الأحداث التي أشارت إليها الآيات صارت لها أهمية تاريخية كبرى للمسلمين، واستثارت البحوث التاريخية»[2].



(1) هو يراها أفكارًا للنبي (ﷺ)، ولكننا نؤمن بأنها وحي الله إليه، وليست أفكاره الخاصة.

(2) فرانز روزنثال: علم التاريخ عند المسلمين، ص41، 42.

ول ديورانت (Will Durant):

(1885-1981م)

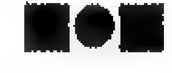


ويليام جيمس ديورانت، مؤرخ أمريكي شـهير، وُلِدَ في نورث آدامز في ماساتشوسيتس من والدين فرنسي وكندية، وفـي عام (1905م) بدأ تجربته مع الفلسـفة الاجتماعية، ولكنه بدأ يتعرَّف بعد الحرب العالمية الأولى على (شـهوة السلطة) التي تكمن وراءها كل أشكال السلوك السياسي.

تَخَرَّج عام (1907م) وعمل مراسـلاً لجريدة نيويورك إيفننج مقابل 10 دولارات في الأسبوع، وفي نفس السنة بدأ تدريس اللغة اللاتينية والفرنسية والإنجليزية والهندسة.

له العديد من المؤلفات من أهمها: (الفلسفة والمشكلة الاجتماعية)، و(قصة الفلسفة)، و(دروس التاريـخ)، و(أبطال التاريخ.. تاريخ موجـز للحضارة في الأزمنة القديمة حتى فجر العصـر الحديـث)، و(العقول والأفـكار الكبيرة فـي كل العصور)، ومن أعظـم كتبه (قصة الحضارة) يقع في 42 مجلدًا، وقد عكف على تأليفه لمدة خمسة عقود كاملة.

(قصة الحضارة = The Story of Civilization)



- من أعظم عظماء التاريخ:

«إذا مـا حكمنـا على العظمة بما كان للعظيم من أثر فـي الناس قلنا: إن محمدًا (ﷺ) كان من أعظم عظماء التاريخ؛ فلقد أخذ على نفسـه أن يرفع المسـتوى الروحي والأخلاقي لشـعب ألقت به في دياجير[1] الهمجية حرارةُ الجو وجدب الصحراء، وقد نجح في تحقيق هـذا الغرض نجاحًا لم يُدَانِه فيه أي مصلح آخر في التاريخ كله، وقلَّ أن نجد إنسـانًا غيره حقَّق ما كان يحلم به، ولم يكن ذلك لأنه هو نفسـه كان شديدَ التمسُّك بالدين وكفى؛ بل لأنه لم يكن ثمة قوة غير قوة الدين تدفع العرب في أيامه إلى سـلوك ذلك الطريق الذي سـلكوه، وكانت بلاد العرب - لما بدأ الدعوة - صحراء جدباء، تسـكنها قبائل من عبدة الأوثان قليل عددهـا، متفرقـة كلمتها، وكانت عند وفاته أمة مُوَحّدة متماسـكة، وقد كبح جماح التعصب والخرافـات، وأقام فوق اليهودية والمسـيحية ودين بلاده القديم دينًا سـهلاً واضحًا قويًا، وصرحًا خلقيًا قِوَامه البسـالة والعزَّة القومية، واسـتطاع في جيل واحد أن ينتصر في مائة

(1) دياجير: جمعُ دَيْجُور وهو الظلام. ابن منظور: لسان العرب، مادة دجر 277/4، والمعجم الوسيط ص271.

معركة، وفي قرن واحد أن يُنْشِئَ دولة عظيمة، وأن يبقى إلى يومنا هذا قوة ذات خطر عظيم في نصف العالم»[1].

- مسألة تَعَدُّد الزوجات:

ديورانت - كعادة الغربيين - لا يؤمن بتعدُّد الزوجات، ولكن حتى بالنظرة الموضوعية للأمر يَكْتَشِفُ - في هذا الذي لا يُؤمن به ولا يُقِرُّه - جانبًا من عظمة النبي (ﷺ) فيُدافع عنه، يقول ديورانت: «ولكن علينا أن نذكر على الدوام أن نسبة الوفيات العالية من الذكور بين الساميين - في العصر القديم وفي بداية العصور الوسطى - جعلت تعدُّد الزوجات - في نظر هؤلاء الساميين - ضرورة حيوية تكاد تكون واجبًا أخلاقيًّا، وكان تعدُّد الزوجات في نظر النبي (ﷺ) أمرًا عاديًّا مُسَلَّمًا به لا غبار عليه؛ ولذلك كان يُقْبِل عليه وهو مرتاح الضمير، لا يبغي به إشباع الشهوة الجنسية، ويُرْوَى عن عائشة (رضي الله عنها) حديث عن النبي (ﷺ) مشكوك في صِحَّته يقول فيه: «**حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ ثَلَاثٌ: الطِّيبُ، وَالنِّسَاءُ، وَقُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ**»[2]. ولقد كانت بعض زيجاته من أعمال البِرِّ والرحمة بالأرامل الفقيرات اللاتي تُوُفِّيَ عنهن أتباعه أو أصدقاؤه، وكان بعضها زيجات دبلوماسية»[3].

- ولا أرقى الناس تعليمًا:

«... يبدو أن أحدًا لم يعن بتعليم محمد (ﷺ) القراءة والكتابة، ولم يُعْرَف عنه أنه كتب شيئًا بنفسه، ولكن هذا لم يَحُلْ بينه وبين أن يجيء بأشهر وأبلغ كتاب في اللغة العربية، ولكن هذا لم يَحُلْ بينه وبين قدرته على تَعَرُّف شئون الناس تَعَرُّفًا قَلَّما يصل إليه أرقى الناس تعليمًا»[4].

- أعجب الظواهر الاجتماعية في العصور الوسطى:

«والحق أن ذلك الحادث الجلل (يقصد ولادة النبي محمد (ﷺ)) - الذي تمخَّضت عنه جزيرة العرب، وأعقبه استيلاؤها على نصف عالم البحر المتوسط، ونشر دينها الجديد في ربوعه - لهو أعجب الظواهر الاجتماعية في العصور الوسطى»[5].

(1) ول ديورانت: قصة الحضارة، 47/13.

(2) الحديث صحيح ولكن بدون لفظ: «ثلاث»، انظر: المناوي: فيض القدير 489/3، 490، رواه أحمد (13079)، والنسائي (3939)، والحاكم (2676)، وصححه الألباني، انظر صحيح الجامع (3124).

(3) ول ديورانت: قصة الحضارة، 43/13، 44.

(4) السابق، 21/13، 22.

(5) السابق، 7/13.

- غاية في البساطة:

«وكانت حياة النبي (ﷺ) فيما عدا النساء والسلطان[1] غاية في البساطة، فقد كانت المساكن التي أقام بها واحدًا بعد واحد من اللَّبِن، لا يزيد اتساعها على اثنتي عشرة أو أربع عشرة قدمًا، ولا يزيد ارتفاعها على ثماني أقدام، سقفها من جريد النخل، وأبوابها ستائر من شعر المعز أو وبر الجمال، أمَّا الفراش فلم يكن أكثر من حشية تُفْرَشُ على الأرض ووسادة، وكثيرًا ما كان يُشاهَد وهو يخصف نعليه ويرقع ثوبه، وينفخ النار، ويكنس أرض الدار، ويحلب عنزة البيت في فنائه، ويبتاع الطعام من السوق، وكان يأكل بيده ويلعق أصابعه بعد كل وجبة، وكان طعامه الأساسي التمر وخبز الشعير، وكان اللبن وعسل النحل كل ما يستمتع به من الترف في بعض الأحيان»[2].

- وغاية في التواضع:

«ولم يتعاطَ الخمر التي حَرَّمَها هو على غيره، وكان لطيفًا مع العظماء، بشوشًا في أوجه الضعفاء، عظيمًا مهيبًا أمام المتعاظمين المتكبرين، متسامحًا مع أعوانه، يشترك في تشييع كل جنازة تمرُّ به، ولم يتظاهر قطُّ بأبهة السلطان، وكان يرفض أن يُوَجَّه إليه شيء من التعظيم الخاصّ، يقبل دعوة العبد الرقيق إلى الطعام، ولا يطلب إلى عبدٍ أن يقوم له بعمل يجد لديه من الوقت والقوة ما يُمَكِّنَانه من القيام به لنفسه، ولم يكن ينفق على أسرته إلا القليل من المال، رغم ما كان يَرِدُ إليه من الفيء وغيره من الموارد، أما ما كان يُنفقه على نفسه فقد كان أقلَّ من القليل، وكان يخصُّ الصدقات بالجزء الأكبر من هذا المال»[3].

- وغاية في العناية بنفسه:

«كان ككل الناس يعنى بمظهره الشخصي، ويقضي في تلك العناية كثيرًا من الوقت، فكان يتعَطَّر ويكتحل، ويصبغ شعره، ويلبس خاتمًا نُقِشَ عليه (محمد رسول الله)، وربما كان الغرض من هذا الخاتم هو توقيع الوثائق والرسائل، وكان صوته موسيقيًا حلوًا يأسر القلوب، وكان مرهف الحس إلى أقصى حَدٍّ، لا يطيق الروائح الكريهة، ولا صلصلة الأجراس، أو الأصوات العالية، ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾[4].

وكان قلقًا عصبي المزاج، يُرى أحيانًا كاسف البال، ثم ينقلب فجأة مرحًا كثير الحديث[5]؛

(1) كان اللفظ الأنسب أن يقول: «الزعامة»، فهذا ما يتفق مع كلامه هو نفسه بعد قليل، وسننقله.

(2) ول ديورانت: قصة الحضارة، 44/13.

(3) السابق، 45/13.

(4) (لقمان: 19).

(5) لا نعرف مصدر ديورانت التي أتى منها بهذه الصفة التي كان النبي (ﷺ) أبعد ما يكون عنها؛ فهو الداعي بالحكمة والموعظة الحسنة والرفيق بالناس، وهي صفة تُناقض ما ذكره ديورانت نفسه من قبل ومن بعد.

وكان حلـو الفكاهة فقد قال مرة لأبـي هريرة، وكان يتردَّد عليه كثيرًا: «**يَا أَبَا هُرَيْـرَةَ، زُرْ غِبًا تَزْدَدْ حُبًا**»[1]»[2].

- محمد والمرأة:

«وقـد حدث مـرة أن لام عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) زوجته؛ لأنهـا كَلَّمَتْه بلهجة رأى فيها شـيئًا مـن قِلَّة الاحترام، فما كان منها إلا أن أَكَّدَتْ لـه أن هذه هي اللهجة التي تخاطب بها ابنته حفصة (رضي الله عنها) وغيرُها من أزواج النبيِّ رسولَ الله (ﷺ)، فذهب عمر (رضي الله عنه) مـن فوره ولام على ذلك حفصةَ (رضي الله عنها) وزوجة أخرى من أزواج النبي (ﷺ)، فقيل له: إن هذا ليس من شأنه، وخرج عمر (رضي الله عنه) غاضبًا، وسمع النبي (ﷺ) بهذا فأثار ضحكه، وكان النـزاع يقوم في بعض الأحيان بيـن النبي (ﷺ) وبين أزواجه كما يحدث عند غيره من المسلمين، ولكنه كان على الدوام يُعِزُّهن، ويُظْهِرُ لهن ولغيرهن من النساء المسلمات ما يليق بهـن من عواطف طيبة، ويُرْوَى عنه أنه قال: «**إِنَّ الْمَـرْأَةَ الصَّالِحَةَ أَثْمَنُ شَـيْءٍ فِي الْعَالَمِ**»[3]. ويُذَكِّر اللهُ النـاسَ في القرآن مرتين بأن أمهاتهم حملنهم كرهًا، ووضعنهم كرهًا، وأرضعنهم أربعة وعشـرين أو ثلاثين شـهرًا[4]، ويُرْوَى عن النبي (ﷺ) أنه قـال: «**الْجَنَّةُ تَحْـتَ أَقْدَامِ الأُمَّهَاتِ**»[5]»[6].

- أكذوبة الصرع:

«وليس في تاريخ محمد (ﷺ) ما يدلُّ على انحطاط قوة العقل، التي يؤدِّي إليها الصرع عامَّـة؛ بل نـراه على العكس يزداد ذهنه صفـاء، ويزداد قدرة على التفكيـر، وثقة بالنفس،

(1) رواه البيهقي في شعب الإيمان (8130)، والقضاعي في مسنده (592)، والطيالسي في مسنده (2649)، والطبراني في المعجم الأوسط (1754)، والبزار (3361)، وقال الهيثمي: «رواه البزار والطبراني في الأوسط، وقال البزار: لا يعلم فيه حديث صحيح». لكـن روايـة أخرى أوردها الهيثمي وفيها عبد الله بن عمرو بن العاص بدلاً من أبي هريرة، وقال فيها: «رواه الطبراني وإسـناده جيد». الهيثمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد 101/8. والغب: فعل الأمر والقيام به حينًا بعد حين.

(2) ول ديورانت: قصة الحضارة، 45/13.

(3) رواه مسـلم بلفظ: «**الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَخَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ**». عـن عبد الله بن عمرو: كتاب الرضاع، باب خير متاع الدنيا المرأة الصالحة (1467).

(4) وهما قوله (سـبحانه وتعالى): ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ (لقمـان: 14)، و﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ (الأحقاف: 15).

(5) رواه القضاعـي: في مسـنده (113)، والخطيب البغـدادي: الجامع لأخلاق الراوي 231/2. وضعَّفه الألباني، انظر: السلسـلة الضعيفة (593)، ورواه أحمد (15577) بلفظ: عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ جَاهِمَةَ ، أَنَّ جاهمة جَاءَ إِلَى رَسُـولِ الله (ﷺ)، فَقَالَ : يَا رَسُـولَ اللـهِ، أَرَدْتُ الْغَزْوَ، وَجِئْتُكَ أَسْتَشِـيرُكَ. فَقَالَ: «هَلْ لَكَ مِنْ أُمٍّ؟» قَالَ: نَعَمْ. فَقَالَ: «الْزَمْهَا، فَإِنَّ الْجَنَّةَ عِنْدَ رِجْلِهَا». وقال شـعيب الأرناءوط: إسناده حسن. وابن ماجه (2781)، والنسائي (3104).

(6) ول ديورانت: قصة الحضارة، 64/13.

وقوة الجسم والروح والزعامة كلما تقدَّمت به السنُّ حتى بلغ الستين من العمر. وقصارى القول أننا لا نجد دليلاً قاطعًا على أن ما كان يحدث للنبي كان من قبيل الصرع»[1].

- أول مَنْ يفعل:

«لسنا نجد في التاريخ كله مصلحًا فرض على الأغنياء من (الضرائب)[2] ما فرضه عليهم محمد (ﷺ) لإعانة الفقراء، وكان يحضُّ كل موصٍ بأن يخصَّ من ماله جزءًا للفقراء»[3].

- ثغرة ضيقة:

«ويلوح أن الثغرة التي لا بُدَّ من وجودها بين النظريات المجرَّدة والأفعال الواقعية كانت أضيق في الإسلام منها في سائر الأديان»[4].

- بدرجة لا نظير لها:

«ولقد كان أهل الذمة (المسيحيون، والزرادشتيون، واليهود، والصابئون)، يتمتعون في عهد الخلافة الأموية بدرجة من التسامح لا نظير لها في البلاد المسيحية في هذه الأيام، فقد كانوا أحرارًا في ممارسة شعائرهم، واحتفظوا بكنائسهم ومعابدهم»[5].

- حرس خاص للتسامح:

«وكان المسيحيون في بلاد آسيا الغربية خارج حدود الجزيرة العربية يمارسون شعائرهم بكامل حريتهم، وبَقِيَت الكثرة الفعَّالة من أهل بلاد الشام مسيحية حتى القرن الثالث الهجري، ويُحَدِّثنا المؤرخون أنه كان في بلاد الإسلام في عصر المأمون أحدَ عَشَرَ ألف كنيسةٍ، كما كان فيها عدد كبير من هياكل اليهود ومعابد النار، وكان المسيحيون أحرارًا في الاحتفال بأعيادهم علنًا، وكان الحُجَّاج المسيحيون يأتون أفواجًا آمنين لزيارة الأضرحة المسيحية في فلسطين... ولقد ذهب المسلمون إلى أبعد من هذا في حماية المسيحيين، إذ عيَّن والي أنطاكية في القرن التاسع الميلادي حرسًا خاصًا يمنع الطوائف المسيحية المختلفة من أن يقتل بعضُها بعضًا في الكنائس»[6].

- سلطان الحضارة:

«واتخذ غير المسلمين على مَرِّ الزمن اللغة العربية لسانًا لهم، ولبسوا الثياب العربية، ثم انتهى الأمر باتِّباعهم شريعة القرآن، واعتناق الإسلام»[7].

(1) ول ديورانت: قصة الحضارة، 26/13.
(2) الزكاة والصدقات.
(3) ول ديورانت: قصة الحضارة، 59/13.
(4) السابق، 67/13.
(5) السابق، 130/13.
(6) ول ديورانت: قصة الحضارة، 132/13.
(7) السابق، 133/13.

- أحسن وأرحم:

«ولقد كانت جيوش العرب خيرًا من جيوش الفرس والروم نظامًا وأحسن قيادة، يألفون المشاق وينالون جزاءهم من الفيء، لقد كان في وسعهم أن يُحاربوا وبطونهم خاوية، ويعتمدوا على النصر في الحصول على طعامهم، ولكنهم لم يكونوا في حروبهم همجًا متوحشين، انظر إلى ما أوصاهم به أبو بكر (رضي الله عنه): «أوصيكم بعشر فاحفظوها عني: لا تخونوا، ولا تغلُّوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً صغيرًا، ولا شيخًا كبيرًا، ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة، ولا بعيرًا إلا لمأكله؛ وسوف تمرُّون بأقوام قد فَرَّغوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم وما فَرَّغوا أنفسهم له؛ وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام، فإذا أكلتم منه شيئًا فاذكروا اسم الله عليه: وتَلْقَوْنَ قومًا قد فحصوا[1] أوساط رءوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقًا... اندفعوا باسم الله.. إلخ»[2].

ولم يكن الأعداء يُخَيَّرُون بين الإسلام والسيف، بل كان الخيار بين الإسلام والجزية والسيف»[3].

- أعظم الأعمال إثارة للدهشة:

« أصبحت الفتوح العربية – التي كانت أسرع من الفتوح الرومانية، وأبقى على الزمان من الفتوح المغولية – أعظم الأعمال إثارة للدهشة في التاريخ الحربي كله»[4].

- خير كتاب عربي بإجماع الآراء:

«وأسلوب القرآن وسط بين الشعر والنثر، تتخلَّله كثير من الفقرات الموزونة المقفاة، ولكنها لا تتبع أوزانًا ولا قوافي خاصة منتظمة؛ وفي السور المكية الأولى نغمات موسيقية رنانة، وأسلوب جزل قوي لا يُدركه كل الإدراك إلا الملِمُّونَ باللغة العربية، الذين يعطفون على الدين الإسلامي، ولغة القرآنِ هي اللغة العربية الفصحى الخالصة، وهو غنيٌّ بالتشبيهات والاستعارات القوية الواضحة، والعبارات الخلابة، التي لا توائم ذوق الغربيين، وهو بإجماع الآراء خير كتابٍ وأول كتاب في الأدب النثري العربي»[5].

(1) فحصوا رءوسهم: أي حلقوا رءوسهم وعملوها مثل مكان وضع بيض الطائر. ابن منظور: لسان العرب، مادة فحص 63/7، والزبيدي: تاج العروس، باب الصاد فصل الفاء 64/18.

(2) ابن عساكر: تاريخ دمشق 50/2، 51، والطبري: تاريخ الأمم والملوك 246/2.

(3) ول ديورانت: قصة الحضارة، 72/13، 73.

(4) ول ديورانت: قصة الحضارة، 73/13.

(5) السابق، 52/13.

- تحرير المرأة:

ويَذْكُـر أن الإسـلام قد رفع «من مقام المرأة في بلاد العـرب... وقضى على عادة وأد البنات، وسـوّى بين الرجل والمرأة في الإجراءات القضائية والاسـتقلال المالي، وجعل من حقِّها أن تشـتغل بكل عمـل حلال، وأن تحتفظ بما لها ومكاسـبها، وأن ترث، وتتصرف في مالها كما تشـاء، وقضى على ما اعتاده العرب في الجاهلية من انتقال النسـاء من الآباء إلى الأبنـاء فيما ينتقل لهم من متاع، وجعل نصيب الأنثى في الميراث نصف نصيب الذكر، ومنع زواجهن بغير إرادتهن»[1].

- سواء بسواء:

وفي حديثه عن الأندلس قال: «كانت البنات يذهبن إلى المدارس سواء بسواء، ونبغ عدد من النساء المسلمات في الأدب والفنّ»[2].

- أعجب توسع شهده التاريخ:

«ولقد عَلَّم الإسـلامُ النـاس أن يُوَاجهوا صعاب الحياة، ويتحمَّلوا قيودها، بلا شـكوى ولا ملل، وبعثهم في الوقت نفسـه إلى التوسع توسـعًا كان أعجب ما شهده التاريخ كله، وقد عـرَّف الدين وحدَّده تحديدًا لا يجد المسـيحي ولا اليهـودي الصحيح العقيدة ما يمنعه من قبوله»[3].

- كتاب دين ودنيا:

«القانون والأخلاق في القرآن شـيء واحد؛ فالسـلوك الديني في كليهما يشـمل أيضًا السـلوك الدنيوي، وكل أمر فيهما موحى به من عند الله (عز وجل)، والقرآن يشـمل قواعد للآداب، وصحة الجسـم، والـزواج والطلاق، ومعاملـة الأبناء والعبيد والحيـوان، والتجارة والسياسة، والجريمة والعقاب، والحرب والسلم»[4].

- في الإسلام فقط:

«وليس في التاريخ دين غير دين الإسلام يدعو أتباعه على الدوام إلى أن يكونوا أقوياء، ولـم يُفلح في هـذه الدعوة دين آخر بقدر ما أفلح فيها الإسـلام: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[5]»[6].

(1) السابق، 60/13.
(2) السابق، 306/13.
(3) السابق، 69/13.
(4) ول ديورانت: قصة الحضارة، 59/13.
(5) (آل عمران: 200).
(6) ول ديورانت: قصة الحضارة، 68/13.

- إعجاز القرآن العملي:

«ظلَّ القرآن أربعة عشــر قرنًا من الزمان محفوظًا في ذاكرة المسلمين يستثير خيالهم، ويُشَــكِّل أخلاقهم. ويشــحذ قرائح مئــات الملايين من الرجال، والقــرآن يبعث في النفوس أســهل العقائد، وأقلها غموضًا، وأبعدها عن التقيد بالمراسم والطقوس، وأكثرها تحررًا من الوثنية والكهنوتية، وقد كان له أكبر الفضل في رفع مســتوى المسلمين الأخلاقي والثقافي، وهو الــذي أقام فيهم قواعد النظام الاجتماعي والوحــدة الاجتماعية، وحرَّضهم على اتباع القواعد الصحية، وحرَّر عقولهم من كثير من الخرافات والأوهام ومن الظلم والقسوة، وحسَّن أحــوال الأرقــاء، وبعث في نفــوس الأذلاء الكرامة والعزَّة، وأوجد بين المســلمين درجة من الاعتدال والبعد عن الشهوات لم يوجد لها نظير في أية بقعة من بقاع العالم يسكنها الرجل الأبيض»(1).

- أخطأ ديورانت.. ولكنه كان نزيهًا:

وفي مسألة الرقِّ سنجد خطأً غريبًا لا يجوز أن يقع فيه مؤرخ بقيمة ومكانة ول ديورانت: فإنه يذكر أن الســيد من المســلمين كان له حق الحياة والموت على عبده، في حين أن هذا خطأ معلوم؛ فالعبد في الإسلام كامل الإنسانية ويقتصُّ من سيده، ولكنه كان من النزاهة بما دفعــه لأن يقول: إن هذا لم يكن موجودًا بل «كان في العادة يُحســن معاملته إلى حَدٍّ لم يكن معه مركزه أســوأ من مركز العامل في المصانع الأوربية في القرن التاسع عشر، بل لعله كان أحسن حالاً من ذلك الصانع؛ لأنه كان آمن على حياته منه»(2).

- لحظات وَلَهٍ!

وكأنما تَحَوَّل ديورانت إلى مسلم وَالِهٍ وهو يتحدث عن الصلاة فيقول: «ألا ما أقوى هذه الدعوة! وما أشرفها من دعوة للقيام من النوم قبل مطلع الشمس! وما أحسن أن يقف الإنسان عن العمل وقت الظهيرة! وما أعظم وأَجَلَّ أن يتوجه الإنســان بروحه إلى الله جلَّ جلاله في سكون الليل! وما أحلى وقع صوت المؤذن على الأذان، أذان المسلمين وغير المسلمين، وهم يدعون النفوس الحبيسة في الأجسام الأرضية من فوق آلاف المساجد أن تتوجَّه إلى واهب الحيــاة والعقل، وتتصل به ذلك الاتصال الروحي الجليل! ففي هذه الأوقات الخمســة يجب على كل مسلم في جميع بقاع الأرض أن يُوقِفَ كل عمل أيًّا كان، ويتطهر، ويولي وجهه نحو مكة والكعبة ويُقيم الصلوات القصيرة، بنفس الصورة التي يؤدِّيها بها غيره من المسلمين»(3).

(1) السابق، 69.

(2) ول ديورانت: قصة الحضارة، 112/13.

(3) السابق، 120/13.

- أخلاق المسلمين:

«ويبدو بوجه عام أن المسلم كان أرقى من المسيحي في خُلقه التجاري، وفي وفائه بوعده، وإخلاصه للمعاهدات التي يعقدها مع غيره، ولقد أجمعت الآراء على أن صلاح الدين كان أنبل من اشترك في الحروب الصليبية. والمسلمون شرفاء فيما يختصُّ بعادة الكذب، فهم يُبيحون الكذب إذا كان فيه نجاة من الموت، أو حسم لخصومة، أو إدخال السرور على زوجة، أو خدعة في الحرب لأعداء الدين. والآداب الإسلامية تجمع بين التكلُّف والبشاشة، وحديث المسلم مليء بالتحية والمبالغة في التأدب، والمسلمون كاليهود يُحَيِّي بعضهم بعضًا، وينحني الواحد منهم لصاحبه ويصافحه، ويقول له: السلام عليكم. والرد الصحيح لهذه التحية: عليكم السلام ورحمة الله وبركاته. وإكرام الضيف من صفاتهم العامة»[1].

- صفات المسلم:

«المألوف أن المسلم كان مثال الرقة، والإنسانية، والتسامح، وكان - إذا وصفنا أواسط الناس - سريع الفهم، حادَّ الذكاء، سريع التهيج، يسهل إدخال السرور إلى قلبه، والمرح على نفسه: يجد الرضا في البساطة، ويصبر على بلواه في هدوء، ويتلقى جميع حوادث الأيام بصبر، وكرامة، وشمم، وكبرياء»[2].

- لكنهم لم يفعلوا:

«ولا يسعنا إلا أن نُسَلِّم - مع هذه التحفظات[3] - بأن الخلفاء الأولين من أبي بكر (رضي الله عنه) إلى المأمون، قد وضعوا النظم الصالحة الموفقة للحياة الإنسانية في رقعة واسعة من العالم، وأنهم كانوا من أقدر الحُكَّام في التاريخ كله، ولقد كان في مقدورهم أن يُصادروا كل شيء، أو أن يُخَرِّبُوا كل شيء، كما فعل المغول أو المجر أو أهل الشمال من الأوربيين؛ لكنهم لم يفعلوا هذا، بل اكتفوا بفرض الضرائب»[4].

- «لمسة ساحرة»:

«وقد استعادت مصر تحت حكم المسلمين مجدها الفرعوني؛ كما استعادت تونس ومرَّاكش بزعامة العرب ما كان لهما من حكومة منظمة؛ وازدهرت مدائن القيروان وبالرمو وفاس إلى حين، أما إسبانيا في عهد العرب فقد وصلت إلى الذروة في تاريخ الحضارة؛ ولما حكم المُغُل[5] المسلمون بلاد الهند فيما بعد شادوا كما يشيد الجبابرة، وأبدعوا كما يبدع الصيَّاغ»[6].

(1) السابق، 141/13.
(2) ول ديورانت: قصة الحضارة، 143/13، 144.
(3) يتحفظ ديورانت ويرى أن التمسك الشديد بالسنن يُعَطِّل التطور البشري، وهو ما لا نوافقه عليه، ونرى أنه يناقض نفسه حين يعترف بأن هؤلاء المتمسكين أنشئوا «النظم الصالحة الموفقة للحياة الإنسانية في رقعة واسعة من العالم».
(4) ول ديورانت: قصة الحضارة، 150/13.
(5) يقصد المغول
(6) السابق، 261/13.

- إنقاذ المصريين:

«وكان المسيحيون اليعاقبة في مصر قد قاسوا الأمرَّين من جرَّاء اضطهاد بيزنطة؛ ولهذا رَحَّبوا بقدوم المسلمين، وأعانوهم على استيلاء منفيس، وأرشدوهم إلى الإسكندرية»[1].

- كسر عادات الفاتحين:

وفي عبارة موجزة بديعة يقول ديورانت عن عمرو بن العاص: «وخالف ما جَرَتْ عليه عادة الفاتحين من أقدم الأزمنة فأعلن حرية العبادة لجميع أهل المدينة»[2].

- الدين المعاملة:

«وعامل الفاتحون أهل البلاد معاملة لَيِّنَة طيبة، ولم يُصَادروا إلا أراضي الذين قاوموهم بالقوة، ولم يفرضوا على الأهلين من الضرائب أكثر مما كان يفرضها عليهم ملوك القوط الغربيين، وأطلقوا لهم من الحرية الدينية ما لم تتمتع به إسبانيا إلا في أوقات قليلة نادرة»[3].

- أربعون عامًا فقط:

ولا أدلَّ على التسامح الإسلامي من أن ديورانت يُرجع تسامح أهل لانجويدك في جنوب فرنسا - والتي لم يُظَلِّلها الإسلام إلا أربعين عامًا فقط - إلى تلك الفترة في كل تاريخها، فيقول ديورانت: «ولكن الأربعين عامًا التي تَنَقَّلُوا خلالها في ذلك الإقليم كانت في أغلب الظنِّ ذات أثر قوي فيما يَتَّصف به أهل لانجويدك (Languedoc) من تسامح غير عادي بين الأديان المختلفة، ومن مرح كثير ومن حُبٍّ لأغاني الغزل غير المباح»[4].

- بلا تعليق!

«وكثيرًا ما كان المسيحيون يُفَضِّلون حكم المسلمين على حكم المسيحيين»[5].

ويقول - أيضًا - عن عصر السلاجقة والأيوبيين: «ولكنهم كانوا يُعَاملون اليهود والمسيحيين معاملة بلغ من تسامحها ولينها أن المؤرخين البيزنطيين يُحَدِّثُونَنَا عن جماعات مسيحية تطلب إلى الحكام السلاجقة أن يأتوا إليهم؛ ليطردوا حُكَّامها البيزنطيين الظالمين»[6].

- الشريعة الراقية:

«غير أن المسلمين - كما يلوح - كانوا رجالاً أكمل من المسيحيين؛ فقد كانوا أحفظ منهم للعهد، وأكثر منهم رحمة بالمغلوبين، وقلما ارتكبوا في تاريخهم من الوحشية ما ارتكبه

(1) السابق، 262/13.
(2) ول ديورانت: قصة الحضارة، 262/13.
(3) السابق، 282/13.
(4) السابق، 282/13.
(5) السابق، 297/13.
(6) السابق، 322/13.

المسيحيون عندما استولوا على بيت المقدس في عام (1099م)، ولقد ظلَّ القانون المسيحي يستخدم طريقة التحكيم الإلهي بالقتال أو الماء، أو النار، في الوقت الذي كانت الشريعة الإسلامية تضع فيه طائفة من المبادئ القانونية الراقية يُنَفِّذُها قضاة مستنيرون»[1].

- إلى هذا الحدّ من العظمة!

«كان صلاح الدين مستمسكًا بدينه إلى أبعد حدٍّ، وأجاز لنفسه أن يقسو أشد القسوة على فرسان المعبد والمستشفى[2]؛ ولكنه كان في العادة شفيقًا على الضعفاء، رحيمًا بالمغلوبين، يسمو على أعدائه في وفائه بوعده سموًّا جعل المؤرخين المسيحيين يعجبون كيف يخلق الدين الإسلامي – «الخاطئ» في ظنِّهم – رجلاً يصل في العظمة إلى هذا الحدِّ، وكان يُعَامل خدمه أرقَّ معاملة، ويستمع بنفسه إلى مطالب الشعب جميعها، وكانت قيمة المال عنده لا تزيد على قيمة التراب، ولم يترك في خزانته الخاصة بعد موته إلا دينارًا واحدًا؛ وقد ترك لابنه قبل موته بزمن قليل وصية لا تسمو فوقها أية فلسفة مسيحية»[3].

- اخْضَرَّ الجدب القاحل:

«لقد جاء العرب إلى بلادهم بشجرة البرتقال من الهند في وقت ما خلال القرن العاشر الميلادي، وأدخلوها في بلاد الشام، وآسيا الصغرى، وفلسطين، ومصر، وإسبانيا ثم انتقلت من هذه البلاد إلى جميع أنحاء أوربا الجنوبية، كذلك نقل العرب زراعة قصب السكر وصناعة السكر نفسه وتكريره من الهند، ونشروهما في جميع أنحاء الشرق الأدنى، ومن تلك البلاد نقلها الصليبيون إلى أوطانهم، وكان العرب أول من زرع القطن في أوربا، وقد استطاعوا إنتاج هذه المحاصيل من أرضين (أراضي) معظمها جدب قاحل بفضل وسائل الري المنظم»[4].

- الجنات الأربع:

ويقرر ديورانت أن الأرض في ذلك الزمان كان بها أربع جنات، كلها في الإمبراطورية الإسلامية فيقول: «ولم يَجْرِ الخلفاءُ في الميدان على سُنَّتِهم المألوفة من ترك الشئون الاقتصادية للمشروعات الحرَّة، بل كانت الحكومة تُشرف على قنوات الري الرئيسية،

(1) ول ديورانت: قصة الحضارة، 383/13.

(2) فرسان المعبد (الداوية Knights Templar)، وفرسان المستشفى (الإسبتارية HOSPITALLERS): كتائب عسكرية موجودة في جيش الصليبيين، بل يُعَدُّون الكتائب الأقوى والأكثر عنفًا وشراسة ووحشية؛ لارتباطهم المباشر بالكنيسة والبطريرك، أكثر من مجرد الارتباط الروحي الذي يشمل باقي فئات الجيش الصليبي المرتبط أساسًا بالملك أو الحاكم، وسياق الحديث في كلام ديورانت عن أن صلاح الدين امتاز بالرحمة، ولكنه في الحرب امتاز بالشدة والقسوة على الجيوش المحاربة.

(3) ول ديورانت: قصة الحضارة، 44/15، 45.

(4) السابق، 107/13.

وتتعهدها بالصيانة والتطهير، فأوصلت ماء الفرات إلى أرض الجزيرة، وماء دجلة إلى أرض فارس، وشُقَّت قناة كبيرة بين النهرين التوءمين عند بغداد، وكان خلفاء الدولة العباسية الأولون يُشجعون الأعمال الخاصة بتجفيف المستنقعات، وتعمير القرى المخربة والضياع، التي هجرها سكانها، وكان الإقليم المحصور بين بخارى وسمرقند يُعَدُّ في أثناء القرن العاشر (إحدى الجنات الأرضية الأربع) وكانت الثلاث الأخرى هي جنوبي فارس، وجنوبي العراق، والإقليم المحيط بدمشق في بلاد الشام»[1].

- طواحين الهواء.. ابتكار إسلامي:

«فالمسعودي أحد مؤرخي القرن العاشر، يقول: إنه شاهد هذه الطواحين في فارس وبلاد الشرق الأدنى، مع أننا لا نجد أثرًا لها في أوربا قبل القرن الثاني عشر، ولعلها كانت هدية أخرى أهداها الشرق الإسلامي إلى أعدائه الصليبيين»[2].

- الساعة شاهدة:

«وكان العرب على جانب كبير من المهارة الآلية الفنية، وشاهِدُ ذلك أن الساعة المائية التي أهداها هارون الرشيد إلى شارلمان قد صُنعت من الجلد والنحاس الأصفر المنقوش، وكانت تدل على الوقت بفُرْسَان من المعدن يفتحون كل ساعة بابًا يسقط منه العدد المطلوب من الكرات على صنجة، ثم ينسحبون ويُغلقون الباب»[3].

- سبقوا بثمانية قرون:

«بلغت بلاد آسيا الغربية تحت حكم المسلمين درجة من الرخاء الصناعي والتجاري لم تَصِلْ إليها بلاد أوربا الغربية قبل القرن السادس عشر»[4].

- إحياء الأرض:

«وفي زمن الخلفاء الراشدين مُسِحَت الأراضي، واحتفظت الحكومة بسجلاتها، وأنشأت عددًا كبيرًا من الطرق وعنيت بصيانتها، وأقيمت الجسور حول الأنهار لمنع فيضانها، وكانت العراق قبل الفتح الإسلامي صحراء جرداء، فاستحالت أرضها بعده جنانًا فيحاء، وكان كثير من أرض فلسطين قبيل الفتح رملاً وحجارة فأصبحت خصبة غنية، عامرة بالسكان»[5].

---

(1) ول ديورانت: قصة الحضارة، 107/13.
(2) السابق، 108/13.
(3) السابق، 108/13.
(4) السابق، 108/13.
(5) ول ديورانت: قصة الحضارة، 150/13.

- وإحياء النفوس والعقول:

«الخلفاء قد أَمَّنُوا الناس إلى حدٍّ كبير على حياتهم وثمار جهودهم. وهَيَّئُوا الفرص لذوي المواهب، ونشروا الرخاء مدى ستة قرون في أصقاع لم تَرَ قطُّ مثل هذا الرخاء بعد عهدهم. وبفضل تشـجيعهم ومعونتهم انتشـر التعليم، وازدهرت العلوم، والآداب والفلسـفة، والفنون ازدهارًا جعل آسيا الغربية مدى خمسة قرون أرقى أقاليم العالم كله حضارة»[1].

- أقصى حدود الرقي:

«ويمكـن القول بوجه عام: إن المجتمع الإسـلامي كان مجتمعًا ذا أدبٍ راقٍ إلى أقصى حدود الرقي؛ وما من شك في أن الشرق من عهد قورش إلى لي هونج تشانج قد فاق الغرب في الرقة والكياسـة: وكان من المظاهر التي تَشَـرُف بها الحياة في بغداد أن الفنون والعلوم التي لا يُحَرِّمها الإسـلام كانت كلها بلا استثناء تجد فيها من يُشَجِّعها ويأخذ بناصرها، وأن المدارس على اختلاف درجاتها كانت كثيرة العدد منتشرة في جميع الأنحاء، وأن الهواء كان يُرَدِّدُ أصداء الشعراء»[2].

- العلم للجميع:

«وكان تعليـم الأطفال يبدأ منذ اقتدارهم على الـكلام، فكانوا من هذه اللحظة يُعَلَّمُون النطـق بالشـهادتين: «أشـهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسـول الله». فـإذا بلغ الأطفال السادسة من العمر ألحق بعض أبناء الأرقاء، وبعض البنات، وجميع الأولاد، عدا أبناء الأغنياء (الذين كان لهم مدرسون خصوصيون) بمدرسة أولية ملحقة في العادة بأحد المساجد، وفي بعض الأحيان بجوار عين ماء عامة في الخلاء، وكان التعليم في هذه المدارس عادة بالمجان، فـإن لـم يكن فقد كان أجره تافهًا يسـتطيع أداءه جميع الناس، فقـد كان المعلم يتناول من والد الطفل ما لا يزيد على مليمين في الأسـبوع، أما باقي النفقات فكان يؤديها المحسـنون الخيرون»[3].

- ملاحظة:

ويلتقط ديورانت ملاحظة مهمة ومتميزة للحضارة الإسـلامية، فيسـجلها قائلاً: «وكان التعليم الأولي يهدف إلى تقويم الأخلاق، والثانوي إلى معرفة العلم»[4].

---

(1) السابق، 151/13.

(2) السابق، 165/13.

(3) ول ديورانت: قصة الحضارة، 167/13، 168.

(4) السابق، 168/13.

- مجانية التعليم:

«وضعت الحكومة هذه (المدارس الثانوية) تحت إشرافها، وتكفَّلت بالإنفاق عليها، وأُضيف إلى المنهج الديني الأساسي علم النحو، وفقه اللغة، والبلاغة، والأدب، والمنطق، والعلوم الرياضية، والفلك، وكان علم النحو يلقى اهتمامًا خاصًا؛ لأن اللغة العربية كانت تُعَدُّ أقرب اللغات إلى الكمال، وكان استعمالها صحيحةً أهم ما يمتاز به الرجل المثقف المهذب، وكان التعليم في هذه المدارس بالمجان، وكان المعلمون والطلاب يتناولون مرتباتهم ونفقاتهم في بعض الأحيان من الحكومة أو من أموال البر والصدقات»[1].

- التنمية البشرية!

«وكان الهدف الأعلى للطالب هو تحصيل الأدب بأوسع معانيه: العادات الحسنة، وسمو الذوق؛ وسرعة البديهة، والكياسة والظرف، والمعارف السهلة التي تُكَوِّن في مجموعها صفات الرجل الكامل المهذب»[2].

- بلاد العلم:

«فلم يكن الزائر إذا دخل مدينة في أي بلد من بلاد الإسلام يخالجه شكٌّ في أنه يستطيع الاستماع إلى محاضرة علمية في مسجد المدينة الأكبر في أية ساعة من ساعات النهار تقريبًا، وكان الطالب الجائل في كثير من الأحيان يجد في المدرسة المأوى والطعام مدة من الزمان، فضلاً عن التعليم المجاني»[3].

- .. وبلاد الكتب:

وعن انتشار الكتب ونسخها والأدب والشعر يقول ديورانت: «ويقول اليعقوبي[4] إنه كان في بغداد على أيامه (891م)[5] أكثر من مائة بائع للكتب، كانت حوانيتهم تُستخدم - فضلاً عن بيع الكتب - لنسخها، وكتابة الخطّ المزخرف، كما كانت ندوات أدبية، وكان كثير من الطلاب يحصلون على أرزاقهم بنسخ المخطوطات وبيعها لتجار الكتب، ونسمع في القرن العاشر الميلادي عن أناس يجمعون توقيعات العظماء وخطوطهم، وعن هواة للكتب يَسْعَوْنَ لجمعها، ويعرضون أثمانًا عالية للمخطوطات النادرة»[6].

(1) السابق، 13/168، 169.
(2) السابق، 13/169.
(3) ول ديورانت: قصة الحضارة، 13/169.
(4) أحمد بن جعفر بن إسحاق اليعقوبي من أقدم المؤرخين الإسلاميين، وتاريخه معروف باسم تاريخ اليعقوبي، توفي عام (292هـ=904م).
(5) يوافق عام (278هـ).
(6) ول ديورانت: قصة الحضارة، 13/170.

-.. والمكتبات:

«وكانت في معظم المساجد مكتبات، كما كان في معظم المدن دورٌ عامة للكتب تضم عددًا كبيرًا منها، وكانت مُفَتَّحة الأبواب لطلاب العلم، وكان في مدينة الموصل عام 950م مكتبة عامة أنشأها بعض المحسنين، يجد فيها مَنْ يَؤُمُّونها حاجتهم من الكتب والورق. وبلغت فهارس الكتب التي اشتملت عليها مكتبة الري العامة عشر مجلدات، وكانت مكتبة البصرة تعطي رواتب وإعانات لمن يشتغلون فيها من الطلاب، وقضى ياقوت الجغرافي[1] في مكتبتي مرو وخوارزم ثلاث سنين يجمع المعلومات التي يتطلبها كتابة معجم البلدان، ولما أن دَمَّر المغول بغداد كان فيها ست وثلاثون مكتبة عامة، فضلاً عن عدد لا يحصى من المكتبات الخاصة»[2].

ويضيف: «كان من العادات المألوفة عند الأغنياء أن يقتني الواحد منهم مجموعة كبيرة من الكتب، ودعا سلطان بخارى طبيبًا مشهورًا ليقيم في بلاطه، فأبى محتجًا بأنه يحتاج إلى أربعمائة جمل لينقل عليها كتبه، ولما مات الواقدي[3] ترك وراءه ستمائة صندوق مملوءة بالكتب، يحتاج كل صندوق منها رجلين لينقلاه، وكان عند بعض الأمراء كالصاحب بن عباد[4] من الكتب بقدر ما في دور الكتب الأوربية مجتمعة، ولم يبلغ الشغف باقتناء الكتب في بلد آخر من بلاد العالم - اللهم إلا في بلاد الصين في عهد منج هوانج - ما بلغه في بلاد الإسلام في القرون الثامن والتاسع والعاشر والحادي عشر، ففي هذه القرون الأربعة بلغ الإسلام ذروة حياته الثقافية»[5].

- وبلاد العلماء أيضًا:

«ولم يكن العلماء في آلاف المساجد المنتشرة في البلاد الإسلامية من قرطبة إلى سمرقند يقلون عن عدد ما فيها من الأعمدة، وكانت إيواناتها تُرَدِّد أصداء علمهم وفصاحتهم، وكانت طرقات الدولة لا تخلو من الجغرافيين، والمؤرخين، وعلماء الدين، يسعون كلهم إلى طلب العلم والحكمة؛ وكان بلاط مئات الأمراء يُرَدِّدون أصداء قصائد الشعراء والمناقشات الفلسفية، ولم يكن أحد يجرؤ على جمع المال دون أن يعين بماله الآداب والفنون»[6].

(1) هو ياقوت الحموي الجغرافي والمؤرخ والشاعر صاحب (معجم البلدان) و(معجم الأدباء) وتصانيف أخرى (ت 626 هـ.
(2) ول ديورانت: قصة الحضارة، 170/13.
(3) المؤرخ الأخباري الإسلامي المعروف (ت 207هـ).
(4) الوزير لمؤيد الدولة ثم فخر الدولة البويهي (ت 385هـ).
(5) ول ديورانت: قصة الحضارة، 171/13.
(6) السابق، 171/13.

- لم يكن يُحْصَى عددهم:

«وكان علماء الدين والنحاة يُعَدُّون بالمئات: أما الخطباء، وفقهاء اللغة، وأصحاب المعاجم، والموسوعات ودواوين الشعر، والمؤرخون، وكتاب السير فلم يكن يُحْصَى عددهم»[1].

- مباهج الأدب:

«وقد قوَّى علماء الإسلام في ذلك العهد دعائم الأدب العربي الممتاز بدراساتهم الواسعة للنحو الذي جعل اللغة العربية لغة النطق والقياس، وبما وضعوه من المعاجم التي جمعوا فيها ثروة هذه اللغة من المفردات في دقَّة ونظام، وبموسوعاتهم ومختصراتهم، وكتبهم الجامعة، والتي جمعت كثيرًا من أشتات الآداب والعلوم لولاها لخسرها العالم، وبمؤلفاتهم في النصوص، والأدب، والنقد التاريخي، ولا حاجة بنا إلى ذكر أسماء هؤلاء العلماء الأعلام، وحسبنا أن نعترف بفضلهم ونمجد أعمالهم»[2].

- وثراء الأدب:

«وفي وسع القارئ (إذا قرأ كتاب الفهرست لابن النديم) أن يحكم على ثراء الأدب الإسلامي أيامه، إذا عرف أن الكتب التي ذكرها - على ما نعلم - لم يبقَ منها الآن واحد في الألف»[3].

- المؤرخون المتفوقون:

«وخير ما يقال عن هؤلاء المؤرخين أنهم يفوقون غيرهم في اتساع دائرة جهودهم، ونواحي نشاطهم، واهتمامهم، وأنهم يربطون الجغرافية بالتاريخ ربطًا موفَّقًا صحيحًا، وأنهم لا يفوتهم شيء مما يتصل ببني الإنسان، وأنهم يعلون علوًا كبيرًا على معاصريهم في العالم المسيحي»[4].

- لم يَدَّخروا في سبيل التفاهم جهدًا:

«لم يُدركوا حتى الآن أن الصلات الاقتصادية بين الشعوب واعتماد بعضها على بعض يتطلبان أن يدرس كلاهما الآخر ويفهمه حق الفهم». ولكنه يحكي عن المسلمين فيذكر أنه: «لم يَدَّخر المسلمون في هذه القرون المجيدة من تاريخ الحياة الإسلامية جهدًا في العمل على إيجاد هذا التفاهم»[5].

(1) السابق، 307/13.
(2) السابق، 171/13، 172.
(3) ول ديورانت: قصة الحضارة، 172/13.
(4) السابق، 175/13.
(5) السابق، 176/13، 177.

- حركة ترجمة العلوم:

«لقد كان بنو أمية حكماء إذ تركوا المدارس الكبرى المسيحية، أو الصابئية، أو الفارسية، قائمة في الإسكندرية، وبيروت، وأنطاكية، وحَرّان، ونصيبين، وجنديسابور، ولم يمسوها بأذى، وقد احتفظت هذه المدارس بأمهات الكتب في الفلسفة والعلم، معظمها في ترجمة السريانية، واستهوت هذه الكتب المسلمين العارفين باللغتين السريانية واليونانية، وما لبثت أن ظهرت ترجماتها إلى اللغة العربية على أيدي النساطرة المسيحيين أو اليهود، وشجع الأمراء من بني أمية وبني العباس هذه الاستدانة العلمية المثمرة، وأرسل المنصور، والمأمون، والمتوكل الرسل إلى القسطنطينية وغيرها من المدن الهلنستية - وأرسلوهم في بعض الأحيان إلى أباطرة الروم أعدائهم الأقدمين - يطلبون إليهم أن يمدوهم بالكتب اليونانية، وخاصة كتب الطب أو العلوم الرياضية، وبهذه الطريقة وصل كتاب إقليدس في الهندسة إلى أيدي المسلمين»(1).

- بيت الحكمة:

«وأنشأ المأمون في بغداد عام 830 بيت الحكمة وهو مجمع علمي، ومرصد فلكي، ومكتبة عامة، وأنفق في إنشائه مائتي ألف دينار، وأقام فيه طائفة من المترجمين، وأجرى عليهم الأرزاق من بيت المال، ويقول ابن خلدون: إن الإسلام مدين إلى هذا المعهد العلمي باليقظة الإسلامية الكبرى، التي اهتزت بها أرجاؤه، والتي تشبه في أسبابها - وهي انتشار التجارة وإعادة كشف كنوز اليونان - وفي نتائجها - وهي ازدهار العلوم والفنون - نقول: إنها تشبه في أسبابها ونتائجها النهضة الأوربية التي أعقبت العصور الوسطى»(2).

- بفضلهم نجت مؤلفات اليونان من الفناء:

«عكف المترجمون على نقل أمهات الكتب من السريانية، واليونانية، والفهلوية، والسنسكريتية، وكان على رأس أولئك المترجمين المقيمين في بيت الحكمة طبيب نسطوري هو حُنين بن إسحاق (809-873م)، وقد ترجم وحده - كما يقول هو نفسه - إلى اللغة السريانية مائة رسالة من رسائل جالينوس ومدرسته العلمية... وبفضل ترجمته هذه نجت بعض مؤلفات جالينوس من الفناء... وكاد المأمون أن يُفلس بيت المال حين كافأ حُنين على عملِه هذا بمثل وزن الكتب التي ترجمها ذهبًا»(3).

---

(1) السابق، 177/13.
(2) ول ديورانت: قصة الحضارة، 177/13، 178.
(3) السابق، 178/13.

- لسان العرب استوعب العلوم:

«ولـم يحلَّ عام (850) بعد الميلاد حتى كانت معظم الكتب اليونانية القديمة في علوم الرياضة، والفلك، والطب قد تُرجمت إلى اللغة العربية»[1].

- من أعظم حوادث التاريخ:

«وإن انتقال العلوم والفلسـفة انتقالاً مسـتمرًا من مصر، والهند، وبابل، عن طريق بلاد اليونان وبيزنطة، إلى بلاد الإسلام في الشرق وفي إسبانيا، ومنها إلى شمالي أوربا وأمريكا، نقول: إن هذا الانتقال لمِنْ أَجَلِّ الحوادث وأعظمها شأنًا في تاريخ العالم»[2].

- الخوارزمي وعلم الجبر:

«ويدين علم الجبر - الذي نجد أصوله في مؤلفات ديوفانتوس اليوناني من رجال القرن الثالث - باسـمه إلى العرب، الذين ارتقوا بهذا العلم الكاشـف للخبايا الحلَّال للمعضلات، وأبرز الشـخصيات في هذا الميدان العلمي هي شـخصية محمد بن مُوسى (780-850م) المعروف بالخوارزمي... وأورد في كتابه حسـاب الجبر والمقابلة حلولاً تحليلية وهندسـية لمعادلات الدرجة الثانية، ولقد ضاع الأصل العربي لهذا الكتاب... وظلت ترجمته تُدَرَّس في الجامعات الأوربية حتى القرن السـادس عشر، ومنه أخذ الغرب كلمة الجبر وسموا بها ذلك العلم المعروف»[3].

- الكيمياء:

«ويكاد المسـلمون يكونون هم الذين ابتدعوا الكيمياء بوصفها علمًا من العلوم؛ ذلك أن المسلمين أدخلوا الملاحظة الدقيقة، والتجارب العلمية، والعناية برصد نتائجها في الميدان الذي اقتصر فيه اليونان - على ما نعلم - على الخبرة الصناعية والفروض الغامضة»[4].

- الصيدلة:

«وكان المسـلمون أول من أنشـأ مخازن الأدوية والصيدليات، وهم الذين أنشـئوا أول مدرسـة للصيدلة... ولا يكاد الطب الحديث يزيد شـيئًا على ما وصفوه من العلاج للجدري والحصبة»[5].

---

(1) السابق، 179/13.

(2) السابق، 180/13.

(3) ول ديورانت: قصة الحضارة، 181/13.

(4) السابق، 187/13.

(5) السابق، 189/13.

- **الطب:**

«ومن أشـــهر كتبه (يعني أبا بكر الرازي) كتاب الحاوي وهو كتاب في عشــرين مجلدًا، ويبحـــث فـــي كل فرع من فـــروع الطب، وقد تُرجم هـــذا الكتاب إلى اللغة اللاتينية وسـمِّيَ (Cntinens Liber)، وأغلب الظنِّ أنه ظلَّ عدة قرون أعظم الكتب الطبية مكانة، وأهم مرجع لهـــذا العلم في بلاد الرجل الأبيض، وكان من الكتب التســـعة التـــي تتألف منها مكتبة الكلية الطبيـــة في جامعة باريـــس عام (1394م)، وكانت رســـالته في الجـــدري والحصبة آية في الملاحظة المباشرة والتحليل الدقيق، كما كانت أُولى الدراسات العلمية الصحيحة للأمراض المعدية، وأول ه جهود يُبذل للتفرقة بين هذين المرضين، وفي وســـعنا أن نحكم على ما كان لهذه الرسالة من بالغ الأثر واتساع الشهرة إذا عرفنا أنها طُبعت باللغة الإنجليزية أربعين مرة بين عامي (1498، 1866م)»[1].

- **ابن الهيثم:**

«وليس في وســـعنا مهما قلنا عن ابن الهيثم أن نبالـــغ في بيان أثره في العلوم الأوربية، وأكبـــر ظننا أنه لولا ابن الهيثم لما ســـمع الناس قطُّ بروجـــر بيكون؛ وها هو ذا روجر بيكون نفســـه لا يكاد يخطو خطوة في ذلك الجزء الذي يبحث في البصريات دون أن يشير إلى ابن الهيثم أو ينقل عنه، والجزء السادس من هذا المؤلف يكاد كله يعتمد على كشوف هذا العالم الطبيعي ابن القاهرة، ولقد ظلت الدراسات الأوربية للضوء حتى ذلك العصر المتأخر عصر كبلر وليوناردو تعتمد على بحوث ابن الهيثم»[2].

- **عباس بن فرناس:**

وينقل ديورانت عن المقري أن «ابن فرناس اخترع في القرن التاسع الميلادي النظارات، والساعات الدقاقة معقدة التركيب، كما اخترع آلة طائرة»[3].

- **الشهرستاني:**

«وحلل محمد الشهرســـتاني في كتاب الملل والنحل (1128م) المشهور من أديان العالم وفلســـفاته، ولخصَّ تواريخها، ولم يكن في مقدور أحد من المســـيحيين في ذلك العصر أن يكتب كتابًا يماثله في غزارة مادته ونزاهته»[4].

(1) ول ديورانت: قصة الحضارة، 191/13.
(2) السابق، 275/13.
(3) السابق، 295/13.
(4) السابق، 340/13.

- ياقوت الحموي:

وبلغ من إعجاب ديورانت بالعالم الرحالة المسلم ياقوت الحموي وكتابه (معجم البلدان) آن قال: «ولسنا نعلم أن أحدًا أحب الأرض كما أحبها هذا العالم العظيم»[1].

- السابقون:

«ولم يكن هؤلاء الفلكيون يقبلون شيئًا إلا بعد أن تثبته الخبرة والتجارب العلمية، وكانوا يســيرون في بحوثهم على قواعد علمية خالصة، وكتب أحدهم - الفرغاني من أهل فرغانة وهـــي ولاية وراء جيحــون (حوالي عــام 860م) - كتابًا في الفلك ظلَّ مرجعًــا تعتمد عليه أوربا وغربي آســيا ســبعمائة عام، وأوسع منه شــهرة البتاني الذي ظلَّ واحدًا وأربعين عامًا يقوم بأرصاد فلكية اشــتهرت بدقتها واتســاع مداها، وقد وصل بهذه الأرصاد إلى كثير من (المعامــلات) الفلكية التي تمتاز بقربها العجيب من تقديرات هذه الأيام... ومنهم أبو الوفاء الذي كان يعمل تحت رعاية ســلاطين بني بويه الأولين حكام بغداد، والذي كشف الانحراف الثالث للقمر قبل أن يكشفه تيخو براهي بستمائة عام»[2].

- .. الموسوعيون:

«ويمثل أبو الريحــان محمد بن أحمد البيروني (973-1048م) العالِم الإســلامي في أحســن صورة له، فقد كان البيروني فيلســوفًا، مؤرخًا، ورحالة، وجغرافيًّا، ولغويًّا، ورياضيًّا، وفلكيًّا، وشاعرًا، وعالمًا في الطبيعيات - وكانت له مؤلفات كبيرة وبحوث عظيمة مبتكرة في كل ميدان من هذه الميادين، وكان عند المســلمين كما كان ليبنتز، ويوشــك أن يكون كما كان ليوناردو دافنشي»[3].

- الذروة.. إسلامية:

«الفتــرة الواقعة في أواخر القرن العاشــر وبداية القرن الحادي عشــر هي التي بلغت فيها الثقافة الإســلامية ذروتها، وهي التي وصل فيها الفكر في العصور الوســطى إلى أعلى درجاته»[4].

- الخلاصة:

«وجملة القول أن ابن ســينا أعظم من كتب في الطب في العصور الوسطى، وأن الرازي أعظم أطبائها، والبيروني أعظم الجغرافيين فيها، وابن الهيثم أعظم علمائها في البصريات،

(1) السابق، 359/13.
(2) ول ديورانت: قصة الحضارة، 182/13.
(3) السابق، 183/13.
(4) السابق، 186/13.

وجابر بن حيان أعظم الكيميائيين فيها، تلك أسـماء خمسة لا يعرف عنها العالَم المسيحي فـي الوقت الحاضر إلا القليل، وإن عدم معرفتنا إياها ليشـهد بضيق نظرتنا وتقصيرنا في معرفة تاريخ العصور الوسطى»[1].

- البحث العلمي:

«ولمـا أن أعلـن روجر بيكون هـذه الطريقة في أوربا بعد أن أعلنهـا جابر (بن حيان) بخمسـمائة عام، كان الذي هداه إليها هو النور الذي أضاء له السـبيل من عرب الأندلس، وليس هذا الضياء نفسه إلا قبسًا من نور المسلمين في الشرق»[2].

- وهذا أقل القليل:

«وليس ما نعرفه من ثمار الفكر الإسلامي في تلك القرون الثلاثة إلا جزءًا صغيرًا مما بقي من تراث المسـلمين، وليس هذا الجزء الباقي إلا قسـمًا ضئيلاً مما أثمرته قرائحهم؛ وليـس مـا أثبتناه في هذه الصحـف إلا نقطة من بحر تراثهم، وإذا كشـف العلماء عن هذا التراث المنسـي فأكبر ظننا أننا سـنضع القرن العاشـر من تاريخ الإسـلام في الشرق بين العصور الذهبية في تاريخ العقل البشري»[3].

- بلا منافس:

«ولـم تضارع حضارة من الحضـارات ولم يضارع عصر من العصور - لا نسـتثني من هذا التعميم (أي عصر) - الحضارة الإسـلامية في عهد الدولة العباسية في عدد شعرائها وتراثهم»[4].

- فنٌّ أنيق فيّاض:

«وتَخَطَّى الفن الإسـلامي الذي انتشر من قصر الحمراء في الأندلس إلى تاج محل في الهند - كل حدود الزمان والمكان، وكان يَسْـخَرُ مـن التمييز بين العناصر والأجناس، وأنتج طـرازًا فذًّا ولكنه متعدد الأنواع، وعبَّر عن الروح الإنسـانية بأناقة موفورة فياضة، لم يفقها شيء من نوعها حتى ذلك الوقت»[5].

(1) السابق، 196/13.
(2) ول ديورانت: قصة الحضارة، 196/13.
(3) السابق، 213/13.
(4) السابق، 225/13.
(5) السابق، 240/13.

- الأبراج الرشيقة:

وينقل ديورانت عن فرجسون (Fergusson) قوله معجبًا بالمآذن: «إنها أعظم الأبراج رشاقة في عمارة العالم كله»[1].

- فنُّ الزخرفة:

«وأكبر الظن أننا مدينون بما بلغه فنُّ الزخرفة من عظمة وفخامة إلى تحريم الساميين (الشرقيين) تمثيل صور الإنسان والحيوان في الفن! فكأنَّ الفنانين المسلمين أرادوا أن يُعَوِّضُوا هذا التحريم فاخترعوا هذا الفيض الغامر من الأشكال غير البشرية أو الحيوانية»[2].

- الفنُّ الذي لم يبلغه فنٌّ آخر:

«ولم يكن الفنان المسلم يرى أن أية مادة مهما قست تستعصي على فنِّهِ؛ ولهذا أصبح الخشب، والمعدن، والآجُرُّ، والجصُّ، والحجر، والقرميد[3]، والزجاج، والقاشاني - أصبحت هذه كلها وسائل يستخدمها لإظهار ما في خيالهِ من صور وأشكال فنية مجردة، لم يَسْمُ إلى مستواها فنٌّ آخر من قبلُ، لا نستثني من ذلك الفنَّ الصيني نفسه»[4].

- أجمل ما رأته العين من الكتب:

وبعد أن استعرض ديورانت جماليات الخط العربي والزخارف العربية الخطية قال: «حُقَّ لنا أن نقول دون أن نُتَّهَمَ بالمغالاة: إن الكتب الإسلامية من بداية القرن التاسع إلى القرن الثاني عشر هي أجمل ما رأته العين من الكتب في العالم كله. وهل مِنَّا مَنْ لا يطمع في أن تنشر كتبه بهذا الرونق وتلك الفخامة؟!»[5].

- البهاء العربي في بلاط صقلية:

«ولقد كان نصف ما امتازت به صقلية النورمانية من البهاء والعظمة صدًى لعهدها العربي الزاهر، وتراثًا شرقيًّا من الصناعات والصناع أورثه العرب ثقافة فتية راغبة في أن تتلقى العلم على أي جنس وأي دين»[6].

ثم يذكر كيف تمَّ محو آثار المسلمين وحضارتهم فيقول: «ولما فتح أهل الشمال (النورمان) صقلية (1060-1091م) أعانوا بفتحهم الزمان على محو آثار المسلمين في صقلية؛ وها هو

(1) السابق، 244/13.

(2) ول ديورانت: قصة الحضارة، 244/13.

(3) القرميد: حجارة مصنوعة تنضج بالنار ويبنى بها أو يغطى بها وجه البناء. الزبيدي: تاج العروس، باب الدال فصل القاف32/9، والمعجم الوسيط ص730.

(4) ول ديورانت: قصة الحضارة، 245/13.

(5) السابق، 254/13.

(6) السابق، 280/13.

ذا الكونت روجر (Count Roger) يفخر بأنه قد سوى بالأرض (المدائن، والقلاع، والقصور العربية التي بذل المسلمون في إقامتها أعظم الفنون وأعجبها)، ولكن الطراز المعماري الإسلامي خلف طابعه على قصر لازيزا، وعلى سقف كابلا بلاتينا (Capella Polatina)، ففي هذا المعبد القائم في قصر الملوك النورمان زُيِّنَ المزار المسيحي بالنقوش العربية الإسلامية»[1].

- الثراء والرخاء:

«وبلغت الإيرادات في أيام عبد الرحمن الثالث 12.045.000 دينار ذهبي (أي ما يعادل 75.213.750 دولار أمريكي) وأكبر الظن أن هذا كان يفوق إيرادات حكومات البلاد المسيحية اللاتينية مجتمعة، ولم يكن مصدر هذه الإيرادات هو الضرائب العالية بقد ما كان أثرًا من آثار الحكم الصالح، وتقدم الزراعة والصناعة، ورواج التجارة»[2].

- قرطبة مدينة العلماء:

«كانت في القرن العاشر مركز الحياة الذهنية الإسبانية وذروتها، وإن اشتركت معها طليطلة، وغرناطة، وإشبيلية فيما وصل إليه ذلك العصر من رقي عقلي عظيم، ويصور المؤرخون المسلمون المدن الأندلسية تموج بالشعراء وجهابذة العلماء في العلوم الطبيعية، والأدبية، وكبار المشترعين، والأطباء؛ ويملأ المقري بأسمائهم ستين صحيفة»[3].

-.. وملجأ الأوربيين:

« وكانت قرطبة في ذلك الوقت المدِينة التي يلجأ إليها الأوربيون لتُجْرَى لهم الجراحات»[4].

- آثار السلاجقة:

«وهذه الآثار تسخر من القائلين بأن الأتراك كانوا قومًا همجًا؛ فكما أن الحكام والوزراء السلاجقة كانوا من أقدر الساسة والحكام في التاريخ، كذلك كان المهندسون السلاجقة من أقدر البنائين وأشجعهم في عصر الإيمان الذي يمتاز بضخامة مبانيه وأعظمها قوة»[5].

(1) ول ديورانت: قصة الحضارة، 280/13.
(2) السابق، 293/13.
(3) السابق، 306/13.
(4) السابق، 309/13.
(5) السابق، 334/13.

- **عجائب الصنائع:**

وعن الفنون اليدوية في العصور الإسلامية الوسيطة ويُحَدِّدها هو بـ (1058-1250م) وهذا ما يوافق (477-647 هـ)[1] يقول ديورانت: «ولم تكن الفنون الصغرى في بلاد الإسلام مما تنطبق عليها هذه التسمية التي تبخسها حقها؛ فقد كانت حلب ودمشق في هذا العصر تصنعان العجائب من الآنية الزجاجية الهشة، والمزخرفة بالميناء[2]، وصنعت القاهرة للمساجد والقصور قناديل من الزجاج المزخرف بالميناء - أيضًا - يبذل هواة التحف الفنية في هذه الأيام أقصى جهودهم للحصول عليها، وكانت كنوز الفاطميين التي فَرَّقها صلاح الدين تحتوي على آلاف من الزهريات المصنوعة من البلور والجزع البقراني[3]، بلغ صانعوها من المهارة الفنية ما يعجز عنه الفنانون في هذه الأيام، وبلغ فن الزخارف المعدنية الآشوري القديم في مصر والشام درجة من الإتقان لم يُسبق لها مثيل، ومن هذين القطرين انتقل هذا الفنُّ إلى البندقية في القرن الخامس عشر»[4].

- **عصر الإسلام:**

«لقد ظلَّ الإسلام خمسة قرون من عام (700م) إلى عام (1200م) يتزعم العالم كله في القوة، والنظام، وبسطة الملك، وجميع الطباع والأخلاق، وفي ارتفاع مستوى الحياة، وفي التشريع الإنساني الرحيم، والتسامح الديني، والآداب، والبحث العلمي، والعلوم، والطب، والفلسفة... وكان الفنُّ والثقافة في بلاد الإسلام أعمَّ وأوسع انتشارًا بين الناس مما كانا في البلاد المسيحية في العصور الوسطى؛ فقد كان الملوك أنفسهم خَطَّاطين، وتجارًا، وكانوا أطباء، وكان في مقدورهم أن يكونوا فلاسفة»[5].

- **عصر التاريخ الذهبي:**

وبعبارات بليغة وبعد حوالي أربعمائة صفحة من الحديث عن الإسلام وحضارته يُقَرِّر ديورانت أن «القارئ العادي ستعتريه الدهشة من طول هذه الإلمامة بحضارة المسلمين، وسيأسف العالم الباحث لما يجده فيها من إيجاز غير خليق بها، إن عصور التاريخ الذهبية دون غيرها هي التي أنجب فيها المجتمع - في مثل هذا الزمن القصير - ذلك العدد الجمّ

(1) وهذه بالطبع تحديدات تقريبية غير صارمة، خاصة عند دراسة الجوانب الاجتماعية والحضارية.

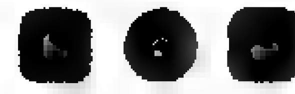
(2) الميناء: جوهر الزجاج، وطلاء تغشى به المعادن وغيرها. ابن منظور: لسان العرب، مادة ونى 415/9، والزبيدي: تاج العروس، باب الواو والياء، فصل الواو 260/4، والمعجم الوسيط ص1059.

(3) الجزع: ضرب من العقيق يُعرف بخطوط متوازية مستديرة مختلفة الألوان والحجز في جملته بلون الظفر، المعجم الوسيط ص121، والبقراني: نسبة إلى بَقْرَان: وهو وَادٍ ، أو جَبلٌ في اليمن، تُجْلَبُ منه الفُصُوص والذهب. الزبيدي: تاج العروس، باب الراء فصل الباء 10/235.

(4) ول ديورانت: قصة الحضارة، 335/13، 336.

(5) السابق، 382/13.

مــن الرجال الذين ذاع صيتهم في الحكم، والتعليــم، والآداب، واللغة، والجغرافية، والتاريخ، والرياضــة، والفلك، والكيمياء، والفلســفة، والطب، كما أنجب الإســلام في الأربعة القرون الفاصلة بين هارون الرشــيد وابن رشــد، وقد استمدَّ بعض هذا النشاط المتلألئ مادته من تراث اليونان، ولكن الكثير منه – وبخاصة في الحُكم، والشــعر، والفن – كان نشــاطًا مبتكرًا لا تُقَدَّر قيمته»[1].



(1) ول ديورانت: قصة الحضارة، 387/13.



واشنطون إيرفنج (Washington Irving):

(1783-1859م)

مستشرق أمريكي، أَوْلَى اهتمامًا كبيرًا لتاريخ المسلمين في الأندلس، من آثاره: (سيرة النبي العربي) مذيلة بخاتمة لقواعد الإسلام ومصادرها الدينية عام (1849م)، و(فتح غرناطة) عام (1859م)، و(أوراق إسبانيا مستخرج من مجلة الثقافة الإسلامية)، في 568 صفحة ومطبوع في فلادلفيا.



- أكثر شمولاً وتفصيلاً:

«كانت التوراة في يوم ما هي مرشد الإنسان وأساس سلوكه، حتى إذا ظهر المسيح (عليه السلام) اتبع المسيحيون تعاليم الإنجيل، ثم حلَّ القرآن مكانهما؛ فقد كان القرآن أكثر شمولاً وتفصيلاً من الكتابين السابقين، كما صحَّح القرآن ما قد أُدْخِلَ على هذين الكتابين من تغيير وتبديل، حوى القرآن كل شيء، وحوى جميع القوانين؛ إذ إنه خاتم الكتب السماوية»[1].

- دعوة إلى السمو:

«يدعو القرآن إلى الرحمة والصفاء وإلى مذاهب أخلاقية سامية»[2].

- توَّج انتصاره بالرحمة:

«كانت تصرفات الرسول (ﷺ) في أعقاب فتح مكة تدل على أنه نبي مرسل لا على أنه قائد مظفر؛ فقد أبدى رحمةً وشفقةً على مواطنيه برغم أنه أصبح في مركز قوي، ولكنه توَّج نجاحه وانتصاره بالرحمة والعفو»[3].

- خاتم النبيين وأعظم الرسل:

«كان محمد (ﷺ) خاتم النبيين، وأعظم الرسل الذين بعثهم الله ليدعو الناس إلى عبادة الله»[4].

(1) واشنطون إيرفنج: حياة محمد، ص72.
(2) السابق، ص304.
(3) السابق، ص72.
(4) السابق، ص72.

- حتى في أوج مجده:

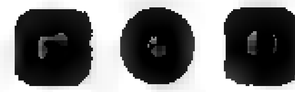
«برغم انتصارات الرسول (ﷺ) العسكرية لم تُثِرْ هذه الانتصارات كبرياءه أو غروره، فقد كان يحارب من أجل الإسلام لا من أجل مصلحة شخصية، وحتى في أوج مجده حافظ الرسول (ﷺ) على بساطته وتواضعه، فكان يكره إذا دخل حجرة على جماعة أن يقوموا له، أو يبالغوا في الترحيب به، وإن كان قد هدف إلى تكوين دولة عظيمة، فإنها كانت دولة الإسلام، وقد حكم فيها بالعدل، ولم يُفَكِّر أن يجعل الحكم فيها وراثيًّا لأسرته»(1).

- «أَجْوَدُ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ»:

«كان الرسول (ﷺ) يُنفق ما يحصل من جزية، أو ما يقع في يديه من غنائم في سبيل انتصار الإسلام، وفي معاونة فقراء المسلمين، وكثيرًا ما كان يُنفق في سبيل ذلك آخر درهم في بيت المال.. وهو لم يخلف وراءه دينارًا أو درهمًا أو رقيقًا... وقد خيَّره الله بين مفاتيح كنوز الأرض في الدنيا وبين الآخرة فاختار الآخرة»(2).

- في سبيل الحقّ:

«لقي الرسول (ﷺ) من أجل نشر الإسلام كثيرًا من العناء، وبَذَل عِدَّة تضحيات، فقد شكَّ الكثير في صدق دعوته، وظلَّ عِدَّة سنوات دون أن ينال نجاحًا كبيرًا، وتعرَّض خلال إبلاغ الوحي إلى الإهانات والاعتداءات والاضطهادات، بل اضطر إلى أن يترك وطنه ويبحث عن مكان يُهاجر إليه هنا وهناك، وتخلَّى عن كل مُتَع الحياة، وعن السعي وراء الثراء من أجل نشر العقيدة»(3).



(1) واشنطون إيرفنج: حياة محمد، ص302، 303.
(2) السابق، ص303.
(3) السابق، ص300.

د. ميلر بروز (Millar Burrows):

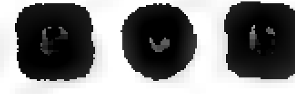
مستشرق أمريكي رئيس قسم لغات الشرق الأدنى وآدابه، وأستاذ الفقه الديني الإنجيلي في جامعة بيل، وعمل أستاذًا بجامعة براون، وأستاذًا زائرًا بالجامعة الأمريكية في بيروت، ومديرًا للمدرسة الأمريكية للبحوث الشرقية بالقدس.



- إشارات القرآن العلمية:

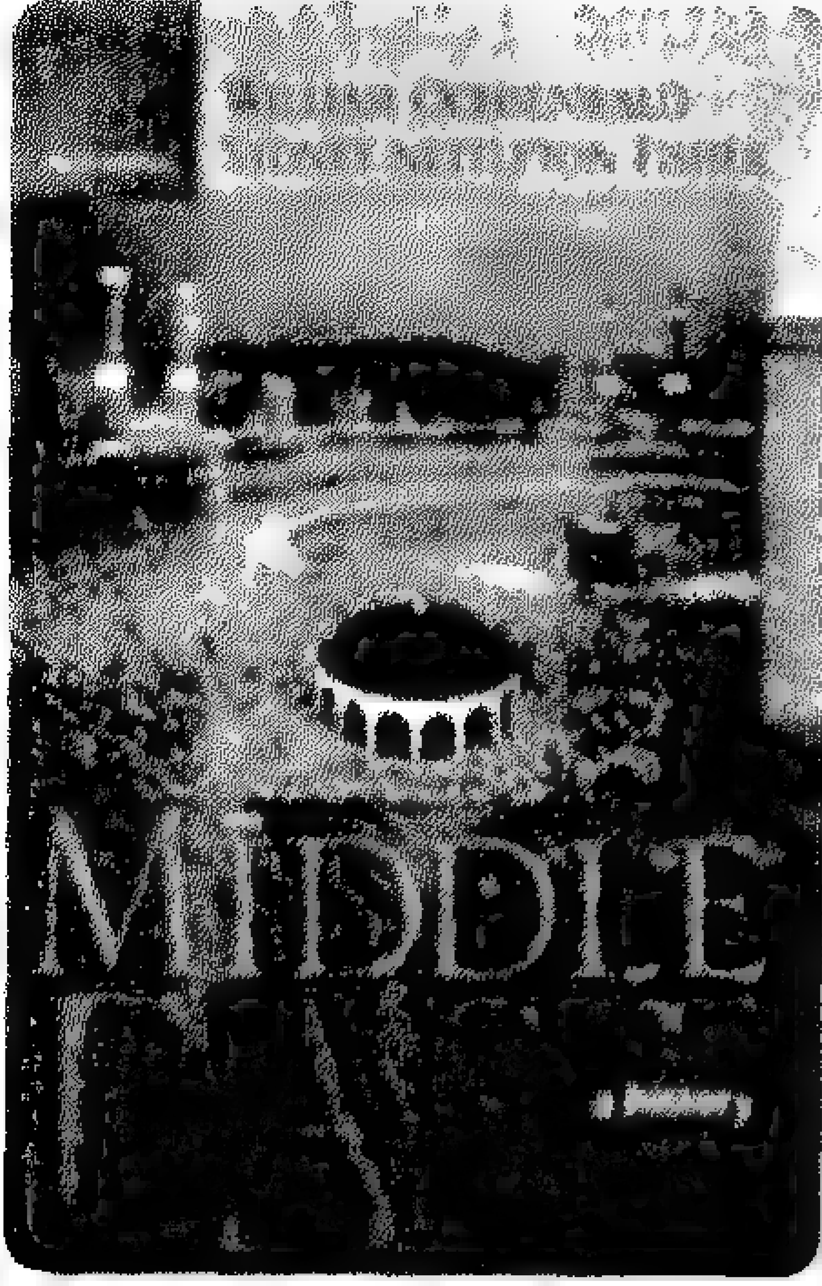
«هناك آية في القرآن يمكن أن يُستنتج منها أنه لعلَّ من أهداف خَلْق المجموعة الشمسية لفت نظر الإنسان لكي يدرس علم الفلك ويستخدمه في حياته: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾[1]، وكثيرًا ما يُشير القرآن إلى إخضاع الطبيعة للإنسان، باعتبارها إحدى الآيات التي تبعث على الشكر والإيمان: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُواْ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُواْ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾[2]، ويذكر القرآن، لا تسخير الحيوان واستخدامه فحسب، ولكن يذكر السفن أيضًا.. فإذا كان الجمل والسفينة من نِعَم الله العظيمة، أفلا يَصْدُق هذا أكثر على سكة الحديد والسيارة والطائرة».

«إن أعظم نتائج العلم يمكن أن تُستخدم في أغراض هدمية أو بنائية، وربما كان هذا هو المقصود بما ورد في القرآن خاصًا باستخدام الحديد: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾[3]، وأظهرُ مثال من هذا الآن بالضرورة هو استخدام النشاط الذري - الذي نشطت بحوثه - لضرورة حربية»[4].



(1) (يونس: 5).
(2) (الزخرف: 12 ، 13).
(3) (الحديد: 25).
(4) ميلر بروز: الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، ص51.

سدني فيشر (Sydney Nettleton Fisher):



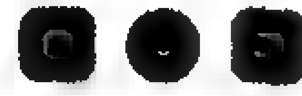
أســتاذ التاريخ في جامعة أوهايو الأمريكية، وصاحب الدراســات المتعددة في شــئون البلاد الشرقية التي يدين الأكثرون من أبنائها بالإسلام، مؤلف كتاب: (الشرق الأوسط في العصر الإســلامي)، والذي يناقش فيه العوامل الفعالة التــي يرجع إليها تطور الشــعوب والحوادث في هذه البلاد وأولها الإسلام.

(The Middle East: A History = الشرق الأوسط)



- أجمل الفضائل وأرجحها:

«.. إن القــرآن كتاب تربية وتثقيــف، وليس كل ما فيه كلامًا عن الفرائض والشــعائر، وإن الفضائل التي يحثُّ عليها المســلمين من أجمل الفضائل وأرجحها في موازين الأخلاق، وتتجلَّى هداية الكتاب في نواهيه كما تتجلَّى في أوامره..»[1].



(1) سدني فيشر: الشرق الأوسط في العصر الإسلامي، نقلاً عن العقاد: ما يقال عن الإسلام، ص54.

لوثر جوليك (Luther Gulick) وجيمس بولوك (James Pollock):

عالمـــان أمريكيان من خبراء الإدارة، اســـتجلبتهم مصر عـــام (1962م) لإعادة هيكلة الجوانب الإدارية للدولة.



- الحاجة ماسة إلى المنهج الإسلامي:

«إننـــا نُدرك حق الإدراك أن النظم الحكومية تتكيَّف وَفق مقتضيات الجوِّ الثقافي الذي تُوجد فيه، ولا يمكن بحث خطط إعادة تنظيم جهاز أية حكومة أو إجراءاتها بمعزل عن تعرُّف التيارات العامة التي تسود حياة الأمة، والمعتقدات الأساسية التي تدين بها.

غيـــر أن الحكومة - أيضًا - تُعتبر مـــن القوى الإيجابية في التغيير والتطوير؛ وآية ذلك واضحة فيما تمَّ خلال الأعوام العشرة التي انقضت على قيام الثورة المصرية.

لهذا كان على مَنْ يتأمَّل في المستقبل، ويقترح إدخال تغييرات هامة أن يعنى حقَّ العناية بدراسة قوتين كبيرتين:

أولهما: التأثير القوى للثقافة، الذي يميل إلى الإبقاء على التقاليد الموروثة.

الثانية: القيمة الخلَّاقة المبدعة للجديد من الأفكار والنظم التي قد تُغَيِّر وضع شـــعب من الشعوب؛ بأن تدفعه إلى حياة جديدة ذات قيم ومعتقدات جديدة.

ومـــن المهم أن نعترف منذ البداية بأن أمر جهاز الحكم ليس بأهم الأمور؛ فالمعتقدات والقيم التي يتركز عليها تفوقه أهمية وخطورة، فإذا اســـتطاع الجهاز الجديد أن يبتعث هذه المعتقدات والقيم، وأن يصوغها ويُشَـــكِّلها في صورة نظم، فإن التقدُّم الذي يحرزه الشـــعب حقًّا لا يكمن في النظم الحكومية، بل فيما تقوم عليه من قوى أخلاقية وفلسفية وروحية.

لهذا كان على المسئولين عن إعادة تنظيم الجهاز الحكومي على نحوٍ جذريٍّ أن يستهدوا بهدي ثقافة الأمة ذاتها، وفهم المعتقدات والقيم التي تسير عليها الأمة في حياتها.

وكان مـــن المتعذَّر علينا أن نفهم تلـــك المعتقدات والقيم؛ لأننا ننتمي إلى ثقافة أخرى؛ لهـــذا بذلنا جهدًا مُتَّصِلاً للتعرُّف عليها، لا عن طريق القراءة فحســـب، بل كذلك عن طريق الاجتماع بالقادة في ميادين الدين والأخلاق والفلســـفة؛ لكي نتبيَّن تيارات الثقافة المصرية التي يبدو أن لها تأثيرًا أساسيًّا في المشكلات التي نبحثها.

وقـد راعنا خلال البحث أن اهتدينا إلى عدد من المعتقدات الأساسـية الوثيقة الصلة بتلك المشـكلات، وإننا لَنُورِدُ تلك المعتقدات فيما يلي، في صورة بالغة الإيجاز، خالية مما تستحقه من إفاضة وتفصيل:

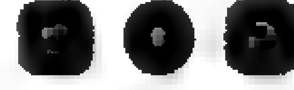
- الناس سواسية أمام الله، ومن ثَمَّ أمام القانون.
- ليـس للحاكـم ولا لرجل الديـن ولا لأية فئة أن تَحُولَ بين المـرء وحقوقه وواجباته، أو تفصل بينه وبين الله.
- الاستغلال الشخصي للنفوذ يَأْبَاه الخُلق الكريم.
- نظام القيادة نظام مستحبٌّ من حيث المبدأ، ولكن كل راعٍ مسئول أمام الله عن رعيته؛ وبذا يكون مسئولاً عن رعاية شئون الناس، ولا تكون القيادة بالوراثة، بل بالاختيار... ويُبَرِّر قيامها ما تلتزم به من مستويات خلقية، وما تُقَدِّمه من خدمات.
- الأخذ بالشـورى على الصعيدين المحلي والقومي أمر لا بُدَّ منه في اتخاذ القرارات والأعمال الحكومية والانتخابات.
- نظـام الملكيـة الفردية حقٌّ مقدَّس ينطوي على ضرورة اسـتخدام الممتلكات بنحوٍ مثمر، مع تخصيص قدرٍ من الدخل في عَوْنِ المُعْوَزِينَ، وخدمة المجتمع والضرائب، (الزكاة والإنفاق).
- للمجتمع وللحكومة التي يُقِيمَا المجتمع على أسـاس الشـورى أن يُقَرِّرا ما يدخل في بـاب المعروف، وما يدخل في باب المنكر، اسـتنادًا إلى المبـادئ الخلقية والدينية المقرَّرة.
- العمل له مكانته الخاصة، ويستحقُّ العامل أجرًا عادلاً على عمله.
- الإنسان مُكَلَّف بكسب العلم، وإعمال العقل، واستخدام المعرفة التي حَصَّلها على هذا النحو من نفع الناس ومرضاة الله.

ويتجلَّى مِنْ تَعَمُّق هذه النقاط أن الثقافة الإسـلامية من أصلح الأسـس للحكم الناجح في العصر الحديث.

وليس هذا فحسـب، بل إنها كذلك تُقَدِّم للشعب المصري المبادئ التي يمكن أن يُقيموا عليها ديمقراطيتهم الجديدة، التي تتميز بالقيادة الإيجابية الفعالة، ومشـاركة الشـعب في الحكم، وتحرِّي استخدام الثروة الخاصة والعامة لخير الأمة.

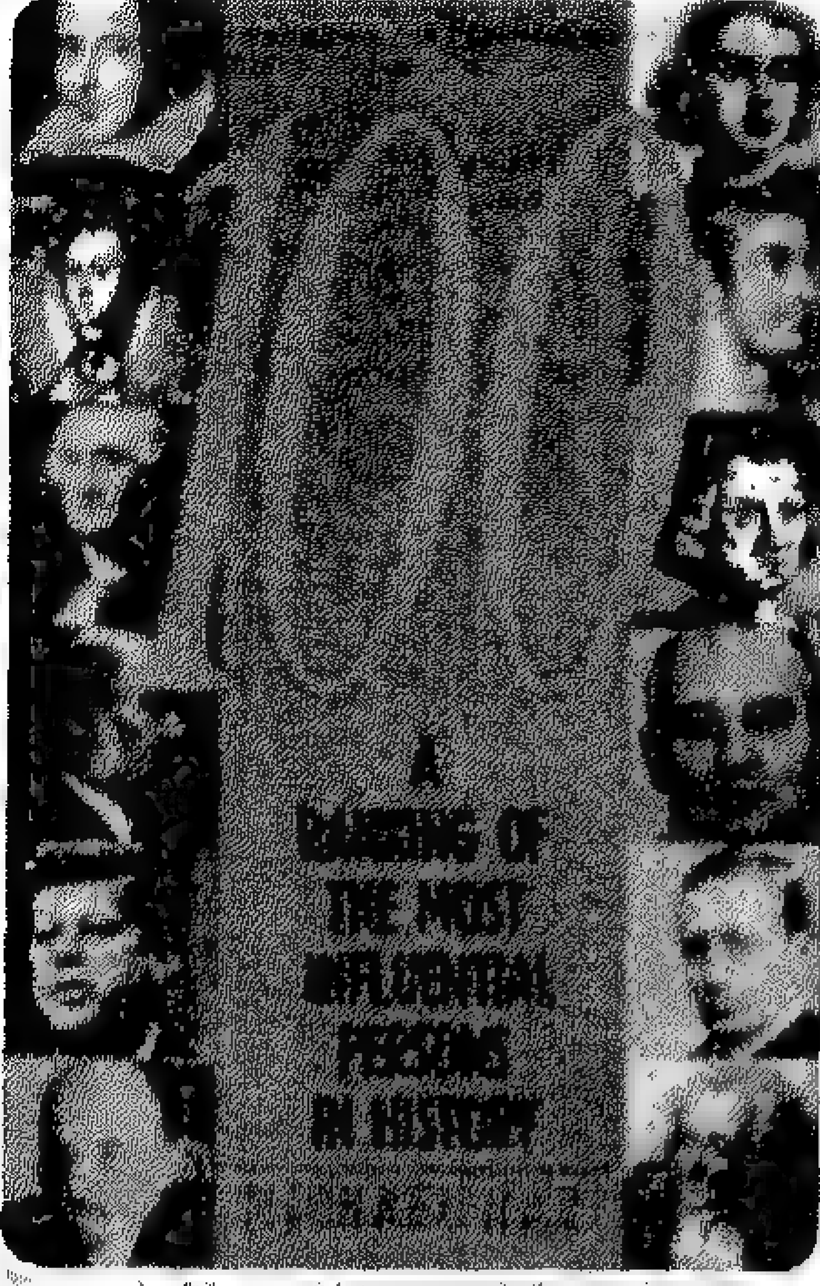
إذا صحَّ ما ذهبنا إليه في تلك العجالة القصيرة، فإن الثقافة الإسلامية تكون أبعد الأشياء عن إعاقة سير التقدُّم والتطور في النظم الحكومية، كما تكون أبعد الأشياء عن الدعوة إلى الطاعة العمياء أو التشبث بالتقاليد العتيقة: ذلك أن الثقافة الإسلامية تُشَجِّع الإنسان على استخدام عقله في تقدير مقتضيات العالم الحديث، مع الاطمئنان إلى القيادة المسئولة. وتبادل الرأي والمشورة.

وهذا على التحديد هو المنهج الذي صارت الحاجة ماسة إليه»[1].



(1) هذا الجزء نشره د. محمد المحمدي ماضي، أستاذ الإدارة الاستراتيجية بكلية التجارة جامعة القاهرة في مجلة الإدارة عدد يوليو 2008م.

مايكل هارت (Michael Hart):



وهـــو عالم فلك ورياضيات ومــؤرخ أمريكي، يعمل في هيئة الفضاء الأمريكية، حصل على شـهادة الليسانس في الرياضيـــات من جامعـــة كورنيل عام (1952م)، وشـــهادة ليســـانس في القانون من جامعة نيويـورك عام (1958م)، وشـــهادة ماجســـتير فــي العلوم مــن جامعـــة إديلفي عام (1969م)، وشـــهادة دكتوراه في الفلك من جامعة برنستون عام (1972م).

من أشــهر كتبه: (الخالدون المائة)، وفيه قام بالبحث فــي التاريخ عــن الرجال الذين كان لهــم أعظم تأثير على البشر.

(الخالـــدون مائة أعظمهـــم محمـــد = The 100, a Ranking of the Most Influential Persons in History)



- الوحيد الذي نجح نجاحًا مطلقًا:

«لقد اخترتُ محمدًا (ﷺ) ليكون الأول في قائمة أهم رجال التاريخ، ولا بُدَّ أن يندهش كثيرون لهذا الاختيار، ومعهم حقٌّ في ذلك، ولكن محمدًا (ﷺ) هو الإنسان الوحيد في التاريخ الذي نجح نجاحًا مطلقًا على المستوى الديني والدنيوي.

وهو قد دعا إلى الإســـلام، ونشــره كواحد من أعظم الديانات، وأصبح قائدًا سياســـيًّا وعسكريًّا ودينيًّا، وبعد 13 قرنًا من وفاته فإن أثر محمد (ﷺ) ما يزال قويًّا متجدِّدًا»[1].

- أعظم زعيم سياسي:

«ولمـــا كان الرســـول (ﷺ) قوة جبارة، فيمكن أن يُقال: إنه أعظم زعيم سياســـي عرفه التاريخ.

وإذا اســـتعرضنا التاريـــخ.. فإننا نجد أحداثـــًا كثيرة من الممكن أن تقـــع دون أبطالها المعروفين... مثلاً كان يمكن أن تســـتقلَّ مســـتعمرات أمريكا الجنوبية عن إســـبانيا دون أن

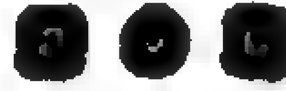
(1) مايكل هارت: الخالدون مائة أعظمهم محمد (ﷺ)، ص13.

يتزعّم حركاتها الاستقلالية رجل مثل: سيمون بوليفار.. هذا ممكن جدًّا، على أن يجيء بعد ذلك أي إنسان ويقوم بنفس العمل.

ولكن من المستحيل أن يُقال ذلك عن البدو وعن العرب عمومًا، وعن إمبراطوريتهم الواسعة دون أن يكون هناك محمد (ﷺ)، فلم يَعْرِف العالم كله رجلاً بهذه العظمة قبل ذلك، وما كان من الممكن أن تتحقّق كل هذه الانتصارات الباهرة بغير زعامته وهدايته، وإيمان الجميع به»[1].

- امتزاج بين الدين والدنيا:

وعن أن أثر النبي (ﷺ) باقٍ حتى لحظتنا هذه، بدليل أن الدول العربية وإن كان بينها بعض الخلافات، إلا أنها متوحّدة في اللغة والثقافة والتاريخ، واشتركت معًا في حظر النفط عن العالم الغربي عام (1973م)، يقول هارت: «هذا الامتزاج بين الدين والدنيا هو الذي جعلني أومن بأن محمد (ﷺ) هو أعظم الشخصيات أثرًا في تاريخ الإنسانية كلها»[2].



(1) مايكل هارت: الخالدون مائة، ص18.
(2) السابق، ص19.

جوستاف إ. فون جرونيبام (Gustave e. Von Grunebaum):



(1909-1972م)

وُلِدَ بمدينة فيينا بالنمسا، وحصل على الدكتوراه في الفلسفة في الدراسات العربية والفارسية والتركية من جامعة فيينا، وأصبح زميلاً بالدراسات العليا بجامعة برلين (1932 - 1933م)، ثم معيدًا بالمعهد الملحق بالمعهد الشرقي بجامعة فيينا (1936-1938م)، ثم هاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية وعمل مساعد أستاذ للدراسات الإسلامية بمعهد آسيا بنيويورك (1938-1942م)، ثم مساعد رئيس قسم اللغة العربية (1942-1943م)، ثم انتقل إلى جامعة شيكاغو وعمل مساعد أستاذ للغة العربية بها (1943-1946م)، ثم أستاذًا مساعدًا (1946-1949م)، ثم أستاذًا عام (1949م)، ثم استقرَّ به المقام في جامعة كاليفورنيا حيث أسهم في تأسيس مركز دراسات الشرق الأوسط الذي أُطلق عليه اسمه فيما بعد.

زار الشرق الأوسط أعوام (1936، 1947-1948، 1952، 1954م)، وأصبح نائب رئيس الجمعية الأمريكية الشرقية (1954 - 1955م)، ثم رئيس اجتماع علماء البحوث الإسلامية الألمان والنمسويين والسويسريين الذي عُقِدَ بمدينة مينز عام (1952م)، ورئيس مؤتمر علماء البحوث الإسلامية الذي عقد بمدينة سبا (ببلجيكا) (1953م)، وعضو شرفٍ بجمعية الأبحاث الإسلامية، بومباي الهند، وعضوًا بأكاديمية البحر الأبيض، بالرمو إيطاليا.

من أهم كتبه: (الإسلام في العصر الوسيط) الذي تُرجم بعنوان (حضارة الإسلام)، كما اهتم بدراسة الأدب العربي، وله إنتاج غزير في هذا المجال.

(حضارة الإسلام = Medieval Islam)



- ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ﴾[1]:

«إن في الإسلام عنصرًا من التعقُّل المتَّزِن يعمل على تطبيق مبادئه تطبيقًا فيه رفق ورحمة، وقد بُعِثَ النبي (ﷺ) لا ليزيد الحياة عسرًا بل ليُيَسِّرها؛ فالدين أو الحضارة إنما يُقصد بهما أن يمدَّا الناس بالمعلومات التي عساها أن تُمَهِّدَ سبيل انتقال المؤمنين الوعر

(1) (البقرة: 185).

من هذه الدنيا إلى الآخرة: فالمنفعة إذن هي المعيار الذي ينبغي لأن يُسترشد به في اختيار المعرفة»[1].

- تماسك شعبي رغم التفرُّق السياسي:

«وقد تمكَّن الإسلام إلى حدٍّ جسيم - بفضل توكيده أن الدين هو الرباط الرئيسي بين الناس - من المحافظة على أواصر الوَحدة العقلية زمنًا مديدًا، بعد أن فَرَّق الانحلال السياسي بين أقسامه المختلفة، وأشبَّ بينها العداء، فكان المسلم المتعلِّمُ يَلْقَى الترحاب أنَّى حلَّ من البلاد الإسلامية»[2].

- أصالة الإسلام:

«ومن المحتمل أن ما يتخذه الإسلام من تسامح، ورحابة صدرٍ بإزاء المادة الأجنبية، ومَقْدِرَتِه على تمثُّلها - قد يُثِير في النفس شعورًا بأنه تعوزه الأصالة؛ ولكن أصالة الإسلام إنما تظهر بالضبط في قدرته على تكييف الإلهام الدخيل وَفق حاجاته، وفي خَلْقِه إيَّاه خلقًا جديدًا، يُسبغ عليه طابعه الخاص، وفي نبذه كلَّ ما لا يقبل التكيُّف»[3].

- فضل الحضارة الروحي:

«وأكبر ما عادت به الحضارة الإسلامية على حياة الإنسان الروحية إنما جاء من طريق التعبير اللفظي، وهناك حدود يعمل فيها الأدب، وتَقَصِّي هذه الحدود يكشف عن مدى الاهتمام وطرائق التحليل التي تُبيحها الحضارة الإسلامية للفرد، ففي نطاق هذه الحدود يُعَبِّر الأدب عن الفكرة التي كَوَّنَتْهَا تلك الحضارة عن الإنسان، وهو يستعمل في ذلك طريقتين: التعبير الصريح، وانتقاء الخصائص التي يُقَدِّمها ابتغاء الكشف عما تحتويه»[4].

- الحس المرهف الدقيق:

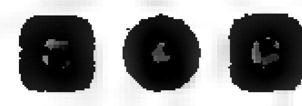
«ومن الجليِّ البيِّنِ أن علماء المسلمين على كل ما تجلَّى منهم في دراسة العلوم من حِدَّة الملاحظة، كانوا على وجه الإجمال مبرزين فيما يُسَمَّى الآن الدراسات الأدبية؛ فإن علوم التاريخ وفِقْه اللغة عند المسلمين يتجلَّى فيها من الابتكار الذهني قدرٌ يفوق بصورة متناهية تجديداتهم المفعمة بالخضوع والإكبار لعِلْم الأقدمين، ولسنا نستطيع دفع الاعتقاد بأن تَمَكُّن العالم المسلم من الحقائق كان أقلَّ صلابة، وأن طريقة عرضه وتقديمه للمسائل كانت

(1) جوستاف جرونيبام: حضارة الإسلام، ص292.
(2) السابق، ص408.
(3) السابق، ص411.
(4) السابق، ص328.

أكثر استمساكًا بالتقاليد، عندما كان يعالج العلوم الطبيعية[1]. لقد كان الواحد منهم على استعداد لتسجيل أصغر التفاصيل وأدقها إذا آراد وصف رأي فلسفي، وكان يُهَيْمِنُ على أداة فاخرة ممتازة من الخواطر والمصطلحات تساعده على تنظيم نتائجه. ولمَّا كان البحث في الدراسات الأدبية لا يعوقه الاعتماد على المصادر بنفس الوضوح الذي يعوق به العمل في العلوم الطبيعية، فإنه كان يستطيع أن يُوَاصل عمله بكامل الاطمئنان الذاتي: فلقد كانت أداة الصنعة مخبورة، وكانت حساسيته بفروق الفكر الضئيلة ورهافة فطنته لما تتضمنه مواطن التأمل النظري نامية أدقَّ النموِّ»[2].

- في كل ميادين الخبرة الإنسانية:

«وليس ثمة ميدان من ميادين الخبرة الإنسانية لم يضرب فيها الإسلام بسهم، ولم يَزِدْ ثروة التقاليد الغربية فيها غنًى، فثمة الأطعمة والأشربة، والعقاقير والأدوية، والسلاح والدروع ونقوشها، والفنون الصناعية والتجارية والبحرية، ثم بعد ذلك الأذواق والموضوعات الفنية، وَدَعْ عنك الحديث في المصطلحات العديدة في الفلك والرياضة، فإن قائمة تدلُّ على المدى الكامل لمساهمة الإسلام في كل ذلك تستنفد صفحات عِدَّة دون أن تَبْلُغَ ولو من بعيد درجة التمام، وإن نفس وجود العالم الإسلامي كان له أثر كبير في صوغ التاريخ الأوربي والحضارة الأوربية، وكانت الحروب الصليبية - من كثير من النواحي - أعظم مغامرة أقدم عليه الإنسان في العصور الوسطى وأَبْعَدَه أثرًا؛ ذلك أن القصص الإسلامي، والأخيلة الشعرية، وفلسفة الغيبيات الإسلامية، وجراءة المذاهب الصوفية الإسلامية، قد تركت جميعًا آثارها ببلاد الغرب في القرون الوسطى، ولا شكَّ أن أعظم رجال اللاهوت، وأعظم الشعراء في القرون الوسطى الأوربية مَدِينون للإسلام بأكبر الفضل في ناحيتي الإلهام والمادة جميعًا[3].



(1) لا ندري ما العيب الذي يقصده جرونيبام في أن طريقة العرض كانت مستمسكة بالتقاليد؛ ما دامت هذه التقاليد في العرض العلمي صالحة له، وحتى هذه اللحظات فهناك طرق عرض علمية لا تسمح الجامعات ومراكز الأبحاث بتجاوزها؛ ضمانًا للجدية ومتانة البحث العلمي.

(2) جوستاف جرونيبام: حضارة الإسلام، ص427.

(3) السابق، ص435.

فيليب حتي (Philip Hitti):

(1886-1978م)



ولد في شملان بلبنان عام (1886م)، أمريكي الجنسية، تخرج في الجامعة الأمريكية ببيروت (1908م)، وحصل على الدكتوراه من جامعة كولومبيا (1915م).

عمل أستاذًا للتاريخ العربي في الجامعة الأمريكية ببيروت (1919 - 1925م)، وأستاذًا مساعدًا للآداب السامية في جامعة برنستون (1926-1939م)، وأستاذًا (1929-1936م)، ورئيسًا للجامعة (1941-1944م)، وأستاذ كرسي اللغات الشرقية (1944-1954م)، ولم ينقطع عن العمل بعد تقاعده، فانتُدِبَ أستاذًا زائرًا في جامعتي هارفارد، وبرنستون، والأكاديمية الأمريكية للعصور الوسطى.

أسس الجمعية السورية التعليمية ورأسها عام (1919م)، وانتُخِبَ عضوًا في ميثاق الصداقة الأمريكية للشرق الأوسط، وفي اللجنة الثقافية للجمعيات الشرقية والغربية، وفي اللجنة القومية للمتحف الأمريكي للهجرة، وأمين صندوق التبرع للتعليم في الشرق الأوسط، ومديرًا للجمعية الشرقية الأمريكية، ومستشارًا لمؤسسة فورد، وعضو شرف في جمعية الهند، وعضوًا في مجلس أمناء الجامعة الأمريكية ببيروت، وعضوًا في الجمعية التاريخية الأمريكية.

من مؤلفاته: (أصول الدولة الإسلامية)، و(تاريخ العرب)، و(تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين)، (لبنان في التاريخ)، و(الإسلام منهج حياة)، وغيرها.



- مثال العفو النادر:

«وتم فتح مكة بعد انقضاء سنتين على صلح الحديبية (في أواخر كانون الثاني سنة 8هـ=630م)؛ فدخل محمد (ﷺ) الكعبة وأمر بأصنامها فحُطِّمت، وطُهِّرَ البيتُ الحرام منها، وكان عددها على ما قيل يبلغ ثلاثمائة وستين، وجعل محمد (ﷺ) يشير إلى هذه الأصنام بقضيب في يده وهو يقول: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾[1]، وأمكنه الله من قريش، التي كانت تتآمر عليه، إلا أن محمدًا (ﷺ) قَدَرَ فعفا، وقلَّما نجد في التاريخ القديم مثالاً للعفو عند المقدرة يُعادل هذا المثال»[2].

(1) (الإسراء: 81).

(2) فيليب حتي: العرب تاريخ موجز، ص41.

- **متواضع زاهد:**

«عاش محمد (ﷺ) - حتى في أيام عزِّه ومجده - حياة بسيطة عادية لا تَكَلُّف فيها ولا تظاهُر: كان طوال حياته شديد الزهد في المادّة.... وكان يُشاطر الناس حياتهم العامة، ولا يَرُدُّ أحدًا عن مجلسه صغيرًا كان أو كبيرًا»[1].

- **إنجاز مدهش:**

«ولقد تسنَّى لمحمد (ﷺ) - في سحابة عُمرٍ غير طويل - أن يُهَيِّئَ الوسائل الفعَّالة في تكوين أمة متراصَّة من قبائل مختلفة متناحرة في بلاد لم تكن لذلك العهد إلا تعبيرًا جغرافيًّا، وأن يُقيم دولة فاقت بانتشارها السريع إلى أبعد أقطار العالم كلتا الديانتين اليهودية والنصرانية، وفضلاً عن ذلك فقد وضع محمد (ﷺ) حجر الأساس لإمبراطورية ضَمَّت بين أطرافها فضلى مقاطعات العالم المتمدن يومئذ، واليوم يَدِين جزءٌ كبير من العالم بالإسلام، وينادي بتعاليم هذا الرجل الأُمِّيِّ، الذي كان الواسطة في إخراج كتاب لا يزال سبع سكان المعمورة يعتبره القول الفصل في العلم والحكمة والدين»[2].

- **معتقد أسمى وأدب أرفع:**

«وهكذا أخذت الجزيرة العربية - التي لم تَحْنِ عنقها قطُّ في سابق الأيام لزعامة رجل واحد - ترضخ لسلطة محمد (ﷺ)، وتُعلن الطاعة له، وشرعت عشائرُها تُقبل على الانخراط في نظامه الجديد، وتُقِرُّ شيئًا فشيئًا معتقدًا أسمى وأدبًا أرفع»[3].

- **المعجزة الكبرى:**

«إن الأسلوب القرآني مختلف عن غيره، ثم إنه لا يقبل المقارنة بأسلوب آخر، ولا يمكن أن يُقَلَّد، وهذا في أساسه هو إعجاز القرآن... فمن جميع المعجزات كان القرآن المعجزة الكبرى»[4].

- **أثر القرآن على اللغة العربية:**

«إن إعجاز القرآن لم يَحُلْ دون أن يكون أثره ظاهرًا على الأدب العربي، أما إذا نحن نظرنا إلى النسخة التي نُقِلَتْ في عهد الملك جيمس من التوراة والإنجيل، وجدنا أن الأثر الذي تركته على اللغة الإنجليزية ضئيل، بالإضافة إلى الأثر الذي تركه القرآن على اللغة العربية، إن القرآن هو الذي حفظ اللغة العربية وصانها من أن تتمزَّق لهجات»[5].

(1) فيليب حتي: العرب تاريخ موجز، ص43، 44.

(2) السابق، ص46.

(3) السابق، ص43.

(4) فيليب حتي: الإسلام منهج حياة، ص62.

(5) السابق، ص287، 288.

- ﴿أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾[1]:

«والقـــرآن كتـــاب حيٌّ فعّال له تأثير بليغ فـــي النفوس، وخصوصًا إذا تُلـــي مرتَّلاً بِلُغَتِهِ الأصلية، وبعض تأثيره في النفس راجع إلى ما هو عليه من حُسْـــن الســـبك، وعذوبة السجع والبلاغة، وموسيقى الألفاظ والأناقة، ومن العسير أو المستحيل أن يستطيع مترجم نقل هذه المميزات في أسلوب إنشائي رائع إلى لغة أجنبية»[2].

- **دين عملي سهل:**

«والدين الإســـلامي دين عملي ليس فيه ما يصعب إدراكه، ويكاد يكون خلوًّا من التعقيد والالتباس، وليس فيه شـــيء مما يُقابِل الأســـرار الرمزية المقدسة أو المراتب الكهنوتية، أو فروض الرسامة والمسح والتكريس (والخلافة الرسولية)»[3].

- **القضاء على الفوارق العنصرية:**

«والحقُّ أن الإسلام قد وُفِّقَ أكثر من أديان العالم جميعًا إلى القضاء على فوارق الجنس واللون والقومية، وخاصة بين أبنائه، ولا شـــكَّ في أن الاجتماع في موســـم الحجِّ له الفضل الأكبر في تحقيق هذه الغاية»[4].

- **فتوحات تاريخية:**

«فحملات خالد بن الوليد وعمرو بن العاص في العراق، والشـــام، ومصر تُعَدُّ من أروع الحملات في تاريخ الحروب، وتحاكي حملات نابليون وهنيبال والإسكندر»[5].

- **بغداد عاصمة الدنيا:**

«وفي أيام هارون الرشيد (786-809م) أصبحت بغداد مركزًا للغنى الباذخ والأهمية العالمية، ولم يكن مضى على تأسيسها نصف قرن، فوقفت وحدها تضاهي بيزنطة، وكان مجدها متناسبًا مع الإمبراطورية التي كانت هي عاصمتها حتى قيل: (لم يكن لبغداد في الدنيا نظير)»[6].

- **براعة الهندسة المعمارية:**

«أما أعظم براعة فنية أظهرها المســـلمون فكانت في الهندســـة المعمارية، ولا ســـيما بناء المســـاجد؛ فالمعماريون المسلمون وبعض مَن اســـتُخْدِمُوا في هذا السبيل أحدثوا في

(1) (يوسف: 2)، و(طه: 112).
(2) فيليب حتي: العرب تاريخ موجز، ص51.
(3) السابق، ص53.
(4) السابق، ص60.
(5) السابق، ص62.
(6) السابق، ص116.

فنِّ البناء نسقًا جديدًا بسيطًا رائعًا، قام على أساس من نماذج قديمة. ولكنه تفرَّد بميزة خاصة، وهي إظهار روح الدين الجديد، ولنا أن نعتبر المسجد خلاصةً لتاريخ امتداد الثقافة الإسلامية، سواء أكان ذلك ضمن الإسلام وعناصره المختلفة، أم خارج الإسلام فيما يتعلق بالأمم الأخرى؛ فالمسجد خير مثال يمكننا أن نَتَّخذه دليلاً على العلاقات الثقافية بين المسلمين وجيرانهم»[1].

- نقل وتقليد ثم تكييف وتجديد:

«لم يكتفِ العرب بالنقل والتقليد، بل تَعَدَّوْهما إلى التكييف والتجديد، فهم لم يقنعوا باستيعاب تراث فارس الفني، وتراث اليونان العلمي على ما كان عليه، بل حَوَّرُوا التراثين بموجب حاجاتهم الخاصة وطرق تفكيرهم، وبعد أن طبعوا ما ترجموه بطابع العقلية العربية - في خلال قرون عدَّة - انتهى أخيرًا مع ما ابتكروه إلى أوربا، عن طريق سوريا وإسبانيا وصقلية، فصار أساس العرفان الذي دان له الفكر الأوربي في القرون الوسطى، على أن نقل الأفكار والعلوم ليس في تاريخ الثقافة بأحطِّ مقامًا من الابتكار، فلو أن أبحاث أرسطو وجالينوس وبطليموس فُقِدَتْ لأفتقر العالم إليها وكأنها لم تكن قطُّ، ويتعذَّر في غالب الأحيان وَضْع حدٍّ فاصل بين المترجم والمبتكر؛ فمن المترجمين مَنْ كان مترجمًا ومبتكرًا في وقت معًا»[2].

- أنتجوا في كل علم:

«وكانت أهم مبتكرات العرب في الطب، والفلسفة، والفلك، والرياضيات، والجغرافيا، والكيمياء، فضلاً عن التاريخ والشرع والأدب»[3].

- الرازي أعظم الأطباء:

«ولعلَّ الرازي (865-925م) أعظمُ الأطباء، وأشدُّهم ابتكارًا، وأكثرهم إنتاجًا ليس في الإسلام فقط، بل في القرون الوسطى قاطبة»[4].

- وبعده ابن سينا:

«وأشهر الأطباء العرب بعد الرازي ابن سينا، وقد امتاز بمواهب باهرة، فبرع في الطب والفلسفة والشعر والفقه، وألَّف كُتبًا ورسائل كثيرة في هذه العلوم وغيرها، ويُقال: إن مؤلفاته ورسائله بلغت تسعة وتسعين»[5].

(1) فيليب حتي: العرب تاريخ موجز، ص109.
(2) السابق، ص147.
(3) السابق، ص147.
(4) السابق، ص148.
(5) السابق، ص150.

- والكيمياء:

«وكان أعظم ما أسداه العرب إلى العلم بعد الطب والفلك والرياضيات مآثرهم في علم الكيمياء، الذي لم يزل يحتفظ باسمه العربي في جميع اللغات الأوربية، ففي دراسة الكيمياء وسواها من العلوم الطبيعية أدخل العرب التجربة الموضوعية، وهي خطوة تحسينٍ راهنٍ على تأملات اليونان الغامضة»(1).

- جابر بن حيان:

«ولجابر الفضل في أنه أول الكيمياويين الذين نادوا بأهمية البحث التجريبي، وفي أنه خَطَا خطوات واسعة في سبيل التقدم الكيمياوي من وجهتيه النظرية والعلمية»(2).

- الأندلس.. فصل رائع في التاريخ الفكري:

«أما العالمُ الإسلامي فقد دخل الفكرَ الأوربي من نواحٍ عِدَّة، ذلك بأن الأندلس سطرت فصلاً رائعًا في التاريخ الفكري للعصور الوسطى الأوربية، فبين منتصف القرن الثامن ومطلع القرن الثالث عشر - حسبما تَقَدَّم - كانت الشعوب العربية اللسان في مُقَدِّمة من حمل مشعال الثقافة والمدنية في العالم قاطبة، وبواسطة جهود هذه الشعوب - أيضًا - تسنَّى لعلوم الأقدمين وفلسفتهم أن تعود إلى أوربا مشروحة ومضافًا إليها، فسَهَّل هذا السبيل لنشوء عصر النهضة في أوربا الغربية»(3).

- أثر الشعر العربي في المسيحية:

«واستثار الشعر العربي عامَّة والغنائي منه خاصَّة إعجاب النصارى والأندلسيين، فأصبح من العوامل الفعالة في طبعهم بطابع المدنيَّة العربية، ومن الزجل والموشح نشأ ضرب من الشعر العامي القشتالي، استخدمه المسيحيون كثيرًا في أناشيدهم الدينية، ومن بينها أغاني عيد الميلاد، ولم يزل إلى الآن في لبنان شعراء عاميون يرتجلون ما يُسَمُّونه زجلاً وموشَّحًا»(4).

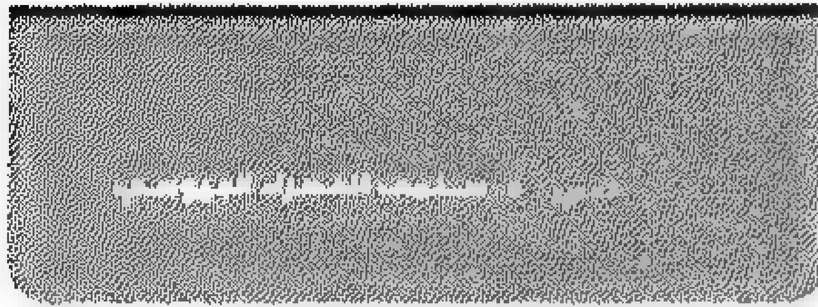
- شعر الغزل العربي يوقظ شعراء أوربا:

«ومن مآثر الشعر العربي ما ظهر في الشعر الإسباني العذري - باكرًا في القرن الثامن - من أسلوب خاصٍّ تتجلَّى فيه مؤثرات الشعر العربي، وفي فرنسا الجنوبية لم يظهر شعراء البروفنسال على أتمِّ النضج حتى أواخر القرن الحادي عشر، فإذا بقصائدهم فيَّاضة بالحبِّ الخافق، تُعَبِّر عن لغة مترعة بالمجاز المعنوي والخيال البعيد»(5).

(1) فيليب حتي: العرب تاريخ موجز، ص153.
(2) السابق، ص154.
(3) السابق، ص181، 182.
(4) السابق، ص185.
(5) السابق، ص185.

روبرت هيلنبراند (Robert Hillenbrand):





درس في قسم الفنون الجميلة في جامعة أدنبرا منذ عام (1971م)، وأصبح أستاذًا فيها منذ عام (1989م)، وأستاذًا زائرًا في برنستون عام (1979م)، وفي جامعة كاليفورنيا – لوس أنجلوس عام (1981م)، وبامبرغ عام (1990م)، وهو مؤلف الصور الإمبراطورية في الرسم الفارسي والعمارة الإسلامية في إفريقيا الشمالية، وحرَّر أعمالاً مثل: (الكتاب الإسلامي= the Islamic book)، ومَحَاضِر اجتماع مجلس المستعربين والباحثين الأوربيين في الإسلام، كما أسهم من بين العديد من المقالات بمادَّة عن أهمِّ الأنماط المعمارية الإسلامية لدائرة المعارف الإسلامية، وهو عضو في مجلس مجلة تاريخ الفنِّ (ART HISTORY) (1978 - 1988م) وبيرسيكا، ومجلة المعهد الإيراني، وهو عضو في هيئة تحرير دراسات في الفن الإسلامي (بلوس أنجلوس)، ودراسات أكسفورد في الفن الإسلامي، كما أنه مستشار في الفن الإسلامي لمعجم الفن لمكميلان، ونظم مؤتمرات دولية حول الفن الإسلامي في أدنبرا في الأعوام: (1977م)، (1982م)، (1987م)، (1990م)، وأمين سرِّ المعهد البريطاني للدراسات الفارسية.



- ازدهار قرطبة:

«وقد استمرَّ ازدهار الفنون والحِرَف؛ فقد كانت المدينة – قرطبة – تفخر بوجود ثلاثة عشر ألف منسجًا فيها، وكانت أقمشتها الصوفية والحريرية والمقصَّبة فائقة الشهرة، ومثل ذلك كانت شهرة صناعة جلود الماعز بنقوشها النافرة، وقد عُرِفَتْ في بريطانيا باسم (القرطبي)، كما تدخل في اسم (المشتغل بالجلد القرطبي cordwainer)، وقد تخصَّصت قرطبة كذلك بإنتاج الحديد والرصاص»[1].

- جامع قرطبة.. إحدى عجائب الإسلام الأربع:

«استطاعت قرطبة – لحسن حظها العظيم – أن تُنْقِذَ أثرًا من آثار عصرها الذهبي، هو أهمها على الإطلاق، ذلك هو جامعها الكبير، الذي ذاع صيته في العصور الوسطى بوصفه

(1) سلمى الخضراء الجيوسي: الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، مبحث روبرت هيلنبراند، بعنوان: (زينة الدنيا.. قرطبة القروسطية مركزًا ثقافيًا عالميًا) 196/1.

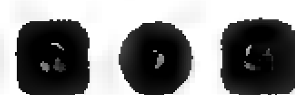
واحدًا من عجائب أربع في العالم الإسلامي، فقد كان هذا الجامع إلى حدٍّ كبير يُمَثِّل تاريخ الأندلس وآمالها، ومن أجل ذلك كان من المناسب تمامًا أن يُصْبِحَ مفتاح الأثر الرئيس في فنّ العمارة في غرب العالم الإسلامي»[1].

- أسطول الأندلس العالمي:

«ففي عهد هذا العاهل - (يقصد: عبد الرحمن الثالث 300-350 هـ=912-961م) الناشط الباهر النجاح، الذي اتخذ لنفسه لقب الخليفة عام (316هـ=929م) - بلغ الإسلام في الأندلس ذروة التوسع والإنجاز الثقافي... وربما كان أسطوله من أكبر الأساطيل في العالم في ذلك الوقت»[2].

- قرطبة.. تنافس بغداد:

«أصبحت قرطبة الآن تنازع بغداد حول الزعامة الفكرية في العالم الإسلامي، فقد كان جامع قرطبة مركزًا مشهورًا للدراسة العالية، بمستوى القاهرة وبغداد؛ إذ كان أول جامعة قروسطية في أوربا، ففي هذا الجامع كان الألوف من الطلبة يتلقَّون العلوم الإسلامية الأساسية؛ مثل: التفسير، والفقه، والحديث، إلى جانب الأمثال العربية والشعر الجاهلي، كما تكشف حكايةٌ عابرة يرويها ابن حزم، لقد واصل علماء قرطبة جهود علماء (بيت الحكمة) معهد الترجمة العباسي، وبذلك نقلوا علوم الإغريق والشرق إلى الغرب، وهو عمل استمرَّ تحت حكم المسيحيين في معهد مماثل في طليطلة، وبرزت في قرطبة مساهمات كبرى في الموسيقي وعلم اللغة والجغرافيا والتاريخ، (وبخاصة أعمال ابن عبد ربه، والتأريخي الذي كتب وصفًا عن قرطبة، وهو مفقود)، وكذلك في الخيمياء والكيمياء والطب، (وقد عرفت أوربا القروسطية طبيبًا مشهورًا باسم أبولكاسس هو أبو القاسم الزهراوي القرطبي)، هذا إلى جانب الفلك، (وأَقْدَم أَسْطُرلاب موجودٌ يحمل تاريخًا في العالم الإسلامي قد صُنِعَ في قرطبة)، إضافة إلى علوم الفلسفة، وعلم النبات، والرياضيات»[3].



(1) سلمى الخضراء الجيوسي: الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، 203/1.
(2) السابق، 189/1.
(3) السابق، 195/1.

الفصل السابع
شهادات علماء بعض الدول الأخرى

رومانيا:

كونستانس جيورجيو (Constance Giorgio):



المستشـرق والوزير الروماني، وُلِـدَ عام (1916م)، وهو صاحب كتاب: (نظرة جديدة في سيرة رسول الله = A New Curriculum in the Messenger of God).



- وهو جالس على حصير:

«وقد اسـتقبل النبـي (ﷺ) في ذلك العام السـفراء والممثلين عن القبائل في المدينة؛ ولكثرة هذه الاستقبالات سُـمِّيَ هذا العام «بعام الوفود»، وكان محمد (ﷺ) في ذلك الوقت رئيس الجزيرة العربية كلها دينيًّا وسياسيًّا وعسكريًّا، ومع هذا فإن الوفود عندما كانت تَفِدُ عليه تراه جالسًا على حصير مضفور من ورق شجر النخيل، وهذا هو أثاث المنزل كله، وعندما كان يفد الوفد يستقبله بلال المؤذن الحبشي، ويُدْخِله غرفة النبي (ﷺ)، وحين تحطُّ الوفود في المدينة كانت تنزل في بيت رَملة بنت الحارث، الواقع في محلَّةِ (النجارية) ضيوفًا على الحكومة، وكثيرًا ما يفيض عدد الوفود، فيضيق المنزل بهم؛ مما حدَا بالنبي (ﷺ) إلى أن يأمر بأن تُنْصَبَ الخيام في المسجد؛ لينزل فيها مَنْ لا يجد مكانًا في المنزل»[1].

- براعة التنفيذ على الأرض:

وعن خطة حفر الخندق يقول جيورجيو: «ولم تكن خطة محمد (ﷺ) الحربية هذه سبب إعجاب الناس العاديين وحسـب، بل مبعث إكبار من وجهة نظر رجال الحرب المتخصصين؛ إذ كيف اسـتطاع محمد (ﷺ) استنباط هذه الخطة وإنجازها، لأن النبوغ ليس في استنباط الخطة وحسـب، بل في تنفيذها أيضًا، فالذين يُقيمـون في منازلهم ويقرءون على صفحات الجرائـد الخطـط الحربية والعمليات العسـكرية - التي يقوم بها رجـال ضد خصومهم -

(1) ك. جيورجيو: نظرة جديدة في سيرة رسول الله، ص370، 371.

لا يُقَدِّرُون مدى العناء الذي يُعَانيه القائد في تنفيذ مثل هذه الخطط في ساحة المعركة، وقد كان حفر الخندق في الجزيرة لمنع هجوم جيش معادٍ جديدًا»[1].

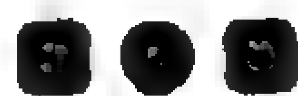
- واستطاع قَلْبَ نتيجة المعركة:

«وقد كانت صلابة محمد (ﷺ) وجلادته سببًا في تَوَقُّف المحاربين عن هربهم... فكان أن انتهت معركة حنين بنصر المسلمين»[2].

- هكذا عامل أهل الكتاب:

«مع أن الإسلام عمَّ الجزيرة كلها في السنة التاسعة، فإن محمدًا (ﷺ) لم يُكْرِه اليهود ولا النصارى على قَبول دينه؛ لأنهم أهل الكتاب، وقد جاء في رسالة محمد (ﷺ) إلى أبي الحارث أسقف نجران أنَّ وضع المسيحيين في الجزيرة بعد الإسلام تَحَسَّن كثيرًا، يقول في الرسالة: بسم الله الرحمن الرحيم، من رسول الله إلى أبي الحارث أسقف نجران الأكبر، وقساوسته، وأساقفته، أما بعد: فليعلم الأسقف الأكبر وقساوسته وأساقفته أن كنائسكم ومعابدكم وصومعاتكم ستبقى كما هي، وأنكم أحرار في عباداتكم، ولن يُزاح أحد منكم عن منصبه ومقامه، ولن يُبَدَّلَ شيء، كما لم يبدلَّ في مراسم دينكم، ما دام الأساقفة صادقين، ويعملون حسب تعاليم الدين، فمن أدَّى ذلك فإن له ذمة الله وذمة رسوله، ومن منعه فإنه عدو الله ورسوله».

ثم يُضيف: «تُشير هذه الرسالة إلى أن المسيحيين (وكذلك اليهود) في الجزيرة أحرار في أداء شعائرهم، ولن يُزاحمهم من المسلمين مزاحمٌ، وقد قَدِمَ في السنة التاسعة وفد من مسيحيي نجران، يرأسهم أبو الحارث الأسقف الأكبر، وعبد المسيح الأسقف، والأيهم رئيس القافلة، وحين أرادوا الدخول على النبي (ﷺ) ارتدوا ألبستهم الدينية الرسمية الكاملة... وبعد أن زاروا النبي (ﷺ) سألوه أن يسمح لهم بأداء شعائرهم، فطلب منهم أن يُؤَدُّوا صلواتهم في مسجد المدينة، فدخلوا واتجهوا نحو بيت المقدس وتعبدوا هناك... لا شكَّ أن النبي كان يحترم المسيحيين احترامًا خاصًّا؛ لأن القرآن ذكرهم وأكرمهم، وقد أشار الله تعالى إلى هذه النقطة في محكم كتابه في سورة المائدة»[3].



(1) ك. جيورجيو: نظرة جديدة في سيرة رسول الله، ص289.

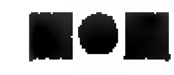
(2) السابق، ص364.

(3) السابق، ص371، 372.

بولونيا:

بوجينا جيانا ستشيجفسكا (Bozena – Gajane Stryzewska):

باحثة بولونية، درست الإسلام في الأزهر على يد أساتذة ومشرفين أخصائيين زهاء خمس سنوات (1961-1965م)، تمكَّنَتْ خلالها من اللغة العربية، وكانت قد أنهت دراساتها العليا في كلية الحقوق، وفي معهد اللغات الشرقية في بولونيا، من أشهر مؤلفاتها: (تاريخ الدولة الإسلامية وتشريعها) أو (تاريخ التشريع الإسلامي).

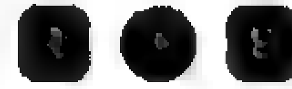


- أرقى الجامعات.. بعد قرون:

«إن القرآن الكريم مع أنه أُنْزِلَ على رجل عربي أُمِّيٍّ نشأ في أُمَّة أُمِّيَّة، فقد جاء بقوانين لا يمكن أن يتعَلَّمها الإنسان إلا في أرقى الجامعات، كما نجد في القرآن حقائق علمية لم يعرفها العالم إلا بعد قرون طويلة»[1].

- خرافة:

«القول بأن الإسلام انتشر بالسيف، كلام يُكَذِّبه التاريخ، ويُكَذِّبه الواقع»[2].



(1) بوجينا جيانا: تاريخ التشريع الإسلامي، ص17.

(2) السابق الصفحة نفسها.

الباب الثالث

شهادات المعاصرين الشرقيين

يعاني العالم الإسلامي من وقوعه تحت الهيمنة الغربية، وهذا هو ما يجعل الاحتكاك الثقافي والصراع الحضاري مشتعلاً على هذه الجبهة، ولكن الإسلام دين عالمي، ونبينا (ﷺ) بُعِثَ رحمة للعالمين منذ أول يوم في الدعوة.

وبما أننا أبناء زماننا، فإنَّ اهتمامنا كذلك كان أكبر في البحث عن شهادات مفكري الغرب وعلمائه في حقّ الإسلام ونبيه وحضارته، فهذا هو نداء الحاجة مع كثرة المنبهرين والمتّبعين لخطى العالم الغربي والمتأثّرين به، ولكن في الشرق عالَمٌ آخر، عالَمٌ حافل بالعلماء والمفكرين والساسة والفلاسفة، حتى وإن كنّا الآن لا نهتم بإنتاجه الفكري والثقافي والحضاري، وهو كذلك لا يُبدي بنا اهتمامًا على هذا المستوى، فجُلُّ الاهتمام المتبادل واقع في النطاق الاقتصادي.

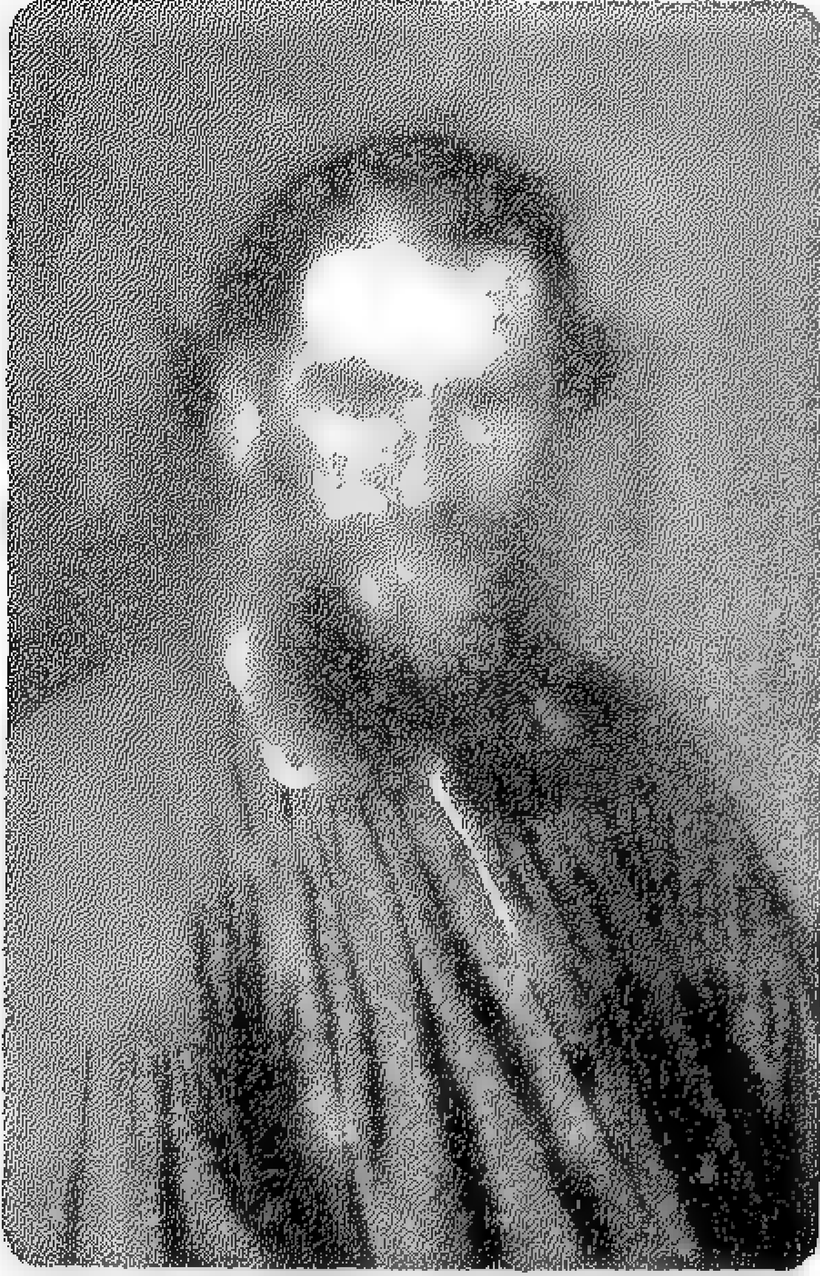
ويجب علينا ألا ننسى أن بعض تلك المناطق عاشت في ظلال الإسلام قرونًا، فالهند وشرقها حتى حدود الصين، ومناطق وسط آسيا كذلك، كانت ذات يوم بلادًا إسلامية، فكان لنا فيها تاريخ، وكان لها مِنّا تأثير.

الفصل الأول

علـماء آســيا

«يكفـي محمدًا (ﷺ) فخرًا أنه خلّص أمة ذليلة دموية من مخالـب شياطيـن العـادات الذميمـة، وفتح علـى وجوههم طريـق الرقـي والتقـدم، أنا واحد مـن المبهوريـن بالنبـي محمد (ﷺ)، الذي اختاره الله الواحد لتكون آخر الرسالات على يديه وليكون هو أيضًا آخر الأنبياء».

ليو تولستوي



روسيا:

ليو تولستوي (Leo Tolstoy):

(1828-1910م)

الكونت ليف نيكولايافيتش تولستوي (9سبتمبر 1828-20نوفمبر 1910م) من عمالقة الروائيين الروس، ومن أعمدة الأدب الروسي في القرن التاسع عشر، ويُعَدُّ من أعظم الروائيين على الإطلاق.

ويُعَدُّ كتاب (الحرب والسلام) (1869م) من أشهر أعمال تولستوي، ويتناول هذا الكتاب مراحل الحياة المختلفة، كما يصف الحوادث السياسية والعسكرية التي حدثت في أوربا في الفترة ما بين عامي (1805م) و(1820م)، وتناول فيها غزو نابليون لروسيا عام (1812م). ومن أشهر كتبه أيضًا: (أنَّا كارنينا)، الذي عالج فيه قضايا اجتماعية وأخلاقية وفلسفية في شكل مأساة غرامية كانت بطلتها هي أنَّا كارنينا. ومن كتبه كذلك: (ما الفن؟)، أوضح فيه أن الفنَّ ينبغي أن يُوَجِّه الناسَ أخلاقيًّا، وأن يعمل على تحسين أوضاعهم، ولا بُدَّ أن يكون الفنُّ بسيطًا يخاطب عامة الناس. وله كتاب باسم (حكم النبي محمد ()).

■●■

- البشرية تحتاج الشريعة الإسلامية:

«سوف تسود شريعة القرآن العالم؛ لتوافقها مع العقل وانسجامها والحكمة، لقد فهمت وأدركت أن ما تحتاج إليه البشرية هو شريعة سماوية تُحِقُّ الحقَّ، وتزهق الباطل... ستعمُّ الشريعة الإسلامية كل البسيطة؛ لائتلافها مع العقل وامتزاجها بالحكمة والعدل»(1).

- أدهشوا المحيطين بهم:

«وإذا كان انتشار الإسلام انتشارًا كبيرًا على يد هؤلاء لم يَرُقْ بعضًا من البوذيين والمسيحيين، فإن ذلك لا ينفي حقيقة أن المسلمين اشتهروا في صدر الإسلام بالزهد في الديانة الباطلة، وطهارة السيرة، والاستقامة والنزاهة حتى أدهشوا المحيطين بهم بما هم عليه من كرم الأخلاق ولين العريكة والوداعة»(2).

(1) ليو تولستوي: حكم النبي محمد، ص10.
(2) السابق، ص43.

- ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾[1]:

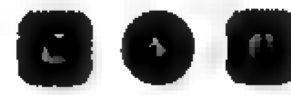
«ومن فضائل الدين الإسلامي أنه أوصى خيرًا بالمسيحيين واليهود، ولا سيما قساوسة الأوليين: فقد أمر بحسن معاملتهم ومؤازرتهم، حتى أباح هذا الدين لأتباعه التزوُّج من المسيحيات واليهوديات، مع الترخيص لهن بالبقاء على دينهن، ولا يخفى على أصحاب البصائر النيِّرة ما في هذا من التساهل العظيم»[2].

- أنا من المبهورين بمحمد (ﷺ):

«يكفي محمد (ﷺ) فخرًا أنه خلَّص أُمَّة ذليلة دموية من مخالب شياطين العادات الذميمة، وفتح على وجوههم طريق الرقي والتقدُّم، وأنا واحد من المبهورين بالنبي محمد (ﷺ)، الذي اختاره الله الواحد لتكون آخر الرسالات على يديه، وليكون هو أيضًا آخر الأنبياء»[3].

- عمل عظيم:

«ومما لا ريب فيه أن النبي محمدًا (ﷺ) من عظام المصلحين، الذين خدموا الهيئة الاجتماعية خدمة جليلة، ويكفيه فخرًا أنه هدى أُمَّة برُمَّتِهَا إلى نور الحقِّ، وجعلها تجنح للسكينة والسلام، وتُفَضِّل عيشة الزهد، ومنعها من سفك الدماء، وتقديم الضحايا البشرية، وفَتَحَ لها طريق الرقي والمدنيَّة، وهو عمل عظيم لا يقوم به إلا شخص أُوتِيَ قوة، ورجل مثل هذا جدير بالاحترام والإكرام»[4].



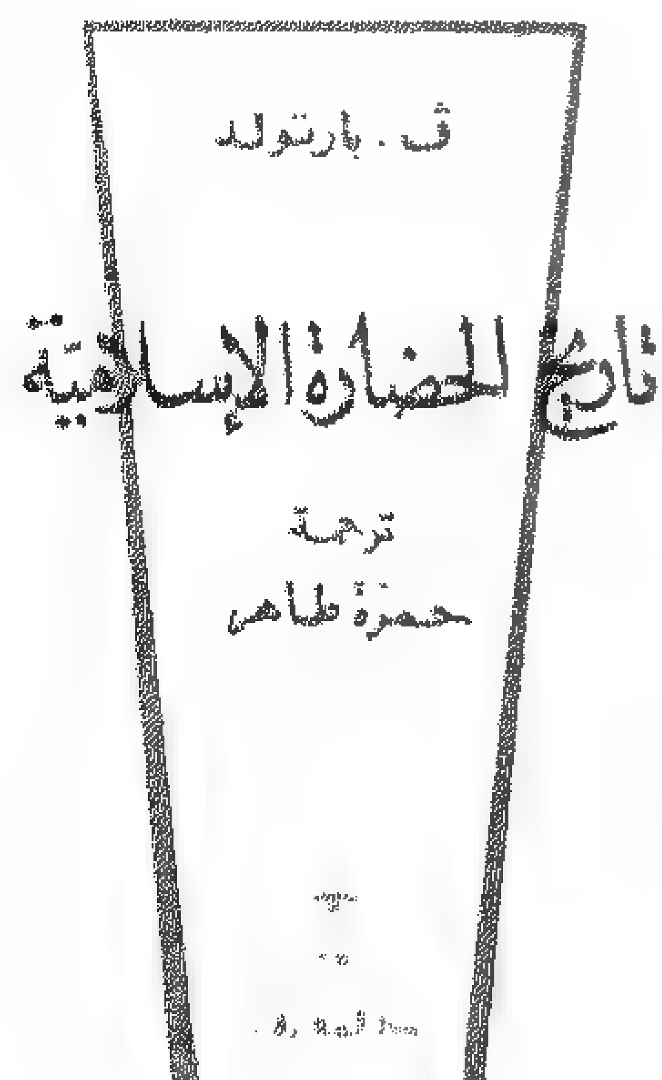
(1) (الحشر: 2).

(2) ليو تولستوي: حكم النبي محمد، ص43، 44.

(3) السابق، ص10.

(4) السابق، ص44.

ف. بارتولد (Barthold, w):



(1869-1927م)

فاسيلي (وسماه بعضهم بولهلم) فلاديمرويج بارتولد هو أحد كبار العلماء الروس، وُلِدَ في بطرسبرج عام (1869م)، من أسرة ألمانية استوطنت روسيا، وتخرَّج في كلية اللغات الشرقية بجامعة بطرسبرج عام (1891م)، وفي عام (1891، 1892م) حضر محاضرات أوجست مولر في جامعة هال ونولدكه في جامعة ستراسبورج بألمانيا، ثم رجع إلى روسيا وقام برحلة علمية إلى تركستان استغرقت سنتي (1893، 1894م)، ونشر تقريره عن هذه الرحلة في بطرسبرج عام (1895م) باللغة الروسية.

وفي سنة (1896م) ألقى محاضرات في تاريخ الشرق بجامعة بطرسبرج، ونال شهادة الدكتوراه منها سنة (1900م) برسالة قَدَّمها في تاريخ الشرق عنوانها: (التركستان أثناء استيلاء المغول)، وترجم كتابه هذا إلى الإنجليزية بعد أن أعاد النظر فيه ونقَّحه، ونُشر في مجموعة جِب التذكارية الإنجليزية وصدرت طبعته الثانية عام (1928م)، ثم عُيِّن أستاذًا في جامعة بطرسبرج، وعضوًا في معهد العلوم الروسي، وقد ذاعت شهرته، ودُعِيَ لإلقاء محاضرات في موسكو، وطشقند، وباكو، وغيرها من المدن.

وله العديد من المؤلفات من أهمها كتابه: (نظرة تاريخية وجغرافية إلى إيران) باللغة الروسية عام (1903م)، وله أيضًا: (تاريخ الدراسات الشرقية في أوربا وروسيا) عام (1911م)، و(تاريخ الحضارة الإسلامية) عام (1918م)، و(العالم الإسلامي) عام (1922م).



- ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[1]:

«إن النصارى الذين عاشوا في حكم المسلمين لم يُصبهم قطُّ ما أصاب المسلمين في إسبانيا من الظلم والعدوان، ولم يكن بوجه عامٍّ يطلب إلى الأقوام غير الإسلامية تنفيذ الشروط حرفيًّا كارتدائهم ثوبًا مميزًا لهم طبقًا لما ورد في عهد عمر المشهور[2]، أو دفعهم

(1) (الكافرون: 6).

(2) العهد العمري المقصود هنا – ويكثر الحديث عنه– هو العهد الذي يجبر أهل الذمة على لبس ثوب معين، ويمنعهم من بناء أو تجديد الكنائس، أو أن يبنوا بناءً عاليًا.. وهو عهد مشكوك في نسبته إلى عمر (رضي الله عنه)، وكثير من العلماء يجزم بأنها رواية ضعيفة، وإلى جانب هذا أنه لم يُطَبَّق في الدولة الإسلامية مع أهل الذمة إلا في فترات قليلة، وهي فترات الانحراف عن المنهج الإسلامي في التعامل مع أهل الذمة.

الجزية كما يأمر به القرآن، فكان العمال النصارى يلبسون أثوابًا كأثواب عظماء المسلمين، ويجعلون لأنفسهم مقامًا عاليًا أمام العامة»[1].

- لأنها لغة أدبية مُتَقَدِّمة:

«ويمكن تفسير رواج اللغة العربية هذا الرواج، بأن العرب لم يعتمدوا على قوة السلاح فقط، كالجرمان والمغول والإيرانيين القدماء، ولكنهم أنشئوا منذ القرن السابع الميلادي لغة أدبية متقدِّمة في ساحة الفكر تقدُّمًا واضحًا، وأخذت البلاغة والشعر مكانة عظيمة عندهم، واخترعت الأشكال الأدبية المعلومة اليوم، والنثر المسجع، وأنواع عديدة من الأوزان»[2].

- عواصم العلم.. إسلامية:

«إن حوض دجلة والفرات كان أنشط أماكن الحركة العلمية في القرنين الثالث والرابع الهجريين، فالبصرة وحَرَّان وبغداد كانت أهم مراكز العلم والحضارة، ويمكن أن يُذْكَر الجاحظ المشهور بغزارة علمه (المتوفى سنة 256هـ=869م)، والكندي (المتوفى سنة 20 هـ=873م) أول مُفَكِّر حُرٍّ في العرب، من المشاهير الذين ارتبطت أسماؤهم بالبصرة»[3].

- بداية التخصُّص العلمي:

«إن ازدهار الحضارة لم يكن خاليًا من التأثير في درجة رقي الجماعة في العلم، فصار العرب يفهمون الفرق بين العالم المتخصِّص في علم من العلوم، والأديب المطلع على النتائج الأخيرة للعلوم، ونبغ مؤلفون نشروا نتائج أبحاثهم العلمية رويدًا رويدًا، كما نبغ في الأدب شعراء مُفَكِّرون إلى جانب أساتذة الأدب المتقدِّمِينَ في ساحة الأسلوب القديم»[4].

- الحضارة في إستانبول:

«فتركيا لم تكتفِ بشهرتها العسكرية في القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين، بل صارت إستانبول أحد مراكز الحضارة الكبرى للعالم الإسلامي، فلا تفوقها في كثرة المخطوطات الفارسية المحفوظة في مكتباتها إلا لندن وليننجراد من المدن الأوربية، على أن خدمة التُّرْكِ لم تقف عند حَدِّ التعريف بالتراث الباقي عن الماضي، بل أبرزوا أسلوبًا في فن العمارة يُخَالِف العمارة الإيرانية؛ فالمباني التي بناها المعماري التركي الكبير سنان ليست مطلقًا بأقلَّ من آثار عهد النهضة المعمارية في أوربا، ويعدُّ سنانٌ جامع سليمية الذي بأدرنة من أعظم آثاره»[5].

---

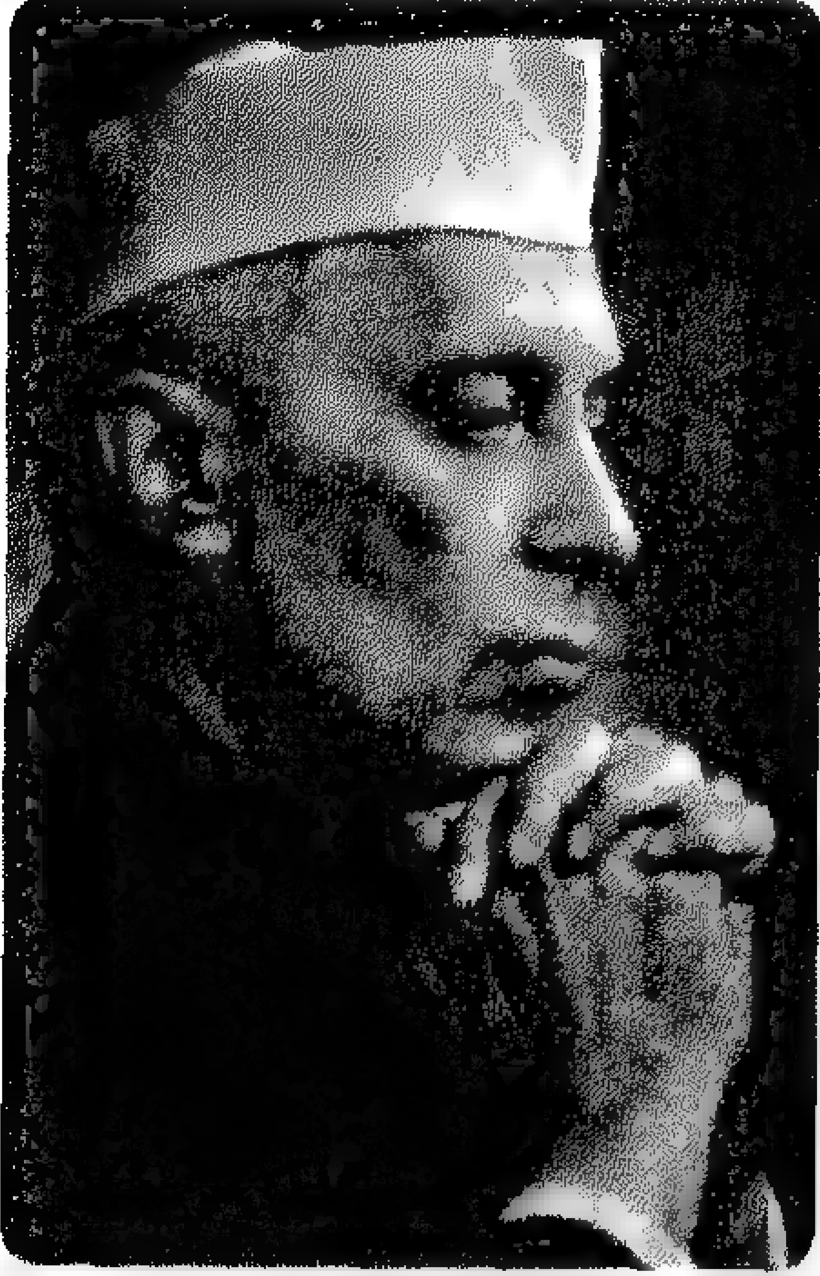
(1) ف. بارتولد: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص57.

(2) السابق، ص63.

(3) السابق، ص80.

(4) السابق، ص83.

(5) السابق، ص150.



الهند:

جواهر لال نهرو (Jawaharlal Nehru):

(14 مايو 1889-27 مايو 1964م)

وُلِدَ في مدينة الله آباد بالهند، اعتقل عدة مرات بسبب نشاطه القومي التحرري، له عدة مؤلفات في التاريخ والسياسة وشئون الهند، يُعَدُّ أحد كبار قادة العالم في عصره، وأحد زعماء حركة الاستقلال في الهند، وأول رئيس وزراء للهند بعد الاستقلال، وشغل المنصب من 15 أغسطس 1947م لحين وفاته، أسس مع جمال عبد الناصر وسوكارنو وتيتو حركة عدم الانحياز، أنجب ابنة واحدة هي أنديرا غاندي التي أصبحت بعد ذلك رئيسة للوزراء.

(لمحات من تاريخ العالم = Glimpses of World History)



- من رعي الغنم إلى رعي الأمم:

يتحدث نهرو عن ثقة النبي محمد (ﷺ) بنفسه ورسالته فيقول: «وقد هيَّأ بهذه الثقة وهذا الإيمان لأُمَّته أسباب القوة والعزة والمنعة، وحَوَّلها من سُكَّان صحراء إلى سادة يفتحون نصف العالم المعروف في زمانهم. كانت ثقة العرب وإيمانهم عظيمين، وقد أضاف الإسلام إليهما رسالة الأخوة والمساواة والعدل بين جميع المسلمين، وهكذا وُلِدَ في العالم مبدأ ديمقراطي جديد»(1).

- الفرصة الذهبية:

«كان محمد (ﷺ) - كمؤسسي الأديان الأخرى - ناقمًا على كثير من العادات والتقاليد التي كانت سائدة في عصره، وكان للدين الذي بَشَّر به - بما فيه من سهولة وصراحة وإخاء ومساواة - تجاوب لدى الناس في البلدان المجاورة؛ لأنهم ذاقوا الظلم على يد الملوك الأوتوقراطيين والقساوسة المستبدين، لقد تعب الناس من النظام القديم، وتاقوا إلى نظام

(1) جواهر لال نهرو: لمحات من تاريخ العالم، ص26.

جديد فكان الإسلام فرصتهم الذهبية؛ لأنه أصلح الكثير من أحوالهم ورفع عنهم كابوس الضيم والظلم»[1].

- من أعجوبات التاريخ:

«والمدهش حقًا أن نلاحظ هذا الشعب العربي - الذي ظلَّ منسيًّا أجيالاً عديدة، بعيدًا عمَّا يجري حوله - قد استيقظ فجأة ووثب بنشاط فائق أدهش العالم، وقلبه رأسًا على عقب، وإن قصة انتشار العرب في آسيا وأوربا وإفريقيا، والحضارة الراقية، والمدنيَّة الزاهرة التي قدموها للعالم، هي أعجوبة من أعجوبات التاريخ! إن الإسلام هو الباعث والفكرة لهذه اليقظة العربية؛ بما بثَّه في أتباعه من ثقة ونشاط»[2].

- سحر الإسلام:

«كانت ثقة العرب وإيمانهم عظيمين، وقد أضاف الإسلام إليهما رسالة الأخوة والمساواة والعدل بين جميع المسلمين، وهكذا وُلد في العالم مبدأ ديمقراطي جديد! وإنكِ إذ تقارنين[3] رسالة الأخوة الإسلامية هذه بحالة النصرانية المنحلَّة، تعرفين مقدار سحر هذه الرسالة وتأثيرها، لا على العرب وحدهم؛ ولكن على جميع شعوب البلدان التي وصل إليها العرب!» [4].

- الديمقراطية الإسلامية الحقيقية:

«كان أبو بكر وعمر رجلين عظيمين، وقد وَضَعَا الأساس الذي بُنِيَتْ عليه عظمة العرب والمسلمين، وكانَا خليفتين يجمعان في أيديهما السلطة الزمنية والسلطة الدينية معًا[5]، ولكنهما - وبالرغم من عظم المنصب وقوة الدولة - زهدَا في متاع الحياة الدنيا بما فيها من أبهة وعظمة، وهذه هي الحياة الديمقراطية الإسلامية الحقيقية التي وضعها الخليفتان موضع العمل»[6].

- محض اختلاق:

«وسار العرب من فتح إلى فتح، وكثيرًا ما ربحوا الحروب بدون قتال، وفي غضون خمسة وعشرين عامًا من وفاة الرسول (ﷺ)، فتح العرب جميع بلاد فارس وسوريا وأرمينيا، وجزءًا

(1) جواهر لال نهرو: لمحات من تاريخ العالم، ص27.

(2) السابق، ص23، 24.

(3) أصل هذا الكتاب رسائل من نهرو إلى ابنته أثناء فترة سجنه في ثلاثينيات القرن الماضي، والرسائل التي تتحدث عن الفترة الإسلامية مكتوبة في عام 1932م.

(4) جواهر لال نهرو: لمحات من تاريخ العالم، ص26.

(5) ليس الخلفاء في الإسلام أصحاب سلطة دينية كالتي عرفتها المسيحية في العصور الوسطى.

(6) جواهر لال نهرو: لمحات من تاريخ العالم، ص26.

من أواسط آسيا الشرقية، ومصر، وجزءًا من شمال إفريقيا، وقد سلمت لهم مصر بسهولة: لأنها كانت قد قاست كثيرًا من استبداد الإمبراطورية الرومانية ومن الحروب الطائفية، وقد أشيع أن العرب أحرقوا مكتبة الإسكندرية، ولكن المعتقد الآن أن هذا محض اختلاق: إذ أن للكتب عند العرب احترامًا كبيرًا، يمنعهم أن يسلكوا هذا المسلك البربري، ويحتمل أن يكون الإمبراطور ثيودوسيوس - إمبراطور القسطنطينية، الذي حدثتكِ عنه شيئًا في السابق - هو المسئول عن هذا الخراب أو جزء منه: لأنه لم يكن راضيًا عن الكتب الوثنية الإغريقية القديمة، التي كانت تتضمن الأساطير والفلسفة اليونانية القديمة، وقد أُحْرِقَ جزء من المكتبة قبل ذلك بزمن طويل إبان حصار يوليوس قيصر للإسكندرية»[1].

- الفرق الشاسع:

«أختم هذه الرسالة بالقول: إن العرب كانوا في بداية يقظتهم متقدين حماسًا لعقيدتهم، وإنهم كانوا مع ذلك قومًا متسامحين؛ لأن دينهم يأمر في مواضع عديدة بالتسامح والصفح، وكان عمر بن الخطاب شديد الحرص على التسامح عندما دخل بيت المقدس، أما مسلمو إسبانيا فإنهم تركوا للجالية المسيحية الكبيرة هناك حرية العبادة التامَّة، وكانت صِلات المسلمين مع الهند - التي لم يحكموا منها إلا السند - صلاة ودية، والواقع أن أبرز ما يميز هذه الفترة من التاريخ هو الفرق الشاسع بين تسامح العرب المسلمين وتعصب النصارى الأوربيين»[2].

- بارقة الأمل:

«لقد برز هؤلاء العرب السذج شامخين في عالمهم؛ فدانت أمام زحفهم المظفر الجيوشُ الجرارة والأمراءُ، كانت الشعوب الأخرى متململة من أمرائها، فلاح العرب كبارقة الأمل لهذه الشعوب التي كانت ترقب الفرج والثورة الاجتماعية»[3].

- بغداد.. مدينة ألف ليلة وليلة:

«إن المدينة التي ازدهرت في أيام الخلفاء العباسيين هي مدينة ألف ليلة وليلة، كانت مدينة فسيحة تزخر بالقصور، والمحلات العامة، والمدارس والكليات، والأسواق، والمتنزهات، والحدائق الغنَّاء، وكان تجارها يتعاملون مع بلدان الشرق والغرب، وكان لها جيش عرمرم من الموظفين، الذين يُراقبون جميع أطراف الإمبراطورية، وكلما تعقَّدت شئون الإدارة قسمت إلى إدارات عديدة، وربطت جميع أنحاء الإمبراطورية بالعاصمة بنظام البريد،

(1) جواهر لال نهرو: لمحات من تاريخ العالم، ص27.
(2) السابق، ص31.
(3) السابق، ص33.

وانتشــرت المستشــفيات، وأمَّها الزوار من مختلف أقطار العالم، وخصوصًا العلماء وطلاب العلم والفنانون، وكان الخلفاء يُرَحِّبُون بأهل العلم والفن»[1].

- آباء العلم الحديث:

«وإننــا لنجد أن الأســلوب العلمي لم يكن مطبَّقًا في بلــدان العالم القديم؛ مثل: مصر، والصيــن، والهند، ونجد القليل منه في اليونان، ولا نجده في روما، ولكن العرب امتازوا بهذه الروح العلمية الاستطلاعية؛ مما يجعلهم يُدْعَوْنَ بجدارة آباء العلم الحديث، لقد تَعَلَّمُوا شيئًا من الطب والحساب من الهند، التي كان علماؤها ورياضيوها يفدون بأعداد كبيرة إلى بغداد، وكثير من الطلاب العرب ذهبوا إلى طشــقند في شمال الهند، التي كان فيها جامعة عظيمة للطب، وقد ترجمت الكتب السنسكريتية الطبية والمواضيع الأخرى بصورة خاصة إلى اللغة العربية، وتَعَلَّم العرب من الصين صناعة الورق وأشياء أخرى، وبنى العرب على هذا الأساس العلمي – الذي اسْــتَقَوْهُ من غيرهم – أبحاثًا عظيمة وتَوَصَّلُوا إلى اكتشــافات عظيمة؛ لقد صنعــوا أول مكبِّــر، وصنعوا أول بوصلة، وكان أول أطباؤهم وجراحوهم ذوي شــهرة عالمية طبقت آفاق أوربا»[2].

- بغداد وقرطبة وما حولهما:

«وكانت بغداد مركزًا لهذا الإشعاع الفكري، وكانت قرطبة عاصمة إسبانيا العربية مثيلة بغــداد في دنيا الغــرب، وكانت في العالم العربي مراكز علمية أخــرى ازدهرت فيها العلوم؛ ومنها: القاهرة، والبصرة، والكوفة، ولكن بغداد – التي وصفها أحد المؤرخين بأنها: «عاصمة الإســلام، وعين العــراق، وقلب الإمبراطورية، ومركز الجمــال والثقافة والفن» – فاقت هذه المراكز جميعًا، وكان عدد سكان بغداد يربو على مليون نسمة، أي أكثر بكثير من سكان كلكتا أو بومباي في يومنا هذا[3]»[4].

- قرطبة العظيمة:

«إن حكم العرب لأجزاء من إسبانيا مدة 700 سنة أمر يدعو إلى الإكبار، ويزيدنا إكبارًا لهم تلك المدنيَّة الرفيعة والثقافة العربية الراقية، التي وصفها أحد المؤرخين بقوله:

---

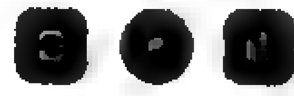
(1) جواهر لال نهرو: لمحات من تاريخ العالم، ص34.
(2) السابق، ص35.
(3) كُتب هذا الكلام في منتصف عام 1932م.
(4) السابق، ص35.

«لقد نظم المغاربة مملكة قرطبة العظيمة، التي كانت مفخرة العصور الوسـطى، والتي حملـت نبارس العلوم والحضـارة الزاهرة على العالم الغربي. الـذي كان مغمورًا في الجهل والوحشية».

ظلت قرطبة عاصمة لمملكة العرب مدة 500 سـنة، وكان سـكانها يزيدون عن مليون نسمة؛ وكان بها البساتين النضرة والحدائق الغناء الممتدة مسافة عشرة أميال، ولها ضاحية تمتـد 24 ميلاً، ويقال: إنها كانت تحوي 60 ألف قصر، و200 ألف بيت، و800 ألف متجر، و3800 مسجد، و700 حمام عام، ومع ما في هذه الأرقام من مبالغة، إلا أنها تعطينا صورة عـن عظمة هذه المدينة التي كثـرت فيها المكتبات، ومنها مكتبـة الأمير التي كانت تحوي 40 ألـف مجلد، وقد طبقت شـهرة جامعة قرطبة الآفاق، واكتظـت قرطبة إلى جانب ذلك بالمدارس الابتدائية المجانية للفقراء، وقد كتب أحد المؤرخين يقول:

«بينما كان معظم الناس في قرطبة يقرءون ويكتبون، كان أهل أوربا المسيحيون في جهل مطبق، اللهم إلا رجال الدين منهم، ولم ينجُ من هذا الجهل حتى أعلى الطبقات الأوربية».

هذه هي قرطبة العظيمة منافسـة بغداد العظيمة، لقد طارت شـهرتها في أرجاء أوربا حتى سـماها الكُتَّاب الألمان بزينة الدنيا، وقـد أمَّ جامعتها الطلاب من جميع أنحاء الدنيا، وشَعَّتْ منها الفلسفة العربية حتى وصلت جامعات أوربا الكبرى»[1].



(1) جواهر لال نهرو: لمحات من تاريخ العالم، ص45، 46.

الشاعرة ساروجيني نايدو (Sarojini Naidu):

(1879-1949م)

زعيمة الحركة النسوية الهندية، عُرفت بعندليب الهند بسبب أشعارها وخطبها، أدّت دورًا مهمًّا في نضال الهند من أجل نيل الحرية من الحكم البريطاني.

وُلِدَتْ نايدو في 13 فبراير (1879م) في حيدرآباد، كان والدها من الهندوس الإصلاحيين من البنغال، كبرت وهي تتكلّم الأردو والبنغالية والإنجليزية. عَمِلَتْ نايدو طوال حياتها لتوحيد شعب ذي ديانات ولغات وطبقات اجتماعية مختلفة في الهند.

نَظَمَتْ نايدو الشعر باللغة الإنجليزية، نشرت ثلاث مجموعات مهمة لها في إنجلترا وهي: (العتبة الذهبية) عام (1905م)، و(عصفور الزمن) عام (1912م)؛ و(الجناح المكسور) عام (1917م)، تُصَوِّر أحسنُ قصائدها (بائعو الأساور، وحاملو المحفات) مظاهرَ الحياة القروية الهندية.

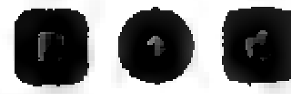
وفي سنة (1925م) أصبحت رئيسة المؤتمر الوطني الهندي، وألقى بها البريطانيون في السجن عدة مرات، بسبب نشاطاتها السياسية، مثل العديد من الزعماء الآخرين الذين طالبوا باستقلال الهند. وبعد استقلال الهند سنة (1947م) أصبحت نايدو حاكمة لولاية أتر برادش، وتوفيت في 2 مارس (1949م).

(مثاليات الإسلام = Ideals of Islam)



- الصلاة.. عدالة:

«لقد كان الإسلام في المسجد عند أداء الصلاة، وفي ساحة الحرب إذ يقاتل المسلمون صفًّا، وكانت عدالة الإسلام تُطَبَّق خمس مرات في اليوم، عندما كان الأمير والفقير يركعان ويسجدان كتفًا إلى كتف... لقد شدَّتني مرَّات ومرَّات وَحدة الإسلام التي لا تتجزَّأ، والتي تجعل من الإنسان أخًا للإنسان...»[1].



(1) ساروجيني نايدو: مثاليات الإسلام، ص169.

الفصل الثاني

غير المسلمين في العالم العربي

«ولقد وَجَدَتِ الدياناتُ الأخرى والمسيحية بالذات في كل العصور التي كان الحكم الإسلامي فيها قائمًا بصورته الصادقة، ما لم تَلْقَه في ظلّ أي نظامٍ آخر من حيث الأمان والاطمئنان في دينها، ومالها، وعِرضها، .. وحياتها».

الكاردينال إسطفانوس

مصر:

أقوال قادة النصارى في مصر عن سماحة الإسلام:

لقد نشرت مجلة (الدعوة) القاهرية تحت عنوان: (المسيحيون في مصر والحكم بشرع الله)[1] بعد أن وَجَّهَتْ بعض الأسئلة إلى بعض أهل الفكر من ممثلي الطوائف المسيحية في مصر، فقالت مجلة الدعوة: «وربما انبعثتْ أصوات هنا وهناك تتساءل: وماذا عن الأقليات في مجتمع يُطَبِّق شرع الله؟ وربما كان السؤال ليس له ما يستدعيه؛ فشرعةُ الله لكل خلق الله عدلٌ، وإنصاف، وصون للمال والعِرضِ والحياة، ومع ذلك تَوَجَّهَت الدعوة بأسئلة محدَّدة إلى إخواننا أهل الرأي الممثِّلينَ للطوائف المسيحية في هذا البلد؛ تستطلع رأيهم في تحكيم شرع الله، وهجر كل القيم، والقوانين، والنظريات الوضعية».

وكان من بين الأسئلة التي وجهتها الدعوة سؤال مفاده:

من خلال دراستكم للتاريخ ماذا تَرَوْنَ في حكم الإسلام بالنسبة للأقليات من ناحية العبادة، والأموال، والأعراض؟

الكاردينال إسطفانوس بطريرك الأقباط الكاثوليك:

- أمان واطمئنان:



«إن الذي يحترم الشريعة الإسلامية يحترم جميع الأديان... ولقد وَجَدَت الديانات الأخرى والمسيحية بالذات – في كل العصور التي كان الحكم الإسلامي فيها قائمًا بصورته الصادقة – ما لم تَلْقَه في ظِلِّ أي نظام آخر من حيث الأمان والاطمئنان في دينها، ومالها، وعِرضها، وحياتها».

(1) تحقيق للأستاذ: محمود عبد الباري، عدد ربيع الأول سنة 1397هـ=فبراير 1977م، ص12-15.



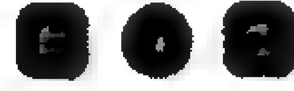
الأنبا جريجوريوس:

(1919 - 2001م)

أسقف البحث العلمي والدراسات العليا اللاهوتية بالكنيسة المصرية.



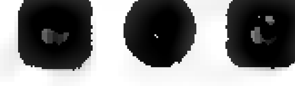
يجيب قائلاً عن التساؤل السابق: «لقد لَقِيَتِ الأقليات غير المسلمة - والمسيحيون بالذات - في ظِلِّ الحكم الإسلامي - الذي كانت تتجلَّى فيه رُوحُ الإسلام السَّمْحَة - كلَّ حريةٍ وسلامٍ وأمنٍ في دِينِها ومَالِها وعِرضِها».



القس برسوم شحاتة:

أمَّا القس **برسوم شحاتة** وكيل الطائفة الإنجيلية في مصر فيجيب قائلاً:

«فـــي كل عهد أو حُكْم إســـلامي التزم المســـلمون فيه بمبادئ الدين الإســـلامي كانوا يشـــملون رعاياهم من غيرٍ المســـلمين - والمســـيحيين على وجه الخصوص - بكل أسباب الحريـــة، والأمن، والســـلام، وكلما قامت الشـــرائع الدينية في النفـــوس بصدق - بعيدة عن شـــوائب التعصب الممقوت، والرياء الدَّخِيلَيْن على الدين - سطعت شمس الحريات الدينية، والتقى المسلم والمسيحي في العمل الإيجابي والوحدة الخلاَّقة».

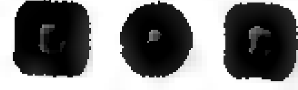


الأنبا شنودة:



أما الأنبا شـــنودة رئيس الكنيســـة القبطية المصرية، وبابا الأقباط الأرثوذكس، فيقول:

«إن الأقباط في ظِلِّ حكم الشريعة يكونون أسعد حالاً وأكثر أمنًا، ولقد كانوا كذلك في الماضي، حينما كان حكم الشـــريعة هو الســـائد... نحن نتوق إلى أن نعيش في ظِلِّ: «لهـــم ما لنا، وعليهم ما علينا». إن مصر تجلب القوانين من الخارج حتى الآن، وتُطَبِّقُها علينا، ونحن ليس عندنا ما في الإســـلام من قوانين، فكيف نرضى بالقوانين المجلوبة، ولا نرضى بقوانين الإسلام؟!»[1].



(1) صحيفة الأهرام المصرية، 6 مارس 1985م.

نظمي لوقا:

مُحَمَّدٌ
في حياته الخاصة
بقلم
الدكتور نظمي لوقا
مكتبة غريب

كاتب ومؤلف مصري مسيحي، له مؤلفات عديدة في علم النفس والفلسفة، يتميَّز بنظرته الموضوعية وإخلاصه العميق للحق، ورغم إلحاح أبويه على تنشئته على المسيحية منذ كان صبيًّا، فإنه كثيرًا ما كان يحضر مجالس شيوخ المسلمين، ويستمع بشغف إلى القرآن وسيرة الرسول (ﷺ)، بل إنه حفظ القرآن الكريم ولم يتجاوز العاشرة من عمره، ألَّف عددًا من الكتب أبرزها: (محمد الرسالة والرسول)، و(محمد في حياته الخاصة)، و(أنا والإسلام)، توفي سنة (1987م).

وكتابات الدكتور نظمي لوقا من أمتع وأفضل الكتابات التي كتبها غير المسلمين في حقِّ الإسلام، إن لم نَقُلْ: إنها كانت الأفضل من بينها جميعًا. ويبدو الحس الإنساني فيها واضحًا مبينًا.

ولقد أطلنا في النقل عنه، خاصة في قضية تعدد زوجات النبي (ﷺ)؛ لما فيها من روعة وجمال وحجة ناصعة مقنعة، ثم لأنها كانت بقلم غير مسلم لا يُنتظر منه أن يتعصب، أو يقول غير ما يراه صحيحًا ثابتًا، كما أنه مسيحي أرثوذكسي لا يُباح له تعدد الزوجات.



- أمة جديدة:

«قامت من المسلمين أُمَّة ذات منظور جديد، وغايات جديدة وعلاقات اجتماعية وقواعد سلوكية جديدة، ليس للعرب في الجاهلية عهد بها من قبل، الله الواحد في هذا (النسق الجديد) هو المولى، وهو النصير، وهو الآمر الناهي بما أنزل من قرآن، وما كلَّف به (لسان السماء) – وهو الرسول (ﷺ) – وإليه المآب للثواب والعقاب، فالرسول هو الواسطة الوحيدة لأمر الله ونهيه، وهو المفسر لما يبلغ من وحيه، والمفصِّل بسُنَّته للشعائر والطقوس وقواعد السلوك، وسائرُ المؤمنين تحت هذا اللواء أَكْفَاء»(1).

- المرأة في الإسلام:

«المرأة في الإسلام إنسان له كل حقوق الإنسان وكل تكاليفه العقلية والروحية، فهي في هذا صنو الرجل تقع عليها أعباء الأمانة التي تقع عليه.. أمانة العقيدة وتزكية النفس»(2).

---
(1) نظمي لوقا: أنا والإسلام، ص113.
(2) السابق، ص153.

- **إنسان كامل الإنسانية:**

«ولم يكن للنساء نصيب في المواريث أيام الجاهلية... فأُنْزِلَت الآية التي تورث النساء، وفي القرآن تحريم لوأد البنات، وأَمْرٌ بمعاملة النساء والأيتام بالعدل، ونهى محمد (ﷺ) عن زواج المتعة وحمل الإماء على البغاء»(1).

- ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ﴾(2):

«وفي هذه السورة (النحل) عينها إشارة إلى المساواة عند الله بين الذكر والأنثى بغير تفريق في التكليف أو الجزاء: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾(3). وفي سورة النساء إشارةٌ صريحة مساواة المرأة والرجل في ثمرات الأعمال والجهود: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ﴾(4). وفي بعض الأمم القديمة، وفي بعض الأمم الحديثة، كانت المرأة تُحْرَم غالبًا من الميراث، فأبى الإسلام هذا الغبن الفاحش»(5).

-.. ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾(6):

«ليس الإسلام -على حقيقته- عقيدة رجعية تُفَرِّق بين الجنسين في القيمة؛ بل إن المرأة في موازينه تقف مع الرجل على قدم المساواة، لا يفضلها إلا بفضل، ولا يحبس عنها التفضيل إن حصل لها ذلك الفضل بعينه، في غير مَطْلٍ أو مراء، وما من امرأة سوية تستغني عن كنف الرجل بحكم فطرتها الجسدية والنفسية على كل حال»(7).

- **اجتمعت له آلاء الرسل وهمة البطل:**

«ما كان محمد (ﷺ) كآحاد الناس في خلاله ومزاياه، وهو الذي اجتمعت له آلاء الرسل، وهمة البطل، فكان حقًّا على المنصف أن يُكْرِمَ فيه المثلَ، ويُحَيِّي فيه الرجل»(8).

- **لسان السماء:**

«رجل فرد هو لسان السماء، فوقه الله لا سواه، ومن تحته سائر عباد الله من المؤمنين، ولكن هذا الرجل يأبى أن يُدَاخله من ذلك كبر؛ بل يُشفق بل يفرق من ذلك، ويحشد نفسه

(1) نظمي لوقا: محمد الرسالة والرسول، ص96.
(2) (البقرة: 228).
(3) (النحل: 97).
(4) (النساء: 32).
(5) نظمي لوقا: محمد الرسالة والرسول، ص96.
(6) (البقرة: 228).
(7) نظمي لوقا: محمد الرسالة والرسول، ص100، 101.
(8) السابق، ص28.

كلها لحرب الزهو في سريرته، قبل أن يُحاربه في سرائر تابعيه. ولو أن هذا الرسول بما أنعم من الهداية على الناس، وما تمَّ له من العزة والأيادي، وما استقام له من السلطان، اعتدَّ بذلك كله واعتزَّ، لما كان عليه جناح من أحد؛ لأنه إنما يعتدُّ بقيمة ماثلة، ويعتزُّ بمزية طائلة.

يطريــه أصحابه بالحقِّ الذي يعلمــون عنه فيقول لهم: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابــن مريم، إنما أنا عبد الله، فقولوا: عبد الله ورســوله». ويخــرج على جماعة من أصحابه فينهضــون تعظيمًا له، فينهاهم عن ذلك قائلاً: «لا تقومــوا كما يقوم الأعاجم يُعَظِّم بعضهم بعضًا»(1).

- ما صدق بشر إن لم يصدق محمد (ﷺ):

«ماذا بقي من مزعم لزاعم؟

إيمــانٌ امتحنه البلاء طويلاً قبل أن يُفَاء عليه بالنصر، وما كان النصر متوقَّعًا أو شــبه متوقَّع لذلك الداعي إلى الله في عاصمة الأوثان والأزلام.

ونزاهةٌ ترتفع فوق المنافع، وسموٌّ يتعفَّف عن بهارج الحياة، وسماحة لا يُدَاخلها زهو أو استطالة بسلطان مطاع.

لــم يَفِــدْ ولم يورث آلــه، ولم يجعل لذريته وعشــيرته ميزة من ميــزات الدنيا ونعيمها وسلطانها، وحرَّم على نفسه ما أحلَّ لآحاد الناس من أتباعه، وألغى ما كان لقبيلته من تقدُّم علــى الناس في الجاهلية، حتى جعل العبدان والأحابيش سواســية وملوك قريش، لم يُمَكِّن لنفسه ولا لذويه، وكانت لذويه بحكم الجاهلية صدارة غير مدفوعة، فسوَّى ذلك كله بالأرض، أيُّ قولــة بعد هذا تنهض علــى قدمين لتطاول هذا المجد الشــاهق، أو تُدافع هذا الصدق الصادق؟

لا خيرة في الأمر: ما نطق هذا الرسول عن الهوى.

لا خيرة في الأمر: وما ضلَّ وما غوى.

لا خيرة في الأمر: وما صَدَقَ بشرٌ إن لم يكن هذا الرسول بالصادق الأمين»(2).

- ولم يستفد شيئًا:

«فأيُّ الناس أولى بنفي الكيد عن سيرته من أبي القاسم، الذي حَوَّل الملايين من عبادة الأصنــام الموبقة إلى عبادة الله رب العالمين، ومن الضياع والانحلال إلى الســمو والإيمان، ولم يَفِدْ من جهاده لشــخصه أو آله شيئًا مما يُقْبِلُ عليه طُلاَّب الدنيا من زخارف الحطام...

(1) نظمي لوقا: محمد الرسالة والرسول، ص179، 180.

(2) السابق، ص190، 191.

حفاظًا على معنى الشــرف، وصيانةً لحقِّ المروءة أوجبتُ على نفسي ذلك الإنصاف لشخص أبي القاسم، أوجبت ذلك على نفسي منذ عرفتُ قدره وأدركتُ خطره»[1].

- أكذوبة الشهوانية:

«وبعد فرية الجهلِ التي تُقَوِّضُ القدرة العقلية، اتجه المفترون إلى نقيصة أخرى تُقَوِّضُ المزية الخُلقية، وتطعن الرجل الشــريف في مروءته وصفته الإنسانية، التي يعتز بها كلُّ من ينأى بنفسه عن درك الحيوان البهيم.

ومنطقهم في هذه... مقدمة ســليمة ومُسَلَّم بها، يؤسسون عليها مقدمة أخرى مغلوطة؛ لتُلَقِّــح إحداهما الأخرى، وتُخْرِج من اجتماعهما أكذوبة شــوهاء، تلدهــا العقول المتهتكة، وتُشــيعها الألســنة الآفكة، مقدمة ســليمة: محمد (ﷺ) تزوج عددًا من النساء... والنتيجة الطبيعية لهذا الكلام أن محمدًا (ﷺ) كان رجلاً شهوانيًّا لا صبر له عن النساء، ولا كابح له عن الاستكثار منهن»[2].

- مقدمة مدسوسة:

«فحين نتعرَّض لهذه الفرية لا نتعرَّضُ لها من منظرها، بل من أساسها الذي بُنِيَتْ عليه، نتعرَّض للمقدمة المدسوسة التي خلطت بين الكم والكيف وبين التعدُّد وجموح الاشتهاء، وهو خلط قريب المدخل عند مَنْ لا يُدَقِّقُونَ الفهم، ولا يُفَرِّقُونَ بفطنة بين المظاهر المادية والبواعث النفسية، التي هي أمور باطنة لا تأخذ العين العابرة ما لم تؤيدها بصيرة نافذة»[3].

- لم يكن مُعَطِّل النوازع.. ولكن لم تغلبه نوازعه:

«لــم يكن أبو القاســم مُعَطِّل النوازع، ولكنهــا لم تكن نوازع تعصف به؛ لأنه يُسَــخِّرها في كيانه في المســتوى الذي يُكرم به الإنســان، حين يطلب ما هو جميل وجليل في الصورة الجميلة الجليلة، التي لا تهدر من قدره، بل تضاعف من تساميه وعِفَّته وطُهْره»[4].

- ليس العدد ولكنها الظروف:

«تسع زوجات جمع بينهن محمد (ﷺ) عدد ليس بالقليل، ولكن العبرة ليست بالعدد، ولكن العبــرة بالظروف التي أفضت به إلى الجمع بينهن... ولا نفهم هذه الظروف حقَّ فهمها إلا إذا قَدَّرْنَا المرحلة الطويلة من عُمر أبي القاسم قبل زواجه من التسع اللواتي جمع بينهن»[5].

(1) نظمي لوقا: محمد في حياته الخاصة، ص15.
(2) السابق، ص37، 38.
(3) السابق، ص37، 38.
(4) السابق، ص44.
(5) نظمي لوقا: محمد في حياته الخاصة، ص49.

- وهذه حياته من قبل:

«مرحلة طويلة من عمره مداها ربع قرن من الزمن، هي فترة الشـباب العارم والرجولة الفتيــة، ولم يكن فيها زوجًا للعدد العديد مــن الحريم، بل كان بعل امرأة واحدة هي خديجة بنت خويلد (رضي الله عنها).

بعل امرأة واحدة تكبره بنيفٍ وخمسة عشر عامًا، تزوَّجها وهو في الخامسة والعشرين، وتزوجته وهي فوق الأربعين، وقيل: وهي تناهز الخامسة والأربعين. وماتت وهي فوق الخامسة والستين على الأقل، وكان هو في الخمسين.

ربــع قرن لم تكن فيه الزوجة الواحدة فرضًا مفروضًا عليه، والبيئة لا تعرف إلا التعدد الذي لا حصر له، وليس التوحُّد في الزواج قيمةً متفقًا عليها هناك في ذلك الزمن.

ولو كان محمد (ﷺ) أخا مِجَانة لما كان ذلك مسـتغربًا لدى أحد، إلا أنهم كانوا جديرين أن يتشدَّقُوا به أول ما يتشدَّقُون بالمطاعن على الرسول (ﷺ) يوم نهض بالدعوة إلى عبادة الله، وما ينبني عليها من التعفف والاستقامة والطهر، كانوا جديرين أن يتصايحوا أول ما يتصايحون: ما هذا الذي خرج علينا به محمد (ﷺ) من الدعوة إلى العفة، وهو الذي عهدناه كذا وكيت؟!

وما تورَّعُوا عن التلفيق في التُّهم، فما الذي أسكتهم عن هذه لو أنها كانت صحيحة مشاهدة؟!

ولكنها لم تخطر ببالهم على كثرة ما زَمَوّهُ من البذاء... لسـبب واحد لا يُعْقَل سواه، أنه كان في سـلوكه الشخصي على نقيض ذلك، وكان مشـهورًا بالتزام العفة والطهر والبُعْدِ عن الشبهات، وناهيك بالفواحش والموبقات، فوَقَفَتْ شهرته هذه حائلاً دون الافتراء على لسان معاصريه ومناهضيه من أولياء الكفر في قريش، فالفجور في عصر الفجور لم يكن شـيمة محمد (ﷺ)، ولم يكن مكلفًا بعدُ برسالة»[1].

- منطق خبيث:

«ليس إذن من سـبيل أمام المفترين الأجانب إلى رميه بجموح الشـهوة في تلك الحقبة المديــدة مــن عمره، وهو شــاب أو رجل مكتمل الفتــوَّة، خالي البال من الأعبــاء التاريخية الجسام، التي تستنفد الحيوية وتستأثر بالاهتمام.

فكيف يُوَفِّقُون بين هذه وبين ما زَمَوّهُ به في عهده المدني الحافل بالأحداث والهموم من نقائص الاشتهاء الجامح والتهالك على مناعم الحريم؟

هل يتنازلون عن افترائهم عليه في عهده الأخير، لما في صدر عمره من تكذيب واقعي ملموس؟ معاذ الأكذوبة ومنطقها الخبيث!»[2].

(1) نظمي لوقا: محمد في حياته الخاصة، ص49-51.

(2) السابق، ص51.

- زواج متأخر بعد حياة عفيفة:

«إن سنَّ الخمسة والعشرين – التي تزوج فيها محمد (ﷺ) من خديجة (رضي الله عنها) – ليست بالسنِّ الصغيرة في بيئة شِبْهِ بدوية كبيئة قريش، فهي سنٌّ متأخِّرة للزواج، وكان محمد (ﷺ) معروفًا بالوسامة، ولكن حياته – إلى أن تزوَّج – كانت خالية من المغامرات المعهودة يومئذ، فكان على غير المألوف حييًا منطويًا مستقيمًا»[1].

«كانت أمانة محمد (ﷺ) في الأموال مضرب المثل، وهي في الواقع أمانة فرعية، أصلها الأمانة الكبرى، وهي قوة النفس التي تلجم صاحبها عن تجاوز الحدود، وإن كان ذلك التجاوز ميسورًا.

وتلك القوة الأصيلة الكامنة هي التي ألزمته حدودًا لا يكترث لها الناس في تلك البيئة لذلك العهد، وهي حدود العفة في الجنس والأمانة على العرض.

لا زوجة يومئذ له، ولا رقابة، ولا إلزام من العرف بالعفة، ولكنه كان العفيف الأمين، يضنُّ بنفسه عن خساسة الفحش والفجور؛ لأن نفسه المترفعة الصافية كريمة عليه، والكرامة تُلزم صاحبها حدودًا أضيق مما يلتزمه الناس، وأضيق مما تفرضه أحوال المجتمع على سائر الناس... عفَّةٌ غريبة المعدن في تلك البيئة قبل الزواج، على اكتمالٍ في الشباب، ووسامة في الخلقة وافتقار. لمن شاء أن يتخذ إلى لذَّته سبيلاً.

ما القول في ذلك يا معاشر الحصفاء؟ ألا يتفق ذلك مع عفته وقد تزوج في الخامسة والعشرين، وعاش خمسًا وعشرين أخرى مثال العفة والطهر؟»[2].

- عفته قبل الزواج الأول:

«ولكن فترة ما قبل زواجه من خديجة (رضي الله عنها) لا يجدون لهم عليها مطعنًا؛ ولذا يتركونها لتكون مطاعنهم كلها بادئة بزواجه»[3].

- وهذه قصة زواجه الأولى:

«ونجد هذه الكهلة – يقصد السيدة خديجة رضي الله عنها – تعزف عن الزواج؛ لأنها آنست في الخاطبين السراة[4] الثراة طمعًا في ثروتها الطائلة، فاعتصمت بالإباء،

(1) نظمي لوقا: محمد في حياته الخاصة، ص52.
(2) السابق، ص53، 54.
(3) السابق، ص55.
(4) السَّراة: الأشراف. ابن منظور: لسان العرب، مادة سرا 377/14، والمعجم الوسيط ص428.

حتى وجدت ذلك الشاب الفقير وجَرَّبَتْ أمانته وعِفَّته وعزَّة نفسه، فأدركت أن له خُلقًا يعصمه عن الطمع في مالها؛ فأحبَّتْ أن يكون زوجها»[1].

- وعفته بعد الزواج:

«ولم يكن من أمره بعد زواجها ما يدلُّ على إسرافه في مالها، كما يفعل النفعيون الذين يتزوجون العجائز الثريات، فلم يعمد إلى البذخ في مظهره، بل كان متواضعًا عفيفًا، ولم يعمد إلى القصف[2] مع أبناء المياسير إظهارًا لثرائه الطارئ، بل ازداد تباعده عن كل ألوان القصف، وزاد زهده في الرخاء والترف، وصار يقضي الكثير من وقته صائمًا معتزلاً للناس وحده في الجبل، وزاد الرجل بالزواج من الثرية نزاهة وعزوفًا عن البذخ والترف، فأين الطمع هنا وأين الوصولية؟»[3].

- وهكذا تزوج أم سلمة (الأرملة):

«أفي مثل هذا الزواج الذي أَمْلَتْهُ دوافع الأسى والنخوة يجترئ الأفَّاكُون على جلال ذلك الحزن النبيل فيذكرون لفظ الشهوة؟ أيُّ جرأة! وهذا الزوج العظيم لا يدخل بيت هذه الزوجة الباسلة إلا وسألها عن صغيرتها بنت الراحل العزيز بصيغة التدليل: «أَيْنَ زَنَابُ؟» يعني صغيرتها الرضيع زَينب بنت أبي سلمة»[4].

- وهكذا تزوج جويرية (الأميرة الأسيرة):

« ... وخرجت بنتُ العزِّ والشرف والجاه، بنت القائد المهزوم هائمةً في شوارع المدينة لا تدري كيف تحصل على فديتها من الرقِّ، وخطر لها أن تستثير نخوة القائد المنتصر، فوقفت ببابه وهو يومئذ في حجرة عائشة بنت أبي بكر، واستأذنت عليه، ودخلت في كبرياء متداعيةً، وإباء مترنِّح تعرض عليه أساها وكربها: يا رسول الله، أنا بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قومه! وقد أصابني من البلاء ما تَعْلَمُ فوقعت في السهم لثابت بن قيس، فكاتبته على نفسي، فجئتك أستعينك على أمري.

وما كان أشدّ وقع هذه الكلمات على فارس ذي مروءة، ابنةُ عدُوِّه المهزوم تستعينه ليُقِيلَ عثرتها، وهو الذي هزم أباها، وسبب ذُلّها ووقوعها في السبي، تمدُّ يدها إليه ليأسو جرحها، وسيفه هو الذي سدَّد الضربة! وليُنقذها من العار الذي أنزلته بها شريعة الحرب، التي ويلٌ فيها للمغلوب من الغالب.

(1) نظمي لوقا: محمد في حياته الخاصة، ص58.
(2) القصف: اللهو واللعب، والإعلان به. ابن منظور: لسان العرب، مادة قصف 283/9، والمعجم الوسيط ص740.
(3) نظمي لوقا: محمد في حياته الخاصة، ص60.
(4) السابق، ص82.

كان ذلك الاعتبار حَسْـبـ[1] محمد (ﷺ) كي يرقَّ للأسيرة، عزيزة قوم ذلُّوا فذَلَّتْ، وكي يُعِينَها على نَيْلِ حُرِّيَّتِهَا ومحوِ عارها واسترداد عزتها.

كان ذلك حَسْـبُه، وهو الفـارس القائد المنتصر، ولكنه لم يكن حَسْـبه وهو فوق صفة القيادة والفروسـية، وقبل صفة القيادة والفروسية رسـولٌ صاحب دعوة يرجو أن تصل إلى القلوب العصيَّة فتنفتح لها بعد استغلاق عنيد.

وكان الرسول (ﷺ) هو الذي نبَّه هذا الموقفُ المؤثِّر آمالَه مثلما أثار نخوته، فجمع بين الحسنيين في عمل واحد فذٍّ، كسب به قلوبًا جديدة وشعبًا جديدًا، وأعلن لأشتات القبائل أن محمدًا (ﷺ) أكرم الناس وهو منتصر، وأن الولاء له والدخول في دينه وطاعته أكرم لهم من مناجزة مَنْ كان على خلقه النبيل عداءً لا طائل تحته.

هـذا زعيم خير للنـاس أن يغنموا الانضواء تحت رايته، ورسـول خيرٌ للناس أن يغنموا الاهتداء بمناقبه وإمامته، وقال محمد (ﷺ) للأسـيرة عزيزةِ قومٍ ذلُّوا فَذَلَّت: «**فَهَلْ لَكِ فِي خَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ؟**»

فسألته متعجبة لهفانة: وما هو يا رسول الله؟

فقال لها في ترفق واضح: «**أَقْضِي كِتَابَتَكِ وَأَتَزَوَّجُكِ**»[2].

أي يدفع فديتها إلى قيس بن ثابت فتصير حرَّة ويتزوجها.

لفتة بارعة وعبقرية تجمع بين نبل الفروسـية والإلهام السـديد؛ فهو لا يرفع عنها ذلَّ الرقِّ والأسـر فحسب، بل ويردُّ إليها عزَّتها أعزَّ مما كانت قبل السبي، يرفعها من الأسر إلى مقام زوجة القائد المظفر، ويرفعها من الكفر إلى مقام أم المؤمنين، ويجعل بينه وبين أهلها المهزومين نسبًا وصهرًا، فيغسل الثأر، ويُحَوِّل الهزيمة والعداء إلى ألفة وولاء.

وكان طبيعيًّا أن تقبل الأسيرة ذلك الشرف، الذي فتح لها الرسول (ﷺ) أبوابه، ألم تقف ببابه سائلة مستجدية، فأتاح لها أن تدخل من ذلك الباب سيدة عزيزة مستعلية»[3].

- .. فكانت أنعم النساء على أهلها:

«أما سـائر الناس فما عرفوا أمر ذلك الإصهار إلى بني المصطلق، حتى أخذ كل واحد منهم يُطْلِق سـراح مَنْ عنده من أسراهم وسـباياهم أحرارًا لوجه الله، وهم يهتفون: أصهار رسول الله.

(1) حَسْبه الشيء: أي يكفيه. ابن منظور: لسان العرب، مادة حسب 310/1، والمعجم الوسيط ص171.

(2) أبو داود: كتاب العتق، باب في بيع المكاتب إذا فسـخت الكتابة (3931)، وأحمد في مسـنده (26408) بهذا اللفظ. وحسـنه الألباني، انظر: صحيح وضعيف سنن أبي داود 431/8.

(3) نظمي لوقا: محمد في حياته الخاصة، ص86-88.

وهكذا أُعْتِقَ بزواجها أهلُ مائة بيت – فيما يقال – من بيوت قومها، واهتز أبوها سيد قومه لذلك النبل الذي أَسَرَ به محمد (ﷺ) قلبه وقلب سائر بني المصطلق، فأسلم وأسلموا، وفعل هذا الزواج ما لم يفعله السيف في سلسلة من المعارك.

فأين هذه الكياسة الملهمة من الشهوة المزعومة؟

لقد كان بيده أن يجعلها من نصيبه من السبايا، وكان بيده وقد راقته أن يجعلها في ملك يمينه بشرائها من قيس بن ثابت، ولكن المسألة كانت أكبر وأجلَّ من فتاة راقت رجلاً فتمنَّاها: لأن المسألة كانت مسألة فتح مبين، وتألُّف قلوب، وانتشار دين، ثم هي فضلاً عن هذا مسألة نخوة لا نزوة»[1].

- وهكذا تزوج من صفية (رضي الله عنها):

«ومن بين السبايا العقيلة[2] التي أعزَّها نسبٌ رفيعٌ ومكانٌ منيعٌ، زال مُلْكُها، وضاعت حريتها، وفني آلها أجمعون؛ مِنَ الزوج إلى الشقيق إلى بني العمومة الأقربين، وانتهت في ساعة من الزمن إلى ذلِّ الأَسْرِ المهين، فماذا فعل الفارس القائد الذي جَرَّب النخوة من قبل في عقيلة بني المصطلق؟

لم يترك عزيزة القوم تقع في نصيب أحد أتباعه ليبيعها، أو يضطرها إلى استجداء ما تستعين به على فكِّ أسرها، ورفع رِقِّهَا.

ليحسم الأمر من بدايته، وليجعلها في سهمه هو.. فلا بُدَّ على كل حالٍ من خمس الغنائم للقائد الرسول بعد كل معركة.. فلتكن صفية (رضي الله عنها) إذن من ذلك الخمس المقسوم له.

وكان بيده أن يجعلها أَمَةً من إمائه، لو أنه كان ينظر إلى متعة، ولكنه حَرَّرَها وتزوَّجها لتكون لها عزَّة بعد ذلَّة، وهو الذي طالما أكرم عزيز قوم ذلَّ، ولكي يعلم من لم يعلم بعدُ أن محمدًا (ﷺ) يجبر القلوب الكسيرة، ويعفو عند المقدرة، ويأسو ما جرحه مضطرًّا.

ويذكر التاريخ لصفية (رضي الله عنها) جمالاً معروفًا في بنات إسرائيل، ولكن الجمال لم يكن هو الدافع إلى ذلك الزواج، وما نظن إلا أن سواها من السبايا كُنَّ في مثل جمالها أو يُقارِبنه، وهن بنات عمومتها وخئولتها اليهوديات، فما باله لم يُدْخِلْ في حريمه بملك اليمين زهرات مونقة من ذلك الحُسْنِ المباح بشريعة الحرب لكل محارب منتصر؟

(1) السابق، ص89.
(2) العَقيلة: الكريمة والنفيسة من النساء. ابن منظور: لسان العرب، مادة عقل 458/11، والمعجم الوسيط ص617.

ظروف صفية (رضي الله عنها) - التي سقط في الميدان أبوها وزوجها وأخوها، وكانت السيدة الأولى في تلك الدولة المنهارة - هي التي أثارت نخوة الفارس القائد الرسول، ولم تكن الشهوة هي التي حَرَّكَتْهُ إلى ذلك الزواج.

جبرُ خاطر كسير هذا هو الباعث الخفي على هذا الزواج، وهذا شأن مَنْ تُحَرِّكه النخوة لا النزوة، ولكنه ضلال القوم وإفكهم، ومنطق الأكذوبة الذي لا يستحي»[1].

- وهكذا تزوّج أم حبيبة (رضي الله عنها):

كانت من المهاجرين إلى الحبشة، وكان زوجها عبيد الله بن جحش قد انقلب من الإسلام إلى النصرانية هناك، ومات.

«... ولم تجسر رملة (رضي الله عنها) على العودة إلى مكة، فقد ورثت عن أجدادها الكبرياء والأنفة من الشماتة، لن تعود لتجرر - بين أهلها الشامتين - ذيولَ الخيبة والمهانة، ستبقى حيث هي إلى أن يقضي الله أمرًا.

وجاءت الأخبار إلى محمد (ﷺ)، جاءته وهو صاحب النخوة، نخوة الفارس العربي، وصاحب الدعوة دعوة الدين المنافح عن كيانه وعِزَّته.

وتمثل كرب أم حبيبة (رضي الله عنها) في ديار الغربة فأقدم على العمل الوحيد الذي يُنْتَظَرُ منه، مدَّ يده عبر الفيافي والبحر إلى العقيلة المخذولة، ليُبَدِّلَها من زوجها المتخلِّي عنها خيرًا منه، خير زوج تطمع فيه عقيلة تَدِين بالإسلام، ليبدلها من الشماتة زهوًا، ومن الخذلان تيهًا.

بعث إليها يخطبها لنفسه، ووكَّل النجاشي في تزويجها منه، وفي أرض المهجر التي شهدت خذلانها الموجع، أصبحت أم حبيبة (رضي الله عنها) زوجة للرسول عن طريق ذلك التوكيل.

وبقيت هناك حينًا من الدهر إلى أن ثبتت أقدام الدولة الإسلامية في المدينة، وأرسل النبي (ﷺ) يطلب بقية أتباعه المهاجرين من أرض النجاشي، وعدتهم ستة عشر رجلاً ومعهم النساء والأطفال، على رأسهم ابن عم الرسول جعفر بن أبي طالب، ورملة أم حبيبة بنت أبي سفيان، التي أمست أم المؤمنين، وهي في بلاد الغربة قبل أن تقع عين زوجها عليها بأمد مديد.

أيُّ نصرٍ لأم حبيبة (رضي الله عنها)!

وأي نصر للدين الجديد!

(1) نظمي لوقا: محمد في حياته الخاصة، ص93-95.

فما أشد وقع ذلك الزواج على معسكر الكفر كله!

أكانت أم حبيبة (رضي الله عنها) مُعَرَّضة للشماتة بتخلِّي زوجها عنها وعن الدين في أرض الهجرة البعيدة؟

أكان الدين الجديد عرضة للشماتة بهذا الارتداد؟

لقد انقلب الموقف بهذا الزواج إلى النقيض، فهذه بنت زعيم قريش، وقائد معسكر الكفر كله تغدو زوجة لمحمد (ﷺ)!

وانقلبت السخرية بين أحياء العرب جميعًا لتركب ظهر أبي سفيان، وفي ذلك الموقف العصيب على أبي سفيان أطلق كلمته المشهورة: هذا الفحل لا يجدع أنفه[1]!

وليس لهذا إلا معنًى واحد: أن ما حاق بابنته من زوجها كان مفروضًا أن يجدع أنف محمد (ﷺ)، ولكن الأنف الذي جُدِعَ بذلك الزواج لم يكن أنف محمد (ﷺ)، بل أنف أبي سفيان ومن والاه من المشركين.

ولم تَخْلُ سريرة أبي سفيان مع هذا من حمد خفي لذلك الفحل ذي الأريحية والنخوة، فالتي رفع قدرها وأعلى ذكرها هي ابنته على كل حال، وبذلك بذرت بذرة تُؤَلِّف قلب أبي سفيان وعشيرته، عسى أن تُنْبِتَ هذه البذرة وتؤتي ثمارها بعد حين.

زواج نخوة، وزواج كياسة، وزواج حماية لسمعة الدعوة، زواج تمَّ على بياضٍ في أرض بعيدة، ولا أحد يدري هل يُكْتَبُ للغائبة العودة مع سائر الغائبين، أم يكون اللقاء في رحاب الله يوم يبعثون؟!

زواج يمكن أن يقال في بواعثه أي شيء إلا أنه زواج شهوة أو قضاء نزوة، زواج أضفى على محمد (ﷺ) كل إكبار وإجلال»[2].

«... تزوج بنت أبي سفيان بدافع الصيانة والنخوة، فزرع الإجلال في قلبها إجلالاً يفوق عاطفة البنوة... عمل جليل رائع هو ذلك الزواج من أم حبيبة (رضي الله عنها)، ومساكينُ مَنْ تفوتهم روعته فيَنْسِبُونه إلى عبث الشهوة.

أعمال الكبار كبيرة مثلهم، وأوهام الصغار صغيرة مثلهم، وكل ماعون بما فيه ينضح»[3].

---

(1) انظر: ابن سيد الناس: عيون الأثر 389/2.

(2) نظمي لوقا: محمد في حياته الخاصة، ص101- 104.

(3) السابق، ص105.

- وهكذا تزوّج ميمونة بنت الحارث (رضي الله عنها):

«كان العام عام عمرة القضاء، وقد دخل المسلمون مكة مسالمين بعد صلح الحديبية: ليؤدوا فريضة الحج لأول مرة منذ الهجرة إلى المدينة، وخلت مكة بمقتضى ذلك الصلح من أهلها المشركين.

وكان ذلك الحج أكبر مظهر سلمي رائع، استعرض فيه المسلمون قوتهم، وكثرتهم، وبدا فيه فجر النصر الكامل قريبًا.

واهتزت شعاب مكة وبيوتها بهتاف المسلمين وتلبيتهم كالرعد القاصف، وإذا عقيلة من عقيلات العرب المعدودات - شقيقة زوجة العباس عم محمد (ﷺ)، وشقيقة زوجة حمزة عم محمد (ﷺ) - ترى ذلك المنظر الباهر فتهتزها الحماسة والأريحية، وتصيح وهي تشهد ذلك اليوم على بعيرها: البعير وما عليه لله ورسوله.

وأفضت بذلك إلى العباس زوج أختها، فرفع الأمر إلى ابن أخيه، فلم يَرُدَّ هبتها وتزوجها، وهي يومئذ أرملة دون الثلاثين، وما كان له أن يَرُدَّها فيكون ذلك خذلانًا لمن جادت له بنفسها تحت وطأة الحماسة؛ لدخوله معقل الشرك، وطوافه ببيت إسماعيل.

وفي الزواج بها تحت ضوء تلك الظروف تسجيل لروعة تلك العمرة، وتسجيل لما ألهبت به القلوب من حماسة وإجلال، وأراد أن يجعل ذلك التسجيل أبهى وأوقع، فعرض على الكفار أن يتمَّ العرس في مكة؛ ليولم لأهلها وليمة يشهدها الجميع من مسلمين ومشركين، وفي ذلك ما فيه من كبت قريش، ولكنهم أبوا عليه.

وفي الطريق إلى المدينة أقام محمد (ﷺ) العرس، ليكون بمشهد من أحياء العرب في المعسكر المكشوف.. تسجيل نصر، وتسجيل حماسة وفخر، ذلك كان زواجه من ميمونة بنت الحارث - التي صَبَتْ إلى الزواج منه رغبة في شرف أمومة المؤمنين، فلم يُخَيِّبْ لها رجاء؛ ليس من البِرِّ والحكمة أن يُخَيِّبَهُ لعقيلة كريمة ذات صهر قديم».

- لم تكن واحدة منهن.. شهوة:

«هؤلاء زوجاته اللواتي بنى بهنَّ وجمع بينهن، لم تكن واحدة منهن هدفَ اشتهاء كما يزعمون، وما من واحدة منهن إلا كان زواجه بها أُدْخِلَ في باب الرحمة وإقالة العثار والمواساة الكريمة، أو لكسب مودَّة القبائل وتأليف قلوبها بالمصاهرة، وهي بعدُ حديثة عهد بالدين الجديد»[1].

(1) نظمي لوقا: محمد في حياته الخاصة، ص110، 111.

«وما كان من الهَيِّن على رسولٍ قائدِ جيشٍ وحاكم دولةٍ محاربةٍ أن يزيد أعباءه بما يكون في بيتٍ كثيرِ النساء من خلافات على صغائر الأمور، ولكنه الواجب: واجب الدعوة، أو واجب النخوة، وشتان ذلك وما يتشدَّقون به من أمارة النزوة»(1).

- وهكذا تزوج زينب (رضي الله عنها):

«هــذه زوجة كثر في زواج محمد (ﷺ) بهـا اللغط، وعلت للمغرضين ضجة كبيرة تولَّى كبرها مستشرقون كثر، وتبعهم من السوقة أقوام وأقوام، وكان سندهم فيها... أساسًا تاريخيًّا ثابتًا أقاموا عليه صرح المغالطة»(2).

«تــزوج محمد (ﷺ) ابنة عمته زينب بنت جحش (رضــي الله عنها)، حقيقة تاريخية ثابتة ليســت موضع جدل، وكانت زينب بنت جحش (رضي الله عنها) زوجة زَيد بن حارثة (رضي الله عنه) قبل ذلك، ثم طلقها بعد خلاف بينهما وجفوة، وهذه حقيقة تاريخية ثابتة كذلك ليست موضع جدل.

وزيد بن حارثة (رضي الله عنه) كان ابنًا بالتبني لمحمد (ﷺ) منذ الجاهلية، وهو الذي زَوَّجه ابنة عمته هذه، وهذه - أيضًا - حقيقة تاريخية ثابتة كذلك، ليست موضع جدل.

ولكــن القصة التي رَكَّبُوهَا تركيبًا من هذه العناصر الثلاثة قصة عجيبة حقًّا في ألوانها البراقة، واستهوائها للعقول الساذجة والنيَّات الخبيثة»(3).

«إن النهج الصحيح في فهم أعمال كبار الرجال أن نتصوَّرهم في ضخامتهم وفي عناصر تكوينهم النفسي، وعلى ضوء هذا التصوُّر نتخيَّر من الدوافع المختلفة الممكنة للعمل الواحد من أعمالهم ما يتَّفق وشخصيتهم»(4).

أعاد د. نظمي استعراض تاريخ زَيد بن حارثة (رضي الله عنه)، وتاريخ زينب بنت جحش (رضي الله عنها)، وكيف كان زَيد عبدًا رقيقًا أُسِرَ في معركة بين القبائل، ووصل إلى خدمة النبي (ﷺ) قبــل البعثة، ثم رفض أن يترك محمدًا (ﷺ) حين اهتدى له أهله وأحبوا أن يفتدوه، فأكرمــه النبــي (ﷺ) بتبنِّيه، وصار يُدعى زَيد بن محمد، ثم زاد في إكرامه لَمَّا كبر وزوَّجه من زينب بنت جحش (رضي الله عنها) القرشــية الحــرة الكريمة الجميلة، وهي بنت عمة النبي (ﷺ)، التي ما اســتطاعتْ أن تَتَقَبَّل أن يكون زَيــد (رضي الله عنه) الذي كان عبدًا زوجًا لها، فكانت بينهما جفوة تزداد حتى دعت زيدًا (رضي الله عنه) إلى أن يُكَلِّمَ النبي (ﷺ) في طلاقها، فكان النبي (ﷺ) يقول له: «**أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ**». فقد «كان عزيزًا عليه أن تتقوض القاعدة التي

(1) السابق، ص111.
(2) نظمي لوقا: محمد في حياته الخاصة، ص115.
(3) السابق، ص115، 116.
(4) السابق، ص119.

أراد بذلك الزواج تقريرها، وهي محو الفوارق بين المسلمين وإلغاء الطبقات في صميم الأسرة العربية وتقاليد المصاهرة فيها، كما محا الفوارق في الدين والعبادة والجهاد والإمارة»[1].

«طلّق زيدٌ (رضي الله عنه) زينب (رضي الله عنها)، ولم تكن له بها حاجة، انقضى وطره منها، ولم يَعُدْ له فيها مأرب.

فماذا ينتظر الآن زينب (رضي الله عنها)؟ ماذا ينتظر الآن العقيلة التي أذعنت طائعة للزواج ممن لا تَوَدُّ، ولكن نفسها لم تَنْقَدْ سلسة لذلك الزواج فشقيت به وأشقت، وغدت مطلقة صغيرة السنِّ، وضيئة الحُسن، بغير زوج يضمُّها ويعصمها.

عادت زينب بنت عمة محمد إلى بيت آلها جريحة مطعونة في شعورها الأنثوي وشعورها الاجتماعي، لم تَخْلُ من أسى لتَوَهُّم هوانها على ابن خالها حتى زَوَّجَها من دَعِيٍّ[2] لصيقٍ[3]، وعبد عتيق، فانكسر خاطرها وتأذَّت كرامتها! ولم تَخْلُ من تشاؤم وهَمٍّ، فمن الذي يتزوَّج ثَيِّبًا مُطَلَّقَة مولى عتيقٍ؟ أكبر الظنِّ أنه لن يُقْدِمَ على ذلك كفء لها ذو منبت عريق.

ويَزِيد موقفها سوءًا، ويزيد وَهْمَها وحشة أنها تَزَوَّجَتْ مُطَلِّقها بأمر كريم، وعَلِمَ القاصي والداني أنها لم تُحسن معاشرة ذلك الزوج المظلوم، فمَنْ يجرؤ على زواجها، وهو يعلم أن الرسول (ﷺ) أَمَرَ بالزواج، وعارض في الطلاق كلما استأذنه فيه زيدٌ (رضي الله عنه)؟

إنها لتحسُّ بوادر النبذ تَطبق عليها، ويا له من موقف عصيب لحُرَّةٍ حسناء في مقتبل العمر!

وما كان محمد (ﷺ) بالذي يفوته ما ينطوي عليه الموقف من اعتبارات دقيقة ثقيلة الوطأة على الشابة المكروبة، وما كان ليغفل عن صلته بما انتهت إليه حالها: أبت الفتاة وأَصَرَّ هو أن يكون أمره نافذًا، وهو الرسول وابن الخال»[4].

«لا بُدَّ أن يدفع عنها شعور الهوان والدونية الذي حاق بوهمها من ذلك الزواج غير المتكافئ على ظنها، لا بُدَّ من زواج يكون بمثابة ردِّ اعتبار لها، ورأى من واجبه أن يتزوَّجها»[5].

(1) السابق، ص123.

(2) الدَّعِيّ: المُتَبَنَّى الذي تَبَنَّاه رجلٌ فدعاه ابنَه ونسبُه إلى غيره. ابن منظور: لسان العرب، مادة دعا 257/14، والمعجم الوسيط ص287.

(3) اللصيق: هو الرجل المقيم في الحي وليس منهم بنسب. ابن منظور: لسان العرب، مادة لصق 329/10، والمعجم الوسيط ص825.

(4) نظمي لوقا: محمد في حياته الخاصة، ص124، 125.

(5) السابق، ص126.

ولم يكن الأمر سـهلاً: كانت التقاليد الموروثة تمنع الزواج بمطلقة الابن بالتبنّي، فماذا يقول الناس؟ وكيف تتناقل مثل هذه البيئة مثل هذا الزواج؟

«تـردَّد محرَجًا بين إرضاء ضميره وإطاعـة نخوته بجبر خاطر زينب (رضي الله عنها) الكسـير، ورَفْعِهَا إلى مقام أمهات المؤمنين، وبين النأي بنفسه عن تلك الشبهات، (ومن قعد الريبة ركبته)، وهو الحصيف الذي خبر قلوب الناس وعرف خوافيهم.. غامت نفسه وضاقت فجاجها، حتى أتاه ما رفع الحرج عنه:

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَـٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾[1].

وبذلك قضى على سلطان التبني، وما يترتب عليه من حرمة لا أساس لها، أم هل يكون الابن المتبنَّى الذي له أب معروف أقرب آصرة من الأخ الشـقيق؟ وهذه مُطَلَّقة الشقيق غير محرمة، فكيف تحرم مطلقة اللصيق؟

وما أخفى محمد (ﷺ) في نفسـه إلا الرغبة في جبر خاطر كسير لا سبيل إلى علاجه حقَّ العلاج إلا بيده.. وما الأمر بالزواج هنا إلا منطوق حكم سـبقت حيثياته الملزمة للعقل، وأُلْحِقَتْ به القاعدة العامة التي يلتزم بها سائر الناس من بعدُ»[2].

«بـل إن ظروف ذلك الزواج جميعًا تؤذن بأنه كان من أعمال النخوة المأثورة عن محمد (ﷺ)، ولم يكن تهورًا سـاقه هوى صبياني طائش، ولكن هل كان ذلك الموقف السـامي في فطنته ونبله بالذي يرتفع إلى مستواه كل عقل؟ إن معظم العقول تُغْرَم بزخرفة الخيال وأوهام الحسِّ الشائعة بين سواد الناس، فكان ما كان من اختلاط الفهم أو تلفيق البهتان»[3].

- وهكذا تزوج عائشة رضي الله عنها:

«لَغِـطَ المحدِّثـون من المفترين بأمر زواج الرسـول (ﷺ) منها – علـى ما ترويه كتب السـيرة، وعلى ما يُرْوَى من أحاديث السـيدة عائشـة (رضي الله عنها) نفسها – وهي دون العاشـرة، وتصايحوا مندِّدين بانتهاك محمد (ﷺ) لحرمة الطفولة، ونسـبوه إلى الوحشـية الجنسية، وليس أبعد عن خلائق محمد (ﷺ) من مثل هذه الفرية»[4].

(1) (الأحزاب: 37).

(2) نظمي لوقا: محمد في حياته الخاصة، ص127.

(3) السابق، ص128.

(4) السابق، ص131.

«وســـواء صحّ أن عائشة كانت في الثانية عشرة على الأقل أو كانت أصغر من ذلك بعام أو عاميـــن، فالعبرة بالبيئة التي وقع فيها الحـــدث، ومن الخلط في التفكير أن يُوزن الحدث منفصلاً عن زمانه ومكانه وظروف بيئته جميعًا، فلا محلَّ إذن للادعاء بأن الباعث على هذا الزواج هو الوحشية الجنسية التي تتلذَّذ لذَّة منحرفة بانتهاك الطفولة»[1].

«وأما ما يمصمص به الممصمصون شـــفاههم من الحديث عن الفارق الكبير في السنِّ، فحســـبنا مَنْ رَدَّ عليه تكرير ما قلناه منذ قليل من الرجوع إلى البيئة التي وقع فيها الحدث، وما كان فارق السن فيها بدعة، وإنما هو العرف السائد»[2].

«أحبهـــا أولاً لأنهـــا بنت أبي بكـــر (ﷺ)، ودللها تدليل الأب، كان يأتيها في الســـنوات الأولـــى من زواجها بأترابهـــا ليلعبن معها بالدمى والعرائس، وكان يحملها لترى من فوق كتفه - وخدّهـــا لصيق خده - ملاعب الأحباش بالرمـــاح والدَّرَق[3]، وكان يتغاضى عن هناتها في ترفُّق وحنان»[4].

«... بـــل تزوجها كرامة لأبي بكر (ﷺ)، وليشـــرع الصلات بين تلـــك الفئة القليلة من المؤمنين بالله وسط غيابة الكفر العمياء»[5].

ويتعرَّض لحديث الإفك وما قيل في حق الســـيدة عائشة (رضي الله عنها)، وما كان من أمر رســـول الله (ﷺ) معها فيقول: «... وليس المقام فحص ذلك الأمر من حيث هو، فلذلك موضعـــه من الكتب التالية في الموســـوعة التي خصصتها من تأليفي للمباحث الإســـلامية، وإنما المقام هنا مقام النظر في مســـلك الرســـول (ﷺ) في تلك المحنة، هل هذا المســـلك الرزين غاية الرزانة مســـلك رجل يربطه بهذه الزوجة اشـــتهاء مستعر منحرف مما يلحدون إليه؟

ليـــس هذا هياج ذي هـــوى متأجِّج ورغبة جارفة، بل هذا وقـــار أب يترفَّق بابنة صغيرة الســـنِّ، فـــلا يُفاتحها في أمر يقضُّ مضجعـــه، ويجرح كرامته أيما جـــرح، وهو من هو؛ لأنه وجدها مريضة، وكان أقصى ما فعله أنه لم يُدَلِّلْهَا كعادته حين تمرض، وما كان بوســـعه ولا وسع غيره أن يفعل ذلك في هذه الأزمنة العصيبة.

(1) نظمي لوقا: محمد في حياته الخاصة، ص134، 135.
(2) السابق، ص135.
(3) الدرق: ضرب من التُّرْســـة الواحدة درقة، يتوقى بها في الحرب وهي من الجلود ليس فيه خشـــب. ابن منظور: لسان العرب، مادة درق 95/10، والمعجم الوسيط ص84.
(4) نظمي لوقا: محمد في حياته الخاصة، ص136.
(5) السابق، ص136.

هذا أسلوب الأب العطوف ولا مراء، وشتَّان هذا العطف الأبوي الذي بلغ أقصى ما تطيقه الطبيعة البشرية من التماسك ومن الترفُّق، والذي صَوَّرُوه به مِنْ تعلُّقه بعائشة (رضي الله عنها) تَعَلُّق رجلٍ شهوان يتلذَّذ بانتهاك الطفولة اللاهية»[1].

- أفلا يَذَّكَّرُونَ؟!

«وليذكر الذاكرون أن التاريخ كَمْ وعى من رجالات أصحاب رسالات كانت لهم الزوجات الكثيرات بالعشرات وبالمئات، وكانت لهم السراري بغير عدد، ولم يقدح ذلك فيما لهم من فضل ظاهر، ولا فيما لدعواتهم من أثر في العقول والسرائر، وهل نسي الناس داود (عليه السلام) وسليمان (عليه السلام)، وغير داود (عليه السلام) وسليمان (عليه السلام)؟ فكيف لا يُحسب هذا التعدد اليسير إلا على محمد بن عبد الله (ﷺ) دون سواه؟!

ألا إن الميزان المستقيم لا يكيل بكيلين، ولا يحرم على زَيْدٍ ما يرى أضعافه غير حرام على عَمْرو؟ ومن يظلم إنما نفسه يظلم، ومن يجور في الحكم إنما يضير تفكيره وضميره، وسلام على الصادقين»[2].

- أكاد أشكُّ في بشريته:

«فليقل من شاء ما يشاء! ولكن لا حيلة في نسبة محمد (ﷺ) إلى الوفاء غاية الوفاء، إلى وفاء يكاد يجعلني أشكُّ في بشريته، وأنا الذي جَرَّبْتُ من فنون التنكر والمروق ما أوشك أن يقضي على ثقتي بسائر خلق الله من أبناء آدم وبنات حواء»[3].

- قد تُنْكِرُ العينُ ضوءَ الشمس من رمد:

«عجبي من عقول آدمية تنسب أبا القاسم (ﷺ) للمصانعة، حيث يضرب المثل المذهل المعجز للأريحية والوفاء الذي لا يبارى، وقد تنكر العينُ ضوءَ الشمس من رمد»[4].

- الجهل شيء والأمية شيء آخر:

«تشدَّق ذوو المآرب الملتوية - إما عن خبثٍ، وإما عن غباء - بأن أبا القاسم (ﷺ) كان جاهلاً؛ لأنه كان أُمِّيًّا لا يقرأ ولا يكتب! وقلما يجد الإنسان كلامًا أدلَّ على الجهل بالموضوع من هذا الكلام»[5].

---

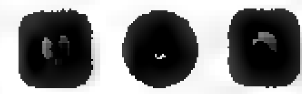
(1) نظمي لوقا: محمد في حياته الخاصة، ص141.
(2) السابق، ص142.
(3) السابق، ص63.
(4) السابق، ص64.
(5) السابق، ص30.

«أحمـق إذن ولا شـكَّ من يتوهم الجهـل في رجل دانت له الرجـال ومنهم الأُمِّيُّ وغير الأُمِّيِّ، أقنعهم بدعوتـه، وأفحمهم بحُجَّته، وتبعوه فازدادوا به إيمانًا، حتى لقد فَدَوْهُ ودعوتَه بأرواحهم راضين.

كيف يُصبح في عقل بَشَـرٍ أن هذا الرجل متصف بالجهل، ولو من غير نظر في كلامه المحفوظ وسيرته المأثورة؟!

مسـكين مَنْ يُطلق هذه التهمة استنادًا إلى أمية أبي القاسم (ﷺ)، وليس المسكين هو المرمـي بهذه التهمة الرعناء، ولكنها تهمة يصدق بها الجاهل المعتزُّ بقيمة مزيفة تُمَكِّنه من فـكِّ الخطِّ من غير أن تجعلـه يميز الخبيث من الطيب، فهو يحمل ما قرأه من غير أن يفيد منه علمًا ولا فهمًا، مثله كمثل الحمار يحمل أسفارًا.

يؤمـن الجاهل بهـذه التهمة؛ لأنها تُدخل على نفسـه العزاء بأنه خيـر من ذلك الأمي الناشئ في بطن الصحراء.. ويفوت بصيرته العمياء أن ذلك الأُمِّيَّ ائتمَّ به الملايين، وهداهم، وعَلَّمَهُم، وأنار بصائرهم، وما أغنى عنهم من كان فيهم قبله من كاتبين وقارئين»[1].



(1) نظمي لوقا: محمد في حياته الخاصة، ص31-33.

لبنـان:

نصري سلهب:

مسـيحي لبناني، يتميَّـز بنظرته الموضوعيـة، وتحرِّيه للحقيقة المجـرَّدة، كما عُرِفَ بنشـاطه الدءوب لتحقيق التعايش السـلمي بين الإسلام والمسـيحية في لبنان - كما يزعم - إنّ على مسـتوى الفكر أو على مسـتوى الواقع، وعبر الستينيات كتب العديد من الفصول وألقى العديد من المحاضرات في المناسـبات الإسـلامية والمسيحية على السواء، متوخيًا الهدف نفسـه، سـفير لبنان سـابقًا في الفاتيكان من مؤلفاته: (لقاء المسـيحية والإسلام) (1970م)، و(في خطى محمد) عام (1970م)، و(الإسلام كما عرفته.. دين الرحمة والسلام) عام (1997م).



- ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾:

«إن الآيـة التي أسـتطيب ذكرها هي التي تنبع سـماحًا، إذ تقـول: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾[1]. ذلك ما يقوله المسـلمون للمسيحيين وما يؤمنون به؛ لأنه كلام الله إليهم، إنها لعبارات يجدر بنا جميعًا - مسـيحيين ومسـلمين - أن نُرَدِّدها كل يوم، فهي حجارة الأسـاس في بناء نريده أن يتعالى حتى السماء؛ لأنه البناء الذي فيه نلتقي، والذي فيه نلقى الله؛ فحيث تكون المحبة يكون الله، والواقع أن القرآن يذكر صراحة أن الكتبَ المنزلة واحدةٌ، وأن أصلها عند الله، وهذا الأصل يُدْعَى حينًا (أم الكتاب)، وحينًا آخر (اللوح المحفوظ)، أو (الإمام المبين)..»[2].

- أبلغ أثر مكتوب:

«إن محمـدًا (ﷺ) كان أُمِّيًّـا لا يقرأ ولا يكتب، فإذا بهذا الأُمِّيِّ يهدي الإنسـانية أبلغ أثر مكتوب حلمت به الإنسـانية - منذ كانت الإنسـانية - ذاك كان الكتـاب الذي أنزله الله على رسوله»[3].

---

(1) (العنكبوت: 46).

(2) نصري سلهب: لقاء المسيحية والإسلام، ص22.

(3) نصري سلهب: في خطى محمد، ص94.

- الكتاب المحفوظ:

«لم يُقدَّر لأي سفر - قبل الطباعة - أيًا كان نوعه وأهميته، أن يحظى بما حظي به القرآن من عناية واهتمام، وأن يَتَوَفَّر له ما تَوَفَّر للقرآن من وسائل حفظته من الضياع والتحريف، وصانته عما يمكن أن يشوب الأسفار عادة من شوائب»[1].

- معجزته القرآن:

«ليس في القرآن كله ذِكر لمعجزة أو لأعجوبة صنعها النبي (ﷺ)؛ فحَسْبُه أن المعجزة الكبرى كانت بوساطته، حَسْبُه أن الله اختاره من دون البشر ليُنْزِلَ عليهم تلك الثروة، التي لم يَرْوِ التاريخ أن ثروة بحجمها جاءت على لسان رجل واحد، حسبه أن يكون قد نشر تلك الثروة بحَرْفِيَّتِها على الناس، فأفادوا منها جميعهم، وستظلُّ مدى الدهر ينبوعًا يرِدُه العِطاش إلى الحقيقة والجِياع إلى ملكوت الله»[2].

- الثروة الخالدة:

«إن الإسلام ليس بحاجة إلى قلمنا، مهما بلغ قلمنا من البلاغة، ولكن قلمنا بحاجة إلى الإسلام، إلى ما ينطوي عليه من ثروة روحية وأخلاقية، إلى قرآنه الرائع الذي بوسعنا أن نتعلم منه الكثير»[3].

- لم يستطعها أحد:

«هنا عظمة محمد (ﷺ) لقد استطاع خلال تلك الحقبة القصيرة من الزمن أن يُحْدِثَ شريعة خلقية وروحية واجتماعية لم يستطعها أحدٌ في التاريخ بمثل تلك السرعة المذهلة»[4].

- سياسي وقانوني ومؤسس ومصلح.. وخصم هائج:

«... هذا الرجل الذي ما عَرَفَ الهدوءَ ولا الراحة ولا الاستقرار، استطاع وسط ذلك الخضم الهائج أن يُرسي قواعد دولة، وأن يُشَرِّع قوانين ويسنَّ أنظمة، ويجود بالتفسير والاجتهادات»[5].

- ليس عاديًا:

«من ينعم التفكير في سيرة هذا الرجل (ﷺ) يرَ نفسه منساقًا إلى الإقرار بأن ما حققه وقام به يكاد يكون من دنيا غير التي يعرفها البشر»[6].

(1) نصري سلهب: لقاء المسيحية والإسلام، ص337.
(2) نصري سلهب: في خطى محمد، 337.
(3) نصري سلهب: لقاء المسيحية والإسلام، ص121.
(4) نصري سلهب: في خطى محمد، ص196.
(5) السابق، ص273.
(6) نصري سلهب: في خطى محمد، ص 195.

- **كنز لا يفنى:**

« لكأني بمحمد (ﷺ) آلى على نفسه أن يترك للمؤمنين ثروة روحية وأخلاقية، يُنفقون منها فلا تنضب ولا تشحُّ؛ لأنها بحجم روحه، وهل روح النبي تنضب أو تشح؟[1]».

- **قمة القمم:**

«تلــك اللغة التي أرادها الله قمة اللغات، كان القــرآن قمتها، فهو قمة القمم، ذلك بأنه كلام الله»[2].

- **أعظم الرجال في العالم:**

«في مكة أبصر النورَ طفلٌ لم يمرَّ ببال أُمِّه - ســاعة ولادته - أنه ســيكون أحد أعظم الرجال في العالم، بل في التاريخ، ولربما أعظمهم إطلاقًا»[3].

- **عالَمٌ قائم بنفسه:**

«ولم ينسَ أنه أب وجدٌّ لأولاد وأحفاد، فلم يحرمهم عطفه وحنانه، فكان بشخصيته الفذَّة الغنية بالقيم والمعطيات والمؤهلات، المتعدِّدَة الأبعاد والجوانب، الفريدة بما أسبغ الله عليها من نعم وصفات، وبما حباها من إمكانات، كان بذلك كله، عالمًا قائمًا بنفسه»[4].

- **تراث محمد (ﷺ):**

«تراثــك يا ابــن عبد الله ينبغي أن يحيا، لا في النفوس والقلوب فحســب، بل في واقع الحياة، في ما يعاني البشــر من أزمات وما يعترضهم من عقبات، تراثك مدرســة يلقى على منابرها كل يوم عظة ودرس، كل سؤال له عندك جواب، كل مشكلة مهما استعصت وتعقدت، نجد لها في آثارك حلاًّ»[5].

- **وكان له ما أراد:**

« .. لم يكن النبي (ﷺ) رســولاً وحسب يهدي الناس إلى الإيمان، إنما كان زعيمًا وقائد شعب، فعزم على أن يجعل من ذلك الشعب خير أُمَّة أخرجت للناس، وكان له ما أراد»[6].

---

(1) نصري سلهب: في خطى محمد، ص 369.
(2) نصري سلهب: لقاء المسيحية والإسلام، ص342.
(3) نصري سلهب: في خطى محمد، ص42.
(4) السابق، ص274.
(5) السابق، ص396.
(6) السابق، ص409.

جورج قرم:

الدكتور جورج قرم، مسيحي لبناني، من مواليد (1940م) وهو خريج جامعة باريس في القانون الدستوري والعلوم الاقتصادية، وخريج معهد العلوم السياسية في باريس فرع المالية العامـة، بدأ حياته المهنية عـام (1963م) كخبير اقتصادي في وزارة التصميم العام، ثم في وزارة الماليـة، تنقل في كل من باريـس وبيروت والجزائر عام (1969م)، ثم اتجه إلى العمل الاستشـاري الحرّ مع كبريـات المنظمات الدولية، والاتحاد الأوربـي، والمصارف المركزية العربيـة ابتداءً من عام (1982م)، ثم عُيِّنَ وزيرًا للمالية في نهاية عام (1998م) في حكومة الدكتور الحصّ حيث اعتمد برنامجًـا للإصلاح المالي، وقام بدفع متأخرات الدولة للقطاع الخاص، كما نجح في إعادة التوازن إلى ميزان المدفوعات وتخفيض مسـتوى الفوائد، وقام أيضًا بوضع قانون الضريبة على القيمة المضافة، عاد بعد ذلك في بداية عام (2001م) إلى العمل الاستشـاري، وقام بالتدريس الجامعي منذ عام (1973م) وبشكل خاص في الجامعة اللبنانية والجامعة اليسوعية.

من أهم مؤلفاته: (تعدد الأديان وأنظمة الحكم)، و(التنمية المفقودة)، و(أوربا والمشرق العربـي.. مـن البلقنة إلى اللبننة، تاريخ حداثة غير منجزة)، الذي صدر بالفرنسـية وترجم إلى الألمانيـة والرومانية، و(الفوضى الاقتصادية الدولية الجديدة)، وترجم إلى الفرنسـية والإيطالية والبرتغالية والرومانية، و(مدخل إلى لبنان واللبنانيين)، و(انفجار المشرق العربي، 1956-2003م) الـذي نال جائزة الصداقة العربية الفرنسـية، وترجم إلـى اللغة البولونية والإيطالية والبلغارية، و(شـرق وغرب.. الشرخ الأسـطوري) الذي ترجم إلى اللغة الإيطالية والإسـبانية والتركية والكتلانيـة والبرتغالية والألمانية والعربيـة، و(لبنان المعاصر.. تاريخ ومجتمع).



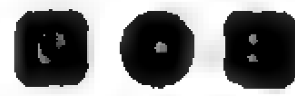
- عوامل وأسباب اضطهاد الأقليات في العهد الإسلامي:

«إن فترات التوترات والاضطهاد لغير المسلمين في الحضارة الإسلامية كانت قصيرة، وكان يحكمها ثلاثة عوامل: العامل الأول: هو مزاج الخلفاء الشـخصي، فأخطر اضطهادين تعرَّض لهما الذميون وقعا في عهد المتوكل الميال بطبعه إلى التعصب والقسـوة، وفي عهد الخليفة الحاكم بأمر الله الذي غالى في التصرف معهم بشدة.

العامل الثاني: هو تردي الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية لسواد المسلمين، والظلم الذي يمارسه بعض الذميين المعتلين لمناصب إدارية عالية، فلا يعسر أن ندرك صلتهما المباشرة بالاضطهادات التي وقعت في عدد من الأمصار.

العامل الثالث: وهو مرتبط بفترات التدخل الأجنبي في البلدان الإسلامية، وقيام الحكام الأجانب بإغراء واستدراج الأقليات الدينية غير المسلمة إلى التعاون معهم ضد الأغلبية المسلمة... إن الحكام الأجانب - بمن فيهم الإنجليز - لم يحجموا عن استخدام الأقلية القبطية في أغلب الأحيان؛ ليحكموا الشعب ويستنزفوه بالضرائب، وهذه ظاهرة نلاحظها في سوريا أيضًا؛ حيث أظهرت أبحاث جِب وبولياك كيف أن هيمنة أبناء الأقليات في المجال الاقتصادي، أدَّت إلى إثارة قلاقل دينية خطيرة بين النصارى والمسلمين في دمشق سنة (1860م)، وبين الموارنة والدروز في جبال لبنان سنة (1840م) و(1860م)، ونهاية الحملات الصليبية قد أعقبتها في أماكن عديدة أعمال ثأر وانتقام ضد الأقليات المسيحية - ولا سيما الأرمن - التي تعاونت مع الغازي.

بل إنه كثيرًا ما كان موقف أبناء الأقليات أنفسهم من الحكم الإسلامي - حتى عندما كان يعاملهم بأكبر قدر من التسامح - سببًا في نشوب قلاقل طائفية، فعلاوة على غلو الموظفين الذميين في الابتزاز، وفي مراعاتهم وتحيزهم إلى حدِّ الصفاقة أحيانًا لأبناء دينهم، ما كان يندر أن تصدر منهم استفزازات طائفية بكل معنى الكلمة»[1].

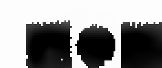


(1) جورج قرم: تعدد الأديان ونظام الحكم: دراسة سوسيولوجية وقانونية مقارنة، ص211- 224، نقلاً عن: سعد الدين إبراهيم: الملل والنحل والأعراق، ص729، 730.

لبيب الرياشي:

(1889-1966م)

صحفـــي وأديب لبنانـــي، وُلِدَ عام 1889م، هاجر إلى الأرجنتين فأمضى 20 ســـنة في الصحافـــة ببونيس أيرس، أصدر في نهايتها جريدته الأســـبوعية (القرن العشـــرين)، وعاد إلى بيروت عام (1914م) فعمل في التعليم والتأليف إلى أن تُوُفِّيَ، عُرِفَ بأســـلوبه الشـــعري الفلســـفي الخاص، كما اشـــتهر بحرية فكره، وثورته على النظم البالية، تجد كل ذلك ممثلاً في كتابيه: (النبوغ)، و(الجبابرة)، ومن أشهر كتبه: (نفسية الرسول العربي)، و(فلسفة الدين الإســـلامي)، و(الســـحرة)، وفي هذا الكتاب يتحدث عن أثر الرســـول (ﷺ)، حين اطلع على ســـيرة حياته ودرس رسالته، فكان أن شعر بالندم؛ لأنه جهل سابقًا عظمة الرسول ونفسيته، وهو النبي الأعظم، وحسب المرء أن يستنير بهديه ويعمل بسنته حتى يغدو إنسانًا آخر.



- .. لتغير الحال:

«أما لو أدرك المســـلمون سيرة الرســـول (ﷺ) بجوهرها، وشَرْعِ الرسول (ﷺ) بسنائه، وحِكَم الرســـول (ﷺ) بجلالها، وإبداع الضمائر الجديدة التي ابتدعها الرسول (ﷺ) بجدَّتها الوضاءة، وعملوا بما أدركوا، لكان المســـلمون غير هؤلاء المســـلمين، ولكان العالم غير هذا العالم»(1).

- أعظم شخصية وأقدس رسالة:

«أما لو درس عشاق الرسول (ﷺ)، وعشاق العظماء، والحكماء، والمبدعين غير العرب بطهارة وجدان، وبراءة ســـريرة، وتحليل عبقري حياة الرسول العربي، وسمو الرسول العربي، وبراءة ســـريرته، وأعماله، وشـــرعه، لاستكشـــفوا أعظم شخصية، وأقدس رســـالة للتاريخ الإنســـاني، ولقد طالعتُ مئات المجلدات، وقرأتُ حياة ألوف العظماء والرســـل، ولكن مئات المجلدات وحياة ألوف العظماء والرســـل ما فعلت بنفسي وأثَّرت في دماغي وهذبت وثقفت وأدهشت، مثلما فعلت حياة الرسول العربي العالمي محمد بن عبد الله»(2).

- السوبرمان الأول:

«حقًا يا محمد إنك الشاعر الأعظم، حقًا إنك السوبرمان الأول العالمي، رسول الثقافة والعلم، رسول الهداية والتضحية، رسول الفلسفة الجديدة، رسول الإنسانية الجديدة»(3).

---

(1) لبيب الرياشي: نفسية الرسول العربي، ص6.

(2) السابق، ص6.

(3) السابق، ص6.



سوريا:

فارس الخوري:

(1873-1962م)

سياســـي ومفكر ســـوري وُلِدَ في قرية الكفير التابعة حاليًا لقضاء حاصبيا في لبنان.

حصل على شهادة بكالوريوس في العلوم عام (1897م)، وكانت هذه الشـــهادة في ذلك الحين شـــهادة ثقافية عامة ليس فيها اختصاص في أحد فـــروع العلوم والآداب، درَّس في القسم الاستعدادي الرياضيات واللغة العربية.

دُعِيَ فارس الخوري لإدارة المدارس الأرثوذكســـية في دمشق، ثم عُين ترجمانًا للقنصلية البريطانية (1902–1908م).

درس اللغتين الفرنسية والتركية وحده دون معلم وبرع فيهما، كما أنه أخذ يُطالع الحقوق لنفســـه، وامتهن المحاماة بدمشق، وتقدم بفحص معادلة الليسانس بالحقوق فنالها، في عام (1908م) انتسب لجمعية الاتحاد والترقي فكان هذا أول عهده بالسياسة.

انتخب فارس الخوري ســـنة (1914م) نائبًا عن دمشـــق في مجلس المبعوثان العثماني (البرلمان العثماني أو المجلس النيابي)، وفي عام (1919م) عُيِّنَ عضوًا في مجلس الشورى الذي اقترح على الشـــريف فيصل تأسيســـه، كما سعى فارِس مع عدد من رفاقه إلى تأسيس معهد الحقوق العربي، وكان هو أحد أساتذته، كما اشترك في تأسيس المجمع العلمي العربي بدمشق.

تولى فارس الخوري وزارة المالية في الوزارات الثلاث التي تألَّفت خلال العهد الفيصلي في ســـوريا، وعلى إثر احتلال الفرنسيين لسوريا عام (1920م) انصرف الخوري إلى العمل الحرِّ كمحام، ثم انتخب نقيبًا للمحامين، واســـتمر خمس سنوات متتاليات، كما عُيِّن حقوقيًّا لبلدية دمشـــق، وعُيِّنَ أستاذًا في معهد الحقوق العربي لتدريس مادتي أصول المالية وأصول المحاكمات الحقوقية.

ولفارس الخوري ثلاثة مؤلفات في القانون هي: (أصول المحاكمات الحقوقية)، و(موجز في علم المالية)، و(صك الجزاء).



- حقائق الإسلام تهزم أباطيل الشيوعية:

«عقيدتي ويقيني أنه لا يمكننا محاربة النظريات الهدَّامة - التي تهدد كُلاًّ من المسيحية والإسـلام - إلا بالإسـلام... وأنَّ هذا هو الذي يحدُّ من نشـاط الشـيوعية، ويقضي عليها القضاء المبرم؛ لأن حقائقه تهزم أباطيلها وتدمرها».

- الإسلام يتحدَّى:

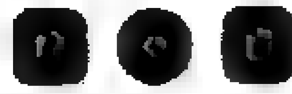
«أنا مؤمن بالإسلام وبصلاحه لتنظيم أحوال المجتمع العربي، وبقُوَّتِهِ في الوقوف بوجه كل المبادئ والنظريات الأجنبية مهما بلغ اعتداد القائمين عليها، لقد قلت وما زلت أقول: لا يمكن مكافحة الشيوعية والاشتراكية مكافحة جدية إلا بالإسلام، والإسلام وحده هو القادر على هدمها ودحرها»[1].

- الحدود صيانة:

مما يرويه عنه الأسـتاذ (محمد الفرحاني) تلميذه وراويته في شـأن اقتناعه بالتشريع الإسلامي قوله: «تذكرون ولا شَكَّ عندما تضعون الموازنة العامة للدولة المبالغ الطائلة التي تُخَصَّص للأمن العام، والشرطة والدرك والمحاكم كرواتب ونفقات..

فلو طُبِّق الشـرع الإسلامي وقُطِعَت يد في حلب مثلاً.. وجُلِد آخر في دير الزور، ورجم ثالث في دمشق، وكذلك في بقية المحافظات، لانقطع دابر هذه الجرائم، ولتوفر على الدولة ثلاثة أرباع هذه الموازنة».

ويسـتدرك قائلاً: «في العهد العثماني كان في دمشـق ثلاث محاكم شرعية وصُلحِيَّة، تنظـر في الدعاوى الجزئية والبدائية، وكان قضـاة هذه المحاكم يقضون أغلب أوقاتهم في مراكز عملهم بدون عمل.. فإذا قسنا تلك الظروف، وقارَنَّا بظرفنا الحالي وجدنا أن السبب في كثرة المحاكم اليوم يعود إلى تدنِّي الأخلاق، وانتشار الفساد، وعدم الاكتراث بما تفرض الدولـة من عقوباتٍ غير رادعة ولا زاجرة، لعدم تطبيق التشـريع الإسـلامي في الحكم... إلخ»[2].



(1) نقلاً عن د. يوسف القرضاوي: بينات الحل الإسلامي، ص242.
(2) محمد الفرحاني: فارس الخوري وأيام لا تُنسَى، ص272، نقلاً عن: القرضاوي: بينات الحل الإسلامي، ص243، 244.

خاتمة

مررنا في هذه الرحلة السريعة بجولات خاطفة في عقول بعض العلماء غير المسلمين، الذين شهدوا بالفضل لهذا الدين وحضارته، وأقرُّوا بالعظمة للنبي الكريم (ﷺ).

ومــا أُريد أن أقولــه في نهاية هذه الرحلة أنه لا ينبغي لنا أن نتوقَّف عند مجرَّد القراءة لهذه الشهادات، أو الاطلاع عليها، بل إن لنا أدوارًا مهمة لا ينبغي لنا أن نُفَرِّط فيها.

فمن هذه الأدوار - بل من أهمها - هو أن نتحرَّك بهذه الشــهادات في كل الدوائر التي يمكــن أن نصل إليهــا، فلنكتبها في الصحف والمجلات، ولنتداولهــا في منتديات الإنترنت، ولنرســلها إلى قوائمنا البريدية، ولنتحدَّث عنها مع غير المسلمين مع ذكر المصدر والدليل؛ فإن هذه الشــهادات مقنعة جدًّا لهم؛ لأنها تأتي من أناس على نفس ملتهم وعقيدتهم، وليس فيها شبهة محاباة أو تزوير.

ومن هذه الأدوار - أيضًا - أن نرســل هذه الشهادات إلى المسلمين في البلاد الغربية، ونحــرص بصورة أكبر على إرســال شــهادات المفكِّرين من كل دولة إلى المســلمين الذين يعيشــون في هذه الدولة؛ حيث إن اسم العالِم يكون معروفًا فيها بشكل أكبر، وبالتالي تُصبح شــهادته أكثر تأثيرًا، وأنا أذكر تَأَثُّر الفرنســيين عندما ذكرتُ لهم في إحدى زياراتي لباريس شــهادة عالمهم جوســتاف لوبون (Gustav Lobone)، وتكَرَّر نفس الشيء في إيطاليا عندما ذكرتُ شــهادات علمائهم: فرانشيســكو جابرييلي (Gabrieli Francesco)، وميشــيل أماري (Michele Amari).

ومن هذه الأدوار - كذلك - الحديث مع العلمانيين من أبناء الإســلام بهذه الشــهادات؛ فإنهم - للأســف الشــديد - مفتونون بأصحاب الشَّعْرِ الأصفر والعيون الخضراء، ولعلَّ ذِكْرَ هذه الشهادات لهم تدفعهم إلى البحث والتحرِّي؛ فيكون ذلك سببًا في هدايتهم.

ومن أدوارنا - أيضًا - أن نُترجم هذه الشــهادات إلى كل لغات العالم، وأن ننشرها بكل وسيلة ممكنة، وخاصة الإنترنت؛ فهي من أفضل وسائل الدعوة ومن أبلغها.

وأخيــرًا.. فإن علينا أن نبحث في كل قراءاتنا المعاصرة عن الشــهادات الجديدة التي يقولها العلماء الغربيون في زماننا الآن، وكم من الشهادات الجليلة توجد في عمود في صحيفة، أو في صفحة في مجلة، أو في مقال في موقع إلكتروني، أو في حوار تليفزيوني، وقد لا يراها كثير من الناس، فعلى كل مســلم إذا عثر على شيء كهذا أن يحتفظ به وبمصدره، وأن يرسل

به إلى أكبر عدد ممن يعرفه من الناس، وكذلك أن يرسل به إلى العلماء المتخصصين، وإلى الدعاة العاملين؛ ليُثْبِتُوها في كتبهم ومقالاتهم ومواقعهم الإلكترونية؛ فتَعُمُّ الفائدة، وينتشر الخير، وإننا ندعو كل المسلمين إلى مراسلتنا على موقعنا الإلكتروني (www.islamstory.com) بكل ما يجدونه من هذه الشهادات مع ذكر المصدر، ونسأل الله أن يجعل ذلك في ميزان حسناتكم.

إن أمانة حمل هذا الدين أمانة عظيمة، وإنها ليست مهمة العلماء والدعاة فقط، بل هي مهمة كل مسلم ومسلمة، وكل واحد مِنَّا له دور قد لا يُحسن غيره أن يُؤَدِّيَه، فالعملَ العملَ! فلأن يهدي الله بك رجلاً خيرٌ لك من حُمْرُ النَّعَم[1].

نسأل الله (عز وجل) أن يفتح قلوب العالمين لهذا الدين العظيم، وأن يُعرِّف البشر جميعًا بسَيِّد المرسلين وخاتم النبيين محمد (ﷺ)، وأن يستعملنا لنصرة هذا الشرع الكريم، إنه وليُّ ذلك والقادر عليه.. وصَلِّ اللهم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

أ.د. راغب السرجاني

(1) عن سهل بن سعد أن رسول الله (ﷺ) قال لعليٍّ بن أبي طالب عندما أعطاه الراية في غزوة خيبر: «... ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ، فَوَاللَّهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلاً خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ». البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب فضل من أسلم على يديه رجل (2847)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة (رضي الله عنهم)، باب من فضائل علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) (2406).

المراجع

1- إبراهيم خليل أحمد: **محمد (ﷺ) في التوراة والإنجيل والقرآن**، دار المنار، القاهرة 1989م.

2- إبراهيم مصطفى وآخرون: **المعجم الوسيط**، تحقيق مجمع اللغة العربية، دار الدعوة - مصر.

3- ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمد الجزري: **الكامل في التاريخ**، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

4- ابن القيم: **هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى**، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة.

5- ابن تيمية: **الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح**، الطبعة الأولى، دار العاصمة، الرياض، 1414 هـ.

6- ابن حبان، محمد بن أحمد التميمي: **صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان**، تحقيق شعيب الأرناءوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية - بيروت، 1414هـ = 1993م.

7- ابن حجر العسقلاني: **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، دار المعرفة، بيروت، 1379هـ.

8- ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن منيع: **الطبقات الكبرى**، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، الطبعة الأولى - بيروت، 1968م.

9- ابن سيد الناس، محمد بن عبد الله بن يحيى: **عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير**، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر - بيروت، لبنان، 1406هـ.

10- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي: **البداية والنهاية**، تحقيق علي شيري، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، 1408هـ=1988م.

11- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي: **السيرة النبوية**، تحقيق مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة، بيروت - لبنان، 1396هـ=1971م.

12- ابن ماجه، محمد بن يزيد أبو عبد الله القزويني: **سنن ابن ماجه**، محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر - بيروت.

13- ابن منظور، محمد بن مكرم الأفريقي المصري: **لسان العرب**، دار صادر، الطبعة الأولى - بيروت، 1997م.

14- ابن هشام، أبو محمد عبد الملك المعافري: **السيرة النبوية**، تحقيق محمد فهمي السرجاني، المكتبة التوفيقية - القاهرة.

15- أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي: **سنن أبي داود**، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر.

16- أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني: **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، الأحاديث مذيلة بأحكام شعيب الأرناءوط عليها، مؤسسة قرطبة - القاهرة.

17- آدم متز: **الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري**، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، الطبعة الثالثة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة، 1957م.

18- إدوارد جيبون: **اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها**، ترجمة محمد علي أبو درة، مراجعة وتقديم أحمد نجيب هاشم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1997م.

19- أرنست رينان: **دراسات في التاريخ الديني** - باريس، 1859م.

20- أرنولد توينبي: **مختصر دراسة للتاريخ**، ترجمة فؤاد محمد شبل، لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة، 1965م.

21- الألباني: **السلسلة الصحيحة**، مكتبة المعارف - الرياض.

22- الألباني: **صحيح السيرة النبوية**، الطبعة الأولى، المكتبة الإسلامية - عمان - الأردن.

23- أميركو كاسترو: **إسبانيا في تاريخها.. المسيحيون والمسلمون واليهود**، ترجمة: علي إبراهيم منوفي، مراجعة: حامد أبو أحمد، المجلس الأعلى للثقافة، الطبعة الأولى - القاهرة، 2003م.

24- إميل درمنجم: **حياة محمد**، ترجمة عادل زعيتر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى.

25- أنا ماري شيمل: **الإسلام دين الإنسانية**، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، العدد (147)، الطبعة الثالثة - القاهرة، 2007م.

26- البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله الجعفي: **الجامع الصحيح المختصر**، تحقيق مصطفى ديب البُغَا، دار ابن كثير، اليمامة، الطبعة الثالثة - بيروت، 1407هـ=1987م.

27- البزار، أحمد بن عمرو: **مسند البزار**، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى - بيروت، 2003م.

28- بلاشير: **تاريخ الأدب العربي**، ترجمة د. إبراهيم الكيلاني، دار الفكر المعاصر - بيروت، 1998م.

29- بوجينا جيانا: **تاريخ التشريع الإسلامي**، دار الآفاق الجديدة - بيروت، 1980م.

30- بوسورث سميث: **محمد والمحمدية** - لندن، 1874م.

31- البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين: **شعب الإيمان**، تحقيق محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى - بيروت، 1410هـ.

32- الترمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى السلمي: **الجامع الصحيح**، تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

33- الترمــذي، محمد بن عيســى: **الشمائل**، مؤسســة الكتب الثقافية، الطبعــة الأولى - بيروت، 1412هـ.

34- تشــارلز: **الإسلام والغرب**، محاضرة الأمير تشارلز في مركز أوكسفورد للدراسات الإسلامية، عام 1993م.

35- توماس أرنولد وآخرون: **تراث الإسلام**، تعريب جرجيس فتح الله، دار الطليعة للطباعة والنشر، الطبعة الثانية - بيروت، 1972م.

36- توماس أرنولد: **الدعوة إلى الإسلام**، ترجمة حســن إبراهيم حســن وآخــرون، مكتبة النهضة المصرية، 1980م.

37- توماس كارليل: **الأبطال**، ترجمة محمد السباعي، كتاب الهلال، العدد (326)، 1978م.

38- تيــودور نولدكــه: **تاريخ القرآن**، ترجمة د. چورج تمر، دار نشــر چــورج ألمس، الطبعة الأولى - بيروت، لبنان، 2004م.

39- جاك ريسلر: **الحضارة العربية**، ترجمة خليل أحمد خليل، عويدات للطباعة والنشر.

40- جواهــر لال نهــرو: **لمحات من تاريخ العالم**، ترجمة عبد العزيز عتيق، دار المعارف - القاهرة، مصر 1958م.

41- چــورج ســارتون: **الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط**، ترجمــة د. عمر فروخ، مكتبة المعارف، الطبعة الأولى - بيروت، 1952م.

42- چــورج قرم: **تعدد الأديان ونظام الحكم.. دراسة سوسيولوجية وقانونيــة مقارنة** - بيروت 1979م، طبعة القاهرة سنة 1990م.

43- جوزيف شاخت وكليفورد بوزورث: **تراث الإسلام**، سلسلة عالم المعرفة - الكويت، 1978م.

44- جوستاف جرونيبام: **حضارة الإسلام**، ترجمة عبد العزيز توفيق، الهيئة المصرية العامة للكتاب، طبعة مكتبة الأسرة 1997م.

45- جوســتاف لوبــون: **الآراء والمعتقدات**، ترجمة عادل زعيتــر، المكتبة العصرية، الطبعة الثانية - مصر، 1946م.

46- جوســتاف لوبون: **الدين والحياة**، ترجمة عادل زعيتر، المؤسســة العربية للدراســات والنشر، الطبعة الثانية - بيروت، لبنان، 1988م.

47- جوســتاف لوبــون: **حضارة العرب**، ترجمة عــادل زعيتر، الهيئــة المصرية العامــة للكتاب، 2000م.

48- جون ويليام دريبر: **تاريخ التطور الفكري في أوربا** - طبعة لندن، 1875م.

49- الحاكم، محمد بن عبد الله أبو عبد الله النيســابوري: **المستدرك على الصحيحين**، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى - بيروت، 1411هـ=1990م.

50- دولاسي أوليري: **الإسلام في مفترق الطرق**، الطبعة الثامنة - لندن، 1923م.

51- دومينيك سورديل: **الإسلام**، ترجمة سليم قندلفت، تقديم: د. الطيب تيزيني، دار حوران للطباعة والنشر، الطبعة الثانية - دمشق، سوريا، 2003م.

52- الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان: **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى - بيروت، 1407هـ=1987م.

53- ر. ف. بودلي: **الرسول.. حياة محمد**، ترجمة محمد محمد فرج وعبد الحميد جودة السحار، مكتبة مصر، القاهرة، مصر.

54- روم لاندو: **الإسلام والعرب**، ترجمة منير البعلبكي، دار العلم للملايين، الطبعة الثانية - بيروت، 1398هـ=1977م.

55- الزَّبيدي، أبو الفيض محمد عبد الرزاق الحسيني الملقب بمرتضى: **تاج العروس من جواهر القاموس**، دار ابن حزم - بيروت.

56- زيجريد هونكه: **الله ليس كذلك**، ترجمة د. غريب محمد غريب، دار الشروق، الطبعة الثانية - القاهرة، مصر، 1417هـ=1996م.

57- زيجريد هونكه: **شمس الله تسطع على الغرب**، ترجمة فاروق بيضون، كمال دسوقي، راجعه ووضع حواشيه مارون عيسى الخوري، دار صادر، الطبعة العاشرة - بيروت، 2002م.

58- ساروجيني نايدو: مثاليات الإسلام، مادروس، 1918م.

59- سلمى الخضراء الجيوسي: **الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس**، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الثانية - بيروت، لبنان، 1999م.

60- السهيلي، أبو القاسم عبد الرحمن، **الروض الأنف في شرح سيرة ابن هشام**، دار الكتب العلمية - بيروت.

61- سيف الله أحمد فاضل: **إنجيل برنابا دراسات حول وحدة الدين عند موسى وعيسى ومحمد**. دار القلم، الطبعة الثالثة - بيروت، 1418هـ=1997م.

62- صحيفة الأهرام المصرية، 6 مارس 1985م.

63- صفي الرحمن المباركفوري: **وإنك لعلى خلق عظيم**، كندة للإعلام والنشر، الطبعة الأولى - القاهرة، 1427هـ.

64- الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد: **المعجم الأوسط**، تحقيق طارق بن عوض الله بن محمد، وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين - القاهرة، 1415هـ.

65- الطبري: **تاريخ الرسل والملوك**، دار المعارف، الطبعة الثانية - القاهرة 1387هـ=1967م.

66- الطيالسـي، سـليمان بن داود الفارسـي البصري: **مسـند أبي داود الطيالسي**، دار المعرفة - بيروت.

67- عباس محمود العقاد: **ما يقال عن الإسلام**، مكتبة دار العروبة - القاهرة، مصر.

68- عبد الأحد داود: محمد (ﷺ) **كما ورد في كتاب اليهود والنصارى**، ترجمة محمد فاروق الزين، مكتبة العبيكان - الرياض، 1417هـ.

69- عبـد الرحمن بدوي: **موسـوعة المستشـرقين**، دار العلم للملاييـن، الطبعة الثالثة - بيروت- لبنان، 1993م.

70- عبد الوهاب عبد السـلام طويلة: **بشارات الأنبياء بمحمد** (ﷺ)، دار السـلام، الطبعة الثانية - القاهرة، مصر، 2004م.

71- ف. بارتولد: **تاريخ الحضارة الإسلامية**، ترجمة حمزة طاهر، دار المعارف، الطبعة الخامسـة - القاهرة.

72- فاضل صالح السامرائي: **نبوة محمد من الشك إلى اليقين**، دار عمار، الطبعة الثانية - عمَّان - الأردن، 1428هـ=2008م.

73- فخـر الديـن الـرازي: **مفاتيـح الغيـب**، دار الكتـب العلميـة، الطبعـة الأولـى - بيـروت، 1421هـ=2000م.

74- فرانز روزنثال: **علم التاريخ عند المسلمين**، ترجمة د. صالح العلي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية - بيروت، لبنان، 1403 هـ=1983م.

75- فرناند بروديل: **تاريخ وقواعد الحضارات**، ترجمة وتعليق سـفير. د. حسـين شـريف، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1999م.

76- فيليب حتي: **الإسلام منهج حياة**، ترجمة عمر فروخ، دار العلم للملايين - بيروت، لبنان.

77- فيليب حتي: العرب **تاريخ موجز**، دار العلم للملايين - بيروت، لبنان، 1991م.

78- القرطبـي، أبـو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري: **الجامع لأحكام القرآن**، دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان، 1405هـ=1985م.

79- القضاعـي، محمد بن سـلامة بـن جعفر أبو عبد اللـه: **مسـند الشهاب**، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الثانية - بيروت ، 1407هـ=1986م.

80- كارين أرمسـترونج: **سيرة النبي محمد**، ترجمة د. فاطمة نصر، د. محمد عناني، دار سـطور، الطبعة الثانية - القاهرة، مصر، 1997م.

81- كونستانس جيورجيو: **نظرة جديدة في سيرة رسول الله**، ترجمة محمد التونجي، الدار العربية للموسوعات - بيروت، لبنان، 1983م.

82- ل. أ. سيديو: **تاريخ العرب العام**، ترجمة عادل زعيتر، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الثانية - القاهرة، مصر، 1969م.

83- لامارتين: **تاريخ الأتراك**، باريس، 1854م.

84- لايتنر: **دين الإسلام**، ترجمة عبد الوهاب سليم، المكتبة السلفية، دمشق، سوريا، 1423هـ.

85- لبيب الرياشي: **نفسية الرسول العربي**، مطبعة الكشاف، الطبعة الأولى - بيروت، لبنان، 1935م.

86- لورافيشيا فاغليري: **دفاع عن الإسلام**، ترجمة منير بعلبكي، دار العلم للملايين - بيروت، لبنان، 1960م.

87- ليو تولستوي: **حكم النبي محمد**، دراسة وتقديم د. محمود النجيري، مكتبة النافذة، الطبعة الأولى - الجيزة، مصر، 2008م.

88- مارسيل بوازار: **إنسانية الإسلام**، ترجمة: عفيف دمشقية، دار الآداب - بيروت، 1980م.

89- الماوردي: **أعلام النبوة**، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى - بيروت، 1987م.

90- مايكل هارت: **الخالدون مائة أعظمهم محمد (ﷺ)**، ترجمة أنيس منصور، المكتب المصري الحديث، الطبعة السادسة - القاهرة، مصر، 1985م.

91- مايكل هاميلتون مورجان: **تاريخ ضائع**، نهضة مصر، الطبعة الثالثة - القاهرة 2008م.

92- مجلة الإدارة: عدد يوليو 2008م.

93- مجلة الدعوة: عدد ربيع الأول سنة 1397هـ=فبراير 1977م.

94- مجموعة من الباحثين: **الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة**، ترجمة محمد خلف الله، الطبعة الأولى - القاهرة، مصر، 1962م.

95- محمد أبو زهرة: **محاضرات في النصرانية**، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر.

96- محمد رجب البيومي: **النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين**، الدار الشامية للطباعة والنشر والتوزيع، 1995م.

97- مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري: **صحيح مسلم**، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

98- المناوي، محمد عبد الرءوف بن علي: **فيض القدير شرح الجامع الصغير**، المكتبة التجارية الكبرى، الطبعة الأولى - مصر، 1356هـ.

99- موريس كروزيه: **تاريخ الحضارات العام**، ترجمة يوسف داغر وأسعد داغر، منشورات عويدات، الطبعة الثانية - بيروت - باريس، 1986م.

100- مونتجمري وات: **الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر**، ترجمة د. عبد الرحمن الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، سلسلة الألف كتاب الثاني، 1998م.

101- مونتجمري وات: **فضل الإسلام على الحضارة الغربية**، ترجمة حسين أحمد أمين، مكتبة مدبولي، الطبعة الأولى - القاهرة، مصر، 1403 هـ=1983م.

102- مونتجمري وات: **محمد في المدينة**، ترجمة شعبان بركات، المكتبة العصرية - بيروت، لبنان.

103- مونتجمري وات: **محمد في مكة**، ترجمة د. عبد الرحمن الشيخ، حسين عيسى، مراجعة د. أحمد شلبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2002م.

104- نجيب العقيقي: **المستشرقون**، دار المعارف، الطبعة الخامسة - القاهرة، مصر.

105- النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب: **سنن النسائي الكبرى**، تحقيق عبد الغفار سليمان البنداري، وسيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى - بيروت، 1411هـ=1991م.

106- نصر الله عبد الرحمن أبو طالب: **تباشير الإنجيل والتوراة بالإسلام ورسوله محمد** (ﷺ)، دار الوفاء - المنصورة - القاهرة، الطبعة الأولى، 2000م.

107- نصري سلهب: **في خطى محمد**، دار الكتاب العربي - بيروت، لبنان، 1970م.

108- نصري سلهب: **لقاء المسيحية والإسلام**، دار الكتاب العربي - بيروت، لبنان، 1970م.

109- نظمي لوقا: **أنا والإسلام**، مكتبة غريب - القاهرة، مصر.

110- نظمي لوقا: **محمد الرسالة والرسول**، الشركة العربية، الطبعة الأولى - القاهرة، مصر، 1959م.

111- نظمي لوقا: **محمد في حياته الخاصة**، مكتبة غريب - القاهرة، مصر.

112- النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري: **المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج**، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثانية - بيروت، 1392هـ.

113- هـ. أ. ر. جب: **الاتجاهات الحديثة في الإسلام**، ترجمة كامل سليمان، دار الحياة 1954م.

114- هـ. أ. ر. جب: **المحمدية**، طبعة لندن، 1953 م.

115- هـ. أ. ر. جب: **دراسات في حضارة الإسلام**، تحرير ستانفورد شو، ووليم يولك، ترجمة إحسان عباس، محمد يوسف نجم، محمود زايد، دار العلم للملايين، الطبعة الثالثة - بيروت، لبنان، 1979م.

116- هربرت جورج ولز: **معالم تاريخ الإنسانية**، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، الهيئة المصرية العامة - القاهرة، مصر، 1967م.

117- هنري دي كاستري: **الإسلام خواطر وسوانح**، ترجمة أحمد فتحي زغلول، قدمه وعلق عليه د. محمود النجيري، مكتبة النافذة، الطبعة الأولى- الجيزة، مصر، 2008م.

118- هنري سيرويا: **فلسفة الفكر الإسلامي**، ترجمة محمد إبراهيم، سلسلة الثقافة الإسلامية - القاهرة، 1962م.

119- هنري ماسيه: **الإسلام**، منشورات عويدات - بيروت، لبنان، 1988م.

120- الهيثمي، نور الدين علي بن أبي بكر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، دار الفكر - بيروت، 1412هـ.

121- واشنطون إيرفنج: **حياة محمد**، ترجمة علي حسني الخربوطلي، دار المعارف - القاهرة، مصر.

122- ول ديورانت: **قصة الحضارة**، ترجمة مجموعة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، طبعة مكتبة الأسرة 2001م.

123- يوسف القرضاوي: **بينات الحل الإسلامي وشبهات العلمانيين والمتغربين**، مكتبة وهبة، الطبعة الثالثة - القاهرة، مصر، 2003م.

الفهارس

فهرس الآيات

فهرس الأحاديث

فهرس الأعلام

فهرس الأماكن

فهرس الغزوات

الفهرس

صـدر للمؤلـف

- وشهد شاهد من أهلها.
- رحماء بينهم.



هذا الكتاب

يتكلم فيه غير المسلمين، ممن عرفوا الإسلام وقرءوه ودرسوه.. بعضهم كان محايدًا وموضوعيًا ونزيهًا، وبعضهم الآخر رغم عداوته الشديدة للإسلام والمسلمين لم يملك إلا أن يعترف بعظمة الإسلام، أو بعظمة النبي ﷺ. أو بالأثر الزاهر للحضارة الإسلامية وإسهاماتها في الحضارات الإنسانية وفي التاريخ البشري.

وهذا الكتاب -الذي آثرنا ألا نتكلم فيه إلا نادرًا؛ لنُفسح المكان كاملاً لشهادات غير المسلمين- هو رسالة لجميع الناس؛ للمؤمنين ليزدادوا إيمانًا، وللمتردِّدينَ الذين لم ينتبهوا إلى أنهم من ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، ولغير المسلمين محاولةً منَّا أن نُنَبِّهَهم إلى ما لم ينتبهوا له، فإننا نحب الهداية لكل الناس، ونرى أن صلاح حالنا وحالهم وحال البشرية كلها في ذلك الإسلام.

والكتاب- بعدئذ- شهادة من التاريخ، وآية جديدة صدرت عن الآخَر-وأحيانًا الآخر العدو-تقول للناس: «إن الإسلام هو الحق» وصدق الله ﷻ:

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾.



الناشـــر





دار نهضة مصر للنشر

www.nahdetmisr.com